

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٥)

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات عقدية

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

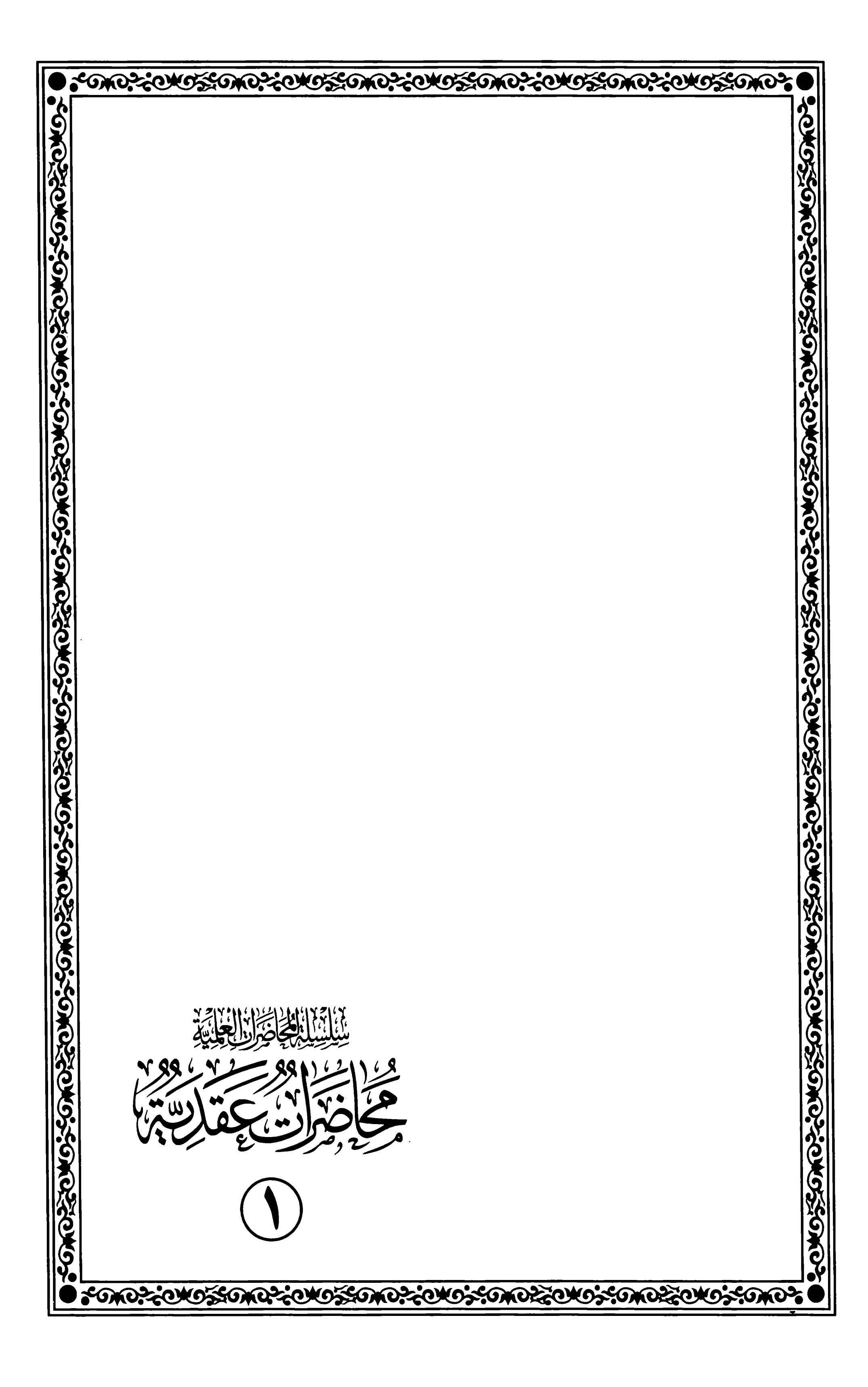
عادل بن محمد مرسي رفاعي

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول



مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع


سلسلة المحاضرات العلمية
محاضرات عقدية
١

ح عادل محمد مرسي رفاعي ، ١٤٣٥ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
آل الشيخ ، صالح عبد العزيز محمد
سلسلة المحاضرات العلمية لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
صالح عبد العزيز آل الشيخ ؛ عادل محمد مرسي رفاعي :-
الرياض ، ١٤٣٥هـ
٧ مج.
ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩٢٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)
١ - الاسلام مقالات ومحاضرات ٢ - الاسلام - مجموعات ا. رفاعي ، عادل محمد مرسي (محقق) ب. العنوان
ديوي ٢٥٢,٥٠٨ ١٤٣٥/٣٧٥٨
رقم الإيداع : ١٤٣٥/٣٧٥٨
ردمك : ٦-٤٩٢١-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
٣-٤٩٢٢-٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج١)

طبعة عام ١٤٣٦ هـ

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - حي سلطانة - شارع جنين - بجوار جامع شيخ الإسلام ابن تيمية
الإدارة والمبيعات جوال ٠٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ش الدريسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩
البريد الالكتروني: d.alhijaz@gmail.com

سلسلة شروحات ومؤلفات معالي الشيخ (١٥)

سلسلة المحاضرات العلمية

محاضرات عقدية

لمعالي الشيخ

صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته

تحقيق وعناية

عادل بن محمد مرسي رفاعي

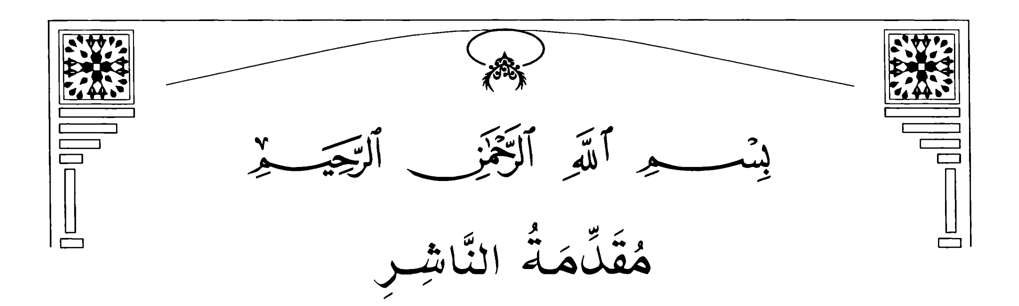
غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته ولمشايخه

الجزء الأول

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ

الحمد لله، والصلاة، والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداه، وبعد؛

فإن نعم الله ﷻ علينا كثيرة، ومتتابعة، ومن أعظمها رؤية العلماء الربانين، والأخذ عنهم، والاستفادة من سمتهم، ولقد منَّ الله ﷻ عليَّ بالمجيء إلى بلاد التوحيد في عام ١٤١٠هـ -حرسها الله-، وفي إجازة نصف العام أكرمني الله ﷻ في مكة - شرفها الله - برؤية العالم الحبر الجليل، سليل بيت العلم والشرف، خريج المدرسة السلفية بأعلامها، كالأئمة الأربعة، والبخاري، ومسلم، والسفيانين، والليث بن سعد، والأوزاعي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، والمجدد الشيخ محمد ابن عبدالوهاب - رحم الله الجميع، وأجزل لهم المثوبة -، حفيد مفتي الديار السعودية شيخي الجليل العلامة: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي آل مشرف التميمي -جزاه الله خيرًا، ورفع درجاته في عليين-.

كان اللقاء بمكة المكرمة؛ إذ قابلت الشيخ - حفظه الله - مع بعض الزملاء على العشاء في جلسة علمية قوية، انبهر فيها الحاضرون من شمولية علم الشيخ، وبصيرته النافذة، ودقة إجاباته لما طُرح عليه في هذا اللقاء

المبارك النافع، وكان عمر الشيخ في ذلك الوقت ٣١ عامًا، حيث أنه - حفظه الله، وبارك في عمره، وعمله، وعلمه - مولود في ٢٧/ ٦/ ١٣٧٩هـ.

وزادت المنَّة من الله ﷻ بأن كان جلوسي بجوار الشيخ - يحفظه الله - أثناء الجلسة، فسألته عن رقم هاتفه، ولما رجعنا إلى الرياض بحثت عن مسجد الشيخ، وكان يومئذٍ بالعليا في جامع الراوي، وبدأنا نحضر ونسمع منه - حفظه الله -، واستفدت فائدة كبيرة منه، ومنذ هذه اللحظة إلى يومنا هذا، وأنا ألازم الشيخ، وبدأت أسجل لفضيلته دروسه، وشروحاته، ومحاضراته حتى زادت على الألف وخمسمائة شريط أحتفظ بها لعرصات يوم القيامة، وكنت المسجل الوحيد لها، وهذا من فضل الله ﷻ، وقمت بتفريغها والعناية بهاعلى نفقة الشيخ الخاصة، وأثناء ذلك خالطت الشيخ - حفظه الله -، فرأيت العجب العجاب من سعة علم وبصيرة، إلى تواضع، ورحمة بالمدعو، والمتعلم، إلى كرم وعطاء، فكان لا يرد سائلًا مهما كان وفي أي وقت كان، فإذا سُئل أجاب، وإذا طُلب منه أعطى، ناهيك عن صبره على طلابه، وتلطفه بهم، ونفعهم، وإلى تأدبه مع مشايخه - كما دونت كل ذلك في سيرته التي كتبت منها جزءًا كبيرًا - وكنت كلما قابلته - حفظه الله - ازددت خجلًا لما أراه من حسن معاملته لي، وتواضعه معي.

ومع مرور الأيام ونحن في عام ١٤٣٤هـ أحببت أن أخرج محاضرات الشيخ - وفقه الله - بعد أن منَّ الله علينا بإخراج كتب معاليه، والتي بلغت ثلاثة عَشَرَ كتابًا، تعد نهضة علمية، وثروة ضخمة لطلاب العلم؛ لما فيها من التأصيل والتقعيد، والفقه في دين الله ﷻ. وقد قمت بإعداد فتاوى

الشيخ، والتى أشار معاليه تواضعًا منه بتسميتها - وإشارته أمر - (**الأجوبة والبحوث والمدارسات المشتملة عليها الدروس العلمية**)، ومعها اللقاءات العامة والخاصة لمعالي الشيخ - وفقه الله -، وقد بلغت ثمانية مجلدات، وهي تحت الطبع الأن -عجل الله بظهورها، ونفع الأمة بها-.

وقد قمت بترتيب مجموع محاضرات الشيخ - حفظه الله -، وقسمتها إلى عدة أقسام كالآتى: محاضرات عقدية، ومحاضرات في السير والتراجم، ومحاضرات في التفسير وأصوله، ومحاضرات فقهية، ومحاضرات في العلم وآداب العالم والمتعلم، ومحاضرات منهجية، ومحاضرات سياسية واجتماعية، وأما اللقاءات داخل وخارج منزل الشيخ - وفقه الله - فقد وضعتها في الفتاوى.

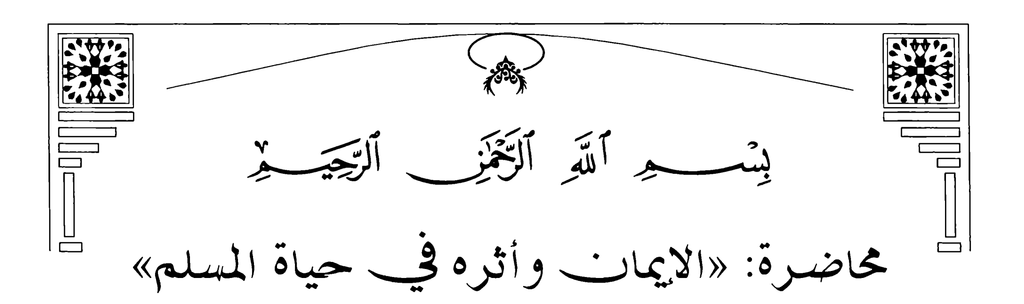
فأسأل الله ﷻ أن يجزي شيخي/ **صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ** المثوبة والمغفرة، وأن يجعله إمام هدى ورشاد، وأن يعز به ويصلح، كما أسأله ﷻ أن يقيه شر الحاسدين، وأن يغفر له، ولوالديه، ولذريته، ولأهل بيته، وأن يجعل لي من الخير نصيبًا، وأن يعينني على إخراج شروحاته الباقية وتقريراته، وسيرته قبل الممات، إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وصلى الله وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

✎ كتبه

عادل بن محمد مرسي رفاعي

الرياض ١٤٣١/٨/١٦هـ



محاضرة: «الايمان وأثره في حياة المسلم»

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ [الكهف: ١].
﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

أحمد ربي خير حمد، وأوفاه على ما أولانا إياه من النعم الظاهرة، والباطنة، وأعظمها، وأجلها نعمة إنزال القرآن، وبعثة محمد ﷺ.

فالحمد له كثيرًا كما أنعم كثيرًا، ونسأله ﷻ المزيد من فضله، ونعمه، والثبات على دينه، ونصرة الحق، والدعوة إليه، إنه ﷻ جواد كريم، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد؛

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني، وإياكم ممن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهذه الثلاث - كما قال إمام هذه الدعوة، الإمام محمد ابن عبد الوهاب رحمه الله - عنوان السعادة، من إذا أعطي شكر باعتقاده، وقلبه، وبلسانه وبعمله، ومن إذا ابتلي صبر، صبر على مصائب الله على النقص، وصبر على البلاء، ومن إذا أذنب استغفر، وكلنا لا يخلو من ذنب، فهذه الثلاث عنوان السعادة؛ لدلالاتها على إيمان صاحبها، وأنه منيب إلى ربه، قريب منه ﷻ، وتقدست أسمائه.

ثم إني أشكر لأخي الكريم، إمام المسجد، ولجماعة من أعيان جماعة هذا المسجد، دعوني إلى هذه المحاضرة، والكلمة في هذا الموضوع المهم فأسأله ﷻ أن يجزيهم خيرًا؛ حيث أعانوني، وإياكم على الخير، والدعوة إلى الله ﷻ يسعى بها الصغير، والكبير، وكلٌّ له أجره بحسب عمله، والله ﷻ يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة؛ كما صح عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةً: صَانِعَهُ، وَالْمُمِدَّ بِهِ، وَالرَّامِيَ بِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(١)، فكل هؤلاء يدخلون الجنة، والله ﷻ يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، أسأله ﷻ للجميع الثواب ممن أعان، أو حضر، أو اجتمع، أو رغب في الخير، وأن يجعل ذلك في موازين أعمال الجميع، وأن يبارك لنا في قليل أعمالنا.

موضوع هذه المحاضرة: الإيمان وأثره في حياة المسلم.

الإيمان: هو الدين وربنا ﷻ في كتابه ذكر الإيمان في مواضع كثيرة جدًا من جهة تعريفه؛ كقوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وكقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، ومن جهة أنه منَّ الله ﷻ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥١٣)، وابن ماجه (٢٨١١)، والدارمي (٢٤٤٩)، والنسائي في الصغرى (٣١٤٦، ٣٥٧٨)، وفي الكبرى (٤٣٣٩، ٤٤٠٤)، وأحمد (٢٨/ ٥٣٢، ٥٥٨، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٦٢٠)، وابن خزيمة (٤/ ١١٣)، والحاكم (٢/ ١٠٤)، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٥، ٢٢٩، ٥/ ٣٠٣).

به على رسوله محمد ﷺ، الذي هو خليله المصطفى، ونبيه المجتبى ﷺ، فقال ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]، فالكتاب نور في قلوب أهله، وكذلك الإيمان نور في قلوب أهله، وكذلك ذكر الله ﷻ في كتابه الإيمان تعريفًا بجزاء أهله في الدنيا، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، وكذلك جزاء أهله في الآخرة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٧]، وكقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]، فالإيمان والقرآن دلالة أحدهما على الآخر متلازمة، فالقرآن فيه الإيمان، ولا إيمان إلا بالقرآن؛ لهذا مصدر أخذ الإيمان، والتعرف على ما به نؤمن، وأثر الإيمان في حياة المؤمن، في الفرد، وفي حياة المجتمع هذا إنما يؤخذ من النص من الكتاب، ومن السنة؛ لأنهما المصدر الذي لايلتبس معه من طلب الحق.

الإيمان من الدين؛ لأن الدين، دين الإسلام، جعله النبي ﷺ ثلاث مراتب؛ كما في حديث جِبْرِيل ﵇ الْمَشْهُورِ عَنْ عُمَرَ ﵁، قَالَ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ**» يعني: لا هو عليه أثر السفر، يقال: قدم من بعيد ولا يعرفه أحد من أهل المدينة، فيقال: هو من أهل المدينة، وكان كثيرًا ما يأتي في صورة دحية الكلبي(١)

(١) دحية بن خليفة بن فروة الكلبي من كبار الصحابة لم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها =

- يعني جبريل عليه السلام -، فجاءه يسأل النبي ﷺ، فقال له: «يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...» إلى آخر الحديث، في آخره قال ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1]، فدل هذا على أن الدين هو الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ ولهذا كان من الأصول الثلاثة، التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها: معرفة العبد دينه؛ لأن الأصول الثلاثة: معرفة العبد ربه، ومعرفة العبد دينه، ومعرف العبد نبيه ﷺ. والدين يشمل هذه الثلاث مراتب التي منها الإيمان[2].

= من المشاهد، وشهد اليرموك، وبقي إلى خلافة معاوية رضي الله عنه، وحدث بأحاديث عن رسول الله ﷺ. انظر: الاستيعاب (١/ ١٣٧)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥٥٠). وقد روى البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) «أنّ جِبْرِيل أتى النَّبِيّ ﷺ وعِنْدهُ أُمُّ سلمة فجعل يتحدّثُ، فقال النّبِيُّ ﷺ لِأُمِّ سلمة منْ هذا؟ أوْ كما قال قالتْ: هذا دِحْيَةُ. فلمّا قام قالتْ: واللّهِ ما حسِبْتُهُ إِلّا إِياهُ حتّى سَمِعْتُ خُطْبة النّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خبر جِبْرِيل». وعند مسلم (١٦٧) بلفظ: «ورأيْتُ جِبْرِيل عليه السلام فإذا أقْربُ منْ رأيْتُ بِهِ شبهًا دحْيةُ».

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) انظر: رسالة (ثلاثة الأصول) ضمن مجموع مؤلفات الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (١/ ١٨٧).

إذا تبين ذلك فما الفرق ما بين الإسلام، والإيمان؟

الإسلام والإيمان كما رأيت في الحديث: أن الإسلام علق بالعمل الظاهر، والإيمان علق بالإيمان، والتصديق الباطن؛ لهذا جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده» أنه ﷺ قال: «**الإِسْلامُ عَلانِيَةٌ، وَالإِيمَانُ فِي الْقَلْبِ**»(١)، يعني: أن الإسلام يدل عليه الأعمال الظاهرة، وأما حقيقة الإيمان فيدل عليها تصديق القلب، وفي الأصل أنه لا إسلام إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بإسلام، فكما أن المسلم لا يسمى مسلمًا، حتى يصدق بالله ﷻ، ويوحد، ويؤمن بالملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، فكذلك الإيمان، وهو التصديق بأركان الإيمان الستة -التي ستأتي- لا يكون المرء مؤمنًا، حتى يكون معه قدر من الإسلام يصح معه إيمانه، وهو الشهادتان؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله باتفاق أهل العلم، وإقام الصلاة، الإتيان بركن الصلاة، في قول جمهور أهل العلم.

إذا كان كذلك، فإن حقيقة الإيمان هي الإيمان بأركان الإيمان الستة،

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٥٧)، وأبو يعلى في مسنده (٥/ ٣٠١). وقال محققه حسين أسد: إسناده حسن. ا. هـ. وفي إسناده علي بن مسعدة الباهلي، قال فيه البخاري: فيه نظر. وقال ابن عدي: أحاديثه غير محفوظة. وقال أبو حاتم: لا بأس به. وقال ابن معين: صالح. ووثقه الطيالسي. وقال الذهبي: فيه ضعف. وقال ابن حجر: صدوق له أوهام.
انظر في ترجمته: التاريخ الكبير (٦/ ٢٩٤)، والضعفاء للعقيلي (٣/ ٢٥٠)، والكامل لابن عدي (٥/ ١٨٥٠)، والكاشف للذهبي (٢/ ٤٧).

التي جاءت في هذا الحديث: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وهذه الأركان الستة جاءت في القرآن في آيات كثيرة، منها الآيات التي ذكرتها؛ كقوله ﷻ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وكقوله في القدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فالإيمان بهذه الأركان الستة لا يستقيم إسلام أحد حتى يؤمن بالله، حتى يؤمن بالملائكة، حتى يؤمن بالكتب، حتى يؤمن بالرسل، حتى يؤمن باليوم الآخر، حتى يؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فما معنى الإيمان بهذه الأشياء، حتى نعرف أثر الإيمان على حياة المسلم، وعلى حياة المجتمع المسلم، ما معنى الإيمان بهذه الأركان الستة؟

الإيمان بالله الذي هو أعظمها، هو التصديق الجازم الذي لا ريب معه، ويتبعه عمل فيما فيه عمل، ونطق فيما فيه نطق بأن الله ﷻ واحد في ربوبيته، واحد في إلهيته، واحد في أسمائه، وصفاته.

واحد في ربوبيته، يعني: أنه سبحانه وتعالى هو رب هذا الملكوت على عِظَمه، لا يصرفه، ولا يدبره إلا هو سبحانه وتعالى، إلا من أمره سبحانه وتعالى بذلك، يعني: من الملائكة، فالله ﷻ واحد في ربوبيته، يعني: أنه لا شريك له في تدبير هذا الملكوت، وهذا التوحيد الذي هو توحيد الربوبية، الإيمان بربوبية الله ﷻ وأنه هو وحده مدبر الأمر، هذا أمر مركوز في فِطر أكثر الخلق، بل مركوز في فطر جميع الخلق؛ ولهذا نبينا ﷺ احتج به على المشركين لما أنكروا توحيد الإلهية، وعبادة الله وحده ﷻ، قال له ﷻ يعني: لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، هذه الأمور من الربوبية، يعني: من الذي يدبر؟ من الذي يحيي؟ من الذي يميت؟ من الذي يتصرف في هذا الملكوت؟

قال المشركون: الله، ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾، ﴿فَقُلْ﴾ - والْحَظْ الفاء هنا ترتيبية، التي ترتب القول على جوابهم -: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١]، أي: أتعتقدون هذا الاعتقاد بأن الله هو الذي يدبر وحده، فلاتتقون الشرك بالله ﷻ، فلا تتقون عبادة غير الله ﷻ، فلاتتقون، فتصدقون بما جاء به محمد، الذي هو مرسل من عند الله ﷻ؛ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ﴾ [يونس: ٣٢]

الإيمان بالله ﷻ أول مراتبه: الإيمان بربوبية الله ﷻ، الإيمان بأنه هو مالك الملك، هو الذي يُصرِّف القلوب، هو الذي يحيي، هو الذي يميت، هو الذي يشفي الأمراض، هو الذي يعطي من يشاء، ويفتح رحمته على من يشاء بلا حساب؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، هو الذي يَمَسُّ بالضر، ويمس بالخير؛ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال ﷻ - في الآية الأخرى -: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، هذا الاعتقاد، وهذا الإيمان بربوبية الله ﷻ الاعتقاد الحق، وأنه ﷻ هو الذي يملك أرزاق العباد، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يصرف السماوات، ويُصرف الأرضين، ويصرف قلوب العباد، هذا إذا قام في قلب المؤمن يَقِينًا، وكلما قوي في قلب العبد، كلما

كان توكله على الله ﷻ أعظم، وكان رغبه في الله ﷻ أعظم؛ لهذا العبد إذا نظر إلى الدنيا، وركن إلى أسباب الدنيا، وركن إلى الخلق يؤتى من قبل فعله، والله ﷻ يسلب العبد توفيقه، ويسلب العبد إعانته، إذا التفت إلى غيره، وخاصة إذا كان يعرف ربه ﷻ؛ فلهذا الإيمان بالربوبية بهذه المعاني تجعل العبد يعتمد على الله ﷻ وحده، تجعله في داخله يعلم أن الله ﷻ هو وليه، وهو ناصره، وهو الذي ييسر أمره، فإذا احتاج إليه عبد من العباد في أمر، في علاج، أو في واسطة، أو في أي أمر من الأمور، يحتاج إليه ظاهرًا لكن قلبه متوكل على الله، قلبه مطمئن بالله، فهذا الفرق ما بين شخص وشخص، ما بين إنسان وإنسان في فعل الأسباب الظاهرة، هذا يفعل السبب وهذا يفعل السبب، لكن هذا يفعل السبب مع الركون إليه، ومع النظر إليه، وأنه يرى أنه فعل؛ كقول الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ - أي: المال - ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وآخر مؤمن بالله ﷻ، يعلم أنه مطلوب منه أن يفعل الأسباب، لكن قلبه متعلق بمسبب الأسباب، بالذي يجعل السبب نافعًا، بالذي يعطف قلوب الخلق على فلان، أو يجعل يده صائبة، فمثلًا: هذا الطبيب عاجز في نفسه عن أن يملك لنفسه نفعًا، أو ضرًا.

قُلْ لِلطَّبِيبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى   يَا شَافِي الْأَمْرَاضِ مَنْ أَرْدَاكَ

إذا نظر إلى فعله فإن هذا سبب من الأسباب، لكن من الذي يُيسر للطبيبِ الفهم؟ من الذي يقوي تركيزه؟ من الذي يسدده؟ رب العالمين؛ لهذا عِظم التوكل على الله ﷻ، وتفويض الأمر إليه بعد فعل السبب هو حقيقة الإيمان بتوحيد الربوبية، حقيقة الإيمان بأن الله واحد في تصرفه في ملكوته: ﴿وَإِن

يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧]، يقول علماء البلاغة والنحو: هذا حصر: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا أحد يكشف، فإذا ما فعل الناس هذا فعلهم أسباب، كذلك احتجت من أحد شيئًا، من الذي يصرف قلبه، يحدث عنده القناعة في عقله أن ييسر لك أمرك، أن يتبنى هذا الموضوع؟ إنما هو رب العالمين، إن شاء فتح، وإن شاء أمسك: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢] الإيمان بهذا التوحيد بأن الله واحد في ربوبيته معه راحة العبد، فلو كادته السماوات والأرض، جعل الله له من بينها مخرجًا، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧-١٨]؛ إذًا: هذا الإيمان، هذا أثر الإيمان بربوبية الله ﷻ، لكن هنا سؤال، وهو أن العبد المؤمن يعلم أن الله ﷻ هو ربه، لكن كثير منا ما يحس بأثر هذا الإيمان، أو ما يحس بقوة هذا الإيمان ويقين العبد منه، فيقول: أنا أريد أن أكون قويًا في إيماني، قويًا في معرفتي أفراد ربوبية الله ﷻ، فكيف يكون ذلك؟ ما السبيل إلى تقوية الإيمان؟

الجواب: السبيل هوالتفكر، وخاصة في هذا الزمن؛ لأن الدنيا بملذاتها بمالها، بجاهها، بالانشغال اليومي من الصباح إلى أن ينام العبد، في أمور كثيرة تُفْقِد العبد أن يتأمل، وأن يتدبر في تصرفات الرب ﷻ، وتدبيره لهذا الملكوت، وعجائب خلقه، وبديع صنعه، فما السبيل إلى تقوية الإيمان بربوبية الله ﷻ؟ أن تتفكر، والله ﷻ أمر عباده بالتفكر، وهذه عباده عظيمة.

قالت أم الدرداء عن أبى الدرداء رضي الله عنه لما سئلت عن عبادته، «**أَيُّ عِبَادَةِ**

أبي الدَّرْدَاءِ كَانَتْ أَكْثَرَ؟ قَالَتْ: التَّفَكُّرُ، وَالِاعْتِبَارُ»[١]. النبي ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها - في حديث بدء الوحي المعروف في أول البخاري، وغيره -: **«أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاء فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ؛ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ....»**[٢] إلى آخر الحديث.

(حبب إليه التحنث والتعبد) ليس معناه: أنه يظل طول الأيام، والليالي التي يمكث فيها في غار حراء ﷺ، يمكث قائمًا، أو راكعًا، أو ساجدًا. ما بعد فرضت الصلوات، ولا كان أتاه وحي بذلك ﷺ، لكن كان يتأمل في ملكوت الله ﷻ، وينظر إلى عظم حق الله ﷻ. إذا كان الله سبحانه وتعالى هو المتفرد في هذا الملكوت، هذا له أثر على النفس والقلب في قوة اليقين بالله ﷻ.

فإذًا: مما يعظم به يقينك أن تتفكر، الناس تركوا التفكر؛ لأن المدينة فيها أنوار، وصخب، وذهاب، ومجيء، وسفر، وعودة، لكن التفكر عبادة عظيمة، فبم يتفكر؟ يتفكر - أولًا - في خلق السموات والأرض، قال ﷻ في وصف خاصة عباده: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ينظر المرء إلى السماء، هل هذا صُنْعها سهل، خَلْقها سهل؟ ينظر إلى الأرض، وما فيها من عجائب، هل هذا سهل؟ السحاب المسخر بين السماء والأرض، تقسيم

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٨٥٠)، وابن المبارك في الزهد (٢٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٠٨)، وابن عساكر (٤٧/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأرزاق، هذا الجمال في هذا الملكوت هل هو سهل؟ إنما يعجب منه المتفكرون؛ ولهذا بعض الناس ينتبه إلى شيء من الأشياء مما يراه، قد ما يتفكر في الملكوت، قد ما يتفكر في السماء، لكن يعجبه مظاهر الجمال، الله ﷻ جميل يحب الجمال، وخلق الجمال؛ لأنه هو الجميل، فكل جمال يراه العبد هو من آثار جماله ﷻ في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وفي أفعاله؛ كما قال ابن القيم رحمه الله في نونيته[١]:

وَهْوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيفَ لاَ ... وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأكْوَانِ

مِنْ بَعضِ آثَارِ الجَمِيلِ فَرَبُّهَا ... أَوْلَى وأجدَرُ عِنْدَ ذِي العِرفَانِ

فَجمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأوصَافِ وَالـ ... أفعَالِ وَالْأَسْمَاءِ بِالبُرهَانِ

العاقل يعلم أن هذا الجمال الذي تراه، في الخلق، في المناظر الطبيعية، في ما تراه في تنوع ما في البحر، في تنوع الطير، هذا الجمال فيما تراه، والتناسق الذي يتنافس المتنافسون أن يقربوا من الطبيعة، كما يقولون في علم الجمال، لكن أنّى لهم ذلك، هذا إنما هو صنع الله ﷻ وتقدست أسمائه، هذا يفتح لك باب التفكير في أن الله ﷻ هو الأحق بذلك، فيعظم في العبد الإيمان الحق بربوبية الله ﷻ؛ إذًا: فسبيل تقوية الإيمان بتوحيد الربوبية، الإيمان بربوبية الله ﷻ وتصرفه في هذا الملكوت أن تتأمل، والله ﷻ قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٢١٤).

عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥-١٠٦].

فإذًا: التأمل في الآيات، التأمل في خلق الله ﷻ يُحدث يقينًا أن الله ﷻ هو المدبر وحده، وإذا كان كذلك فإن العبد لا يكون في قلبه إلا الرب ﷻ، ويتعامل تعاملًا ظاهريًا في الدنيا، لكن في قلبه ربه ﷻ، ينطق بكلماته، ويفعل له ﷻ، ويتوجه إليه، ولا يرضى إلا بمتابعة أمره ﷻ، وهذا يحدث للعبد الأُنس بالله ﷻ والتلذذ بطاعة الرب ﷻ، هذا القسم الأول من الإيمان.

فالإيمان بالله الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان: إيمان بأن الله ﷻ واحد في ألوهيته، يعني: واحد في استحقاقه العبادة، فلا أحد يستحق العبادة إلا هو ﷻ، فعبادة غير الله باطلة؛ لأنه ما عبد غير الله إلا بالظلم والبغي والطغيان من العباد، لم يُعبد أحد من دون الله بحق؛ لهذا قال ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]، الآية الأخرى قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، ما معنى ذلك؟

معناه: أن لا نعبد إلا الله ﷻ، فيكون - إذًا - التوجه لأي مخلوق، سواء كان ملكًا، أو نبيًا، أو وليًا، أو جنيًا، أو صالحًا، أو طالحًا، أو شجرًا، أو حجرًا، التوجه له بالعبادة سواء، ما فيه فرق بين أن يعبد الإنسان ملكًا أو يعبد حجرًا؛ لأن المقصود هو عبادة الله وحده، فمن صرف العبادة لغير الله ﷻ من ملك، أو نبي، أو ولي، أو شجر، أو حجر، فهو مشرك لم يوحد الله ﷻ توحيد العبادة.

فإذًا: من عبد غير الله توجه إلى الجن بالذبح، والاستجارة، والاستعاذة مثل: ما قد يحصل عند بعض الناس أنهم إذا أرادوا أن ينزلوا منزلًا، يأتي أمام البيت، ويذبح، ويريق الدم، لماذا؟ خوفًا من الجن، أو إذا صبوا عتبة الدار، أو صبوا القواعد، أو نحو ذلك، أتاهم مقاول، أو إلى آخره، قال: اذبحوا عليها. هذا شرك بالله ﷻ؛ لأنه تقرب إلى الجن بأن لا يؤذوا صاحب هذا البيت، ولا يصيب هذا البيت ضرر، هذا من اعتقادات أهل الجاهلية، عبادة غير الله، عبادة الأموات، التوجه للأولياء في قبورهم بالدعاء يدعونهم من دون الله، أو يستغيثون بهم، أو يستشفعون بهم، كل هذا من أصناف الإشراك، ومن فعله فلم يؤمن بالله ﷻ في ألوهيته؛ لأن معنى الإيمان بالألوهية: أن يعتقد العبد أنه لا أحد يستحق العبادة إلا الله وحده دون ما سواه.

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ونبينا محمد ﷺ قال لأبي طالب: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**»[(١)]، فأبى أن يقول، وقال ﷺ للمشركين: «**هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمُ الْعَرَبَ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ بِالْخَرَاجِ؟**»، قَالَ أبو جَهْلٍ: نَعَمْ وَأَبِيكَ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَمَا هِيَ؟ قَالَ: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، فَأَبَوْا وَاشْمَأَزُّوا»[(٢)]، وقال لهم

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤) من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٤٨١)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٦٧)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠١).

- كما في أول سورة هود -: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود: ٢]، عبادة الله وحده هذا من أجله بعثت الرسل، هذا أعظم الأمر، لكن كيف يعبد الله ﷻ وحده من كان يعبد غيره؟! لايمكن.

فإذًا: الإيمان ركنه الأول، الإيمان بالله، الإيمان بالله لابد معه أن يكون العبد موحدًا في إلهية الرب ﷻ، وهذا يدلك على بطلان عبادة غيره ﷻ.

لهذا ما معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؟

معناها: لا معبود بحق إلا الله.

كيف لا معبود بحق؟ يعني: أن يعتقد العبد، وينطق، ويشهد، ويعلن للناس أن من عَبَدَ غير الله فلم يعبده بحق، إنما عبده بباطل، والله ﷻ هو الحق وحده سبحانه وتعالى، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

الإيمان بتوحيد الإلهية يجعل القلب لا يتوجه إلا إلى الله ﷻ.

عبادات القلب كثيرة:

فالرجاء عبادة، المحبة عبادة، الخوف، خوف السِر، الاستغاثة، التوكل، الاستغاثة التي هي تعلق القلب، التوكل على الله ﷻ وحده، هذه كلها عبادات لا تصلح إلا لله ﷻ.

كذلك العمل الظاهر، مثل: الدعاء، ومثل: الصلاة، ومثل: الطواف، ومثل: الذبح، ومثل: النذر، هذه كلها لا تصلح إلا لله ﷻ.

من كان في قلبه غير الله خُذِلَ، من توجه إلى غير الله خذل في نفسه، وفي

مجتمعه؛ ولهذا ربنا ﷻ جعل أعظم ما وصف به عباده المؤمنين، إذا مكنهم في الأرض، أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: ٤١]، (أمروا بالمعروف)، ما هو أعلى المعروف؟ التوحيد، (ونهوا عن المنكر)، ما أقبح، وأرذل، وأبشع المنكر؟ الشرك بالله ﷻ، فمدح الله عباده أنه إذا مكنهم في الأرض، فإنهم يأمرون بتوحيده، وينهون عن الشرك به ﷻ؛ فإذًا: من مكنه الله في الأرض، ولم يأمر بتوحيده، ولم ينه عن الشرك به ﷻ، فإنه لم يؤمن بالله ﷻ حقًا، ولم يشكر الله ﷻ على نعمة التمكين.

الثالث من أركان الإيمان بالله: الإيمان بأن الله واحد في أسمائه، وصفاته، (واحد في أسمائه، وصفاته) يعني: أن الله ﷻ لا مثل له، ولا ند في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] هو ﷻ الرب الذي له الاتصاف بكمال الربوبية، وهو ﷻ الملك الذي له الاتصاف بكمال الملك، سمى الله بعض عباده مَلِكًا، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ [يوسف: ٤٣]، ونحو ذلك، سمى الله بعض عباده مَلِكًا، لكن الملك ليس كالملك؛ فإذًا: الله ﷻ في اتصافه بالصفات، وفي ما سمى به نفسه من الأسماء الحسنى، هذا إيماننا بأنه لا ند له في ذلك، ولا مثل، ولا مشابه على وجه الكمال له ﷻ في ذلك؛ ولهذا قال العلماء: الإيمان بتوحيد الأسماء، والصفات معناه: أن يثبت لله ﷻ ما أثبت لنفسه من الأسماء، والصفات من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل على قاعدة: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ . هنا تنتبه إلى أن الله ﷻ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

لماذا خص هذين الاسمين بالذكر (السميع البصير) بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

لأن صفة السمع والبصر مشتركة بين أكثر المخلوقات، بين كل المخلوقات الحية، التي حياتها بالروح؛ لأن الحياة، حياة المخلوقات، قسمان:

١ - منها ما حياتها بالنماء.

٢ - ومنها ما حياتها بالنفس بحلول النفس فيها.

السمع والبصر مشترك؛ لأن البعوضة لها سمع، ولها بصر، النملة لها سمع، ولها بصر؛ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٨ - ١٩]، لها إحساس، لها سمع، لها بصر، كذلك الطير له سمع وبصر - أكبر من النملة في الحجم -، كذلك الذي أكبر منه من الحيوانات له سمع وبصر، الإنسان له سمع وله بصر، لكن في هذه جميعًا - على اختلاف طبقاتها، وأنواعها - هل السمع واحد؟ هل البصر واحد؟ ليس كذلك، فسمع الإنسان ليس كسمع الحيوان، بصر الإنسان ليس كبصر الحيوان، سمع البعوضة ليس كسمع الإنسان، وهكذا، وإن اشتركوا في أصل الصفة، في أصل وجود السمع، وفي أصل وجود البصر، لكن سعة الصفة، وقوة الصفة، السمع والبصر، مختلف؛ لهذا نبه الله ﷻ على عدم مماثلة أحد له ﷻ بصفتي السمع،

والبصر ؛ لأنه ﷻ هو السميع البصير ، وكثير من مخلوقاته سميع بصير ، لكن السمع ليس كالسمع ، والبصر ليس كالبصر ؛ فإذًا : إثباتنا للأسماء الحسنى ، والصفات العلى إثبات لها على ظاهرها بما دلت عليه ، لكن مع قطع الطمع في إدراك الكيفيات ، ومع اليقين بأن الله ﷻ لا مماثل له ﷻ ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ، هناك من تأول الصفات يأتي (للرحمة) يقول : لا ، الله ﷻ ليس برحيم ، كقول بعض أهل البدع من الاشاعرة وغيرهم والمعتزلة ، يقول : لا ، الله ﷻ ما يطلق عليه صفة الرحمة ، لماذا؟ قال : الرحمة انكسار في القلب ، وضعف ، والله ﷻ أعظم من أن يكون كذلك ، لماذا عَرَّفتم الرحمة بأنها انكسار في القلب؟

عرفتموها بالنظر إلى المخلوق ، فأضفتم إلى الله ما نظرتموه في المخلوق ، هذا باطل ، الرحمة صفة عامة ، لك أن تقول : الرحمة في الإنسان انكسار في القلب ، وعطف في الإنسان ، لكن الله ﷻ رحمته ﷻ وسعت كل شيء ، رحمته ﷻ كما يليق بجلال ذاته ، وعظيم سلطانه ؛ فإذًا : إثبات الصفات لله ﷻ إثبات وجود ، وإثبات معنى ، ونؤمن بها على قاعدة ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

إذا تبين ذلك ما أثر الإيمان بأسماء الله وصفاته على حياة العبد؟

بعض الناس يعرض لهذه المسائل ، خاصة في بعض الدراسات الجامعية ، أو في المدارس يعرضونها على أنها مباحث عقلية ؛ الأسماء والصفات ، ونثبت ، وننفي ، وقال المؤولة . . . إلى آخره ، وهذا ليس بجيد ، الإيمان بالأسماء والصفات به يحصل في القلب العمل ، يحصل في القلب اليقين ،

وعن اليقين ينتج العمل به ومراقبة الله ﷻ، فمن آمن بأن الله ﷻ هو سبحانه وتعالى الجليل، هو الملك، هو مدبر الأمر، هو الذي يجير، ولا يجار عليه، من الأسماء والصفات، هو سبحانه وتعالى الجبار، هو القهار، هذه الأسماء لا شك أنه إذا آمن بها العبد، ورأى أثرها في الملكوت، وفي أحوال الناس، يعظم تعلقه بربه، وتعظم ذلته لله ﷻ.

كذلك أسماء الجمال، أن الله ﷻ هو الغفور، هو الودود، هو الرحيم، هو الرؤوف، هو الجميل ﷻ، هو النور، ونحو ذلك من الأسماء، والصفات ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٥ - ٢٦] هذه الصفات، صفات الجمال، تبعث في قلب العبد محبة الرب ﷻ، والتعرض لفضله إذا أذنب العبد، ثم تأتي صفات أُخر لله ﷻ إذا أيقن بها العبد، وآمن إيمانًا حقًا، فإنه يعظم إجلاله لربه، وتعظم مراقبته لله ﷻ، صفات، وأسماء المراقبة أن الله ﷻ هو الرقيب، هو الحفيظ، هو السميع، هو البصير، من أثر هذه الصفات قال ﷻ لعباده: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، وقال ﷻ - في الآية الأخرى آية سورة النساء -: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١٠٧ - ١١٠].

حتى في مجادلتك عن من اختان نفسه لا تجادل، ادع له بالهدى، ادع له بالمغفرة، لكن التبرير والمجادلات هذا من عدم مراقبة الله ﷻ، فكيف بفعل المعصية؟ كيف بالمداومة عليها؟ العبد الصالح يُعظم الذنب، لا يتساهل بذنب من الذنوب؛ ولهذا قال طائفة من أهل العلم: (لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت). لا تقل: هذا أمر سهل، هذا بسيط. . . إلى آخره، تتجمع المعصية، والشيطان يأتيك تدرجًا شيئًا فشيئًا، حتى يوقعك في الأمور الكثيرة، ناس تخلفوا شيئًا فشيئًا عن الصلاة، يتأخرون، ويفوتون فرضًا. . . إلى آخره، ثم بعد ذلك صاروا ما يصلون في المسجد، ثم صاروا يفوتون الصلاة عن الوقت إلى الوقت الآخر، يجمع ثم بعد ذلك يفوت صلاة إلى آخره، كذلك في مسائل المحرمات في المال، كذلك في مسائل المحرمات في النظر، شيئًا فشيئًا يتساهل بالنظر، ثم يتساهل بالخلوة، ثم يتساهل بلين الكلام في الهاتف، أو غيره، ثم يتساهل في اللقاء، ثم تقع المصائب، ولكن من راقب الله ﷻ، وعلم أنه سبحانه وتعالى مُطَّلع على قلب كل عبد، وقوله، وعند لسانه؛ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، خاف؛ فإذًا: الإيمان له ثمرة عظيمة في حياتنا، في حياة العبد، في الاستقامة على دين الله، والخوف منه ﷻ، والإقبال عليه ﷻ.

لهذا تأمل ذكر الصفات بعد الآيات، أكثر الآيات في القرآن، يأتي بعدها ذكر أسماء لله ﷻ، وذكر صفاته ﷻ، مثلًا في الآيات التي

ذكرنا: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، مناسبة مجيء هذه الأسماء والصفات بعد موضوع الآية هذا يحتاج منك إلى تأمل، وإذا تأملته، وتدبرته، فإنه يفتح على القلب أنواع من الأنس بالله، واليقين، والعمل الصالح.

هذا ملخص لأركان الإيمان بالله ﷻ الثلاثة:

١ - إيمان بربوبيته سبحانه وتعالى.

٢ - الإيمان بإلهيته.

٣ - الإيمان بأسمائه، وصفاته ﷻ وتقدست أسمائه.

الركن الثاني من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة؛ لأن أركان الإيمان الستة: أن تؤمن بالله، وملائكته...

الملائكة هنا لماذا جعلهم الله ﷻ في الإيمان بعد الإيمان به؟

لأنهم الملأ الأعلى؛ ولأنهم هم أهل السماوات الذين عمروها بالعبادة قال ﷻ في ذكر الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقال ﷻ - أيضًا في وصف الملائكة -: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٩]، أي: الملائكة يختصمون في أفضل الأعمال،

يختصمون في الكفارات[١] . . . إلى آخره.

الملائكة خلق من خلق الله، خلقهم من نور، صفاتهم مختلفة، حياتهم مختلفة، طبيعتهم مختلفة؛ جاء في الحديث الصحيح أنه ﷺ قال: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**»[٢].

الإيمان بالملائكة، ركن الإيمان، ما معناه؟

أن يؤمن العبد بأن الله ﷻ خلق خلقًا جعلهم لعبادته في السماء هم الملائكة، هذا القدر هو الركن، يؤمن بالغيب، يؤمن بوجود الملائكة، فمن أنكر قال: لا، والله الملائكة لا أعرف هل هم موجودون، أم ليسوا بموجودين؟ هذا كفر، إلا إذا كان لِتَوِّه أسلم، ومثله يجهل، فإنه يُعرف بذلك.

وهناك قدر زائد على ذلك، وهو الإيمان التفصيلي بالملائكة، وهو أن كل ملك أخبر الله ﷻ عنه في القرآن، أو أخبر عنه نبينا ﷺ في السنة، فإنه يجب

---

(١) كما في حديث اختصام الملأ الأعلى، أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٤٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٧٥)، والطبراني في الكبير (٢١٦، ٢٩٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. وقال الترمذي عقبه: (هذا حديث حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل يعني البخاري عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال: هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم، يعني: حديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي. قال الترمذي: وعبد الرحمن بن عائش لم يسمع من النبي ﷺ)، ولابن رجب رحمه الله رسالة في شرحه اسمها: (اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى) ا.هـ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الإيمان به؛ لأن التصديق بالقرآن واجب، والغيب لا طريق إلى العلم به إلا من الله ﷻ أو من رسوله ﷺ، نُص في القرآن على جبريل، على ميكائيل، ونص على ملك الموت، وفي السنة على إسرافيل، ونُص على عدد من الملائكة، ملك الموت يسميه العامة عزرائيل، وهذه التسمية لم تثبت في السنة، وإنما هي من أخبار بني إسرائيل، والذي جاء في القرآن، وفي السنة أنه ملك الموت(١).

هؤلاء الملائكة خلقهم الله ﷻ لعبادته، وجعلهم مطهرين من الذنوب، ولم يجرِ عليهم التكليف، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، التسبيح في الملائكة مثل النفس عند بني آدم، الإنسان يمشي، ويذهب، ويجيء، وهو يتنفس، لا يقطعه العمل عن التنفس، الملائكة يسبحون الليل، والنهار لا يفترون، وهم في أعمالهم، أعمال الملائكة متنوعة. جعل الله ﷻ سادات الملائكة ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وهؤلاء الثلاثة موكلون بثلاثة أمور عظيمة(٢):

الأول: جبريل، فوكله الله ﷻ بالوحي، قد يقول قائل: كيف تقول

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١/ ٤٧).
قال الحافظ ابن حجر في الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص١٠٨): (وأن تسمية ملك الموت عزرائيل فقد اشتهر ذلك بين الناس، وقد راجعت مبهمات القرآن لأبي القاسم السهيلي فلم أجد ذلك فيه، ثم راجعت تفسير القرطبي فوجدته ذكر أن اسم ملك الموت عزرائيل، ولم ينسبه لقائل، ولا ذكر فيه أثرًا، ثم راجعت تفسير الثعلبي فوجدته حكى أن اسمه عزرائيل، وعزاه لتفسير مقاتل وتفسير ابن الكلبي). ا.هـ.
(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٠٦١)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٧٠٠، ٧٠١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص٨٦، ٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما =

وكله، الله ﷻ يوكل؟ هذا لأجل قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

فالملائكة موكلون بأفعال، موكلون لا لحاجة الموكِّل ﷻ، ولكن لتشريف الموكَّل في أن يعبد الله ﷻ، وأن يمتثل أمره ﷻ.

جبريل عليه السلام مناط به أن يسمع الوحي من الله ﷻ، فينزل به على من شاء من عباده من رسل الله ﷻ، وأنبيائه، فجبريل عليه السلام أمين الوحي: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ١٠٢]، روح القدس جبريل عليه السلام هو الذي ينزل بالوحي: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٣]، أي: جبريل عليه السلام.

الثاني: ميكائيل عليه السلام جعل الله ﷻ له القَطْر، وتوزيع الأمطار، والسحاب، ونحو ذلك، وإنبات النبات، فميكائيل عليه السلام جعل الله ﷻ له أن يمتثل أوامره، وهو مسخر في أمر القَطْر، والسحاب، وأمر الإنبات بما شاء الله ﷻ.

الثالث: إسرافيل موكل بالنفخ في الصور إذا أراد الله ﷻ ذلك؛ ليُصعق

= أن النبي ﷺ قال: «. . . فمنْ هذا يا جِبْرِيلُ؟ قال هذا إِسْرافِيلُ خلقهُ اللّهُ يوْم خلقهُ بين يديْهِ صافًّا قدميْهِ لا يرْفعُ طرْفهُ، بيْنهُ وبيْن الرّبِّ سبْعُون نُورًا، ما مِنْها مِنْ نُورٍ يكادُ يدْنُو مِنْهُ إِلّا احْترق، بين يديْهِ لوْحٌ، فإِذا أذِن اللّهُ ﷻ في شيْءٍ في السّماءِ أوْ فِي الأرْضِ، ارْتفع ذلك اللّوْحُ فضرب جبْهتهُ، فينْظُرُ فإِنْ كان مِنْ عملِي أمرنِي بِهِ، وإِنْ كان مِنْ عملِ مِيكائِيل أمرهُ بِهِ، وإِنْ كان مِنْ عملِ ملكِ الْموْتِ أمرهُ بِهِ، فقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ وعلى أيِّ شيْءٍ أنْت؟ قال: على الرِّيحِ والْجُنُودِ. قُلْتُ: على أيِّ شيْءٍ مِيكائِيلُ؟ قال: على النّباتِ والْقطْرِ. قُلْتُ: على أيِّ شيْءٍ ملكُ الْموْتِ؟ قال: على قبْضِ الأنْفُسِ، وما ظننْتُ أنّهُ نزل إِلّا لقِيامِ السّاعةِ، وما الّذِي رأيْت مِنِّي إِلّا خوْفًا مِنْ قِيامِ السّاعةِ».

الناس، ثم يبعثوا إلى يوم القيامة.

وقف بعض العلماء عند هذا وقفة: ما مناسبة أن هؤلاء الثلاثة؛ جبرائيل، ميكائيل، إسرافيل، يكونون سادات الملائكة، أو هم رؤوس الملائكة؟

قالوا: لأن هذه الثلاث مهمات بينها مناسبة:

أما الأول: وهو جبريل عليه السلام فموكل بالوحي، والوحي به حياة القلوب، وتعلقها بربها عز وجل، وهذه أعظم حياة، أن تحيا القلوب، ولا حياة للقلوب إلا بالوحي، تأمل قوله عز وجل - في سورة الحديد -: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾ [الحديد: ١٦]، لما ذكر هذه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، قال - في الآية بعدها -: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧]، (اعلموا) بعد ذكر التنزيل لماذا؟ يحيي الأرض بعد موتها، الأرض هنا يعني القلوب، القلب يحييه الله عز وجل بالوحي؛ فإذًا: جبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب؛ وأما ميكائيل، فهو موكل بالماء، وبالنبات الذي به حياة الأبدان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي فيه إعادة الحياة ليوم الفزع الأكبر، فكلهم موكلون بنوع من أنواع الحياة. الملائكة لهم مهمات كثيرة، ملك الموت معه أعوان كثر، هذا جاء في القرآن، فهو يفعل، وكذلك رسله تقبض من أمر الله عز وجل بقبض روحه، وانتهى أجله، قال عز وجل: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، هذا في ذكر ملك الموت وحده، وفي ذكر الملائكة، يعني: رسل ملك الموت، قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١ - ٦٢] منهم من هو موكَّل بابن آدم في حفظ بني آدم، كل إنسان معه أربعة ملائكة لحفظه، ويسمون الحفظة، وهم الذين ذكرهم الله - في سورة الرعد - في قوله: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الرعد: ١١] يحفظونه من أمر الله، حفظهم له بأمر الله، ويحفظونه من أمر الله[(١)].

هنا وقف ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره هنا، وقال: يحفظونه من أمر الله يعني ماذا؟ قالوا: يحفظونه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. ما معنى هذا؟ الأعراض في الجو كثيرة، والمصائب كثيرة، والأشياء كثيرة، لو يترك الإنسان وكل ما في الجو، أصابت الجميع، لكن الله عز وجل جعل للإنسان حفظة يحفظونه، فإذا قدر الله على العبد ما قدر، فإنهم يخلون ما بين

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٠، ٣١١): (وفي المعقبات قولان:
أحدهما: أنها الملائكة، رواه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال مجاهد والحسن وقتادة في آخرين، قال الزجاج: والمعنى للإنسان ملائكة يعتقبون يأتي بعضهم بعقب بعض، وقال أكثر المفسرين: هم الحفظة اثنان بالنهار، واثنان بالليل، إذا مضى فريق خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر، وقال قوم منهم ابن زيد هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ عزم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس على قتله، فمنعه الله منهما وأنزل هذه الآية.
والقول الثاني: أن المعقبات حراس الملوك الذين يتعاقبون الحرس، وهذا مروي عن ابن عباس وعكرمة، وقال الضحاك: هم السلاطين المشركون المحترسون من الله تعالى). ا. هـ.
وانظر: تفسير الطبري (١٣/ ١١٤- ١١٦)، والدر المنثور للسيوطي (٤/ ٦١٣).

الإنسان، وبين ما قدره الله ﷻ عليه، هؤلاء حفظة، هناك الكتبة: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢] إلى آخر أصناف الملائكة منهم حملة العرش الذين خصهم الله ﷻ بهذا الشرف، والقرب منه سبحانه وتعالى.

الإيمان بالملائكة ما أثره على العبد المؤمن؟ الناس يتفاوتون في الإيمان بقدر تفاوتهم في أجزائه، الإيمان بالملائكة ما له أثر في حياتنا، لا، له أثر عظيم:

أولًا: الملائكة يحبونك، فأيضًا أحبهم، كيف يحبون العبد؟

قال الله ﷻ في وصف الملائكة: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٧-٩] ملائكة السماء يدعون للمؤمن، وقال ﷻ - في الآية الأخرى -: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، أي: لأهل الإيمان، فالمؤمن يحب الملائكة، ملائكة الرحمن ﷻ، ويكرمهم بما يأنسون له، وهم يأنسون لماذا؟ يأنسون للعمل الصالح، هم لا يفارقون العبد، الكتبة الحفظة، ويستغفرون للذين آمنوا، يحبون عباد الله المؤمنين، فالعبد يحب ملائكة الرحمن ﷻ ويوقرهم - أيضًا -؛ ولهذا قال بعض السلف: استحيوا ممن لا يفارقكم - المؤمن مايؤمن بالأشياء الظاهرية، لا، هناك غيب عظيم يؤمن به، من معك ممن لا تراه من ملائكة الله ﷻ - ممن لا ترونهم ممن يصاحبكم، وأنتم لا ترونه.

هذا الاستحياء - أيضًا - من ثمرات الإيمان بالملائكة، من ثمرات الإيمان بالملائكة أن يعلم العبد أن الملائكة بريئون من إشراك من أشرك، الآن يأتي سحرة وكهنة يظهرون كرامات، يظهرون شيئًا من علم الغيب، وهو من الجن ومن الشيطان جاءتهم به، فإذا قيل له، قال: لا، هذا ملك، الملك يخبرني، الملك بريء أن يتجاوز أمر الله ﷻ، الملك ما يوحي للعبد، الملك ما يخبر الإنسان بالمغيبات إلا أن يكون رسولًا، قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] أي: يرسل له ملك؛ إذًا: الإيمان بالملك يَعْلَم العبد به أن من نسب إلى الملك ما يضاد الشرع، فإنه مخطئ يجب التبرؤ منه؛ حماية، وولاية، ونصرة لملائكة الرحمن ﷻ، تكذبه، وترد عليه: كيف ملك يعينك على باطل، ملك يخبرك بالمغيبات؟! وهذه كلها من جراء الكهنة، والسحرة، الإيمان بالملائكة به تعلم بطلان عبادة من عبد غير الله ﷻ.

المشركون، مشركو العرب، ما عبدوا غير الله ﷻ بلا شبهة، لا، لهم شبهة، يقولون: هنا الأرواح الخيرة، يعني: الملائكة تحل عند روح هذا العبد الصالح المقبور، أو عند الصنم المصور على صورة النبي، أو على صورة العبد الصالح، تحل عنده الأرواح الخيرة، يعني: الملائكة فيسألونهم، يقولون: في الحقيقة نسأل الملك الحاضر، نسأل هذه الروح الخيرة؛ لترفع إلى الله ﷻ حاجاتنا؛ لهذا ربنا ﷻ أبطل هذا الادعاء بقوله - في سورة سبأ - ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، أي: هل كانوا يدعونكم؟ وأنتم الأرواح التي كنتم تسمعونهم؟ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١]،

أي: تنزيهًا لك وتعظيمًا، وإجلالًا أن يكونوا عبدونا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤١].

الركن الثالث من أركان الإيمان: الإيمان بالكتب؛ نؤمن بكل كتاب أنزله الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ﴾ [الشورى: ١٥]، فالعبد يؤمن أن الله ﷻ أنزل كتبًا على عبيده على رسله، وخصهم بذلك، كتب الله ﷻ مختلفة في موضوعاتها، مختلفة في ترتيبها، مختلفة في هيئتها، والله ﷻ يختص من شاء من عباده بما شاء من كلامه ﷻ، أنزل الله ﷻ التوراة على موسى ﵇، والإنجيل على عيسى ﵇، والزبور على داود ﵇، فنؤمن بذلك على وجه الإجمال، وعلى وجه التفصيل، ونؤمن - أيضًا - بهذا الكتاب الخاتم الذي هو القرآن.

ما معنى الإيمان بالقرآن؟

الإيمان بالقرآن: تعلم أن الله ﷻ أنزله على عبده، وأنه خاتم الكتب، وأن اتباعه واجب، وأن كل هدى إنما هو فيه، وأن الله ﷻ جعل فيه الشريعة، التي يجب أن تحكم الناس إلى قيام الساعة.

وحقيقة الإيمان بالقرآن: أن يؤمن العبد بأنه كلام الله ﷻ، وأثر ذلك أن يحتفى به، الناس يحتفون بكلام العظماء من البشر، كلام من يُقَدِّرون من البشر، فكيف بكلام الجليل ﷻ كلام الرب؟ كلام من؟ كلام الله ﷻ الذي له هذا الملك، وإليه المآب، وهو الذي يحاسب العباد، هذا كلام الله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧-٦٨]، ما هو هذا النبأ؟ هو القرآن: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣] النبأ العظيم هو القرآن نبأ لكنه عظيم، عظيم بكل ما تحمله هذه الكلمة من

معنى؛ فإذًا: من آثار الإيمان بأنه كلام الله ﷻ أن يحتفل العبد به، يحتفل يعني: يحتفي به، يعني: يتعلق به تلاوة، يتعلق به عملًا، يتعلق به درسًا، لا يهجر القرآن، نبينا ﷺ شكا إلى ربه ﷻ هجر المشركين للقرآن بعدم اتباعه فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] هجروه من جهة الاتباع، هجروا التصديق بخبره، وهجروا العمل بأوامره ونواهيه؛ فإذًا: إيمانك بالقرآن يوجب عليك أن تعظم القرآن في نفسك وأن تجله؛ لأنه كلام الله ﷻ، ومن إجلالك له أن تحفظه في مكان موقر، مكان معظم، في منزلك، ما يجعل القرآن كأي كتاب، تراه على الطاولة، وتراه على الأرض، وتراه مع الأطفال - أيضًا -، يعلم الأطفال، يعلم النساء، يعلم الكبير والصغير تعظيم القرآن، كلام الله ﷻ كتابه يجعل كأي كتاب تجده بين الكتب، تجد فوقه أوراق تحته أوراق، هذا من عدم تعظيمه، فالواجب على العباد أن يعظموا شعائر الله، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]، من آثار الإيمان بالقرآن العظيم أن يعمل العبد بهذا القرآن؛ القرآن ما أنزل ليتخذ مزامير، ما أنزل ليتلذذ بالأصوات، نتلذذ بصوت القارئ، لا، أنزل ليتدبر ثم يعمل به، القرآن أنزل للتدبر، قال ﷻ - في بيان علة إنزال القرآن في سورة ص -: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَٰرَكٌ﴾، أي: فيه الخير الكثير في الدنيا والآخرة. لماذا أنزله؟ قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] فأنزل الله ﷻ القرآن لغايتين:

الأولى: أن يتدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]

القرآن تحرك به القلوب، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ**»(١) حتى قلبك حركه بالقرآن، كرر الآيات، حرك نفسك، الإيمان ينتج من القرآن: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، لا إيمان إلا بالقرآن، ما يمكن يعظم الإيمان في القلب إلا بالتوجه لهذا القرآن العظيم تلذذًا بسماعه، وعملًا بما جاء فيه من الأوامر، والنواهي، وتصديق خبره، واعتقاد ما أخبر الله ﷻ به في كتابه؛ إذًا: حق القرآن علينا عظيم، من حق القرآن على الناس، وهذا من ثمرات الإيمان، بل من أعظم ثمرات الإيمان أن لا نتقدم بين يدي القرآن، ما نعارض القرآن بالعقل، الإنسان يعارض القرآن بعقله، والله أنا أرى كذا. الله ﷻ يقول في القرآن كذا، وأنت تقول: أرى. هذا حكم الله ﷻ، كذلك إذا حكم الله ﷻ علينا بحكم نرضاه مطمئنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أي: في القرآن، (ورسوله) يعني: في سنته: ﴿أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، حتى الحرج ما يكون في صدرك، ما يكون في صدرك ضيق، ولا حرج من القرآن.

ثمرات الإيمان بالقرآن عظيمة؛ فإذًا: من ثمراته في حياتك - أيها المسلم - أن تحل حلاله، وأن تحرم حرامه، أن تقرأ القرآن، وتعمل به،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٤٠٦)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٦، ٦/ ١٤١).

وهذا فيه رفعة لك، يؤتى يوم القيامة بأهل القرآن الذين يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة، وآل عمران، يقول ﷺ: «**اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ، الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**»(١)، يأتي القرآن صاحب القبر، يقول من أنت؟ فيكون القرآن يسره؛ لأنه أشغل نفسه به.

القرآن هو مصدر التلقي مع السنة، ما نتلقى بعقولنا، ولا نتلقى بآرائنا، ولا نحكم الهوى على كتاب الله ﷻ.

الركن الرابع الإيمان بالرسل: أن نؤمن بكل رسول أرسله الله ﷻ، الرسل غير الأنبياء، كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

من هو الرسول؟ ومن هو النبي؟

الرسول: من أوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه إلى قوم مخالفين.

والنبي: من أوحي إليه، وأمر بتبليغه إلى قوم موافقين، أو لم يؤمر بالتبليغ. هذا الفرق بين الرسول، والنبي(٢).

فنؤمن بكل رسول، لا نفرق بين أحد من رسله. والرسل أولهم نوح عليه السلام،

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «النبوات» (ص٢٨١): (فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به، فإن أُرْسِل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالةً من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يُرْسلْ هو إلى أحدٍ يبلغه عن الله رسالةً فهو نبي وليس برسول). ا.هـ.
وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٩٤)، وتفسير القرطبي (٧/ ٢٩٨).

وأخرهم محمد ﷺ، أيدهم الله ﷻ بالآيات، والبراهين.

آدم عليه السلام هل هو رسول؟ لا، آدم نبي؛ لأن الله كلمه؛ كما قال ﷺ: «**آدَمُ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ**»[1]، وأوحى إليه، لكن ليس برسول، أول الرسل نوح عليه السلام[2]. الرسل دينهم واحد، لكن الشرائع مختلفة، ما الفرق بين الدين، والشريعة؟ الدين واحد، يعني: التوحيد. كلهم دينهم الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥] ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، فكل رسول دينه الإسلام.

ما الإسلام؟ **الإسلام وَهُوَ الْاِسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْاِنْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ** - بحسب ما جاء به الرسول -، **وَالْخُلُوصُ مِنْ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**.

هذا الإسلام الذي جاء به كل نبي، كذلك اشتركوا في دين واحد، في الإيمان بهذه الأركان الستة؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، هذا القدر مشترك بين الرسل، الرسل ما بينهم فرق في الإسلام، في التوحيد، في العمل بطاعة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٧٨)، والبخاري في تاريخه (١/ ٢٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٦٥)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٧٦)، والبزار في مسنده (٩/ ٤٢٦، ٤٢٧)، والطيالسي في مسنده (ص٦٥)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: «... **فيأْتُون نُوحًا، فيقُولُون: يا نُوحُ أنت أوّلُ الرُّسُلِ إلى أهْلِ الأرض، وسمّاك الله عبْدًا شكُورًا، أما ترى إلى ما نحْنُ فيه ؟...**».

الله، في البراءة من الشرك وأهله والكفر بالطاغوت، ما بينهم فرق في هذا، الدين واحد، قال ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: الشرائع مختلفة. في الحديث الصحيح «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»(١)، الدين واحد يعني: مثل الأب واحد، والشرائع مثل الأمهات المختلفة، الشرائع شتى، لكن الدين واحد، الذي هو الإسلام، وهو تشبيه بليغ منه ﷺ، نؤمن بكل رسول نعلم به، جاء واحد الآن يقول اليهود: نتبع موسى عليه السلام. في الواقع ما يتبعون موسى، النصارى: نتبع عيسى، نحن أتباع عيسى. في الواقع ما يتبعون عيسى عليه السلام، وليسوا أولياء لموسى عليه السلام ولا لعيسى عليه السلام، لماذا؟ لأن موسى الذي يتبعونه ليس هو موسى عليه السلام الذي ذكر الله ﷻ خبره، هم صوروا صورة لموسى عليه السلام في أذهانهم، وفي أوامره ،وفي نواهيه، موسى عليه السلام لم يأمر باتخاذ العزير ولدًا، ولم يأمر بأن يتخذ العجل، ولم يأمر بهذا الشرائع المحرفة، ولم يأمر بما حرفوا به التوراة؛ فإذًا: موسى عليه السلام الذي ارتضوا قوله هو غير موسى عليه السلام الذي أرسله الله ﷻ؛ لهذا نبينا ﷺ يقول: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»(٢) يأتي واحد يسأل: إذًا: الذين يحبون موسى عليه السلام، ويحبون عيسى عليه السلام معه؟

الجواب: والذين أحبوا عليًّا رضي الله عنه من الرافضة، وغيرهم هل هم يكونون معه؟ لا؛ لأنهم ما أحبوا موسى عليه السلام على صفاته، وعلى ما جاء به، وإنما أحبوا رجلًا، بحسب ما عندهم من الأهواء والصفات، موسى عليه السلام ما يرتضي هذه الأفعال، كذلك الذي أحب عيسى عليه السلام، عيسى عليه السلام لا يرتضي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠).

بأن يكون ابنًا لله ﷻ، لا يرتضي أن يكون صلب؛ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

«**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**» أي: مع من أحب حقيقة، مثل: الرافضة، والشيعة، وغيرهم أحبوا عليًّا رضي الله عنه، لكن هل أحبوا عليًّا على صفاته؟ لا، أحبوا عليًّا، الذي صفاته عندهم في أذهانهم، علي الذي يتبرأ من أبى بكر، علي الذي يتبرأ من عمر، علي الذي يتبرأ من عثمان، علي الذي يقول: أنا أحق بالخلافة. هذا ليس علي بن أبى طالب، هذا عليّ آخر في أدمغتهم، كذلك موسى عليه السلام موسى آخر في أدمغتهم، كذلك عيسى عليه السلام عيسى آخر في أدمغتهم؛ فإذًا: من أحق بموسى وعيسى؟ ومن أحق بالرسل؟ الذين لا يفرقون بين أحد من رسله؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ما نفرق، كلهم دينهم واحد، الشرائع مختلفة، فمن قال: إن رسولًا جاء بعبادة غير الله، أو رسولًا جاء بأن يقال: فلان ابن الله ﷻ، أو إنه هو ابن لله، أو عزير بن الله، أو عيسى بن الله ﷻ، فليس هو رسول الله ﷻ؛ وإنما هو شيء أحدثوه، وانتخبوه في أذهانهم.

إذًا، من الأولى بالرسل؟ أهل الإيمان؛ لهذا قال ﷺ - في قصة صوم عاشوراء -: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ**»[1] موسى نحن أولى به؛ لأنه إذا صام موسى شكرًا يوم عاشوراء، ونحن نصومه شكرًا، قال: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى**

(١) أخرجه البخاري (٣٩٤٣)، ومسلم (١١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «**لمّا قدِم النّبِيُّ ﷺ المدِينة وجد اليهُود يصُومُون عاشُوراء، فسُئِلُوا عنْ ذلِك، فقالُوا: هذا اليوْمُ الّذِي أظْفر اللّهُ فِيهِ مُوسى، وبنِي إِسْرائِيل على فِرْعوْن، ونحْنُ نصُومُهُ تعْظِيمًا لهُ، فقال رسُولُ اللّهِ ﷺ: نحْنُ أوْلى بِمُوسى مِنْكُمْ، ثُمّ أمر بِصوْمِهِ**».

مِنْكُمْ»؛ لأنه نحن أحق بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالمؤمنون، أهل الإسلام، يختلفون عن اليهود، وعن النصارى، وعن أصحاب الملل، نحن نؤمن بكل رسول بما جاء به من عند الله؛ أما هم فلا يؤمنون بكل رسول، اليهود ما يؤمنون بعيسى، والنصارى ما يؤمنون بمحمد ﷺ إلى آخره؛ أما أهل الإسلام، فيؤمنون بجميع رسل الله ﷻ، وشعارهم: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾، وشعارهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

الإيمان بالرسل له ثمرات كثيرة يضيق المقام -الآن- عن ذكرها، لكن خاصة الإيمان بالرسل، الإيمان بمحمد ﷺ، الإيمان بمحمد ﷺ مقتضاه أن يصدق فيما أخبر، وأن يطاع فيما أمر، وأن يجتنب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع. وهذه الأربع دليلها آيتان من كتاب الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ إذًا: محبة النبي ﷺ في طاعته.

قوم ادعوا محبته، لكن جاء الاتباع، هل اتبعتموه؟ نحب النبي ﷺ، طيب، افعلوا كفعله ما يفعلون، جاءوا أقاموا احتفالات، وبدعًا، وموالد، واحتفالات إسراء ومعراج، الاسراء والمعراج ما يعلمه النبي ﷺ؟ يعلمه المولد مولده ما يعلمه ﷺ؟، لماذا لم يفعله ﷺ؟ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ هل فعل، أو لم يفعل؟ إذا فعل نفعل، إذا ما فعل ما نفعل؛ لأن هذا الدين توقيف، والله ﷻ يقول: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، الدين كامل ما فيه نقص؛

حتى يأتي واحد ويزيد أشياء ويقول: هي من الخير. إذًا: فحقيقة الإيمان بالنبي ﷺ الطاعة، والانتهاء عن معاصيه، عن ما نهى عنه ﷺ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع، وأن يصدق ما أخبر به ﷺ من الإيمان به ﷺ، أن يكون هو مصدر التلقي، يعني: مصدر التلقي عندنا الكتاب والسنة، الذي يعارض السنة بعقله، واحد يجيء يقول: والله هذا الحديث ما هو معقول، كيف يكون كذا؟

لو كان النبي ﷺ أمامه، وقال له هذا الكلام قال: هذا ما هو بمعقول، كيف يكون حكمه؟.

يكون أمره عظيمًا، وسنة النبي ﷺ إذا صحت، وكانت دلالتها قطعية وجب الإيمان بها، ما يجوز لأحد أن يعترض عليها بعقله، وبرأيه.

بقي ركنان من أركان الإيمان؛ وهو الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، نرجئها - إن شاء الله - إلى محاضرة أخرى، لعله يكون أحد المشايخ يكمل هذين خشية الإطالة عليكم.

نختم بأن لهذه الأشياء التي ذكرنا آثار للإيمان في حياة الفرد، لكن المجتمع ما أثر الإيمان عليه، المؤمنون يشكلون مجتمع أهل الإيمان، مجتمع المسلمين، دولة الإسلام، بلدنا، ممن؟ من المسلمين، من المؤمنين، فالإيمان له أثر على الجميع، الله ﷻ جعل أعظم آثاره، أعظم آثار الإيمان على العباد أن يجعل حياتهم طيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [النحل: ٩٧]، أي: الرجال والنساء، يعني: المجتمع: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]،

وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]، لاحظ الإيمان «واتقوا» خافوا اليوم الآخر؛ ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، إيمان المجتمع أن يحقق هذه الأشياء، يحقق التوحيد، ويدل الناس عليه، وينصره وينصر أهله، وكذلك يحقق الحكم بشريعة الإسلام، فالواجب في مجتمع أهل الإسلام في دولة الإسلام أن يحقق هذين الأصلين:

وهو توحيد الله ﷻ، الذي هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ثم تحكيم شريعة محمد ﷺ، الذي هو معنى وأشهد أن محمدًا رسول الله، فكلما زاد الإيمان، وزاد اليقين بأركان الإيمان، كلما كانت قوة المجتمع، وقوة الدولة، وقوة الناس في تحقيق هذا قوية، وإذا ضعف الإيمان ضعفت هذه الأمور، ويخشى المرء أن تصيبه الدوائر، ولكن من توكل على الله ﷻ كفاه.

قال النبي ﷺ بدأ الإسلام غريبًا، بدأ بأشخاص، الدعاة بدءوا بأشخاص في أزمنة كثيرة في هذه البلاد المباركة، دعوة الإمام المصلح الشيخ محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأها والناس كلهم يعارضونه، حتى هيأ الله له الإمام الصالح الأمير محمد بن سعود - رحمهم الله تعالى جميعًا -، فنصر دعوته، وكتب الله ﷻ هذا الخير العظيم، الذي ترونه في هذه البلاد من آثار الأيمان، ما هو من آثار عمل الناس، ولا من آثار جهد شخص، ولا من آثار فعل فاعل؛ إنما هو فضل من الله ﷻ، وله أسباب أن العباد أيقنوا بما عند الله ﷻ وجاهدوا في سبيل الله حقًّا، وحققوا التوحيد، وحكموا بشريعة الله ﷻ.

والله ﷻ ليس بينه وبين عباده نسب، فالفضل لله ﷻ وحده: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، من الذي ألف بين القلوب؟ الله ﷻ بنعمته ليس بنعمة غيره. من الذي أنعم؟ ربنا ﷻ، ويقول ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٦].

من الذي آوى؟ رب العالمين: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فهذا فضل الله ﷻ، وهو من ثمار عمل عباد الله ﷻ، وأعظم من عمل في تحقيق هذا الأمر الولاة من الأئمة، والملوك في هذه البلاد في تحقيق شرع الله ﷻ بحسب ما استطاعوا من ذلك، فهذا به تقوى البلاد، وبه يقوى المجتمع، والناس إذا ضعف الإيمان المجتمع كله يضعف إيمانه، تتسلط الدنيا، إذا تسلطت الدنيا تفرقوا، وصار بينهم الشحناء، وصار بينهم البغضاء، لا يأتلفون بعد ذلك على مبدأ، لا يأتلفون على ولاية، إنما يتفرقون، فأساس الاجتماع هو الإيمان، وأساس الافتراق هو الاختلاف في الدين، والتفرق عن حبل الله ﷻ؛ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وحبل الله: هو الدين هو القرآن هو السنة.

الأمن الذي تراه هل هو من ثمار أجهزة الأمن؟

ليس كذلك، هم فعلوا سببًا، لكن هذا السبب نفع الله ﷻ به، والذي أعطى الأمن هو رب العالمين؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، أمنٌ في الدنيا، وأمنٌ في الآخرة.

قال ﷺ: «**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ**»، يعني: أمر الدين، «**حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»(١).

تركب البعير، أو تركب دابة إلى مكة لأشهر طويلة، ولا تجد أحدًا يعترضها، هذا ممن؟ من تمام هذا الأمر؛ «**وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ**»؛ إذًا: فالدعوة إلى الإيمان، والدعوة إلى الله ﷻ، وحث الناس على الخير، وأن العباد يترابطون، ويقوون في الله ﷻ، هذا ثمرته ليس على المرء بنفسه فقط؛ وإنما ثمرته على المجتمع، ومن واجبات الولاية، ومن واجبات الناس أن يتعاونوا على البر والتقوى؛ كما قال ﷻ: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ**﴾ [المائدة: ٢].

أسأل الله ﷻ أن يجعلني، وإياكم من المؤمنين به حقًا، ومن المصدقين بما أنزل المتعبدين له ذلًا، ورقًا، إنه سبحانه وتعالى جواد كريم، كما أسأل المولى ﷻ أن يوفق ولاة أمورنا إلى كل خير، وأن يجزيهم خيرًا على ما قدموا، وأن يوفقهم، ويدلهم على الرشاد، وأن يباعد بينهم، وبين سبل أهل الغي، والفساد، إنه سبحانه وتعالى كريم جواد، كما أسأل المولى ﷻ أن يوفق علماءنا إلى كل خير، وأن يقويهم في العلم والعمل، وأن يغفر لنا جميعًا، وأن يغفر لآبائنا، وأمهاتنا، وأن يغفر لذرارينا، وأن يجعلنا وإياكم ممن لقيه وهو عنهم راض، اللهم آمين.

نسألك اللهم بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى، وأنت تعلم ضعفنا،

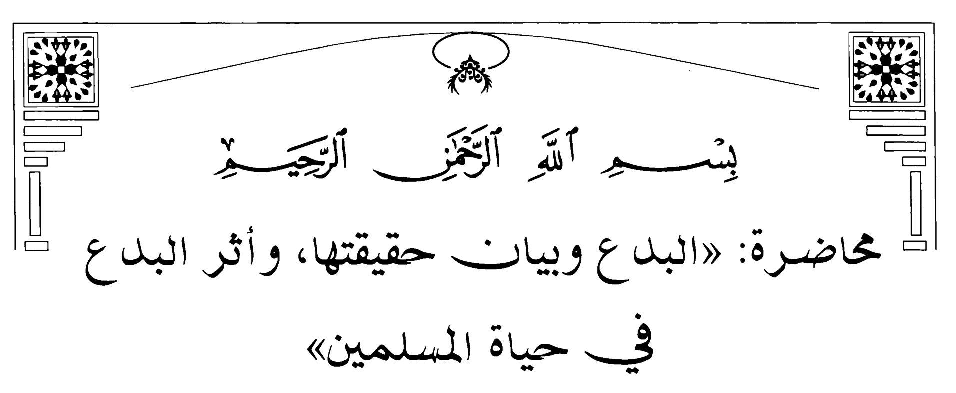
---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣).

وتعلم كثرة ذنبنا ، وتعلم ما أنت به أعلم منا ، نسألك أن تجعل لسيئاتنا محوًا ، ولذنوبنا غفرانًا ، اللهم اجعل لضعفنا رحمة ، واجعل لنا منك فتحًا ، فإنك أنت نعم المولى ، ونعم النصير ، اللهم ثبتنا ، وكن لنا ، ولا تكن علينا ، ووفقنا على الرشاد ، وأصلحنا باطنًا ، وظاهرًا ، واجعلنا من عبادك الصالحين .

وصلى الله وسلم ، وبارك على نبينا محمد .





محاضرة: «البدع وبيان حقيقتها، وأثر البدع في حياة المسلمين»

الحمد لله رب العالمين، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، ونشهد أنه لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، فصلوات الله، وسلامه على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، أما بعد؛ فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، قاله المصطفى ﷺ.

إن هذا الموضوع، وهو موضوع البدع، وبيان حقيقتها، وأثر البدع في حياة المسلمين، إنه لموضوع غاية في الأهمية؛ ذلك لأن كل انحراف في الدين إنما كان سببه إحداث بدعة لم يكن عليها الأمر الأول في حياة النبي ﷺ في أمور الاعتقاد، وفي الأمور العملية الشركية، وفي وسائل الشرك، وفي أنواع البدع العملية التي ظن أصحابها أنها تقربهم إلى الله ﷻ، ولا شك أن كل مسلم شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، رغب بإسلامه أن يسلم في الدنيا، وأن يسلم في الآخرة؛ لأن لقاء الله، والحساب، وما يكون هنالك في الدار الأخرى أمر عظيم عظيم، فالمسلم يهرب من كل ما

يشينه في ذلك اليوم، أو يخفف موازينه؛ ولهذا كان من الواجب على كل مسلم أن يسعى في تعلم تحقيق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، والشهادة بأن محمدًا رسول الله؛ لأن كل سعادة ستحوزها إذا حققت هاتين الشهادتين، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالتوحيد بأنواعه؛ توحيد الإلهية بالمطابقة وتوحيد الربوبية، والأسماء، والصفات، بما تضمنته تلك الكلمة العظيمة، وأما تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، فهو في أنحاء، وفي جهات، ومنها أن لا تكون عبادة، ولا تقرب إلى الله ﷻ إلا عن طريق المصطفى ﷺ، فالعبادة إنما هي التي شرعها المصطفى ﷺ، والتي سلكها وأمر بها، أو دل عليها أصحابه، وأمته ﷺ، وهو ﷺ بالمؤمنين رءوف رحيم، وقد أمره الله ﷻ بإبلاغ الدين، وبأن لا يكتم شيئًا من الدين، فبلغ الدين، وبلغ الرسالة، وجاهد في ذلك، فكان مما بلغ أشياء مفصلة في أمور العبادات، ومما بلغ النهي عن أشياء مجملة نهى عنها، مما لا يجوز إحداثه، أو التقرب إلى الله ﷻ به، وتلكم هي البدع. فكان ﷺ آمرًا بأشياء مفصلة من أمور الخير كثيرة، تكفي من أراد أن يتقرب إلى الله ﷻ بها، ونهى بإجمال عن كل غير تلك العبادات، فنهى عن البدع، ونهى عن أن يتقرب إلى الله ﷻ بغير ما سنه المصطفى ﷺ.

ولهذا قال العلماء: معنى شهادة أن محمدًا رسول الله: (**طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وألا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ**).

فكل عبادة يُتَعَبَّد بها الله ﷻ لم يكن عليها أمر المصطفى ﷺ، فهي باطلة، وسالكها قد انقدح في سلوكه، قد انقدح في أمره، وعبادته تحقيق شهادة

أن محمدًا رسول الله، وقد قدح في ذلك، ونقص بمقدار تلك البدعة، وربما كانت بدعة كفرية، فخرج من أصل الدين - والعياذ بالله -؛ ولهذا الأصل قال العلماء: إن أعظم آية في هذا الأمر، وهي آية سورة المائدة، هذه الآية لو تأملها أهل الإسلام لكفتهم عن أن يكونوا على غير السنة، قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] كما في صحيح مسلم: «**جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا نَزَلَتْ مَعْشَرَ الْيَهُودِ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، **فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعَرَفَاتٍ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ**»[(١)]، وهذا اليوم هو يوم عيد للمسلمين، فهذه الآية فيها بيان أن الله ﷻ أكمل لنا الدين، قال ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، أي: أن الدين، وهو ما يتدين به المرء ليقربه إلى الله ﷻ قد كمل، فإذا كان كاملًا، فهل ثَم وسيلة إلى إدخال شيء فيه، حتى يتقرب به إلى الله ﷻ؟ إن هذا مناقض لمعنى هذه الآية؛ ولهذا قال الشاطبي، وغيره من أهل العلم: إن أهل البدع ليس عندهم لهذه الآية معنى، وهي قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ لأن معنى الإكمال أنه ليس فيه مجال لأن يدخل فيه شيء يقرب إلى الله ﷻ.

وإذا كان كذلك فكل شيء أحدث بعد الرسول ﷺ بعد زمنه، فإنه بدعة ضلالة، يدعي صاحبها أن الدين ناقص، وأنه يريد إكماله؛ لأنه لم يكفه ما جاءت به الشريعة؛ لهذا قال الإمام مالك رحمه الله فيما رواه عنه ابن الماجشون

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠١٧).

قال: قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَنِ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، **فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا، فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا**»(١) قال الله ﷻ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾؛ لهذا كان كل محدث لبدعة مدعيًا أن الدين لم يكمل، إما بلسان حاله، أو بلسان مقاله، وهو أعظم والعياذ بالله؛ لهذا وجب عليك أن تتعرف إلى البدع من جهة معناها، ومن جهة أسبابها، ومن جهة القواعد التي بها تعرف البدعة وتعرف السنة، ومن جهة الضوابط في هذه المسألة، وتتعلم الشبهات التي أثارها أهل البدع، وما أكثرهم، لا كثَّرهم الله ﷻ، تتعلم تلك الشبهات والرد عليها؛ لأنه قد يأتي من يحسن البدعة عندك بأنواع من التحسينات، أو يلقي شبهة، فإذا كشفت الشبهة بتعلم وتعليم، كنت في حيازة وحراسة من أهل البدع أتباع الهوى، وكذلك تعرف أنواعًا مما أحدثه الناس من أنواع البدع؛ حتى إذا مر عليك شيء منها، أو سمعت بأحد يعمل بشيء منها، كنت منها على بغض وحذر، وكذلك أنكرتها لعلم لك بها؛ لهذا نقول: إن البدعة مأخوذة من ابتدع الشيء، يعني: اخترعه. تقول: هذا أمر مبتدع، يعني: جديد مخترع ليس له مثال سابق؛ ولهذا قال الله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: قد اخترعهما، وأنشأهما من غير مثال سابق، وقال ﷻ آمرًا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: ما كنت مخترعًا من الرسل، ليس قبلي رسول، بل ثَم رسل من قبلي، فلِمَ تنكرون رسالتي وتقرون بأن ثمت رسلًا أرسلهم الله ﷻ؟ ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: ليست

---

(١) أخرجه ابن حزم في الإحكام (٦/ ٢٢٥)، وانظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٩).

رسالتي بمخترعة، ولا جديدة لم يسبق أن أرسل الله ﷻ، بل أرسل الله ﷻ رسلًا، وأنا لست ببدعٍ فيهم، لست بجديد في الرسل؛ لهذا أصل البدعة أنها شيء مخترع جديد، هذا في اللغة، قد يكون في أصل اللغة الاختراع في أمور محمودة، وقد يكون في أمور مذمومة، لكن إذا اخترع شيئًا، وابتدأه، فإنه يقال: هذه بدعة؛ ولهذا استعمل عمر رضي الله عنه، الخليفة الراشد الثاني، لفظ البدعة في المعنى اللغوي، فقال رضي الله عنه لما اجتمع الناس على إمام واحد يصلون خلفه في أيام رمضان، قال: - لما رآهم يجتمعون يصلون التراويح -: **«نِعْمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ»**[1]، وفي رواية: **«نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ»**[2] بدعة من جهة اللغة؛ لأنهم لم يكونوا يفعلونها، فاجتمعوا على إمام واحد، وليست ببدعة في الشرع؛ لأن النبي ﷺ قد جمع بهم في رمضان، وصلوا خلفه بضع ليال ﷺ، فعنى عمر بهذه الكلمة المعنى اللغوي لها؛ لأنهم اجتمعوا بعد أن كانوا متفرقين على عدد من الأئمة في مسجده ﷺ.

أما في الإصطلاح - يعني: في عرف أهل الشرع - فإن البدعة عرفت بأنواع من التعاريف؛ منها: **(طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ)**[3]، وهذا تعريف الشاطبي رحمه الله في كتابه «الاعتصام»، وهو كتاب نفيس في هذا الباب في معرفة البدع، والرد على أهل الشبهات فيها.

وعرفها آخرون بقولهم: **(أن البدعة عُرِّفت بما أُحدث على خلاف الحق**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٠) من حديث عبد الرحمن بن عبد القاري.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢٥٠)، والبيهقي في الصغرى (١/ ٤٨١)، وفي شعب الإيمان (٣/ ١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١١٣).

(٣) انظر: الاعتصام (١/ ٣٧).

المتلقى عن رسول الله ﷺ في قول، أو عمل، أو اعتقاد، وجُعل ذلك هديًا ملتزمًا، وطريقًا مسلوكًا)[١].

ولا بأس أن ننظر إلى التعريف الأول؛ لأن كثيرين من أهل العلم يعتمدون ذلك التعريف، فما هي البدعة في الشرع؟ قال الشاطبي لنا: البدعة هي: (**طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ**)، (**طَرِيقَةٌ**): الطريق هو المسلوك. طريق يعني: قد طرقته الأقدام فسلك، فمعنى ذلك أن البدعة لم تفعل مرة، ولكنها طرقت وسلكت كثيرًا، فصار أمرها مطروقًا، يعني: فعلت كثيرًا، حتى صارت طريقًا، (**طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ**) يعني: أنها ليست في الدنيا، فإذا أحدث الناس في أمور دنياهم ما يعينهم على تحسين أمور دنياهم، فليست تلك من البدع المنهي عنها، بل البدعة المنهي عنها في الدين، (**طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ**)؛ لأن أمر الدنيا على الإباحة، لكن أمر الشريعة، والعبادات على الحظر، حتى يكون عن المصطفى ﷺ، (**مُخْتَرَعَةٌ**) يعني: جديدة لم يكن لها مثال سابق في عهده ﷺ، قال: (**تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ**) يعني: تجعل مماثلة للطريقة الشرعية، فماذا يقصد الناس بالطريقة الشرعية؟ يعني: بالالتزام بأمر شرعي، بعبادة من العبادات، يقصدون بذلك أن يتقربوا إلى الله ﷻ بتلك العبادة، وأن يكون فعلهم الذي فعلوه مقتديًا به، يعني: يقتدي الناس به، ويكونون هم قد اقتدوا برسول الله ﷺ فيه؛ إما من جهة الإذن بالقول، أو الإذن بالحال. فإذًا: يقصد أصحاب البدع بها مضاهاة الطريقة الشرعية، قد تأتي إلى مبتدع، وتقول: أنت تريد مضاهاة الطريقة الشرعية، منافسة

---

(١) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص٩٧)، وشرح النونية لأحمد بن عيسى (١/ ١٣٠)، ورفع الأستار للصنعاني (ص١٢٠).

الطريقة الشرعية، يقول: لا، ولكن المقصود الحال. فإنه حين تعبد بعبادة جديدة، فإنه ضاهى الطريقة الشرعية، يعني: جعل شيئًا يتعبد فيه وبه هو على شكل، وهيئة الطريقة الشرعية، قال: (**تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ**)، ويقصد بها المبالغة في التعبد، وهذا أمر مهم؛ لأن الذين تعبدوا بالبدع لماذا تعبدوا بالبدع؟ يريدون المبالغة في التعبد.

كما روى الدارمي قَالَ: أَخْبَرَنَا الْحَكَمُ بْنُ الْمُبَارَكِ، أَنبأَنَا عَمْرُو بْنُ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، يُحَدِّثُ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «**كُنَّا نَجْلِسُ عَلَى بَابِ عبد اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ** ﵁**، قَبْلَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ، فَإِذَا خَرَجَ، مَشَيْنَا مَعَهُ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَجَاءَنَا أبو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ** ﵁ **فَقَالَ: أَخَرَجَ إِلَيْكُمْ أبو عبد الرَّحْمَنِ قُلْنَا: لَا، بَعْدُ. فَجَلَسَ مَعَنَا حَتَّى خَرَجَ، فَلَمَّا خَرَجَ، قُمْنَا إِلَيْهِ جَمِيعًا، فَقَالَ لَهُ أبو مُوسَى: يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ آنِفًا أَمْرًا أَنْكَرْتُهُ وَلَمْ أَرَ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - إِلَّا خَيْرًا. قَالَ: فَمَا هُوَ؟ فَقَالَ: إِنْ عِشْتَ فَسَتَرَاهُ. قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَسْجِدِ قَوْمًا حِلَقًا جُلُوسًا يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فِي كُلِّ حَلْقَةٍ رَجُلٌ، وَفِي أَيْدِيهِمْ حَصًى، فَيَقُولُ: كَبِّرُوا مِائَةً، فَيُكَبِّرُونَ مِائَةً، فَيَقُولُ: هَلِّلُوا مِائَةً، فَيُهَلِّلُونَ مِائَةً، وَيَقُولُ: سَبِّحُوا مِائَةً، فَيُسَبِّحُونَ مِائَةً، قَالَ: فَمَاذَا قُلْتَ لَهُمْ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَهُمْ شَيْئًا انْتِظَارَ رَأْيِكَ أَوْ انْتظارَ أَمْرِكَ. قَالَ: أَفَلَا أَمَرْتَهُمْ أَنْ يَعُدُّوا سَيِّئَاتِهِمْ، وَضَمِنْتَ لَهُمْ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، ثُمَّ مَضَى وَمَضَيْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى حَلْقَةً مِنْ تِلْكَ الْحِلَقِ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَاكُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ حَصًى نَعُدُّ بِهِ التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّسْبِيحَ. قَالَ: فَعُدُّوا سَيِّئَاتِكُمْ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ حَسَنَاتِكُمْ شَيْءٌ وَيْحَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَسْرَعَ هَلَكَتَكُمْ هَؤُلَاءِ صَحَابَةُ نَبِيِّكُمْ** ﷺ **مُتَوَافِرُونَ، وَهَذِهِ ثِيَابُهُ**

لَمْ تَبْلَ، وَآنِيَتُهُ لَمْ تُكسَرْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لَعَلَى مِلَّةٍ هِيَ أَهْدَى مِنْ مِلَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَوْ مُفْتَتِحُو بَابِ ضَلَالَةٍ. قَالُوا: وَاللَّهِ يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَنَا أَنَّ قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ اللَّهِ مَا أَدْرِي لَعَلَّ أَكْثَرَهُمْ مِنْكُمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ. فَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ: رَأَيْنَا عَامَّةَ أُولَئِكَ الْحِلَقِ يُطَاعِنُونَا يَوْمَ النَّهْرَوَانِ مَعَ الْخَوَارِجِ»[1].

فهذا قصد الشاطبي رحمه الله حين قال: يقصد بإحداث البدع المبالغة في التعبد لله عز وجل. فإنه حين أحدث البدعة لم يحدثها، وهو يعلم أنه مخالف للدين، بل يقول: أنا أريد الزيادة في الخير، لكن هل أذن له بأن يزيد ما شاء دون إذن من الشرع؟ لم يؤذن له بذلك؛ لهذا نقول: إن أدلة الشرع دلت على وجوب الالتزام بالسنة، وعلى حرمة مخالفة السنة، والإتيان بالبدع، يعني: مخالفة الطريقة التي يتعبد بها، والتعبد لله عز وجل بالبدع قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال بعض السلف: **«لَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تُحِبَّ، وَلَكِنْ الشَّأْنَ أَنْ تُحَبَّ»**[2].

ليس الشأن أن تحب أنت الله عز وجل، ليس الشأن أن تحب الرسول ﷺ، ليس الشأن أن تحب الدين، ولكن الشأن أن يحبك الله عز وجل، والله عز وجل لا يحب العبد إلا إذا كان عمله حسنًا، قال عز وجل ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل - في كلمته المشهورة -: (العمل الحسن هو الذي كان خالصًا

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٤)، وبحشل في تاريخ واسط (ص١٩٨، ١٩٩)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٢/ ١٦٢).

(٢) انظر: النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ص٧٣)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٥٩).

صوابًا)؛ خالصًا لله ﷻ لا لغيره، صوابًا على سنة المصطفى ﷺ، وقد قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾، فصراط الله واحد، قال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ﴾ أي: اتبعوا هذا الصراط، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾، فسبيل الله واحد، وأما السبل، سبل البدع والشبهات، فهي كثيرة؛ ولهذا فسرها مجاهد بن جبر، أبو الحجاج التابعي المعروف تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما، فسر هذه الآية، بقوله: (**السُّبُلُ: الْبِدَعُ وَالشُّبُهَاتُ**)(١).

قال ﷻ: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقال ﷻ في سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، من هم الذين يتركون الأمر الواضح البين، ويأخذون بالمشتبهات، وبالمتشابهات؟ هم أهل الزيغ، وأهل الزيغ قال فيهم ﷺ: «**فإذا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»(٢).

فإذًا: الذين يتركون الأمر الواضح، ويأخذون بالمشتبهات، فهؤلاء هم أهل الزيغ؛ لأنهم تركوا الأمر البين الذي بينه ﷺ، وأخذوا بأمور مشتبهات، أو لم يأت بها شرع المصطفى ﷺ؛ لهذا كان في خطبة الحاجة التي يذكر

---

(١) أخرجه الدارمي (٢٠٣)، والمروزي في السنة (ص١٢)، والطبري في تفسيره (٨/ ٨٨) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

بها النبي ﷺ أصحابه دائمًا، كان فيها قوله ﷺ: **«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْأُمُورِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١)، هذه خطبة الحاجة، كان ﷺ يعلمها أصحابه، يعلمهم أن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فهذا تأكيد على هذا الأمر؛ حتى لا يحدث في الدين شيء؛ ولهذا جاء في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه الحديث المشهور، قال فيه العرباض بن سارية رضي الله عنه: **«وَعَظَنَا رسول الله ﷺ موعظةً، وَجِلَت منها القلوبُ، وذَرفَت منها العيونُ، فقلنا: يا رسول الله؛ كأنّها مَوعظةُ مُوَدِّعٍ، فَأَوصِنا، قال: «أُوصيكُمْ بِتَقْوَى الله ﷻ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الْخُلفَاء الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيينْ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(٢).

---

(١) ورد ذلك اللفظ في خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي ﷺ بين يدي حاجته، أخرجها مسلم مختصرة من حديث جابر رضي الله عنه (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند الإمام أحمد في المسند (١/ ٣٩٢، ٣٩٣)، وأبي داود في سننه (١٠٩٧)، والترمذي في سننه (١١٠٥)، والنسائي في الكبرى (١/ ٥٥٠)، (٣/ ٤٤٩)، وابن ماجه (١٨٩٢)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شرح لها في جزء لطيف، طبعته دار الأضحى بالأردن.
كما ورد في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه الذي أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣، ٤٤)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، والدارمي (٩٥)، والطبراني في الكبير (٦٢٣)، وابن حبان (١/ ١٧٨) =

يعني: لا تفكوها، عضوا عليها بالنواجذ يعني: بأقوى ما عندكم.

«عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» وهذه وصيته ﷺ بعد موعظته التي ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب ﷺ، فما كان أنصحه لأمته، وما كان أرأفه بأمته، لا خير إلا دلهم عليه، ولا شر إلا حذرهم منه؛ كما جاء في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: **«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إلا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ»**[(١)].

إذًا، فأمر البدع أمر عظيم، وجامعتها والدليل الذي يجب عليك أن يكون معك دائمًا في هذا الأمر هو قول المصطفى ﷺ بميزان تزن به الأمور، وتزن به الأفعال، قوله ﷺ - فيما روته عائشة رضي الله عنها -: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[(٢)]، وفي رواية لمسلم، وعلقه البخاري في صحيحه: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[(٣)].

قال العلماء: ثَم حديثان هما ميزانان للأعمال؛ أما الأول: فهو ميزان للأعمال في باطنها، تزن عملك في الباطن الذي لا يظهر للناس، وهو قول المصطفى ﷺ: **«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى»**[(٤)] هذا ميزان

= والحاكم في المستدرك (١/ ١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤).

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ورواه البخاري معلقًا في كتاب البيوع - باب النجش (٤/ ٣٥٦ فتح)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة - باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم (١٣/ ٣١٧ فتح).

(٤) أخرجه البخاري (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

باطن، أنت تقوم نفسك به «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ**»، فإن كانت نيتك صالحة خالصة لله ﷻ، فهذا معناه أن الجهة الباطنة صحيحة، والميزان الظاهر الذي تزن به العمل في الظاهر الذي يرى قوله ﷺ - في هذا الحديث -: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ**»، «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**». «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ**»، وفي رواية: «**لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**».

هذا ميزان للظاهر؛ فإذًا: تزن الأعمال في الباطن من جهة صلاحيتها وكونها حسنة مقبولة، بهل أنت مخلص فيها، أم لا؟ وتزن العمل الظاهر فيما يرى الناس بهل هو على أمر النبي ﷺ، أم ليس على أمره؟ فهما ميزانان لا يشذ عنهما شيء من الأعمال؛ واحد للباطن، وواحد للظاهر. إذًا: إذا كان الأمر كذلك، والبدع بهذا الشأن، وهذه هي الأدلة التي جاءت فيها، فلِمَ أحدثت البدع؟ المسلمون يحبون الخير، ويحبون نبيهم ﷺ، فما أسباب حدوث البدع؟ لم حدثت البدع في هذه الأمة؟

أول أسباب حدوث البدع: الجهل بالسنن، وإذا جهل المرء الذي يبغي الخير بالسنة، فإن جهله هذا يأتي الشيطان من جهته، فيحبب له الخير بشيء مبتدع، مثل ما قال أولئك لابن مسعود رضي الله عنه: «**وَاللَّهِ يَا أَبَا عبد الرَّحْمَنِ، مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ. قَالَ: وَكَمْ مِنْ مُرِيدٍ لِلْخَيْرِ لَنْ يُصِيبَهُ**»، وإذا كان ما أرادوا إلا الخير، فمعناه أن الأمر جائز، وهذا ليس بصواب.

إذًا: فأهم أسباب البدع أن المحدث لها يقول: ما أردنا إلا الخير. وهو جاهل بالسنة، ما سمعنا مبتدعًا يقول: أنا أردت مخالفة السنة. هل سمعتم؟

ما أحد يقول: أنا أردت مخالفة السنة. كلهم يقولون: ما أردنا إلا الخير. نحن أردنا التقرب إلى الله، كيف تقول: أن هذا الفعل كذا وكذا، تنهى عن صالح؟! اجعل الناس يتذكرون، اجعل الناس يعبدون، اذهب إلى الفسقة إلى الفجرة وانْهَهُم؛ أما الذين يريدون الخير فاجعلهم يتعبدون؛ لأنهم ما أرادوا إلا الخير. هل كل مريد للخير يحصله؟ لا، لا بد أن يكون على هذا الطريق، وهو طريق المصطفى ﷺ؛ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

السبب الثاني من أسباب وجود البدع، واستمرار البدع: الهوى، والتقليد؛ لأنك تجد أن الذي استمر على البدع، وعمل بها إذا سألته النبي ﷺ ألم يقل كذا؟ هل فعل النبي ﷺ هذا الشيء؟ فيقول: العالم الفلاني قال كذا، وشيخنا قال كذا، وهذه قرية كان فيها كذا وكذا والبلد كان. هؤلاء ضلال، فيأتيه الهوى الذي من أجله نصر من قبله، نصر أسلافه، يأتيه التقليد يأتيه التعصب، فيجعله ينتصر لهذا الأمر الباطل، ولم ينتصر إلى السنة، فسأل نفسه هل كان النبي ﷺ على هذا الأمر، أم لا ؟ فيكون عنده هوى، وتقليد، وتعصب، جعله هذا الهوى، والتقليد، والتعصب ينتصر للرجال، ولا ينتصر لسنة النبي العدنان ﷺ، هذا سبب مهم.

ومن أسباب حدوث البدع: أمور سياسية، وهذا الأمر السياسي كان من أعظم فشو البدع في المسلمين، لـمَ؟ لأن الشيء إذا أيدته دولة، فإنه ينشر البدع، وذلك على أصنافها المختلفة، أيدتها دولة فنشرتها في المسلمين، وهي الدولة الفاطمية التي حقيقة اسمها الدولة العبيدية، هم ينتسبون إلى

العبيديين ولا ينتسبون إلى عليّ رضي الله عنه على الصحيح، هذه الدولة جاءت وتكلم العلماء فيها وقالوا: إنها دولة باطنية، وهي على غير الإسلام، ولها معتقدات مكفرة إلى آخره[١]، فكيف يقنعون الناس؟ أنهم محبون للدين، محبون للنبي ﷺ، وأنهم من آل البيت، أول ما بدأ أحدثوا الاحتفالات البدعية، فهم أول من أحدث الاحتفال بمولد النبي ﷺ، جاءوا قالوا: هذا يوم المولد لا بد أن نحتفل به، فلما رأى العوام أن هذه الدولة تحتفل بمولد النبي ﷺ، وتتلو سيرته، ويفعلون في المولد صدقات، وأكلًا، وطعامًا، ونحو ذلك، قالوا: هؤلاء محبون للشريعة، محبون للسنة. والعوام ليس عندهم من تقييم الأمور ما عند أهل العلم، فبدل أن يكون يوم واحد من الاحتفالات في السنة، صار كما قال المؤرخون: عندهم في كل يوم مولد، في كل يوم احتفال في الدولة العبيدية، فأيدتها الدولة وانتشر في الناس ذلك، وشيئًا فشيئًا حتى عم في الناس. إذًا: من الأسباب التي دعت إلى انتشار البدع ما أيدت به البدع الدولة العبيدية، وأعظم البدع التي أيدتها الدولة العبيدية من جهة العمل الاحتفالات بأنواعها، مع ما هم عليه من البدع في الاعتقاد.

---

(١) وهي الدولة التي تسمّت باسم الفاطميين؛ نسبة لآل البيت، وأنى لهم ذلك، ومؤسسها يهودي (عبد الله بن ميمون القداح)، وهي دولة إسماعيلية، ومنها انبثقت الدرزية الملحدة بأمر إمامها الحاكم بأمر الله الفاطمي، وملكت في مصر حتى أباد شوكتهم الملك المجاهد صلاح الدين الأيوبي.

انظر في عقائدهم ونشأتهم: أخبار ملوك بني عبيد (ص: ٩٤)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص ٣٥)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ١٢١)، وهذه مفاهيمنا لشيخنا العلامة صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ (ص١٠٤).

من الأسباب - أيضًا - لإحداث البدع، ولبقائها، ولانتشارها: الاستحسان العقلي في مقابلة النص الشرعي، الدين كامل فلا يجوز أن تستحسن فيه بالعقل في عبادة؛ لأن العبادات في الأصل لا تعلم عللها، لَمَ جعلت صلاة الظهر أربعًا، والمغرب ثلاثًا؟ لَمَ المغرب ثلاثٌ، وبعدها بساعة ونصف العشاء أربع؟ لَمَ صار التقييد في التسبيح بكذا وكذا؟ هذه العبادات لا نعلم عللها، فلهذا وجب أن يقتصر فيها على نص الشارع؛ لأنه لا علة معلومة فيها؛ ولهذا يقول العلماء: العبادات هي غير معلومة العلة، يعني: في الغالب، فالحكمة غير العلة، الحكمة وصف قاصر؛ أما العلة هي الوصف المناسب الذي تستخرج منه حكمًا لغير المسألة بجامع بينها، وبين المسألة المنصوص عليها. الحكم شيء والعلل شيء آخر؛ فإذًا: من أسباب البدع الاستحسان العقلي. والشريعة كاملة والعبادات لا مجال فيها للعقل أصلًا، إذا قال قائل: أنا أريد أن أدعو لله بالطريقة الفلانية، فقل: لماذا لا تصلي الظهر خمسًا؟ سيقول: الظهر خمسٌ ما جاءت، ما صلى النبي ﷺ خمسًا؛ فإذًا: هل فعل النبي ﷺ هذا الدعاء أو هذه الهيئة أو هذا الذكر؟ أو هل اجتمع الصحابة على هذا النحو؟ ما الفرق بين هذه وهذه؟ أدخل تحسينه العقلي في أشياء، ولم يدخله في أشياء؛ لأنه هابه، هاب المخالفة فيه لعظم المخالفة؛ فلهذا من أسباب البدع الدخول فيها بالتحسين العقلي. يدخل في العقل ويقول: هذا جيد نفعل كذا؛ لأجل أن نحبب الناس، نجمعهم بهذه الطريقة. و(**كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف**)؛ إذًا: هذه خمسة أسباب لحدوث البدع، واستمرار البدع في هذه الأمة.

هناك قواعد مهمة إذا علمتها سهل عليك القول في أمر السنة، والرد على أهل البدع:

أما القاعدة الأولى منها فهي: أن الأصل في العبادات الحظر حتى يأتي الدليل. الأصل في العبادات المنع حتى يأتي الدليل بها، لِمَ؟ لأن العبادة شرعت على غير تعليل عقلي، فالأصل أن لا يتعبد أحد بشيء حتى يأتي الدليل به؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ما آتاكم من الأقوال، والأعمال، والاعتقادات، فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، هذه قاعدة مهمة أن الأصل في العبادات الحظر، حتى يأتي الدليل. فإذا أتى آت، وقال لك: إن هذه البدعة طيبة، فقل: الأصل في العبادة المنع حتى يأتي الدليل، فهل أتى لهذه دليل؟ هل أجمع عليها العلماء؟ هل ذكرها الصحابة؟ هل فعلها الصحابة؟ كما سيأتي في القواعد الأخرى، هذه قاعدة مهمة.

القاعدة الثانية في أصول معرفة البدع، والرد على أهلها: أن البدعة التي أحدثت لو كانت خيرًا لفعلها خير هذه الأمة، وخير هذه الأمة هم صحابة رسول الله ﷺ، وتابعوهم، وتابعوهم هم خير هذه الأمة.

فإذًا: إذا أتى واحد وفعل بدعة فتسأله: هل فعلها الصحابة؟ هل فعلها التابعون؟ فإذا قال: لا، فنقول: إذًا: لو كانت خيرًا تقرب إلى الله، لفعلها خير هذه الأمة، بل لفعلها النبي ﷺ، ولفعلها أصحابه في وقته. فلو كانت خيرًا لفعلوها، فما دام أنهم ما فعلوها، فدلنا ذلك على أنها ليست بطريقة مرضية؛ لأنهم خير هذه الأمة، ومقتضى كونهم خير هذه الأمة أن الأمور الخيرة قد عملوها في أمور العبادات، والاعتقادات، والجهاد، وغير ذلك.

القاعدة الثالثة: أن تعلم أن فعل النبي ﷺ، أو سنة النبي ﷺ على قسمين:

١ - سنة فعلية. ٢ - وسنة تركية.

كما حققها العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «معالم الموقعين عن رب العالمين»؛ سنة فعلية، وسنة تركية. الناس يهتمون بسنن الفعل، النبي ﷺ روي عنه أنه فعل كذا، صلى الراتبة نصليها، أمر بالذكر فنذكر على هذا النحو، هذه سنة فعلية واضحة؛ أمر، أو حث، أو رغب، فهذه سنن الأفعال، أو فعل ذلك في نفسه، أو أقر غيره، فهذه السنن الفعلية، لكن المهم في قواعد البدع أن تعلم أن من سنته سنة الترك، وتركه سنة كما أن فعله سنة؛ لأن الترك في الحقيقة فعل، هو ترك للفعل، فهو فعل تُرِك؛ ولهذا نقول: سنة النبي ﷺ منها الترك. فإذًا: الذي يريد اتباع السنة فإنه يفعل ما فعله ﷺ ويترك ما ترك؛ لأن سنته ﷺ منها سنة تركية، هذه قاعدة مهمة، فتأتي إلى أهل البدع وتقول لهم: النبي ﷺ فعل، وهذه سنة فعلية تقتدي بها، أو لا تقتدي بها؟ يقول: نعم أقتدي بها. فتقول: أيضًا النبي ﷺ ترك، وهذه سنة تركية. فإذا كانت سنة تركية فنترك؛ لأنه ترك، كما أننا نفعل؛ لأنه فعل، فالسنة ترجع إلى الشيئين، واقتداء المكلف بالنبي ﷺ، الذي يؤجر عليه من جهة النية، ومن جهة الفعل أن يفعل؛ لأجل أنه ﷺ فعل، وأن يترك؛ لأجل أنه - عليه الصلاة والسلام - ترك، هذه بعض القواعد، والمقام يقصر عن تفصيل هذا المقام.

نذكر بعد القواعد شيئًا من الضوابط التي تفرق بين البدعة، وغيرها،

البدعة من تعريفها - الذي ذكرنا - يظهر أنه من فعلها يلتزم بها؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - في موضع ضابط البدعة أنها ملتزم بها -: فالفرق بين ترك السنة، وفعل البدعة، أو بين مخالفة السنة، والبدعة أن مخالفة السنة تقع أحيانًا ونادرًا؛ وأما البدعة فهي ملتزم بها. وهذا ضابط مهم، مثلًا يوضح لك هذا الضابط: لو رأيت رجلًا يدعو بعد الصلاة، رفع يديه فدعا مرة، رفع يديه فدعا هذا بدعة، أو مخالف للسنة؟ تنظر إذا التزم بهذا الفعل فكان دائمًا عليه، فمعناه أنه جعله من الدين، وأراد بذلك التقرب إلى الله عز وجل، فكان بدعة؛ وأما إذا فعله مرة فيكون خطأ مخالفًا للسنة، لكن لا يكون بدعة. فضابط الالتزام مهم في الفرق بين البدعة، ومخالفة السنة، فمن خالف السنة، وفعل فعلًا مخالفًا للسنة في أمر التعبد مرة، أو مرتين، بحسب ما ظهر له، فإنه يقال: أخطأ، وخالف السنة، لكنه لا يسمى مبتدعًا حتى يكون ملتزمًا بهذا الفعل، فإذا التزمه صار فعله **(طَرِيقَةٌ فِي الدِّينِ مُخْتَرَعَةٌ، تُضَاهِي الشَّرْعِيَّةَ يُقْصَدُ بِالسُّلُوكِ عَلَيْهَا الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعَبُّدِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ)**(١). وهكذا أفعال أخر من أمور التسبيح، والأذكار، فينكر عليه تارة لمخالفته السنة، وينكر عليه أشد إذا كان على بدعة، فمن فعل شيئًا مخالفًا للسنة ينكر عليه، وينصح، ويبين له، لكن لا يسمى مبتدعًا حتى يلتزم بذلك، فيكون التزامه طريقة في الدين مخترعة، وهذا ضابط مهم في هذا الباب.

شبهات تتعلق بالنهي عن البدع:

قد علمنا النصوص التي دلت على التحذير من البدع، والنهي عنها، وكل

---

(١) سبق عزوه (ص ٥٣).

محدثة بدعة، و كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وأن ما عمل أحد عملًا ليس عليه أمر النبي ﷺ إلا هو رد، يعني: مردود عليه «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ**»[(١)]، وفي رواية: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)]، يعني: مردودًا عليه، فهناك شبهات حسنها أهل البدع، وعلماء البدعة، والضلال، من هذه الشبهات أنهم قالوا: الصحابة رضي الله عنهم قد فعلوا أشياء لم تكن في عهده ﷺ. ما هي؟ قالوا: جمع القرآن. هل النبي ﷺ أذن بجمع القرآن؟ هل جمع القرآن في عهده؟ الصحابة أحدثوا الجمع، جمع القرآن في كتاب واحد، وهو في عهده ﷺ كان مفرقًا في الصحف، والعظام، والألواح، ونحو ذلك، فجمعهم له تقربوا به إلى الله ﷻ، ولم يجعله أحد بدعة مذمومة، فدل على أنه وإن كان بدعة، لكنه بدعة حسنة، هذه شبهة، وهي ناتجة عن الجهل، أو عدم فقه الشرع، كما سبق في أسباب البدع. الله ﷻ دلنا في كتابه على أن القرآن سيكون كتابًا، فقال ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، الكتاب إشارة إلى أي شيء؟ الكتاب اسم للمجموع، وقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، النبي ﷺ في عهده ولم يكن ثمت مصحف مجموع في شيء واحد، قال: فيما رواه مسلم في الصحيح: «**نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ**»[(٣)].

أين المصحف؟ أين الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ هل هو

---

(١) سبق تخريجه (ص ٥٩).

(٢) سبق تخريجه (ص ٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٦٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

إشارة إلى الذي في اللوح المحفوظ، أو الكتاب الذي سيجمع؟ فهذا فيه دليل على أنه يجب أن يجمع، حتى يكون كتابًا، ولكن في عهده ﷺ ما قام المقتضي لجمعه في ما بين دفتين، لِمَ؟ لأن الوحي يتنزل، ما انتهى الوحي بعد، هل تم تنزل القرآن؟ ما تم في حياته ﷺ؛ ولهذا نقول في عهده ﷺ القرآن ينزل، والآيات تنزل، فإذا كان سيجمع في مصحف واحد، معنى ذلك أنه ستدخل آية في هذا الموضع، وتدخل آية في ذلك الموضع، وسيكون تلاوته ليست متيسرة، بل سنحتاج إلى أن ينسخ مرة ثانية، وثالثة بعد نزول مجموعة من الآيات، أو بعض السور، فأخر جمعه بتلك الدلالة على ما بعد عهده ﷺ؛ حتى يتم تنزل القرآن، وإيحاء الله ﷻ لنبيه ﷺ؛ فلهذا نقول: إنه ليس لهذه الشبهة معنى؛ لأن الصحابة فعلوه من جهة الفقه في النص، ففعلوا ما دل النص بالإشارة، وباللفظ على أنه يجب أن يفعل، فهم امتثلوا الأمر الذي دل عليه بالإشارة.

شبهة ثانية: قالوا: النبي ﷺ يقول: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»(١).

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه، ولفظه: «**كُنّا عِنْد رسُولِ اللهِ ﷺ فِي صدْرِ النّهارِ، قال: فجاءهُ قوْمٌ حُفاةٌ عُراةٌ مُجْتابِي النِّمارِ أوِ الْعباءِ، مُتقلِّدِي السُّيُوفِ، عامّتُهُمْ مِنْ مُضر، بلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضر فتمعّر وجْهُ رسُولِ اللهِ ﷺ لِما رأى بِهِمْ مِن الْفاقةِ، فدخل ثُمّ خرج، فأمر بِلالًا فأذّن وأقام، فصلّى ثُمّ خطب فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] إلى آخِرِ الْآيةِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] والْآية الّتِي فِي الْحشْرِ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] **تصدّق رجُلٌ مِنْ دِينارِهِ، مِنْ دِرْهمِهِ، مِنْ ثوْبِهِ، مِنْ صاعِ بُرِّهِ، مِنْ صاعِ تمْرِهِ** - حتّى قال - **ولوْ بِشِقِّ تمْرةٍ**». قال: فجاء رجُلٌ مِن الْأنْصارِ بِصُرّةٍ =

«**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً**»، فهذا يدل على أن من جاء بشيء جديد لكنه حسن، فإن له أجرًا، والنبي ﷺ ثبت عنه ذلك كما رواه مسلم في صحيحه، وغيره، فقال: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً**» الجواب عن ذلك - يعني فيما لو طرح أحد عليك، أو سمعت هذه الشبهة -: أن هذا الحديث له سبب، وسببه يوضح معناه، والعلماء يقولون: العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب. إذا علمت السبب فهمت معنى الكلام، وسببه أن قومًا مجتابي النمار - كانت عليهم ملابس مجتابة، يعني: مخرقة - أتوا إلى النبي ﷺ، فلما رآهم رق لحالهم، وعرف ذلك في وجهه ﷺ، فحث على الصدقة وأمر بها، فقام رجل فقال: علي يا رسول الله كذا. فلما فعل ذلك تبادر الناس وفعلوا مثل فعله، فقال ﷺ - حين ذلك: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»، فيكون معنى قوله: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً**»، يعني: ترك العمل بها. سنة من الدين، ولكن ترك العمل بها، مثل: التصدق؛ لأنه قالها حين تصدق ذاك، فتبعه الناس على ذلك، فالذي يبتدئ بالأمر الذي شرع في الدين، ويتبعه الناس على إحياء هذا الأمر الذي شرع في الدين، يكون ذلك الفاعل الأول سن في الإسلام سنة حسنة، ما ابتدع، ولكنه أحيا تلك السنة، ومن المعلوم في قواعد اللغة أنه يطلق الشيء على ملابسه، فيقال: (من سن)،

= كادتْ كفُّهُ تعْجزُ عنْها، بلْ قدْ عجزتْ، قال: ثُمّ تتابع النّاسُ، حتّى رأيْتُ كوْميْنِ مِنْ طعامٍ وثِيابٍ، حتّى رأيْتُ وجْه رسُولِ اللهِ ﷺ يتهلّلُ، كأنّهُ مُذْهبةٌ، فقال رسُولُ اللهِ ﷺ: **منْ سنّ فِي الْإِسْلامِ سُنّةً حسنةً، فلهُ أجْرُها، وأجْرُ منْ عمِل بِها بعْدهُ، مِنْ غيْرِ أنْ ينْقُص مِنْ أُجُورِهِمْ شيْءٌ، ومنْ سنّ فِي الْإِسْلامِ سُنّةً سيِّئةً، كان عليْهِ وِزْرُها ووِزْرُ منْ عمِل بِها مِنْ بعْدِهِ، مِنْ غيْرِ أنْ ينْقُص مِنْ أوْزارِهِمْ شيْءٌ**».

ويراد به من أحيا السنة؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾ [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وكقوله: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ [طه: ٩٦]، أي: قبضت قبضة من أثر حافر الرسول فنبذتها، ونحو ذلك مما هو معلوم في اللغة؛ فإذًا: هذه الشبهة لا وجه لها. من الشبهة التي يقولونها: إن هؤلاء ما أرادوا إلا الخير، وهذا سبق أن ذكرته، وذكرت جوابه، وأنه ليس بشيء؛ لأنه ليس الأمر على أن تريد الخير، الأمر على أن يكون عملك خالصًا صوابًا، من الشبهات أيضًا هذه مهمة:

أنهم قالوا: الصحابة أحدثوا أشياء، والمسلمون أحدثوا أشياء في أمورهم، فأحدث عمر وضع الدواوين، وأحدثوا في المساجد، يعني: في تنظيم بعض الأشياء المتعلقة بالإمام، وبالأئمة، وأحدثوا بعض أنواع الإدارة، وأحدثوا ديوان الجند، وأحدثوا المدارس، وأحدثوا كذا وكذا ... إلى آخره، يعني: أنهم فعلوا أشياء، ونظموا أشياء جديدة، وهذه لاشك أنهم يريدون بها أنها من الدين؛ لأنها تقرب إلى الله ﷻ، فلم يجعلوها من البدع، والجواب عن ذلك: أن هناك فرقًا مهمًا بين البدعة، وبين ما سماه الإمام مالك رحمه الله وأتباعه وطائفة من أهل العلم (المصالح المرسلة)، هناك شيء اسمه بدع - كما ذكرنا -، وهناك مصالح مرسلة. المصالح المرسلة، مثل: فعل الصحابة؛ نظموا الإدارة، نظموا أمور دنياهم، نظموا الدواوين، عملوا أشياء، أحدثوا التاريخ، وكتابة التاريخ، ونحو ذلك، هذه من المصالح المرسلة، والمصالح المرسلة مرعية في الدين، ويحث عليها؛ لأن فيها رفع الحرج.

الفرق بين البدعة، وبين المصلحة المرسلة: أن المصلحة المرسلة راجعة إلى أمر به حفظ أمر ضروري من الدين - والضروريات خمس -، وإلى رفع حرج عن المسلمين في شيء، فهي إذًا راجعة إلى جهة المعاملات إلى جهة العمل، إلى جهة التنظيم، لا إلى جهة العبادة؛ وأما البدعة فليست راجعة إلى هذه الأشياء، وإنما هي راجعة لإحداث أمر في الدين، يعني: في العبادات، ففرق بين شؤوون العبادات، وبين أمور المعاملات، وما يفعله الناس، فالصحابة ما أحدثوا أمرًا في عباداتهم، وإنما أحدثوا أمرًا في دنياهم، وقد قدمت لك القاعدة أن الأصل في العبادات الحظر حتى يرد دليل الجواز، والأصل في المعاملات الجواز حتى يرد دليل الحظر، أيضًا من الفرق المهم بين المصلحة المرسلة وبين البدعة: أن المصلحة المرسلة راجعة إلى الوسائل؛ وأما البدعة فهي غاية، وهذا فرق مهم، البدعة غاية، يعني: هي في نفسها مرادة يتعبد الله بها؛ وأما المصلحة المرسلة فهي وسيلة لتحصيل أمر مشروع، وفرق ما بين الإذن بالوسائل التي تدخل تحت قاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا كان المقصد وهو حفظ أمر ضروري مطلوب في الشرع، فإن وسيلته وهي المصلحة المرسلة مطلوبة، وإذا كان المقصد وهو إزالة الحرج مطلوبًا في الشرع، فكذلك وسيلته التي هي المصلحة المرسلة مطلوبة، فهذا فرق مهم؛ فإذًا: الذي يحتجون به في مسألة المصالح المرسلة والبدع لا وجه له؛ لأن الفرق بينهما قائم، وقد حقق العلماء ذلك بتفصيل، وإيضاح.

نختم كلامنا بذكر طائفة من أنواع البدع، هذا الذي سبق تأصيل، والتأصيل مهم؛ لأنك به تعرف ما لا نذكره، قد نذكر أشياء من

البدع ليست على وجه الحصر، ولكن على وجه التمثيل، فإذا عرفت القواعد والتأصيلات في هذا الأمر المهم، فإنك تعرف البدعة من السنة -إن شاء الله تعالى-. من البدع المحدثة: بدع متعلقة بالأزمنة؛ فهناك في شهر محرم أحدثوا بدعة، مثل: بدع الرافضة في ضرب الصدر، ونحو ذلك في الندب في عاشوراء، يعني: اليوم العاشر من محرم، وفي غيره. هناك بدع متعلقة بشهر ربيع الأول، ومن أظهرها بدعة الاحتفال بالمولد، الاحتفال بيوم مولد النبي ﷺ، فيجتمعون ليلته، ويقرءوون سيرته، وبعض القصائد التي في مدح النبي ﷺ، وربما كان منها ما فيه شرك أكبر بالله ﷻ، قد ذكرت لك فيما سبق أن أول من أحدث بدعة الاحتفال بمولد النبي ﷺ وبالموالد جميعًا من؟ الدولة العبيدية. ومنها بدع في شهر رجب، مثل: بعض الصلوات فيه، وبعض العبادات التي يتقربون إلى الله ﷻ فيها، فشهر رجب ليس له مزية على غيره من الشهور. ومنها بدع متعلقة بغير ذلك من الأشهر، كشهر شوال، ونحو ذلك، هناك بدع راجعة إلى هيئات العبادة، مثل: الاجتماع على الذكر على نحو معين، يقولون: نجتمع على الذكر، فيذكرون الله بشكل جماعي، واحد يقول: سبحان الله، والجميع سبحان الله، سبحان الله. هذا الفعل هيئة التسبيح في أصله مشروع، ولكن هذه الهيئة غير مشروعة بدعة، لم؟ لأن سنة النبي ﷺ جاءت بشيئين: جاءت بالفعل في نفسه - يعني: بالحكم في نفسه - من حيث الفعل، أو الترك، وجاءت بهيئة الفعل. فجاءت بالتسبيح من حيث هو، وكذلك هيئة التسبيح أنه يكون - مثلًا - باليد، فَثَمَّ إذًا شيئان: الكيفية، والهيئة. والأمر في نفسه، العبادة في نفسها، فإذا كانت العبادة في أصلها مشروعة، لا بد أن تكون الهيئة مشروعة، فإذا كانت الهيئة غير

مشروعة فإن ذلك من البدع، التي تسمى البدع الإضافية، ولو كان أصلها مشروعًا، لكن لما كانت الهيئة مبتدعة كان ذلك دليل عدم الجواز، من ذلك أيضًا بعض الأذكار، مثل: أن يذكر الله ﷻ في أعلى المنارة، يعني: على المنارات يصلون على النبي ﷺ بعد الأذان، أو يذكرون الله على المآذن على نحو ما، أو يجتمعون في الصلاة على النبي ﷺ على صفة ما، هذا كله من هيئات البدع؛ لأن أصل هذه الأعمال مشروع، ولكنها مبتدعة، أعظم البدع البدع الشركية، ووسائل الشرك، ومن وسائل الشرك التي هي داخلة في البدع: الاعتناء بالقبور، من البدع - وهو من أخطر أنواعها - وسائل الشرك الأكبر، ومن ذلك العناية بالقبور، وذلك بتشييدها، أو تجصيصها، أو التسريج عليها، أو بناء الأبنية عليها، أو وضع القباب عليها، أو بناء المساجد عليها، وهو أشدها، وقد قال ﷺ: **«اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»**[١]، وقال ﷺ: **«إِنَّ مَنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ أبو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْت مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَاتَّخَذْت أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ، لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خَوْخَةُ أبي بَكْرٍ، إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»**[٢].

هذه بدعة وخيمة، ووسيلة من وسائل الشرك، لما حدثت في هذه الأمة آل الأمر بالناس إلى أن يعظموا ذلك المقبور، فيخترعوا له من الصفات ما

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

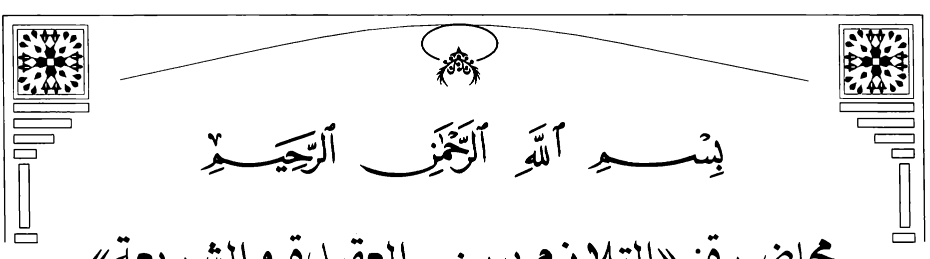
تضاهى به صفات الله ﷻ، ثم عبدوهم، وتوجهوا إليهم. من البدع المتعلقة بوسائل الشرك: أن يدعو المرء الله ﷻ متوسلًا إليه بذات أحد من الخلق، أو بجاهه، أو بحرمته، مثلًا يقول: اللهم إني أسألك بجاه نبيك، أسألك بحرمة أهل بدر، أسألك بأبي بكر، بالعالم الفلاني، فيجعل التوسل بذات، أو بجاه، أو بحرمة لظنه أن ذاك عند الله ﷻ له جاه وله حرمة، وإذا كان كذلك جاز أن يكون وسيلة، وهذا من الاعتداء في الدعاء، وبدعة ووسيلة من وسائل الشرك؛ ولهذا لم يأت أن أحدًا من الصحابة، ولا من السلف توسل بهذا التوسل البدعي؛ لأنه توسل بأمر خارج؛ فلان، أو عمل فلان، أو جاه فلان، وأنت ليس لك إلا ما سعيت: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] فتوسلت بأمر خارج عنك، فكان ذلك اعتداء في الدعاء، وبدعة، يؤول الأمر بهذه البدعة، حتى يعظم ذلك الذي يتوسل به دائمًا، فيسأل، أو تجعل له صفات من التعظيم لا يجوز أن تجعل لبشر، كذلك من الابتداع العظيم الابتداع في أنواع الاعتقاد، الابتداع في مسائل الصفات، بأن يجعل العقل محكمًا على صفات الله ﷻ، وهذه بدعة أحدثها الجهمية، والمعتزلة، فإنهم جعلوا العقل محكمًا على الغيبيات. وجعل العقل محكمًا على الغيبيات فيه تقديم العقل على ما جاء به النقل، وهذا قدح صريح في ما جاء عن الله ﷻ، أو عن رسوله ﷺ.

فإذًا: الواجب أن لا يتعرض للصفات بتأويل يخرجها عن ظاهرها، ولا أن يتعرض لها بمجاز يخرجها عن حقيقتها، فالإيمان بها على ما دل عليه ظاهرها، وعلى ما دل عليه حقيقية اللفظ الإفرادية، أو التركيبية، مع نفي المثيل عن الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

من البدع ما حدث في أبواب القدر: أن يجعل الإنسان هو الذي يخلق فعل نفسه، أو أن يجعل الإنسان مجبورًا على فعله، كقول غلاتهم من الجهمية، أو قول متوسطي الجبرية من الأشاعرة، ونحوهم. كذلك في أبواب الإيمان ابتدعت أشياء كثيرة من أقوال الخوارج، ونحو ذلك، ومن البدع المحدثة أيضًا، التي أحدثت في الدين: أن يفرق في أبواب الإمامة في الاعتقاد ما بين الإمامة العظمى، والإمامة الخاصة، قال بعضهم: الإمامة العظمى لها حقوق، هي التي جاءت في الحديث؛ وأما الإمام، أو ولي الأمر إذا كان في بلد معين، فهذا له السمع، والطاعة، وليس له حقوق الإمامة العظمى من البيعة ونحو ذلك، وهذه بدعة وخيمة خطيرة، خالف بها أصحابها ما أجمع عليه سلف هذه الأمة، وأجمعت عليه كتب الاعتقاد: من أن الإمام هو الذي له البيعة، وله السمع، والطاعة بلا تفريق، وأن الإمامة سواء كانت خاصة، أم عامة، الحقوق واحدة، فيها البيعة، وفيها السمع والطاعة، ونحو ذلك؛ لهذا أجمع المسلمون على أن بيعة، وإمامة أهل الأندلس للأمويين فيها صحيحة ماضية، وعلى أن بيعة من في الشرق من أهل بغداد، أو العراق، والحرمين، ودمشق، ومصر... إلى آخره، أن بيعتهم للعباسيين ماضية، فقام إمامان هنا وهنا، وكل منهما إمامته إسلامية، والبيعة منعقدة لهذا ولهذا، كلٌّ بحسب محله، ولم يفرقوا في هذا الأمر ما بين الإمامة العظمى، والإمامة الخاصة، هذا والحديث في هذا الباب يطول، فالحذر الحذر من كل سبيل فيه مخالفة السنة، فكل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف، وأهل البدع قال الله ﷻ فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]

فكل من شرع شيئًا في الدين، أو جعل شيئًا في العقيدة؛ لأن العقيدة تسمى شريعة، من جعل شيئًا في ذلك على غير ما عليه الأمر الأول، فقد جعل نفسه شريكًا لصاحب الرسالة في التشريع، وهذا - والعياذ بالله - من أشد ما يكون خطرًا من جهة المبتدع، كذلك البدع تفرق بين الناس، ويعاقب الله ﷻ الناس بالبدع، يعني: إذا سلكوا البدع بالتفريق بين قلوبهم، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا يدخل فيهم كل من سعى في التفرقة باتخاذ طريقة في الدين مبتدعة، كالطرق الصوفية المختلفة؛ هذه طريقة شاذلية، وهذه نقشبندية، وهذه قادرية، وهذه تشتية، وهذه وهذه. وكل هذا من التفريق في الدين وسبيل المصطفى ﷺ واحد: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فهل نقبل وصية الله ﷻ؟ وهل نقبل وصية المصطفى ﷺ؟ فالله الله في السنة، الله الله في الالتزام بها، الله الله في الحذر من البدع، وفي الإنكار على أهلها، وفي المجاهدة في ذلك، فإن ذلك من أعظم أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين.



محاضرة: «التلازم بين العقيدة والشريعة»

لفضيلة الشيخ/ صالح بن عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم آل الشيخ

وعلق عليها سماحة الشيخ / عبد العزيز بن باز رحمه الله ورفع درجاته في عليين

وقد قام فضيلته بإلقائها بالجامع الكبير

الحمد لله ولي الحمد والفضل والإحسان، أنعم علينا ببعثة محمد ابن عبد الله ﷺ؛ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وأنعم علينا بأن جعل هذا الدين خاتمًا للأديان، فرضه ﷻ لنا دينًا، وأمرنا بتصديق أخباره، والالتزام بأمره، ونهيه؛ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأمر والنهي، فلن يزيغ عنها إلا هالك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على بيضاء نقية ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك، اللهم صلِّ على عبدك، ورسولك محمد كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن الصلاة عليه الغافلون، وعلى الآل، والصحب

أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد؛

فأسأل الله ﷻ لي ولكم أن نكون ممن إذا أذنب استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وهذه الثلاث عنوان السعادة، ثم إن هذه المحاضرة موضوعها مهم، ويحتاجه الناس في كل وقت، وفي كل حال، عنوانها (التلازم بين العقيدة والشريعة) يعني: أن الاعتقاد والعمل بينهما تلازم، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فلا عقيدة صحيحة بلاعمل، كما أنه لا عمل يقبل إلا بعقيدة صحيحة؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ، وَإِنَّمَا لامْرِئٍ مَا نَوَى**»[١]، وهذا التلازم بين العقيدة والشريعة ظاهر في عقد الإيمان، وفي أصل الديانة؛ لأن الشهادتين؛ (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله) كل منهما فيه التلازم بين الاعتقاد والعمل، بين العقيدة الصحيحة، وبين شرائع الإسلام، وكذلك فيما بين الشهادة الأولى، والشهادة الثانية تلازم بين الاعتقاد، والعمل، والشريعة، (شهادة أن لا إله إلا الله) معناها: لا معبود بحق إلا الله ﷻ، وهذا النفي؛ لأحقية معبود للعبادة، (إلا الله) ﷻ يقتضي أن هناك عبادة لا تصح إلا بعقيدة، بإخلاص، وبتوحيد، والعبادات مختلفة، فإذا دلتنا كلمة التوحيد على الارتباط العظيم ما بين العقيدة، والدين، والتوحيد، وما بين الشرائع، والعبادات، وكذلك شهادة أن محمدًا رسول الله، التي معناها: أنك تقر، وتوقن، وتعلم، وتخبر بأن محمد بن عبد الله الهاشمي ﷺ هو رسول الله،

---

(١) أخرجه البخاري (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وخاتم الأنبياء، وخاتم المرسلين، ومقتضاها: تصديقه ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى، وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع ﷺ. فقولنا: في مقتضاها تصديقه ﷺ فيما أخبر هذا متصل بالاعتقاد، فكل ما أخبر الله ﷻ به فواجب تصديقه؛ لأن الله ﷻ هو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ولا أحد يخبر عن الله ﷻ، وعن خلقه بأصدق من الله ﷻ، كذلك نبيه ﷺ يخبر بوحي من الحق ﷻ؛ فلهذا كانت كل الأمور الغيبية، وما يتصل بالله ﷻ، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله ﷻ، وأمور الجنة، والنار، والقدر، والغيبيات، كلها راجعة إلى أن نصدق هذه الأخبار، وهذا هو الاعتقاد، والإيمان الباطن، واتباع أمره ﷺ، واجتناب نهيه، هذه هو الشريعة، طاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع؛ فلهذا دلت شهادة أن محمدًا رسول الله على أنه لا انفكاك بين الاعتقاد، وبين العمل، لا انفكاك بين الاعتقاد، واتباع شريعة الإسلام؛ لأن النبي ﷺ جاء بهذا، وهذا جاء بالعقيدة، وجاء بالشريعة.

وإذا تبين ذلك فأصل لفظ (العقيدة والشريعة) مما جاء مطلقًا، ويكون - أيضًا - مقيدًا بمعنى، وإيضاح ذلك أن الشريعة تُطلق ويُراد بها العقيدة، ويُراد بها أعمال - أيضًا - مع الاعتقاد، فإن دين الإسلام شريعة؛ كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال ﷻ - أيضًا - في السورة نفسها، سورة الشورى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ﴾ [الشورى: ٢١]

الآية، ففي هذه الآيات ما بين أن الشريعة هي دين الإسلام كله، وهي دين الإسلام بما يشمل الاعتقاد الباطن، وبما يشمل الأعمال الظاهرة؛ ولهذا نقول: أن الشريعة تُطلق، ويُراد بها الدين كله، وتطلق الشريعة ويراد بها ما يقابل العقيدة، يعني الأعمال والشرائع التفصيلية العملية؛ كما قال ﷻ في سورة المائدة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[١].

وألف أهل السنة بعض المؤلفات وأسموها الشريعة، ويعنون بها في بعض الاعتقاد، ويعنون بها في بعض العمليات؛ ولهذا نقول: إن لفظ العقيدة والشريعة قد يترادفان، فيكون الاعتقاد هو التشريع، والعقيدة هي الشريعة، وقد يُراد بالشريعة ما يكون قسيمًا للعقيدة، تكون العقيدة بمعنى: الإيمان الباطن الذي يَعقِدُ المرء عليه قلبه، بحيث لا تنفك عُقدته من شدة يقينه به، ويعني بالشريعة: الأعمال الظاهرة، كما جاء في الحديث أن رجلًا أتى النبي ﷺ وقال: «**إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ**»[٢]، يعني: إن التفصيلات، أو الأوامر كثرت عليّ، فأخبرني... إلى آخر الحديث، الذي ذكر في ذكر الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج... إلى آخره.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩/ ٢٢٦)، والترمذي (٢٣٢٩، ٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥١)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠١، ١٣/ ٤٥٧)، وعبد بن حميد (٥٠٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٣٥٧)، وابن حبان (٨١٤)، والطبراني في الدعاء (١٨٥٤)، وفي الشاميين (٢٠٠٨، ٢٠٤٥)، والحاكم (١/ ٤٩٥)، والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧١)، وفي الشعب (٥١٥).

فإذًا: حين نقول: معنى التلازم بين العقيدة والشريعة، نعني به الارتباط ما بين ما يعتقده الإنسان، ما يعتقده المسلم، وما بين عمله، ما بين عقيدة الإسلام، وما بين شريعة الإسلام، ما بين أركان الإيمان الستة، وما بين أركان الإسلام، وتفصيلات شعب الإيمان.

والإيمان نفسه شعب تجمع الشريعة، والعقيدة؛ كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»(١).

فذكر عقيدة، وذكر فعلًا، الذي هو إماطة الأذى عن الطريق، ثم قال: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»؛ لأنه عمل قلبي.

إذًا، فمرادنا بهذه المحاضرة ما ذكرته من أن اعتقاد المؤمن، وعمله بالشريعة لا انفكاك بينهما، ويوضح له ذلك أن الله ﷻ في كتبه بين هذا التلازم بكونه ﷻ أمر بهذا، وهذا جميعًا، فقال ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، هذه أركان الإيمان، فذكر البر بذكر العقيدة، ثم قال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، إلى أن قال: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٧٧]

---

(١) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه: «**فأفْضلُها قوْلُ لا إله إلا الله**»، ورواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٢٠)، والطبراني في الأوسط (٩/ ٢٠) وكلاهما فيه: «**أعْلاها شهادةُ أنْ لا إله إلا اللّهُ**».

فجمع في البر ما بين الاعتقاد وما بين العمل، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، وهذا الإسلام، إسلام الوجه لله، هو إخلاصه لله ﷻ في عباداته، وفي ما يتقرب به إلى الرب ﷻ، ثم قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: أن يكون عمله حسنًا، والعمل الحسن هو: ما فيه الإخلاص، وفيه متابعة السنة.

فإذًا: لابد من اجتماع الاعتقاد الصحيح، واجتماع العمل الصواب؛ حتى يكون المرءُ من أهل البر؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. وكذلك في قوله ﷻ - لهذه الأمة -: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦] الآية في سورة النساء، فجمع ﷻ في الأمر ما بين العقيدة والتوحيد، وهو عبادته وحده لا شريك له، وما بين الإحسان والعمل، وكذلك في قوله ﷻ - في ذكر بني إسرائيل -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، فأمر ﷻ بني إسرائيل، وأخذ عليهم الميثاق، بأن يكونوا أهل توحيد لا يعبدون إلا الله، وفي قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]، هذا نفي لعبادة غير الله ﷻ.

ومن المتقرر في علم المعاني من البلاغة: أن العدول عن النهي إلى النفي فيه التأكيد، والتشديد على ما عدل عنه؛ لأن أصل الكلام: وإذ

أخذنا ميثاقكم ألا تعبدوا إلا الله، ولكن عدل عن النهي إلى قوله ﷻ: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]، كأن المنهي عنه صار حقيقة واضحة، بحيث ينفي وجوده أصلًا، وهذا فيه التأكيد الشديد على هذا الأمر، ثم أمر الله ﷻ بالإحسان إلى الوالدين، وذي القربى، واليتامى، والمساكين، فلما أمر بالأفعال الحسنة أمر بعدها بالأقوال الحسنة، فقال ﷻ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: ٨٣]، ثم انتقل إلى الأمر بإقامة الصلاة، وهي أعظم الأركان العملية، وهذا بيِّن واضح في أن الآيات الكثيرة في كتاب الله ﷻ جمع فيها ما بين العقيدة، واتباع الشرائع.

فإذًا: يكون التفريق ما بين العقيدة والشريعة في العمل، أو في التصور، وهذا التفريق بين متلازمين، لا ينفك أحدهما عن الآخر، يوضح لك ذلك أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة بما دلت عليه النصوص يجمع الاعتقاد، والقول، والعمل، فالإيمان عندنا: اعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، وقول باللسان. والعمل جزء من مسمى الإيمان، والاعتقاد جزء من مسمى الإيمان، كذلك القول جزء من مسمى الإيمان، فلا يصح إيمان بعقيدة دون عمل، فمن لم يعمل من شرائع الإسلام بشيء ألبتة، فلا يصح إيمانه؛ ولهذا كل مؤمن لابد أن يكون معه عمل يصحح به إيمانه، فإن لم يكن معه عمل يصحح به إيمانه، فإنه لايقبل منه الإيمان، بل يكون الإيمان دعوة، وأعظم هذه الأعمال الصلاة، فهي الفارقة ما بين الإيمان، وبين الكفر؛ كما بين في الصحيح من حديث جابر أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ**»[1]، وفي السنن، وفي المُسنَد،

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وفي غيرها بإسناد صحيح من حديث بريده ﷺ مرفوعًا: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(١).

المقصود من هذا: أن يتضح لك أن الإيمان عندنا بما دلت عليه النصوص عقيدة في القلب، وعمل بالأركان، وقول باللسان. وهذا الأصل العظيم يجعل أنه في حال أي أحد لا يتصور أن يكون ذا عقيدة صحيحة، وليس له عمل، لا يتصور أن يكون ذا إيمان صحيح صادق، ولا يعمل خيرًا ألبتة، مع تمكنه من ذلك؛ ولهذا ضلت المرجئة، وفئام من هذه الأمة؛ حيث قالوا: إن الاعتقاد يكفي في الإيمان، أو أن الاعتقاد مع القول يكفي. على اختلاف أقوال المرجئة في ذلك، فالعمل من الإيمان، والله ﷻ حين قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، العطف هذا عطف خاص على عام؛ لأن الإيمان عام يشمل العمل، وزيادة، والعقيدة، والقول، فعطف العمل على الإيمان، لَمَ؟ لينبه أن العمل مهم في الإيمان؛ لأن عطف الخاص على العام موجود في القرآن في مواضع، ومعروف في اللغة، ويفيد في البلاغة الاهتمام بهذا الخاص الذي أفرد بالذكر، وعطف على العام، وهذا يدلك على أن العمل في الإيمان مهم، بل إن الله ﷻ ذكر الإيمان في القرآن مقرونًا بالعمل الصالح في أكثر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٧)، وابن حبان (٤/ ٣٠٥)، والدارقطني في سننه (٢/ ٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦)، وشعب الإيمان (١/ ٧٢).

المواضع، فالاستمساك بالعروة الوثقى، والاستمساك بالديانة الصحيحة أن يكون المرء مؤمنًا بالله ﷻ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ويكون عاملًا بما آمن به؛ لأن إيمانه بالله يقتضي العمل، وإيمانه بالرسل يقتضي العمل، وإيمانه بالكتب يقتضي العمل، وإيمانه باليوم الآخر يقتضي العمل، فكل من خاف الدار الآخرة عمل. فإذًا: كل ركن من أركان الإيمان يدلنا على التلازم فيما بين العقيدة، وفيما بين الشريعة.

والاعتقاد الذي أُمرنا به هو الإيمان بأركان الإيمان الستة، كما جاء في القرآن: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فالإيمان بأركان الإيمان هذه تنتج أمرًا لا محيد عنه، ألا وهو العمل، فمن صدق في إيمانه اتجه للعمل؛ لأن هذه الأركان تجعل في القلب عقيدة في الله ﷻ تلزمه بالتقرب إلى الله ﷻ، وكلما قوي إيمانه قوي تقربه من الله ﷻ، وكلما عظم الإيمان في القلب عظم إتيانه لشرائع الإسلام، وإتيانه للواجبات، وللمستحبات، ومن قصر في شيء من الواجبات، فإنه ينقص من إيمانه بقدر ذلك، كما أن من ارتكب بعض المنهيات نقص من إيمانه بقدر ذلك، العقيدة -أيضًا- مرتبطة بالعمل بالشريعة، من جهة أن العمل منشأه العقيدة، وأن العقيدة تزيد بالعمل وتنقص بالعمل، فالاعتقاد أهله ليسوا في أصله سواء، وإنما يختلفون فيه بقدر ما في قلوبهم من اليقين الذي يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح بما دلتهم عليه النصوص من الكتاب والسنة -الكثيرة المعروفة في مواضعها-

كان من اعتقادهم: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، الإيمان بالله يزيد بالعمل، وينقص بالعصيان، أو بترك العمل الواجب، والإيمان باليوم الآخر يزيد بالعمل، وينقص بترك العمل، أو بالإتيان بشيء من المحرمات.

إذًا: دلك على أن القلب إذا ورد ما فيه على العمل زاد العمل، ثم رجع العمل على القلب بزيادة في العقيدة، وزيادة في التوحيد. فالعقيدة تلزم صاحبها بالعمل الصالح، وكلما قويت قوي العمل، وإذا أحسن عمله من أثر الاعتقاد الصحيح، والتوحيد الصحيح، فإنه يرجع ذلك العمل إلى العقيدة بقوتها، وزيادتها؛ ولهذا قال الحسن - كما أشرت - كلمة عظيمة: **(عاملنا القلوب بالتفكر فأورثها التذكر، فرجعنا بالتذكر على التفكر، وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار)**[1]. عاملنا القلوب بالتفكر؛ امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

عاملنا القلوب بالتفكر في آلاء الله، في آياته، في دلائل نبوة محمد ﷺ، في القرآن، في المآل، في الجنة، في النار. عاملنا القلوب بالتفكر، وتخلصنا من الغفلة، فنتج من هذا التفكر التذكر بالتزام الشريعة، التذكر للالتزام بالعمل، التذكر للازدياد من الطاعة، والبعد عن المعصية، فرجعنا بالتذكر هذا، بالعمل الصالح على التفكر، يعني: على العقيدة، وحركنا القلوب بهما، يعني: لا يزال ما بين توحيد، وإخلاص، وعقيدة يؤول بك

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٤)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٧)، والاستقامة (١/ ٢١٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومدارج السالكين (١/ ٤٤١)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣) لابن القيم رحمه الله.

إلى العمل، ثم ترجع بالعمل إلى العقيدة، فتحرك القلب، ولهذا قال الحسن: (**وحركنا القلوب بهما، فإذا القلوب لها أسماع وأبصار**)، وهذا من ثمرات الاعتقاد الصحيح أن يجعل العمل لازمًا لصاحب الاعتقاد، وهذا أمر بَيِّن واضح، ويدلك -أيضًا- على أن العقيدة، والشريعة متلازمة أن الله ﷻ أمرنا بتوحيده، وعدم الشرك به والبراءة من الشرك، وأهله، وأمرنا بترك المحرمات في مواضع كثيرة من كتابه ﷻ؛ كما قال ﷻ في آخر سورة الأنعام، في الآية التي تسمى آية الوصايا العشر: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١] الآية، بل الآيات.

فإذًا: إذا صحت عقيدتك صح عملك، وإذا أردت أن يقبل عملك فعليك بمتابعة محمد ﷺ، فإن الله ابتلى الناس جميعًا بمحمد ﷺ؛ كما ثبت في صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله، من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أنه قال: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: إلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا...... وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[1].

وهذا الابتلاء بمحمد ﷺ ابتلاء لنا بما بعث به، وقد بعث ﷺ بعقيدة، يعني: بأخبار يجب علينا أن نؤمن بها، وبأوامر ونواهٍ يجب علينا أن نمتثل بها، فحقيقة الابتلاء ابتلاء الناس بما أنزل الله ﷻ في كتابه، وما أنزله على رسوله ﷺ، هل يصدقون بالأخبار، أم لا يصدقون؟ هل يعتقدون الاعتقاد الصحيح بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر، أم لا؟ وهل يمتثلون الأمر والنهي، أم لا يمتثلون؟ وهذه هي زبدة

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

الرسالة، العقيدة، والشريعة، عقيدة باطنة يعقد عليها القلب قوله واعتقاده، وعمل هو نتيجة تلك العقيدة.

مما يدلك - أيضًا - على ذلك، كما ذكرت أن الله ﷻ ابتلانا بحسن العمل؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وحفظتم تفسير حسن العمل، بأن العمل الحسن هو الخالص الصواب، خالص من الشرك والرياء، فلا يقصد به إلا وجه الله ﷻ، وخالص - أيضًا - صوابًا من متابعة المصطفى ﷺ، خالٍ من متابعة غيره ﷺ، وصواب على السنة بمتابعة الخليل محمد بن عبد الله ﷺ.

فإذًا: المسألة واضحة في أن العقيدة والشريعة، الاعتقاد والعمل، هذان أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، فإذا وجدت العقيدة الصحيحة وجد العمل، وإذا وجد العمل الصحيح وجدت العقيدة، فهذا وهذا أمران يدل أحدهما على الآخر.

إذا تقرر هذا، والموضوع له شعب، ويطول تقريره، وفي القرآن من الآيات الشيء الكثير مما يدل على هذا الارتباط العظيم، مما نذكره في هذا المقام: أن هذا الارتباط ما بين العقيدة، والشريعة، والتلازم فيما بينهما له آثاره على المؤمنين في أنفسهم، وفي تعاملهم مع من حولهم، وكذلك له آثاره على مجتمع أهل الإسلام، وأمة أهل الإسلام، ودولة أهل الإسلام، فإن الله ﷻ أمر عباده إذا مكنهم في الأرض، أن يعبدوه، وأن لا يشركوا به شيئًا، وأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وأن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، الشق الأول دلت عليه آية سورة النور: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ

بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، والشق الثاني - الأمر والنهي، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة - دل عليه قوله ﷻ في سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١]، فعبادة الله وحده لاشريك له هي الإصلاح، والصلاح، فنشر العقيدة الصالحة في الناس في أمة الإسلام نشر الصلاح، والإصلاح، ونشر ضد ذلك من الخرافة، والشرك، أو البدع، ووسائل الشرك، ووسائل البدع هذا إفساد في الأرض بعد إصلاحها؛ كما قال ﷻ في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال أهل التفسير: الإفساد في الأرض بعد إصلاحها بالشرك بعد أن أصلحها الله بالتوحيد ببعثة محمد ﷺ[(١)]، فإذا صَلُحت الأرض، وازدانت، وتزينت، وأصبحت جميلة، فإنما ذلك بالتوحيد، إنما ذلك بهدم كل مظهر من مظاهر الشرك، والوثنية، وكل مظهر من مظاهر الشرك، الذي يدعو إلى تعظيم غير الله ﷻ، بما لا يجوز تعظيم ذلك الغير به، ووسائل الشرك محرمة؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإذًا: أثر الارتباط ما بين العقيدة، والشريعة يظهر لك في مجتمع أهل الإسلام، ففي عهده ﷺ ظهر ذلك أيما ظهور صلاح في الاعتقاد، وصلاح - أيضًا - في الأمر والنهي، وتحكيم الشرع، وإقامة حدود الله ﷻ، والأخذ على يد السفيه، والأطر على يد الظالم، وهذا الارتباط لابد منه، ولا يجوز أن يظن ظان أنه يكتفي بعقيدة دون تطبيق لشرائع الإسلام، أو يقول: نطبق الحدود، ولا نقيم توحيد الله ﷻ، وكلتا المسألتين دعوة ادعاها طائفة من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٠١، ٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

الناس، فإنه يجب على أهل الإسلام في مجتمعهم، وفي دولتهم أن يقيموا توحيد الله ﷻ، وأن يتبرءوا من الشرك قولًا وفعلًا، وأن يحكموا شرع الله بإقامة الأمر والنهي، وإقامة الحدود، وحفظ الدين، وحفظ العرض، وحفظ المال، وحفظ العقل.. إلى آخر حفظ الضروريات.

وهذا تلازم لابد منه، فاجتماعهما إصلاح، والإخلال بهما إفساد، وكلما ازداد أهل الإسلام تمسكًا بالعقيدة والشريعة في أنفسهم، وفي مجتمعهم زاد صلاحهم في أنفسهم، وفي مجتمعاتهم، يظهر لك ذلك بآثار إقامة هذا التلازم، وهذا الارتباط بين العقيدة والشريعة، فإن الله ﷻ وعد الذين آمنوا، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم بالأمن في الدنيا، والأمن في الآخرة؛ كما قال ﷻ في آية الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، لهم الأمن في الدنيا، ولهم في الآخرة، وهذا الظلم الذي لم يلبسه أهل الإيمان، ولم يتلبسوا به هو الشرك؛ كما ثبت تفسير ذلك عن النبي ﷺ في الصحيح عن عبد الله رضي الله عنه: «**قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ **قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ** ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ **بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ** ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[(١)].

إذا تقرر لك ذلك: فإن الله ﷻ يحب المتقين، ويحب الصادقين، والتقوى والصدق جماعهما راجع إلى العقيدة، وإلى العمل، فإن التقوى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤).

أُمر بها الناس جميعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، أي: بتوحيده ﷻ، وترك الشرك، وأمر بها أهل الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، بأن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصيته، وتبتعد عنها على نور من الله، تخشى عقاب الله ﷻ، فإذا جمعت في أمرك ما بين الالتزام بتوحيد الله ﷻ، والإنابة إليه، والخضوع، والإخلاص له، وتوطين القلب على أن لا يكون فيه إلا الحق ﷻ، وعملت بما عمل به النبي ﷺ ما استطعت من ذلك؛ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦]، فأنت على خير، وإلا فإنه بقدر النقص في أداء الواجبات، أو ترك المنهيات، يكون الوعيد، والتهديد، قال ﷻ: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: ١ - ٣].

آثار هذا التلازم في حياة الفرد، في حياتك أيها المؤمن، في نفسك، في العقيدة الصحيحة من ثمراتها أن الله ﷻ يبارك لأهلها في عملهم وإن قل، فالعمل الصالح وإن كان قليلًا مع عقيدة صحيحة يبارك الله ﷻ فيه، ويربي لأهله الحسنات، حتى تكون كأمثال الجبال، ومن أحسن ما قيل في ذلك قول أبي الدرداء رضي الله عنه، حكيم هذه الأمة، إذ قال: «**يا حبذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم؟ ولمثقالُ ذرةٍ مِنْ برٍ مَعَ تقوى ويقينٍ، أعظمُ وأفضلُ وأرجحُ مِنْ أمثالِ الجبالِ عبادةً مِنَ المغترين**»[1]

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (١٣٧)، و أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١)، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ١٧٥) من طرق عن أبي سعيد الكندي عمن أخبره عن أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفًا، وفي سنده مجهول. =

(ولمثقالُ ذرةٍ مِنْ برٍ) يعني: من عمل صالح، وقوله: **(مَعَ تقوى ويقينٍ)** يعني: مع عقيدة صحيحة. رواه الإمام أحمد في الزهد، وغيره بإسناد لا بأس به.

فمن فوائد العقيدة الصحيحة، ومن فوائد التوحيد: إن العمل وإن قل يبارك الله ﷻ فيه.

ومن فوائد العقيدة الصحيحة: إن المؤمن إذا عمل، فإنه يرجى له المغفرة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وفي حديث أنس رضي الله عنه المعروف أن النبي ﷺ قال: «**قالَ الله تعَالى: يا ابنَ آدمَ إنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى ما كانَ مِنكَ ولا أُبَالِي، يا ابنَ آدمَ لَوْ بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السّمَاءِ ثُمّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَك، يا ابنَ آدمَ إنّكَ لَوْ أتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأرْضِ خَطَايَا ثُمّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بي شَيْئًا لأتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»(١).

فلابد من العمل الصالح مع عقيدة صحيحة، فإن كان المرء مع ذلك يخلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فإنه إن صح اعتقاده، وصح عمله الصالح، نتيجة لتلك العقيدة، فإنه يرجى له أن تغفر خطيئته، وما أحسن ما ذكر عن الأحنف

= قال ابن القيم رحمه الله: (وهذا من جواهر الكلام، وأدلة على كمال فقه الصحابة، وتقدمهم على من بعدهم في كل خير رضي الله عنهم). انظر: الفوائد لابن القيم رحمه الله (ص ١٤١).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه، قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وأخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أحمد في مسنده (٥/ ١٤٨)، والدارمي (٢٧٨٨)، والبزار (٩/ ٤٠٣)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٦٩)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

ابن قيس الحكيم المعروف؛ حيث قيل له: يا أحنف، أين تجد نفسك؟ أمن أهل الجنة، أم من أهل النار؟ فقال: (أمهلوني)، ثم قال لهم بعد مدة: (عرضت نفسي على صفة أهل الجنة، فإذا فيها قوله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥ - ٢٠] الآيات، فلم أجد نفسي في صفة أهل الجنة، ثم عرضت نفسي على صفة أهل النار، فما وجدت نفسي ممن وصف الله ﷻ من أهل النار، ثم نظرت فإذا شأني أني خلطت عملًا صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يعفو عني)(١).

وهذا إنما يكون لمن صح اعتقاده، بأن يكون دائمًا يرى نفسه مقصرًا، يرى نفسه مذنبًا، يرى نفسه ظالمًا، فإذا صحت العقيدة وجد معها عمل في حياتك أيها المسلم، ووجد مع العمل، والعقيدة الصحيحة، التي تجاهد نفسك عليها، وجد معها خوف، واستحضر دائمًا قول النبي ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه في تعليمه الدعاء في آخر الصلاة؛ كما في حديث عبد اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: **«عَنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ** رضي الله عنه: **أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ** ﷺ: **عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»**، وهو أبو بكر رضي الله عنه قال له ﷺ: **«قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»**(٢).

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٤)، والدر المنثور (٤/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦)، ومسلم (٢٧٠٥).

فإذا صحت العقيدة صح العمل بالشريعة في حياتك، وكنت مع ذلك على خوف من أن لا تكون ممن غفر الله لهم، أو تقبل الله ﷻ عملهم.

من ثمرات الارتباط في حياتك ما بين العقيدة، وبين العمل والشريعة: أن تسعى فيما تعمل لابتغاء وجه الله ﷻ، وكثر من الناس قد يعمل العمل، ولا يجاهد نفسه في أن يكون عمله خالصًا ابتغاء مرضاة الله ﷻ، والحظ قوله ﷻ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، فأثبت الله ﷻ أن في هذه الثلاث خيرًا، ولكن هل يؤجر عليها؟ قال ﷻ بعد ذلك: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]؛ إذًا: فالعمل إذا صح عندك الاعتقاد، وصح عندك العمل، جاهدت نفسك في أنه في كل عمل تعمله تريد به ابتغاء وجه الله ﷻ، وانظر إلى الربيع بن خثيم رحمه الله، خاصة مع بن مسعود، إذ قال لأهله مرة، وكان مبصرًا، وكانت بنت بن مسعود تسميه الأعمى؛ لأنه ما طرق يومًا باب ابن مسعود، وهو فاتح عينيه؛ خشية أن يرى من بيت معلمه، وشيخه ما لا يحب أن يراه، فكانت بنته تقول لابن مسعود: جاء الأعمى، من أنها لم تره إلا مغمضًا عينه، الربيع بن خثيم من سادات التابعين، ومن صالحيهم، قال مرة لأهله: اصنعوا لي طعامًا، ووصفه من أنفس أنواع الطعام، فصنعوا ذلك الطعام ظنًا منهم أنه سيأكله، فحمله معه رحمه الله إلى رجل في الكوفة أعمى لا يرى، وأبكم، وأصم، لا يتكلم، ولا يسمع، فجلس الربيع بجنبه، وأخذ يطعمه الطعام، ويأكل معه، فقال له بعض تلاميذه: يا ربيع هذا أعمى، وأبكم، وأصم، لا يدري هل أتيته، أو لم

تأته، فلو بعثت إليه وجلست تعلمنا، قال: هو لا يرى، ولا يسمع، ولكن الله يسمع ويرى[(١)].

هذا الارتباط ما بين العقيدة والعمل، إصلاح للعمل، ومجاهدة في الإصلاح بإخلاص الدين لله ﷻ، بأن لا يكون للناس حظ في عملك ألبتة، هذا من ثمرات إخلاص العمل، رضوا أو لم يرضوا، حمدوك أو لم يحمدوا، المهم أنك صححت عقيدتك، وصححت عملك، وصرت موافقًا للأمر والنهي، وهذا لو جاهدنا أنفسنا عليه لذهبت كثير من مظاهر السوء فيما بيننا؛ من الرياء، والسمعة، والحسد، وأشباه ذلك؛ لأن الله ﷻ مراقب العباد؛ ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤].

من ثمرات هذا الارتباط في حياة المؤمن ما بين العقيدة، وما بين الشريعة: أن صلته بمن حوله قائمة على إحسان العمل؛ ولهذا قال ﷻ في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فصحة العمل، وصحة الاعتقاد يتبعه أن يكون المرء ذا عفو وعفة، أن يكون ذا خلق حسن؛ لأنه كلما صح الاعتقاد، وصح العمل، ازدرى المرء نفسه، وكثير من السلف كان يقول: إنه لا قوم في قلبي إلا كل أحد من المسلمين خير مني. فإذا نظرت للناس على هذا الاعتبار، فإنك ستأتي إليهم ما تحب أن يأتوا إليك، بل ستحب المرء لا تحبه إلا لله ﷻ، في المعاملات، في البيع، والشراء، في صلة الرحم، فيما تأتي في بيتك، وأسرتك، وفي أداء الأمانات المختلفة،

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٦/ ١٨٨).

وفي الوظيفة، وفي جميع أنواع الأعمال، الارتباط في نفسك، ما بين صحة يقينك بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، مؤثر في أنواع عملك، فمن صح اعتقاده في قلبه، وآمن إيمانًا صحيحًا بأركان الإيمان، وأخلص لله ﷻ، عمل في أداء الأمانات، وفي معاملته للمسلمين بما أوجب الله ﷻ عليه، ولو فعل هذا وانتشر لصحت أحوال المسلمين، وصحت أعمالهم، وارتباطاتهم، فكل سوء تراه، وكل كبيرة تظهر، وكل عمل سيئ يظهر، إنما هو نتيجة للتفريط في العمل، الذي هو نتيجة لضعف الإيمان، أيضًا ننبه على مسألة مهمة، وهو ما يشيع عند بعض الناس في تساهله بالأعمال الصالحة، بأداء الواجبات، وبارتكاب المحرمات، بأنه صاحب عقيدة صحيحة، فيقال: مثلًا: أهل البلد الفلاني أو أهل القطر الفلاني، هذا أصحاب عقيدة، ويعبرون من هذه الكلمة إلى التساهل في ترك الواجبات، وارتكاب المحرمات، وهذا جهل عظيم؛ لأنه لو صحت عقائدهم، وقويت لقوي عملهم، بل إذا ضعف العمل ضعف الإيمان، وإذا قوي العمل قوي الإيمان، فعندنا الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فإذا قويت عقيدة أحد قوي عمله، وإذا قوي العمل - يعني: حسن - فإن عقيدته صحيحة، إذا كان عمله على الصواب، وليس المراد كما هو معلوم بقوة العمل كثرة العمل، بل المراد أن يكون عاملًا على وفق الكتاب والسنة، عاملًا بالأمر، وبالنهي، والمؤمنون - كما هو معلوم - ثلاث درجات؛ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فإذًا: لا يحسن، بل لا يجوز أن تظن أن المرء يأتي بما شاء من المعاصي، ويترك ما شاء من الواجبات، ثم يقول: أنا على عقيدة صحيحة، هذا غلط

عظيم، بل يجاهد نفسه في العمل الصالح، في ترك المحرمات؛ لتقوى عقيدته، ويقوى إيمانه، نعم كل مسلم معه من الإيمان ما يصحح به إسلامه، بقدر الذي هو أصل الإيمان، لكن كلما ازداد العمل الصالح ازداد الإيمان.

من ثمرات الترابط، والتلازم ما بين العقيدة والشريعة في أحوال المسلمين: أن خاصة أهل الإيمان، وهم من أهل العلم، أو طلبة العلم، أو الدعاة إلى الله ﷻ، أو المجاهد في سبيل الله ﷻ، أن يكون عنده هذا التلازم، ما بين إيقانه بالعقيدة الصحيحة، بالتوحيد الخالص لإيمانه بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله بمتابعة السلف الصالح، بالإيمان بما أقره أهل السنة والجماعة، وما بين العمل. وقد يرى أن طائفة تعظم العمل، ولكنها في الاعتقاد ليست على شيء، هؤلاء لهم سلف، وهم الخوارج، فإن النبي ﷺ وصفهم بقوله: «**يَحْقِرُ أحدكم صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ من الدِّينِ كَمُرُوقِ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ**»(١).

وطائفة قالوا: نحن على عقيدة صحيحة، وعلى عقيدة أهل السنة والجماعة، وعلى اتباع السلف الصالح. لكن إذا رأيت عملهم لم تجده عمل السلف، وإذا رأيت خلقهم لم تجده خلق السلف الصالح، ألسنتهم مطلقة في كل شيء في غيبة، وفي نميمة، وفي تعدٍّ، وفي قيل وقال، وعملهم للناس ليس بالحسن.

لهذا تجد أن أهل السنة والجماعة يذكرون فصلًا في عقائدهم؛ كما في آخر (الواسطية)، وكما في آخر اعتقاد أهل الحديث الذي ساقه الأشعري

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

في كتابه (مقالات الإسلاميين)[١] في أن من صفات أهل السنة والجماعة، أهل الحديث، أهل الأثر، أنهم يقولون القول الأحسن، أنهم يجتنبون الغيبة، والنميمة، وأنهم يصلون، ويتقربون إلى الله ﷻ، وأنهم يعفون عن الناس، وأنهم يأتون للناس ما يحبون أن يأتي الناس إليهم. وهذا منه ما هو واجب، ومنه ما هو مستحب، لكن هذه ثمرات الاعتقاد الصحيح.

فإذًا: العقيدة الصحيحة - يا أهل العقيدة - إذا صحت في القلوب صار لها أثر على اللسان، صار لها أثر على العين، صار لها أثر على السمع، صار لها أثر على الجوارح. فالدعوة بأنك صاحب عقيدة صحيحة، وأنك متبع للسلف الصالح رضي الله عنهم، وأنك على طريقة أهل السنة والجماعة، ومع ذلك لسانك واقع في كل محرم، وعينك في كل شيء، هذا لا شك أنه ينقص في الاعتقاد، ولا يصح أن ينسب هؤلاء لطريقة أهل السنة والجماعة بإطلاق، بل معهم من معتقد أهل السنة، ومن طريقتهم بقدر ما حققوا، وينقصون من ذلك بقدر ما نقصوا.

في هذا الزمان ظهرت دعوة عظيمة ألا وهي أن الإيمان الذي هو اعتقاد باطن يكفي عن تطبيق الشريعة في المجتمعات، ويزعم هؤلاء أن الدين إنما هو الإيمان الباطن، وأما تحكيم الشريعة في المجتمعات، فهذا راجع إلى نظر الناس، فإن رأوا فيه المصلحة فعلوه، وإن لم يروا فيه المصلحة تركوه، ويرددون كثيرًا هذا مؤمن بالله، وهؤلاء أهل الإيمان، مع أنهم يدَّعون، أو يدعون إلى فصل الشريعة عن الحياة، وعن التطبيق، والله ﷻ

(١) انظر: اللآلى البهية في شرح الواسطية (٢/ ٦٣٠)، ومقالات الإسلاميين (ص ٢٩٧).

أمر نبيه بأن يحكم بين الناس بما أنزل الله.

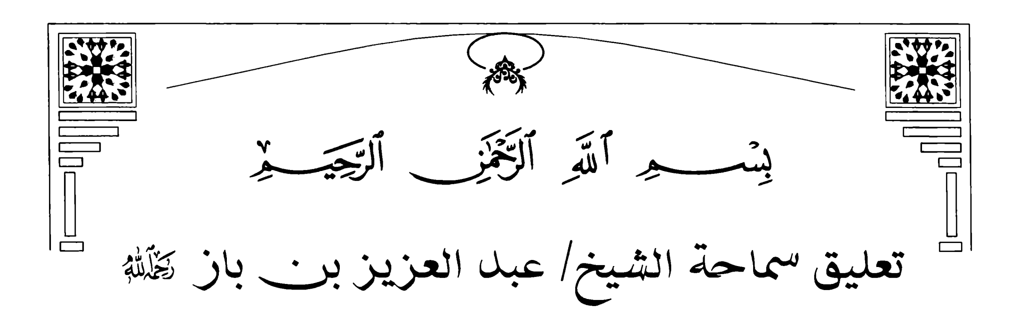
نعود إلى ذكر تلك الدعوة التي يدعيها طائفة، حتى من المنتسبين للإسلام، في أن المجتمعات يمكن أن تكون مؤمنة، ولو لم يُحكَّم فيها شرع الله ﷻ، يعني: لو لم يرضوا بشرع الله ﷻ، أو رفضوه، إنما الإيمان هو العقيدة التي في القلب، وهي الكافية، وهذه الدعوة أثرت في كثير من الناس، وفي عوام المسلمين، حتى آل بهم الأمر أنهم لم يكفروا بالطاغوت - والعياذ بالله -، الذي هو الحكم بغير شريعة الإسلام، الذي هوالحكم بحكم البشر من هنا وهناك، فالإيمان عقيدة فيها العمل، الإيمان عقيدة في القلب، وعمل، ولا انفكاك في المجتمع ما بين العقيدة والعمل، فالذي يجب على كل المؤمنين، على كل المسلمين أن يعتقدوا أن دعوى التفريق ما بين العقيدة والشريعة، هذه دعوى للإيمان ببعض الكتاب، والكفر ببعض، هذه دعوى للكفر، دعوى لعدم الإيمان بمحمد ﷺ، فإنما بعث محمد ﷺ بالحكم بشريعته؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وإذا تبين لك ذلك فلا تنخدع بوصف بعضهم لمن يفرق ما بين العقيدة، والشريعة بأن هذا يدعو إلى الإيمان، أو الذي يدعو للربوبية دون توحيد الألوهية بأن فعله يقوي الإيمان، ونحو ذلك، بل العقيدة التي هي أركان الإيمان الستة، وما اتصل بذلك، هذه شيء واحد، لو لم يؤمن بالقدر ما نفعه إيمانه كله، لو لم يؤمن باليوم الآخر لم ينفعه إيمانه، لو لم يؤمن بتوحيد الله ﷻ في أسمائه، وصفاته لم ينفعه إيمانه، لو لم يؤمن بتوحيد الله في ألوهيته، وأنه المستحق للعبادة وحده دون سواه، فليس

من أهل الإيمان. فهناك مظاهر للتفريق ما بين العقيدة والشريعة، ما بين إلزام الناس بالاعتقاد - الصحيح بالإيمان بالله -، وما بين تحكيم الشريعة في مجتمعاتهم، والله ﷻ جعل الشهادتين ركنًا واحدًا، فشهادة أن لا إله إلا الله فيها التوحيد، وشهادة أن محمدًا رسول الله فيها الحكم بشريعته، فمن فرق ما بين الإيمان، وما بين الحكم بالشريعة، فقد فرق بين متلازمين، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

والواجب علينا الإيمان بأنه لا عقيدة إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقيدة، وأن العقيدة والشريعة متلازمان، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر.

وفي الختام أسأل الله ﷻ لي ولكم العفو والعافية، وأن يجعلنا ممن أناب إليه، وأخبت إليه، وتوكل عليه، وفوض أمره إليه ﷻ، اللهم ارحم والدينا، اللهم احفظ وأصلح ولاة أمورنا، ودلهم على الرشاد، وباعد بينهم وبين سبل أهل البغي والفساد، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، اللهم وأبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة، ويعافى فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، اللهم وفق علماءنا لما تحب وترضى، وخذ بأيديهم إلى البر والتقوى، واجعلهم من عبادك المخلصين، ووفقهم اللهم في أقوالهم، وفي أعمالهم، وسدد رأيهم، وكلامهم، وأفعالهم، اللهم وارحمنا واغفر جمًا، وصلِّ الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.



تعليق سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد لله، وصلِّ الله، وسلم على رسول الله، وعلى آله، وأصحابه، ومن اهتدى بهداه، أما بعد؛

فقد سمعنا جميعًا هذه المحاضرة القيمة التي تفضل بها صاحب الفضيلة الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ**، في موضوع عظيم جدير بالعناية، والفهم، وهو موضوع: **(التلازم بين العقيدة والشريعة)**، وقد بسط الكلام في ذلك، وأجاد، وأفاد، جزاه الله خيرًا، وضاعف مثوبته، وزادنا وإياكم وإياه علمًا وهدى وتوفيقًا، ونفعنا جميعًا بما سمعنا، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يصلح قلوبنا جميعًا، وأن يمنحنا الفقه في الدين، وأن يضاعف الأجر للمحاضر، ويزيده من التقوى، والعلم، إنه عَزَّ وَجَلَّ جواد كريم.

أيها الإخوة في الله، إن هذا الموضوع موضوع عظيم جدير بأن يفهم ويعلم، وهو موضوع التلازم بين العقيدة والشريعة، فالله عَزَّ وَجَلَّ بعث الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعقيدة يجب أن يؤمنوا بها، ويلتزموا بها، وبشريعة يجب أن يعملوا بها، ويسيروا عليها، وهذا عام لجميع الرسل، وهو دين الإسلام عقيدة وشريعة؛ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فجميع الرسل، والأنبياء بعثوا بهذا الدين العظيم، بالإسلام، بتوحيد الله وطاعته، وتعظيم أمره ونهيه،

واتباع ما شرع، وترك ما نهى عنه، كلهم بعثوا بهذا؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، قال ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالواجب على جميع الشعوب اتباع الرسل فيما جاءوا به، ولهذا لما انحرف كثير من الأمم عن ذلك، ولم يقبلوا هدى الله، عاقبهم بالعقوبات العظيمة، التي قصها علينا سبحانه وتعالى في كتابه، أولهم قوم نوح، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى توحيد الله، وطاعة الله، فاستكبروا، فعاقبهم الله بالغرق، أنبع الله الماء من أسفل، وأنزل المطر من فوق، والتقى الماءان على أمر قد قُدِر، ولم ينجُ إلا من كان مع نوح في السفينة، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤ - ١٥]، وهكذا قوم هود عُذبوا بالريح العقيم لما استكبروا عن الحق، وهكذا قوم صالح عُذبوا بالصيحة، والرجفة لما استكبروا، وهكذا قوم لوط عُذبوا بالرجم، والخسف، وهكذا قوم شعيب عُذبوا بالرجفة، والصيحة، وهكذا من بعدهم ممن عصى الرسل، وخالف ما جاءوا به، ومن ذلك ما قص الله علينا من نبأ فرعون، وما حصل له من الغرق، ومن معه في البحر في لحظة واحدة، لما اعتدى، وطغى، وبغى، وخالف موسى عليه السلام.

ثم ختم الله ﷻ الشرائع، والنبوة بمحمد ﷺ، فهو خاتم الأنبياء، وهو أشرفهم، وأفضلهم، قال ﷻ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، جعله الله رسولًا للناس كافة، قال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وصح عنه في الأحاديث، وتواتر عنه في الأحاديث، أنه ﷺ قال: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١)، فهو رسول الله إلى الجميع، إلى الثقلين، الجن والإنس، بعقيدة وشريعة، فالواجب على جميع الثقلين، جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، ذكورهم وإناثهم، الواجب عليهم أن يتبعوا محمدًا ﷺ، وأن يعتقدوا ما جاء به، وأن ينقادوا لشرعه عن إيمان، وعن صدق، وعن محبة، وعن رغبة، حتى يلقوا ربهم. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي﴾ أي: قل يا محمد للناس: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقال قبلها: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ثم قال بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: قل يا محمد للناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ويقول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢).

لابد من الإيمان بمحمد ﷺ واتباعه، هذا واجب على الجميع، على

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجن والإنس، على الرجال والنساء، على العربي والأعجمي، على الأغنياء والفقراء، والملوك والشعوب، على جميع الثقلين؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، الناس يشمل الجميع. بعثه الله بعقيدة وشريعة، عقيدة لابد من الإيمان بها في القلوب، بيَّنها في القرآن ﷻ في آيات كثيرات في كتاب الله، من تدبر القرآن عرف هذه العقيدة؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١] ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧] في آيات كثيرات بين فيها ما شرعه لنبيه ﷺ، وما بعثه به، ومن تدبر القرآن عرف ذلك.

وهذا القرآن هو كتاب الله، وهو أعظم كتاب، وأشرف كتاب، وأصدق كتاب، أنزله الله على أنبيائه، ورسله، هو أشرف كتاب أنزله على محمد ﷺ، وأكمل كتاب، وأصدق كتاب، ويقول ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فيه الهدى والرحمة، ويقول ﷻ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ويقول ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ويقول ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ويقول ﷻ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ويقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، يعني: جبريل ﷺ، أي: القرآن؛ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥].

فعليك يا عبد الله، على جميع الثقلين، الجن والإنس، على الرجال والنساء، العرب والعجم، عليك التدبر والتعلم لهذا الكتاب؛ حتى يُعلم ما أوجب الله، وما حرم الله على كل مسلم، على كل مكلف أن يعرف ما أوجب الله عليه، وما حرم الله عليه، وأن يتعلم ما لا يسعه جهله، وعلى أهل العلم، وعلى طلبة العلم أن يتدبروا هذا القرآن، ويتعلموه، ويتعقلوا ما فيه؛ حتى يبلغوا الناس، وحتى يعلموا الناس دينهم، وعليهم أن يفهموا السنة، سنة الرسول ﷺ، وهي الأحاديث، فإن الله ﷻ أعطاه الحكمة، وهي الوحي الثاني، وهي السنة. يقول ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»[(١)]، فلابد من الإيمان بالكتاب، ولابد من الإيمان بالسنة، ولابد من تبليغ ذلك، ولا يجوز التفريق بين ما بعث الله به نبيه ﷺ، بل يجب الإيمان بالجميع والعمل بالجميع، وقد أنكر الله على من أراد ذلك، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وأحمد في المسند (٤/ ١٣٠، ١٣٢)، والدارمي (٥٨٦)، والطبراني في الكبير (٦٤٩)، وفي مسند الشاميين (٢/ ١٣٧، ١٣٨)، والمروزي في السنة (ص٧١)، وابن عبد البر في التمهيد (١/ ١٥٠) من حديث المقدام بن معديكرب ﵁.

﴿ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١]، فمن أراد أن يُفَرِّق فهو الكافر حقًّا، فلابد من الإيمان بالله، والإيمان برسله، والإيمان بكل ما بعث الله به رسله، والإيمان بهذا الشرع العظيم، الذي جاء به محمد ﷺ، لابد من الإيمان به، لابد أن نؤمن بجميع المرسلين، ونؤمن بما بعثهم الله به، وأنهم بُعثوا بالحق والهدى، ونؤمن بكل ما أخبر الله به، ورسوله عن أمر الآخرة، والجنة والنار، والحساب والجزاء، لابد أن نؤمن بكل ما أخبر الله به ورسوله ﷺ إيمانًا مجملًا وإيمانًا مفصلًا، مجملًا بما أجمله الله ومفصلًا بما فصله الله، ولا يجب التفريق بين العقيدة والشريعة، وفي بعض الأيام كان النبي ﷺ جالسًا بين الناس، فجاءه جبريل عليه السلام - وجبرائيل عليه السلام هو أفضل الرسل، أفضل الملائكة، وهو السفير بين الله، وبين الرسل - في صورة إنسان أعرابي لايعرف، فعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ؟**

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْت. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْت.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ.

ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)].

قوله: «**فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ**»، يعني: متى تقوم الساعة؟ «**قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ**»، يعني: ما نعلم أنا، ولا أنت، «**قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟**»، يعني: عن علامتها، «**قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**»، يعني: الجارية المملوكة، ربتها يعني: سيدتها، يعني: أن تلد سيدتها، ويكثر الجواري بين الناس، «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**»، يعني: عرب كان هذه حالهم قبل البعث، بعث محمد ﷺ، كانوا حفاة عراة، يعني: يغلب عليهم هذا، وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ من أخبار الساعة التي وجدت ووقعت، ولها أشراط لم تقع وستقع، وهي أشراطها العظمى، سوف تقع: منها خروج المهدي، وهو رجل من أهل البيت يدعو إلى شريعة الله، وتوحيد الله، ولا يقبل إلا الإسلام، أو السيف، ومنها نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ومنها

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

خروج الدجال، ومنها خروج يأجوج ومأجوج، ومنها هدم الكعبة، ومنها نزع القرآن من الصحف ومن الصدور، ومنها خروج الدابة، ومنها طلوع الشمس من مغربها، فلايقبل من أحد إسلام بعد ذلك، وآخرها حشر النار، ولا تقوم الساعة إلا على أهل الكفر بالله، فلا تقوم الساعة على مسلم، يبعث الله ريحًا في آخر الزمان بعد طلوع الشمس من مغربها، فيقبض الله بها روح كل مؤمن ومؤمنة، فلا يبقى إلا الأشرار، فعليهم تقوم الساعة[١].

فأنت يا عبد الله، وأنت يا أمة الله، كل منكما عليه أن يلتزم بالشريعة، كل مكلف عليه أن يلتزم بالشريعة عقيدة وعملًا، فعليه أن يؤمن بأنه عبد مأمور، فليتزم بالإسلام، بتوحيد الله، والشهادة بأنه ﷻ هو المعبود الحق، والإيمان بأنه رب العالمين، وأنه الخلاق العليم، والإيمان بأسمائه وصفاته، وأنه ﷻ موصوف بها على الوجه اللائق به لا شبيه له، ولا مثيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، مع الإيمان بأن الرسل حق، وأن محمدًا حق، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر، والإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩٠١) عنْ حُذيْفة بْنِ أسِيدٍ الْغِفارِيِّ، قال: «اطّلع النّبِيُّ ﷺ عليْنا ونحْنُ نتذاكرُ، فقال: ما تذاكرُون؟ قالُوا: نذْكُرُ السّاعة، قال: إِنّها لنْ تقُوم حتّى تروْن قبْلها عشْر آياتٍ - فذكر - الدُّخان، والدّجّال، والدّابّة، وطُلُوع الشّمْسِ مِنْ مغْرِبِها، ونُزُول عِيسى ابْنِ مرْيم ﷺ، ويأْجُوج ومأْجُوج، وثلاثة خُسُوفٍ: خسْفٌ بِالْمشْرِقِ، وخسْفٌ بِالْمغْرِبِ، وخسْفٌ بِجزِيرةِ الْعربِ، وآخِرُ ذلِك نارٌ تخْرُجُ مِن الْيمنِ، تطْرُدُ النّاس إِلى محْشرِهِمْ».

لابد من هذا، لابد أن تؤمن بكل ما أخبر الله به ورسوله مما بلغك وعلمته، وتصدق به بقلبك، وتعلم أن الله ﷻ هو المعبود بحق، وأنه لا يجوز أن يعبد معه سواه، لا بالدعاء، ولا بالخوف، ولا بالرجاء، ولا بالذبح، ولا بالنذر، ولا بغير ذلك، العبادة حق الله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] لابد من الإيمان بأنه ﷻ هو المستحق للعبادة بقلبك، تؤمن بهذا، أو تعمل به، تؤمن وتعمل بأنه المستحق العبادة، ومن زعم أنه يعبد مع الله غيره، فهو كافر، ولو ما فعله، من زعم أنه يجوز أن يعبد مع الله سواه، كفر، ولو لم يفعل ذلك، لابد من الإيمان بأنه هو المستحق العبادة، وأنه لا تجوز عبادة غيره كائنًا من كان، ولابد من الإيمان بأنه هو الخلاق العليم، وأنه رب العالمين لا رب سواه، ولا خالق غيره، لابد من الإيمان بأسماء الله وصفاته، واعتقاده أنها حق، وأنه موصوف بها، وأنه الكامل في ذاته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، لا شبيه له، ولا كفء له، ولا ند؛ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، ويقول ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لابد من الإيمان بهذا، فلابد أن تؤمن بكل ما أخبر الله به، ورسوله، تؤمن بأن الصلاة حق فريضة على المسلمين، الزكاة، لابد من الإيمان بهذا، فلابد أن تؤمن بكل ما أخبر الله به، ورسوله، الزكاة حق فريضة على المسلمين، وصيام رمضان حق فريضة على المكلفين، والحج فرض على المكلف من المستطيعين من الرجال والنساء،

ولا بد أن تؤمن بالله وملائكته بأن الله حق، وأنه هو المعبود بالحق، وأنه رب العالمين، وتؤمن بملائكة الله، خلقهم الله من النور، وهم عبيده، يأمرهم بما يأمرهم به، ويعملون بأمره - عليهم الصلاة، والسلام-. وتؤمن بكتب الله المنزلة، لابد أن تؤمن بكل ما أنزل الله من الكتب تفصيلًا وإجمالًا؛ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

تؤمن بأن الله أنزل الكتب وأرسل الرسل، وأنهم قالوا الحق وأن كتبه هي الحق، ومنها القرآن، والتوارة، والزبور، والإنجيل، هذه من كتب الله المنزلة، وأعظمها وأشرفها القرآن الكريم، فلابد أن تؤمن بذلك. ولابد أن تؤمن بالرسل، وأن لله رسلًا أرسلهم، أولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ ومنهم آدم عليه السلام أُرسل إلى ذريته، تؤمن بأن الله أرسل الرسل يدعون إلى توحيد الله، وطاعته؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، من سماه الله منهم آمنا به وباسمه، ومن لم يسمه الله آمنا بأن الله أرسل الرسل، منهم من قصَّ علينا، ومنهم من لم يقصص علينا، أرسل الرسل؛ ليدعوا الناس إلى توحيد الله وطاعته، وإلى أوامره، وترك نواهيه، وتؤمن بأن محمدًا خاتمهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي العربي المكي ثم المدني ﷺ، وهو رسول الله حقًّا، بعثه الله إلى هذه الأمة، عربها وعجمها، جنِّها وإنسها، على حين فترة من الرسل، بعثه من مكة وأقام بها ثلاث عشرة سنة بعد النبوة، ثم هاجر إلى المدينة، وأقام بها عشر سنين ﷺ، ثم توفاه الله هناك ﷺ، بعدما بلغ البلاغ المبين، أكمل ما حمَّله الله إياه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

ﱡﭐﭐٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚﱠ [المائدة: ٣] هذه نزلت عليه يوم الجمعة، وهو واقف في حجة الوداع في آخر حياته ﷺ، أكمل الله له الدين[١]، وأتم عليه نعمته، ثم قبضه إلى الرفيق الأعلى إلى الجنة، جسده في الأرض، وروحه في الجنة في أعلى عليين ﷺ، وهكذا روح المؤمن، كل مؤمن روحه في الجنة، وجسده في الأرض، فعلى العبد أن يؤمن بهذا، ويؤمن - أيضًا - باليوم الآخر، وهو الأصل الخامس من أصول الإيمان، وهو البعث، والنشور، والجنة، والنار، وما أخبر الله به عن يوم القيامة من الصراط، والميزان، والحساب، وتوزيع الكتب بين الناس، هذا آخذ كتابه بيمينه، وهذا بشماله، والميزان هذا يثقل ميزانه، وهذا يخف ميزانه، يؤمن بكل ما أخبر الله به، ورسوله من شأن اليوم الآخر، والبعث، والنشور، والجنة، والنار.

والسادس القدر، الإيمان بالقدر، وأن الله قدر الأشياء وعلمها، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فقد علم جميع ما يكون، قدر كل شيء سبحانه وتعالى، وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»[٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، قال ﷻ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٠١٧)، ولفظه: «**جاء رجُلٌ مِن الْيهُودِ إلى عُمر، فقال: يا أمِير الْمُؤْمِنِين آيةٌ فِي كِتابِكُمْ تقْرءُونها، لوْ علَيْنا نزلتْ، معْشر الْيهُودِ، لاتّخذْنا ذلِك الْيوْم عِيدًا، قال: وأيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، فقال عُمرُ: إِنِّي لأعْلمُ الْيوْم الّذِي نزلتْ فِيهِ، والْمكان الّذِي نزلتْ فِيهِ، نزلتْ على رسُولِ اللهِ ﷺ بعرفاتٍ فِي يوْمِ جُمُعةٍ**».

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، فالله ﷻ قدر الأشياء، وعلمها، علم آجال الناس، وأرزاقهم، ومدة حياتهم، وما هم عاملون، وعلم جزاءهم يوم القيامة، وكلٌ ميسر لما خلق له؛ كما في حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قَالَ: «**قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾ [الليل: ٥ - ٧][1]، فالأمور كلها مقدرة، وقد علم ﷻ أهل الجنة، وأهل النار، وشرع الشرائع، وأمر بالأحكام، فالواجب على العبد أن يعمل بشرع الله، وينقاد لأمر الله، فقد أعطاه الله عقلًا، وأعطاه الله سمعًا وبصرًا، أعطاه البصيرة، وأرسل له رسولًا، وأنزل عليه كتابًا، فعليه أن يتفقه في الدين، وأن يتعلم ويعمل، ويسأل ربه الهداية، فيجتهد في طاعة ربه، ويحذر من معصيته، والله هو الذي يهدي من يشاء، يسأل ربه الهداية، ويضرع إليه أن يهدي قلبه، ويصلحه، وأن يعيذه من الشيطان، وعليه أن يؤمن بكل ما أخبر الله به، ورسوله، ثم التلازم بين العقيدة والشريعة أمر لابد منه، لابد من الإيمان بالشرع، الذي شرعه الله من الأحكام، ولابد من العقيدة التي سمعت، وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، والإيمان بما شرعه الله من الإسلام، والإيمان بكل الأحكام، التي شرعها الله، لابد من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

العمل الذي أمرك الله به، لابد أن تعمل.

فالإيمان لابد منه، وهو محله القلب، ولابد من تصديقه بالقول والعمل، قول وعمل، فالقول والعمل يصدقان ما في القلب، فالإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، هذا قول أهل السنة والجماعة وهو الذي جاءت به الرسل، ودرج عليه أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان أن الإيمان قول وعمل وعقيدة، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، فلابد من الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله، ولابد من توحيد الله، والإخلاص له، والإيمان بالرسل - عليهم الصلاة، والسلام -، والإيمان بمحمد ﷺ، لابد من العمل، فمن استكمل العمل تم إيمانه، وكمل إيمانه، وصار ممن قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس: ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، من آمن وعمل بما شرع الله، وأدى ما أوجب الله، وترك ما حرم الله، دخل في هذه الآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧ - ٨]، هذه حال المؤمنين المصدقين العاملين، ومن فرط في بعض العمل نقص إيمانه، وصار على خطر، كمن مات وقد زنا ولم يتب، أو مات وقد سرق ولم يتب، أو مات وهو عاق لوالديه، أو مات وهو قاطع لرحمه، أو مات وهو يشرب المسكر، أو ما أشبه ذلك، هذا ناقص الإيمان، وهو على خطر من دخول النار إلا أن يعفو الله عنه، فيكون إيمانه ناقصًا بهذه المعاصي، فإن دخل النار لم يخلد فيها، يعذب على قدر المعاصي، لكن

لا يخلد فيها، إنما يخلد الكفار، الذين ماتوا على الكفر بالله؛ أما العاصي يعذب إذا دخل على قدر معصيته، ثم يخرجه الله من النار؛ إما بشفاعة الشفعاء، وإما بمجرد فضله ورحمته ﷻ، ولا يخلد في النار إلا الكفار؛ كما قال في حقهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، هؤلاء هم الكفار، قال ﷻ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧]، هؤلاء هم الكفار؛ أما العصاة الذين ماتوا على الزنا، أو العقوق لوالديهم، أو لأحدهما، أو قطيعة الرحم، أو شرب المسكر، أو الغيبة والنميمة، أو الربا، أو غير هذا من المعاصي، فهذا تحت مشيئة الله إذا كان لم يتب، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، من مات على الشرك صار إلى النار، من مات على الكفر بالله، الكفر الأكبر، والشرك الأكبر، صار إلى النار؛ أما من مات على المعاصي فهذا تحت مشيئة الله، إذا كان يؤمن بتحريمها، يعلم أنها محرمة، ولكن فعلها تبعًا للهوى، فهذا تحت مشيئة الله؛ أما إذا استحل الزنا، أو العقوق، أو الربا، كفر، لابد أن يؤمن بأن الزنا حرام، والربا حرام، لابد أن يؤمن بأن العقوق حرام، وهكذا لابد من الإيمان، لابد من التزام الشريعة والعقيدة، لابد من تلازمهما، يؤمن بأن الله حرم هذه المعاصي، وأما إذا لم يؤمن يكون كافرًا، وهكذا في الصلاة، والصوم، لابد أن يؤمن أن الصلاة واجبة، والصوم واجب في رمضان، والزكاة واجبة، والحج مع الاستطاعة لابد من الإيمان بهذا، فمن لم يؤمن بأن الصلاة حق، أو الزكاة، أو الصوم، أو الحج، يكون كافرًا - والعياذ بالله - كفرًا أكبر.

وهكذا الصلاة إذا تركها عمدًا على الصحيح يكون كافرًا بصفة خاصة الصلاة عند جمع من أهل العلم؛ لقول النبي ﷺ: **«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ»**(١)، وفي السنن، وفى المُسنَد، وفي غيرها بإسناد صحيح من حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا: **«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**(٢).

الصلاة لها خصوصية، ولها شأن عظيم، فمن جحد وجوبها كفر بإجماع المسلمين، ومن تركها تكاسلًا، وهو يعلم أنها واجبة، تركها بعض الأحيان أو دائمًا، هذا يكفر على الأصح، وقال بعض أهل العلم: إنه يكون ناقص الإيمان، ويكون الكفر الأصغر، إذا كان لا يجحد وجوبها، والأرجح أنه كفر أكبر - والعياذ بالله -.

أما الزكاة فإذا لم يزكِّ، أو لم يصم رمضان، أو لم يحج مع الاستطاعة، فهذا يكون عاصيًا، وهو تحت مشيئة الله، ولا يكون كافرًا كفرًا أكبر، ولكن يكون عاصيًا تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه وأدخله النار؛ حتى يطهر في النار، ثم يخرج من النار إلى الجنة، وإن شاء عفا عنه، وهكذا إذا مات على قطيعة الرحم، أو على العقوق، أو أكل الربا، ولم يتب، تحت مشيئة الله إذا لم يستحله يكون تحت مشيئة الله، إن شاء الله عفا عنه، وإن شاء أدخله

---

(١) أخرجه مسلم (٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٤٥)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٦٧)، وابن حبان (٤/ ٣٠٥)، والدارقطني في سننه (٢/ ٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦)، وشعب الإيمان (١/ ٧٢).

النار، وعذبه على قدرها، وثبت عنه ﷺ في الأحاديث المتواترة أنه يشفع في كثير من العصاة، دخلوا النار بمعاصيهم، فيشفع فيهم شفاعات، يسجد تحت العرش، يستأذن ربه فيشفع له، فيشفع لديه:

أولًا: في أهل الموقف حتى يقضي بينهم، فيشفعه الله ﷻ، ويقضي بين الناس[(١)]، ويشفع لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فيشفعه الله ويدخلهم الجنة[(٢)]، ثم يشفع في أناس دخلوا النار بمعاصيهم، فيحد الله له حدًا فيخرجهم من النار، ثم يشفع مرة ثانية في أناس في النار دخلوها بمعاصيهم، فيحد الله له حدًا فيخرجهم من النار، ثم يشفع مرة ثالثة، فيحد الله له حدًا فيخرجهم من النار، ثم يشفع مرة أخرى، فيحد الله له حدًا[(٣)]، ويشفع الأنبياء والمؤمنون والأفراد، ويبقى في النار بقية، يبقى في النار بقية من العصاة، هم موحدون مؤمنون، لكن إيمانهم ناقص، إيمان أضعفته المعاصي والسيئات، فيبقون في النار ما شاء الله، ثم يخرجهم الله برحمته من النار بعدما احترقوا فيها، ويلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، بعدما احترقوا، رحمهم الله وأخرجهم؛ لأنهم ماتوا على أصل التوحيد والإيمان، لكن عندهم معاصٍ وسيئات اقترفوها دخلوا بها

---

(١) كما في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

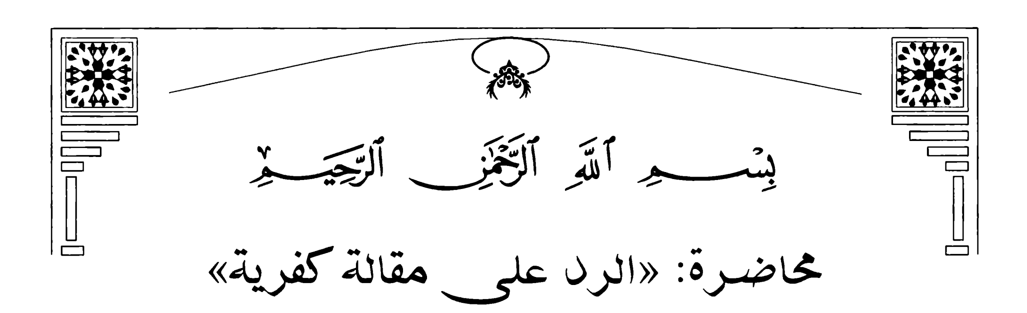
(٢) كما في حديث أنس رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم (١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣)، وفيه: «فأَرْفعُ رأْسِي، فأحْمدُهُ بِتحْمِيدٍ يُعلِّمُنِيهِ، ثُمّ أشْفعُ، فيحُدُّ لي حدًّا فأُدْخِلُهُمْ الْجنّة، ثُمّ أعُودُ إليه، فإذا رأيت ربِّي مثله، ثُمّ أشْفعُ فيحُدُّ لي حدًّا فأُدْخِلُهُمْ الْجنّة، ثُمّ أعُودُ الرّابِعة، فأقُولُ: ما بقِي في النّارِ إلا من حبسهُ الْقُرْآنُ ووجب عليه الْخُلُودُ».

النار، ولا يبقى في النار إلا الكفار، الذين كفروا بالله، وأشركوا به كفرًا أكبر وشركًا أكبر، هؤلاء يبقون في النار خالدين فيها أبد الآباد، لا يخرجون منها أبدًا، يقول ﷻ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، ويقول ﷻ في حقهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ويقول ﷻ فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيقول الله لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، هذه حالهم، نعوذ بالله منها، لا حيلة في ذلك، بل لهم العذاب السرمدي؛ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

نسأل الله لنا ولكم العافية، نسأل الله أن يوفقنا، وإياكم للعلم النافع، والعمل الصالح، وأن يستعملنا وإياكم في طاعته، وأن يعيذنا وإياكم من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، كما نسأله ﷻ أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، وأن يصلح أحوال المسلمين في كل مكان، وأن يمنحهم الفقه في الدين، وأن يولي عليهم خيارهم، ويصلح قادتهم، كما أسأله ﷻ أن يوفق ولاة أمرنا لكل خير، وأن يعينهم على كل خير، وأن ينصر بهم الحق، وأن يصلح لهم البطانة، وأن يجعلنا وإياكم وإياهم من الهداة المهتدين، أنه ﷻ جواد كريم، وصلى الله، وسلم، وبارك على عبده، ورسوله نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه، وأتباعه بإحسان.

❀ ❀ ❀



محاضرة: «الرد على مقالة كفرية»

وهو رد فضيلة شيخنا العلامة/ صالح بن عبد العزيز ابن محمد بن آل الشيخ حفظه الله ورعاه

على مقالة بجريدة الشرق الأوسط للمدعو عبد الفتاح الحايك

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، بعثه الله ﷻ بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، بعثه الله ﷻ لينسخ رسالات المرسلين قبله، وليلزم الناس بكلمة الحق والهدى بقول لا إله لا الله محمد رسول الله، وباتباع شريعة الإسلام، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وأعلى الله ﷻ له منار الإيمان، وحقق له ما وعده، ونصر الله ﷻ عباده الذين اتبعوا هذا الرسول، وآمنوا به، فجعلهم ظاهرين فوق الناس، وجعل الله ﷻ من اتبع هذا الرسول مؤمنًا، ومن لم يتبعه ولم يدخل في دين الإسلام كافرًا، وإن كان من أعبد المتعبدين. وهذا الدرس نناقش فيه اليوم كلمة جاءت في جريدة الشرق الأوسط، كلمة اشتملت على أنواع من الكفر بالله، وعلى أنواع من الضلال والإضلال، ولا غرابة أن يكون ذلك ينشر؛

لأننا بتأمُّل ما ينشر في هذه الجريدة بخاصة نرى أنه منذ مدة، وهي تدعو إلى البدع، فإذا جاء شهر ربيع رأيت فيها البدع إلى الاحتفاء بالمولد، والتدليل على ذلك، والمقالات المختلفة التي تنصر هذه البدعة، وتسهلها عند الناس، وتكرر ذلك كثيرًا منهم، حتى آل الأمر إلى أنهم نشروا مقالة لرجل اسمه عبد الفتاح الحايك، وكتب على المقال أنه من السعودية، وهذا المقال فيه كفر وشرك بالله ﷻ وتكذيب للقران العظيم، وسأتلو نص هذا المقال، وبعد ذلك نذكر ما تيسر من مجابهته، والرد عليه، والإعذار فيما يجب من الإنكار عليه على طريقة أهل العلم، قال هنا في هذه الجريدة في زاوية إلى الشرق الأوسط، يعني: زاوية الآراء التي ترسل إليهم، وكان في هذه الزاوية مناقشات سابقة عن هل الجنة يختص بها المسلمون، أم أن اليهود والنصارى - أيضًا - جميعًا؟ والناس في هذا الزمن يدخلون الجنة بأجمعهم، فكان من المقالات التي نشرت مقال يثبت فيه صاحبه بأدلة القرآن أن من لم يؤمن بالإسلام، فهو من أهل النار، واستدل على ذلك بأدلة، ولن أقف على هذا المقال، فأتى هذا الرجل الذي اسمه عبد الفتاح الحايك بفقرة بعنوان (الفهم الخاطئ)، نسأل الله ﷻ أن يلهيه في نفسه، وأن يرد كيده إلى نحره هو وأمثاله ممن يريدون نشر الكفر، أو يرومونه إما عن جهالة، وإما عن قصد، وتعمد. قال فيما قال في أول مقاله، وسأقرأه كاملًا، ثم نناقش ما ورد فيه: (لا أزعم المقدرة على الإفتاء، لكن ما أفتى به فلان في العدد خمسة آلاف وسبعمائة وست وتسعين، تعقيبًا على الأخ فلان بأن كل من لم يدخل في دين الإسلام فمصيره جهنم، أثار قلقي من الفهم الخاطئ للعدالة التي يتوخاها التشريع الإسلامي في كل

قضية تمس الانسانية، انطلاقًا من أن الله تعالى هو رب الناس، ملك الناس، إله الناس جميعًا، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا، وعليه فإنه من العبث الإدعاء أن ستة مليارات من الناس المنتشرين على سطح البسيطة سيكون مصيرهم النار، هكذا بموجب فتوى لا تستند إلى الحق، والعدل، فهل يمكن لعاقل أن يتصور أن الله تعالى خلق كل هذه الأمم ليحرقها في نار جهنم؟ إنني أزعم أن أتباع جميع الديانات السماوية، باستثناء المحرفين لكتب الله، العالمين بذلك، سيذهبون إلى الجنة فيما إذا عملوا صالحًا تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ٧١]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، وعلينا ملاحظة أن جملة من آمن بالله لا تعني اشتراط الدخول في دين الإسلام، بل يعني: أن كل من عمل صالحًا من المسلمين، أو غير المسلمين بإطلاق لهم أمنهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، بل لنا

أن نقارن ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، كما نلاحظ أن الله ﷻ طالب اليهود والنصارى بإقامة التوراة والإنجيل، كما أنه سبحانه وتعالى أشار إلى أن كثيرًا من الناس يسجدون له، وهذا يعني أن كثيرًا من المسلمين، وغير المسلمين، الناس على الإطلاق يسجدون له، وأنهم سيدخلون الجنة. . . إن الإسلام والإيمان ليسا محصورين برسالة سيدنا محمد ﷺ فقط، بل إن الإسلام والإيمان يخصان كل إنسان يعبد الله بأي صورة كانت، قبل وبعد البعثة المحمدية المباركة، يقول ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢]، والقرآن الكريم ذكر ذلك في عشرات الآيات، نورد منها قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، لذلك فإن القرآن الكريم عندما يدعو للإسلام، وعندما يقول: أنه لن يقبل غير الإسلام دينًا، فإنما يعني بنص القرآن الواضح، الذي لا يقبل اجتهادات، أو تأويلات أن أي إنسان يعبد الله، ويعمل صالحًا، ما دام لا يدري أنه على دين محرف، أو باطل سيكون مصيره الجنة، إذ لا يمكن لنا أن نقول: إن على كل نسمة في هذا الكون دراسة كل الأديان؛ ليصل إلى الدين الصحيح، وفي ذلك عنت، وطلب للمستحيل، إذ لو أن أهل الأرض أرادوا فعل ذلك، إذًا لاحتاجوا عشرات السنين في البحث والتنقيب، ولربما درسوا الديانات القريبة إلى مساكنهم، فلا يصلون إلى دراسة الإسلام إلا بعد عمر

طويل، بل لعلي أقول آسفًا: إن مخلوقًا محايدًا قادمًا من المجهول، لو اطلع خلال جولة سياحية سريعة على شعوب الأرض، وأراد أن يتخذ لنفسه عقيدة استنباطًا من المظهر العام للناس، والدولة، وقارن بين ما يراه هنا وهناك، إذا لاختار ما لا يسرنا إطلاقًا. «يعني: اختار غير بلاد المسلمين»، وأخيرًا وللدلالة على عدل الله تعالى نورد هذه الآيات: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية: ٢٢] ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٢٨ - ٣٠]، ونستدل منها أن كل قوم سيحاسبون بموجب تشريعاتهم، التي يعبدون الله عليها، وهذا هو العدل من الله تعالى، والله أعلم.

رد معالي الشيخ - وفقه الله -:

هذا المقال، وأشباهه من الأفكار التي تدعو إلى اعتقاد أن كل الأديان التي جاءت من السماء، يعني: أن الأديان التي لها رسل من عند الله ﷻ جميعًا صائبة، وأن من اتبع أي دين فهو على خير، وأنه يؤول إلى الجنة، وأن من عبد الله بأي طريقة كانت، ما دام أنه يعبد الله، ويؤمن بوجود الله، ويرجو ما عند الله، فإنه يدخل الجنة، وهو مسلم؛ لأنه يدخل في عموم تلك الآيات التي فيها الإسلام، وهذه الدعوة قديمة، وقد قيلت مرارًا وتكرارًا في زعم أن من اعتنق أي دين من الأديان وعبد الله بالطريقة التي يختارها، فإنه على خير، ويجب بعد ذلك على رأيهم أن توحد الأديان،

وأن تلغى الفوارق، وأن يكون الجميع على وفاق في الدين، كل واحد يعذر الآخر في دينه، ويقره عليه، ولا ينكر عليه أي شعار من شعارات دينه. الإسلام حرم القول على الله ﷻ بلا علم، وهذه مسائل لا يجوز أن يتكلم فيها كل من ظن من نفسه أنه قارئ، وأنه يحسن الكتابة، وقوله: (**لا أزعم المقدرة على الإفتاء**) في أول الكلام، هذا حجة عليه وأمثاله ممن يخوضون في هذه المسائل العظام بدون علم، وممن يضلون الناس، وهم لا يدرون أنهم يضلون، أو وهم يدرون أنهم يضلون، وهذا الكلام الذي سمعناه اشتمل على مسائل كثيرة، وعلى نقاط نستعرضها شيئًا فشيئًا، يقول هنا: (**أثار قلقي**)، يعني: مقال سبق مقاله.

يقول في المقال السابق: إن كل من لم يدخل في دين الإسلام، فمصيره جهنم، هذا صحيح، وعيسى عليه السلام أخبر بني إسرائيل بذلك، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]، وقال ﷻ لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ

لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٩]، وكذلك قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، الإسلام اسم للاستسلام لله ﷻ، فكل المرسلين من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالإسلام لله ﷻ، وكل رسول جاء بالإسلام لله الإسلام العام؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أما الدين فواحد، وأما الشرائع فمختلفة، التوحيد، والإسلام، والاستسلام لله عند جميع الرسل واحد، وعند جميع أتباع الرسل، هذا هو دين واحد الذي هو الإسلام العام، والإسلام - كما ذكرت - له إطلاق عام يدخل فيه كل المرسلين، ويدخل فيه أتباع المرسلين؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، فكل من أسلم وجهه لله، واتبع الرسول الذي أمر باتباعه، فهو مسلم، وموحد، ومآله الجنة؛ أما أن يكون على غير دين الإسلام من الشرك، ومن الأديان المحرفة، والضلالات، ولم يتبع الرسول الذي أمر به، فإنه لا يكون على خير، ولو كان هو أعبد المتعبدين، فالله ﷻ لا يقبل من أحد - منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن يرث الأرض ومن عليها - إلا الإسلام، وقبل بعثة النبي ﷺ يقبل الإسلام العام، الاستسلام لله ﷻ بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، وأن يتبع الرسول الذي أرسل إليه، فأتباع إبراهيم الخليل عليه السلام مسلمون، وهو إمام المسلمين عليه السلام، وأتباعه أمروا بأن يتبعوا إبراهيم عليه السلام، كذلك أتباع نوح عليه السلام أمروا بأن يتبعوا نوحًا عليه السلام، كذلك أتباع

يونس عليه السلام أمروا أن يتبعوا يونس عليه السلام، أتباع موسى عليه السلام من بني إسرائيل أمروا أن يتبعوا موسى عليه السلام، فإذا أخذوا بما جاء به موسى عليه السلام من التوحيد، ومن الشريعة، وحكموا ذلك في أنفسهم، وأقاموا التوراة والإنجيل، وأقاموا التوراة، فإنهم على خير، وهم مسلمون موعودون بالجنة، ومن خالف موسى عليه السلام، وابتغى غير دين الإسلام العام، الذي أرسل الله عز وجل به نبيه موسى عليه السلام، وكل الأنبياء والمرسلين، وهو التوحيد والطاعة للرسول، والبراءة من الشرك وبغض الشرك، فإنه لا يكون مسلمًا، ولو كان عند نفسه أنه من أعبد المتعبدين، كذلك لما بعث الله عيسى عليه السلام كان واجبًا على بني إسرائيل أن يتبعوا ملة عيسى عليه السلام، أن يتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام؛ لأنه جاء مبينًا لهم بعض ما حرم عليهم، وجاءهم بآيات من ربهم، فلزم الناس أن يتبعوا عيسى عليه السلام، فكفر بنو إسرائيل الذين لم يتبعوا عيسى عليه السلام. كذلك لما بعث الله عز وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم كان واجبًا على الخلق أجمعين أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعثه الله بالإسلام العام، وبالإسلام الخاص الذي هو شريعة الإسلام بعقيدة الإسلام التي اشترك فيها جميع الأنبياء والمرسلين، التي جاءت في مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، كل رسول جاء بدين الإسلام؛ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وفي قوله عز وجل: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكذلك في آيات أخر أمر الله عز وجل نبيه أن يأمر الناس بأن يتبعوا دين الإسلام، الذي يشمل الإسلام عقيدة، والإسلام شريعة؛ لأن الشرائع مختلفة. وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[1]، فمن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

زعم أن اليهودي بعد بعثة النبي ﷺ الذي أقام على اليهودية أنه مسلم، وأنه يدخل الجنة، ولو كان أصلح الصالحين، فهذا كافر بالله؛ لأنه مكذب للقران، كذلك من زعم أن النصراني المشرك الذي يدعو مع الله ﷻ إلهًا آخر، والذي يعتقد في عيسى عليه السلام أنه ولد الله، هذا لا شك أنه مشرك كافر قبل رسالة النبي ﷺ، وبعد بعثة النبي ﷺ كذلك، وأنه لن ينجو إلا باتباع النبي ﷺ؛ لهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1].

فكل أحد يسمع برسول الله ﷺ، وتبلغه شريعة الإسلام، ويبلغه رسالة النبي ﷺ، ثم لا يؤمن بمحمد ﷺ، فإنه من أهل النار، ونشهد عليه إذا مات على ذلك معين بأنه من أهل النار، كذلك من مات، وهو مقيم على اليهودية، ومقيم على النصرانية، فهو من أهل النار؛ ولهذا عيسى عليه السلام أنذر النصارى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، أي: التحريم الأبدي، ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] أي: خالدًا مخلدًا فيها، ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فاليهود بنص القرآن كفرة، بل هم أعدى أعداء الرسل؛ لأنهم قتلوا الأنبياء، وقتلوا في يوم واحد أكثر من مائة نبي، وصالح؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]، اليهود والنصارى زعموا أنهم أبناء الله، وأحباؤه، وزعموا أنهم إذا دخلوا النار فإن اليهود سيدخلونها مدة عبادتهم للعجل أيامًا معدودات، أربعين ليلة،

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والله ﷻ كذبهم في ذلك، وقال: ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وكذبهم في ذلك، وبين أنهم من أهل النار الذين يخلدون فيها؛ لعدم إيمانهم بالإسلام العام، ومن عاش حتى رأى النبي ﷺ، أو سمع شريعته، فإنه من أهل النار قطعًا إذا مات على ذلك، كما في حديث أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: «**كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[(١)]؛ لأنه لو مات على هذه الحال فإنه من أهل النار قطعًا.

فاليهود والنصارى بنص القرآن كفرة مشركون، ومن مات على اليهودية، والنصرانية، فإنه من أهل النار، يشهد عليه بعينه؛ لأنه أشرك بالله ﷻ، وخالف رسالة رسوله، بخلاف الغافل الذي لم يسمع برسالة رسول، ولم يسمع بملة أصلًا، وأتى الشرك، فهذا قد يدخل تحت قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ أما أولئك فأتاهم الرسول، أتى اليهود موسى عليه السلام، وأتى النصارى عيسى عليه السلام. وموسى وعيسى أمروا اليهود والنصارى، أمروا بني إسرائيل بالتوحيد الخالص، وأمروهم بإطاعة ما في التوراة والإنجيل. واليهود والنصارى نبذوا ذلك وراءهم ظهريًا، ومن كان من اليهود على خير، ومن النصارى على خير ممن أدركوا الإسلام، فإنهم آمنوا برسول الله ﷺ، هذا عبد الله بن سلام آمن برسول الله ﷺ، وهذه طائفة من النصارى آمنوا برسول الله ﷺ، ونزل فيهم قول الله ﷻ: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٦).

لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٤] أي: من القرآن، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، وكون أعينهم تفيض من الدمع هذا يدل على إيقانهم، وإيمانهم، قال أهل العلم: هذه نزلت في طائفة من النصارى آمنوا بمحمد ﷺ[1].

قال هنا: [**أثار قلقي من الفهم الخاطئ للعدالة التي يتوخاها التشريع الإسلامي**].

نعم الله ﷻ حكم عدل، وأمر بالقسط والعدل، ولا يحدث في ملكوته مما أذن به شرعًا إلا ما هو موافق للعدل، فالله ﷻ أمر بالعدل، وهو قائم بالقسط، وأمر بالعدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠] ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] لكن العدل عند الله ﷻ ليس هو بالأهواء، وليس هو بالآراء، وليس بأفهام الذين يريدون تحريف رسالات الله ﷻ، فإن العدل أن تضع الأمر في موضعه اللائق به، ومن نظر إلى الناس، من نظر إلى البشر، واستعظم أن يكون هؤلاء البشر من المشركين بالله من أهل جهنم، ولم ينظر إلى على عظم صنيعهم، وأنهم سبوا الله ﷻ؛ لأن المشرك الذي يدعو مع الله إلهًا آخر، يدعو صنمًا، أو يدعو وثنًا، أو يدعو عيسى عليه السلام، أو يدعو أمه، أو يدعو بطريقًا، أو يدعو راهبًا، أو يدعو حبرًا، أو يدعو عالمًا يهوديًا أو غيره، أو يدعو من دون الله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٥٩٦)، وزاد المسير (١/ ٥٧٤)، وابن كثير (٣/ ١٦٦).

ما لا يملك له نفعًا ولا ضرًا، هؤلاء جميعًا سبوا الله ﷻ أعظم مسبة، فالذي يأمر بالعدل، ويأمر بالقسط هو الذي ينتصر لله ﷻ؛ ولهذا قال عيسى عليه السلام - لما رأى قومه وما فعلوا -: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، فشهدوا بأنهم مسلمون؛ لأنهم نصروا الله ﷻ، ونصروا رسول الله ﷺ؛ إذًا: فاتباع العدل، والأمر بالقسط بين الناس، وإحلال القسط، والعدل، ليس هو بالأهواء، وما يراه الناس، ليس باستعظام أن فلانًا يقتل، ولماذا يقتل؟ ولماذا يكفر؟ وفلان الآخر لماذا تحكمون عليه بكذا، إلى أهل الجنة، وإلى أهل النار؟ الذي قسمهم هو الذي خلقهم؛ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، فالعدل كل العدل أن يحكم بالقرآن وأن يقر ما فيه، فالله ﷻ هو الذي شهد في القرآن - وكفى بالله شهيدًا - أن النصارى مشركون كفرة من أهل النار إذا ماتوا على ذلك، وأن اليهود مشركون كفرة من أهل النار إذا ماتوا على ذلك، يستثنى من النصارى، ومن اليهود من آمنوا بموسى عليه السلام من اليهود، ومن آمنوا بعيسى عليه السلام من بني إسرائيل، وآمنوا بذلك فدخلوا في دين الله. وبعد بعثة النبي ﷺ لا يقبل من أحد دين إلا أن يكون قد أتى بدين الإسلام؛ فإذًا: هذه العدالة التي يرمز إليها بعض المفكرين، وبعض العقلانيين في هذا العصر، وبعض ذوي النفوس الضعيفة، هؤلاء رأوا البشر ونظروا إلى الإنسان، وأن هذا الإنسان المسكين يدخل جهنم، وما نظر إلى عظم الفعل الذي فعله هذا الإنسان، وهو أنه سب الله ﷻ.

وهذا الكاتب وأمثاله لو اعتدي عليهم في حقهم، أو جلدوا، أو قتل من أقربائهم من قتل لقاموا يطلبون حق انتقاصهم، وحق الاعتداء عليهم،

وهؤلاء المشركون في شرق الأرض، وفي غربها يعتدون على حق الله، ويسبون الله أعظم مسبة بادعائهم أن مع الله إلهًا آخر، ثم يزعم أن العدل أن يتركوا، وأن لا يكفروا، وأن لا يجاهدوا، وأن يتركوا وشأنهم، هذا لا شك من أعظم الإضلال، ومن أعظم الصد عن سبيل الله، ومن أعظم التلبيس في دين الله، وهذه النفس، نفس اليهود والنصارى الذين يلبسون، ويلبسون على الناس، ويكتمون الحق وهم يعلمون، ويلبسون الحق بالباطل، والله ﷻ قال عن اليهود إنهم مغضوب عليهم، وقال عن النصارى إنهم ضالون: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، أجمع المفسرون على أن المراد بالمغضوب عليهم أنهم اليهود، والضالين هم النصارى. والمغضوب عليهم والضالون من أهل النار(١).

قال فيما قال: [**وعليه فإن من العبث الادعاء أن ستة مليارات من الناس المنتشرين على سطح الأرض على سطح البسيطة سيكون مصيرهم النار. هكذا بموجب فتوى لا تستند إلى الحق، والعدل**]، بل هذه الفتوى، أو القول بأن أكثر أهل الأرض من أهل النار، أكثر من يعيش على الأرض من أهل النار، وليسوا من أهل الجنة هذا نطق القرآن به، هذا في القرآن في غير ما آية قال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وقال ﷻ في نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، فمن لم يؤمن بالله، ويوحد الله، ويعبده وحده دون ما سواه ويتبع محمدًا ﷺ، فهو

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ١٨٦ - ١٩٨)، وزاد المسير (١/ ٢١)، وابن كثير (١/ ١٤٢ - ١٤٥)، والقرطبي (١/ ١٤٩).

مشرك كافر شاء أم أَبَى، والعدل أن يعطى حقه، وأن يقال فيه إنه مشرك كافر؛ لأنه تعدى على حق الله ﷻ، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ أَحَدٌ، أَوْ: لَيْسَ شَيْءٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»(١).

فقوله هنا: **[إن من العبث ادعاء أن ستة مليارات من الناس المنتشرين على سطح البسيطة سيكون مصيرهم النار]**.

نعم، يكون مصيرهم النار، بل من الضلال والإضلال ومن الكفر بآيات الله، اعتقاد أن من كَفَّرَه الله ﷻ من أهل الشرك والوثنية، أنه ليس بكافر، وأن للناس أن يعبدوا الله ﷻ على أي طريقة كانت، يقول: **[فهل يمكن لعاقل أن يتصور أن الله تعالى خلق كل هذه الأمم ليحرقها في نار جهنم]**. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، الله ﷻ خلق النار، ولها ملئها، والنار واسعة كبيرة، ولا تمتلئ حتى يضع الجبار فيها قدمه ﷻ، لا تمتلئ حتى تأخذ جميع أهلها، وثبت في الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»(٢)؛ لأن هؤلاء قبلوا إضلال إبليس، ولقد قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠] أي: الجميع، في خصوصية قصة سبأ، وجميع الخلق قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨، ٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ [سبأ: ٢٠]، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ**»[١]، حتى هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، منها اثنتان وسبعون متوعدة بنار جهنم، وكذلك من قبلنا، فمن كان على غير ملة الإسلام بعد بعثة النبي ﷺ، فهو من أهل النار.

قال هنا: [**هل يمكن لعاقل أن يتصور أن الله تعالى خلق كل هذه الأمم ليحرقها في نار جهنم**]، العبرة في ذلك من جهة الشرع، ليست العبرة العقل المجرد، بل العقل تابع لحكم الله ﷻ، فإن الذي خلق هؤلاء هو الله ﷻ، والله ﷻ سيجعل الطواغيت التي عبدت من دون الله ﷻ، وهي راضية بالعبادة، وسيجعل من اتبعهم وعبدها، سيجعل الجميع في نار جهنم، قال ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-٩٩].

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن، وله طرق، وورد عن عدد من الصحابة بنحو هذا اللفظ، منهم: معاوية رضي الله عنه عند أبي داود في السنن (٤٥٩٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧). وعوف بن مالك رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠). وأنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٥)، وأبي يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥).
وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

يقول: [**إنني أزعم أن أتباع جميع الديانات السماوية، باستثناء المحرفين لكتب الله، العالمين بذلك، سيذهبون إلى... الجنة**].

هكذا زعم ليس عليه حجة واضحة؛ أما الآيات التي قالها فسيأتي الكلام عليها، وهذا والعياذ بالله من الضلال، ومن اتخاذ الرؤوس الجهال، والصحافة في هذا الزمن اتخذت وسيلة لنشر الإلحاد، ونشر الكفر، ونشر الضلالات، وكثيرًا ما يرد في الصحف من المقالات ما يأذن بها أصحابها، مثل: ما أذنت إدارة التحرير في جريدة الشرق الأوسط لهذا المقال الذي اشتمل على أنواع من التكذيب للقران، ومن الكفر بالله ﷻ، من هذا الرجل الذي اسمه: عبد الفتاح الحايك، من السعودية. كما في صدر المقال.

هؤلاء أرباب الصحف يستغلون الصحف؛ لنشر ما يريدون نشره، ولو كان الأمر راجعًا إلى حرية القراء، أو إلى أنهم ينشرون كل ما يرسل إليهم، وكل ما يزودون به، لنشروا ما يضاد سياسة تلك الصحف، وقد أرسلت لهم مقالات في رد بدع المولد، فلم ينشروها، وأرسلت لهم مقالات في بيان الحق، وبيان الباطل، فلم ينشروها؛ فإذًا: هم أهل انتقاء، فلا يعذرون ألبتة بأن هذه الرسالة أرسلت إليهم، ولابد أن نرسل، ولابد أن ننشر ما أرسله القراء؛ لأنهم حين ينشرون، ينشرون متعمدين قاصدين لمقاصد معلومة في نشر ما يريدون من الفكر الإلحادي، أو لنشر الضلالات، والبدع في اتجاهات مختلفة، ومع قضايا السلام، وما يجري، يراد من الناس أن - يراد من الناس أعني المسلمين بخصوصهم - تذوب في قلوبهم كراهة الكفر، وكراهة اليهود، وكراهة النصارى، وأن يعيش الناس في سلام بعضهم يحب بعضًا، وهذا يأبى الله أن يكون، ويأبى المؤمنون

أن يكون؛ لأن الحق حق ما بقي في الناس مؤمن، والحق أن تكون طائفة على الحق ظاهرين يقاتلون عليه إلى قيام الساعة، يظهرونه ويبينونه، والولاء والبراء فرض من فرائض التوحيد، وفرض من فرائض هذه الملة، لا يمكن أن يمحى، ومن رام محوه، أو التساهل فيه، فإنه يروم البلاء عليه، وعلى مجتمعه، وعلى بلاد المسلمين؛ لأن الله ﷻ وعظنا أعظم موعظة، بأننا إذا فرطنا فيما قال، إذا فرطنا في محكمات كتابه ولم نعمل بها، فإنه يعاقب، ومن أعظم العقوبات الفرقة بين الناس؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: ١٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (**وَهَذَا كَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ **فَأَخْبَرَ أَنَّ نِسْيَانَهُمْ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ - وَهُوَ تَرْكُ الْعَمَلِ بِبَعْضِ مَا أُمِرُوا بِهِ - كَانَ سَبَبًا لِإِغْرَاءِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ**)(١).

فالفرقة والاختلاف من أعظم أسبابها أن لا يأخذ العباد بما أنزل الله ﷻ به فيه، ومما أنزل الله ﷻ أن ينكر المنكر، وأن يقوم الناس لحق الله ﷻ، وهذا فيه تعدٍّ، هذا المقال وأمثاله فيه تعدٍّ على حق الله ﷻ، فيه منكر ظاهر بيِّن، وتكذيب للقرآن، واستهانة بحق الله؛ لأن من جعل اليهودي مسلمًا وفي الجنة، ومن جعل النصراني مسلمًا وفي الجنة، فإن هذا متهاون،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٤).

ومستهين في حق الله ﷻ؛ إذ كيف يجعل من يبارز الله ﷻ بالشرك، وبمسبته وبعداوته، وبعداوة أهل الإسلام، يجعله مع رسوله في الجنة، ومع أهل الإيمان في الجنة؟! إذًا: فلا عدالة أبدًا، والله ﷻ حكم عدل جعل للجنة أهلًا، وهم الطيبون الموحدون، وجعل للنار أهلًا، وهم الخبثاء المشركون.

إذًا: فقوله: (**[إنني أزعم أن أتباع جميع الديانات السماوية، باستثناء المحرفين لكتب الله، العالمين بذلك، سيذهبون إلى الجنة فيما إذا عملوا صالحًا تحقيقًا لقوله** ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]) أي: أن هذه الآية وما ذكر من الآيات بعدها دليل على أن من عمل صالحًا من اليهود فهو لا خوف عليه ولا يحزن، وأنه من أهل الجنة، ومن عمل صالحًا من النصارى فكذلك، ومن عمل صالحًا من الصابئين فكذلك، والله ﷻ بين أن العمل الصالح الذي يحمد عليه أولئك هو الإيمان بتوحيد الله بالإسلام الخاتم والإيمان برسوله ﷺ؛ ولهذا أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت بعد آيات الوعيد لبني إسرائيل، في من آمن بموسى عليه السلام، وآمن بعيسى عليه السلام، وآمن من الصابئين برسوله، ممن هم قبل نبينا محمد ﷺ، فالوعيد لا يلحق جميع اليهود، ولا يلحق جميع النصارى قبل بعثة النبي ﷺ؛ وإنما يلحق من لم يؤمن برسوله، من لم يؤمن بالله، من لم يؤمن باليوم الآخر، من لم يتبع رسوله، الذي أرسل إليه، وأما بعد بعثة النبي ﷺ فكما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وإبراهيم عليه السلام ادعت اليهود أنه منهم، وادعت النصارى أنه منهم، وادعى المشركون أنه منهم، فقال

الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، معنى ذلك: أن اليهودية المحرفة، التي كانت وقت نزول القرآن، وإرسال محمد ﷺ، أنها ليست من الحنيفية، وليست من الإسلام، قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨]، فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام، أولى الناس بموسى عليه السلام، أولى الناس بعيسى عليه السلام هم نحن، ومن اتبع موسى عليه السلام، ومن اتبع عيسى عليه السلام، ومن اتبع إبراهيم عليه السلام، ولذلك المسلم يؤمن بجميع المرسلين، فمن كفر برسول واحد، فقد كفر، وكذب بجميع المرسلين.

إذًا: هذه الآية من سورة البقرة، وكذلك الآية من سورة المائدة، وغير هذه من الآيات التي سردها، كما قال أهل العلم بالتفسير، وأجمع عليه الصحابة ومن بعدهم: أنه فيمن آمن برسوله الذي سبق، وعمل بما جاء في شريعته، وأما بعد بعثة النبي ﷺ فلا يؤمن أحد إلا بعد اتباع محمد ﷺ، ومن لم يتبعه ممن سمع به، فإنه يموت كافرًا، ويشهد عليه بالتعيين - إذا مات على اليهودية أو مات على النصرانية - يشهد عليه بالكفر.

قال: [**وكذلك قوله** ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

نعم، ليسوا على شيء، ليسوا على شيء في أي أمر من أمورهم، حتى يقيموا التوراة والإنجيل، وفي التوراة فيها الإخبار بالأمر، فيها الأمر باتباع

نبينا محمد ﷺ، وفي الإنجيل فيه الأمر بأنه إذا بعث أحمد فإنه يجب عليهم أن يتبعوه؛ كما قال ﷻ مخبرًا عن قول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، فعيسى عليه السلام وموسى عليه السلام أمرا الناس إذا خرج أحمد، إذا خرج محمد بن عبد الله ﷺ أن يؤمنوا به، وأن يتبعوه، فمن ادعى أنه بعد بعثة محمد ﷺ إذا مات اليهودي على يهوديته، والنصراني على نصرانيته، ولم يؤمن بالإسلام، إذا ادعى أحد أنه يكون مؤمنًا موحدًا أو مسلمًا، أو إذا مات على ذلك، فإنه من أهل الجنة، فهو مكذب للقران، وتكذيب القرآن ردة، وكفر بالله ﷻ.

قال فيما قال: [**وعلينا ملاحظة أن جملة من آمن بالله لا تعني اشتراط الدخول في دين الإسلام، بل تعني أن كل من عمل صالحًا من المسلمين وغير المسلمين بإطلاق، لهم أجرهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون**].

هذا من الهوى، هذا من الكلام الذي ليس عليه دليل، وقد جاء في الحديث «**إِنَّ اللهَ لا يَقْبِضُ العِلمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُور العُلماء وَلكِنْ يَقْبِضُ العِلمَ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1]، نعوذ بالله ممن يتكلم على الله ﷻ ويفتري عليه الكذب، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل: ١٠٥]، وحرم الله ﷻ القول عليه بغير علم، فعلى أي استناد استند هذا وأمثاله، وعلى أي مرجع، وفي أي مرجع نظروا، حين قال: إن جملة من آمن بالله لا تعني اشتراط الدخول

(١) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

في دين الإسلام، بل تعني أن كل من عمل صالحًا من المسلمين، أو غير المسلمين. إن هذه الآية تفهم مع غيرها من الآيات، ومن أخذ ببعض القرآن، وترك بعضه، فإنه يكون على شعبة، بل شعب من الضلال؛ لأن القرآن مثانٍ، ومتشابه يفسر بعضه بعضًا، نعم قبل بعثة النبي ﷺ كان الأمر على ما ذكر، من آمن بالله، ووحد الله ﷻ، ولم يشرك به شيئًا، واتبع الرسول، الذي أمر باتباعه، وعمل صالحًا، فهذا له أجره، والله ﷻ لا يظلم الناس شيئًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ أما بعد بعثة النبي ﷺ فلا يقبل من أحد إلا الإسلام؛ فإذًا: قوله: من آمن، يعني: من آمن برسالة النبي ﷺ بعد إرساله.

قال هنا: [**بل لنا أن نقارن ذلك بقوله** ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وهذه الآية في الذين آمنوا، والذين آمنوا، يعنى: بها أهل الإيمان بالله ربًا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا؛ إذ في القرآن أنواع من النداء؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، للجميع يا أهل الكتاب لخصوص أهل الكتاب؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [النساء: ٤٧]، بخصوص أهل الكتاب؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، أو وصف الإيمان، فإنما هو للمسلمين خاصة، فهذا يدل على أن هذا الكاتب يعلم الحق، ولكنه يعتسفه لتقرير ما يُريد تقريره.

قال: [**كما أنه - تعالى - أشار إلى أن كثيرًا من الناس يسجدون له، وهذا يعني: أن كثيرًا من المسلمين، وغير المسلمين، الناس على إطلاق، يسجدون له، وأنهم سيدخلون الجنة**].

السجود في قوله ﷻ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨]، بيَّن ﷻ أن من في السماوات في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، هذه جميعًا تسجد لله عن طواعية واختيار؛ أما الناس فهم على قسمين:

١ - منهم من يسجد.

٢ - ومنهم من لا يسجد.

فقال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، الناس كثير منهم يسجد لله ﷻ عن اختيار. قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ولفظ كثير لا يدل على أنه الأكثر، بل يحتمل أن يكون الأكثر هؤلاء، أو الأكثر هؤلاء، فإذا طلبنا البيان، فنطلب البيان من الأدلة الأخرى، والأدلة الأخرى تبين أن أكثر الناس على غير الهدى، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾. وقال ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال هنا: **[إن الذين يسجدون أنهم سيدخلون الجنة]**. الذين يسجدون القلة هم الموحدون، وأما الآخرون، فقد حق عليهم العذاب، وهم الأكثر.

قال: **[إن الإسلام والإيمان ليسا محصورين برسالة سيدنا محمد ﷺ فقط، بل إن الإسلام والإيمان يخصان كل إنسان يعبد الله بأي صورة كانت قبل وبعد البعثة المحمدية المباركة]**.

هذا الكلام تكذيب ورد لجميع الآيات السالفة، الإسلام والإيمان محصورٌ في الذين يتبعون رسالة النبي ﷺ، بل إن بعض الذين يتبعون رسالة

النبي ﷺ يسلب عنهم اسم الإيمان، ويكتفى في حقهم باسم الإسلام؛ كما قال ﷻ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، فادعاء الإسلام والإيمان لمن هو مشرك بالله ﷻ هذا يدل على أن هذا الرجل مكذب للقران، أو غير كافر بالطاغوت، ومن لم يكفر بالطاغوت فليس من المسلمين أصلًا؛ لأن من لم يكفر بالطاغوت، يعني: يعتقد بطلان عبادة غير الله، ويعتقد أن من عبد غير الله، فهو كافر مشرك، فإنه ليس من أهل لا إله إلا الله؛ لأنه لم يأت بشروطها، والله ﷻ بعث جميع المرسلين لكي يعبد الله وحده دون ما سواه، ويكفر بالطاغوت؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] فالكفر بالطاغوت معناه: اعتقاد بطلان عبادة غير الله، وأن من عبد غير الله ﷻ هكذا على الإجمال فهو مشرك كافر، فهذا يقول - قارن ما ذكرته بقوله -: [**إن الإسلام والإيمان ليسا محصورين برسالة سيدنا محمد ﷺ**].

وهذه الكلمة كافية لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، كافية في بيان أن هذا المقال ظاهر الكفر فيه، وأن من في هذه الجريدة - أخمد الله ﷻ نارها، وأشغل من رضي بمثل ذلك من أهل تحريرها بنفسه، ورد كيده عن المسلمين - يعلمون قبح ما في هذا، ويعلمون ما اشتمل عليه من الضلالة، ولكنهم نشروه رغبة فيه؛ لأن هذه الكلمة الطفل الصغير من المسلمين يعلم بطلان ذلك.

يقول: (**إن الإسلام والإيمان ليسا محصورين برسالة سيدنا محمد ﷺ**).

يعني اليهودي قاتل الأنبياء، وريث قتلة الأنبياء، وقتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، ونسميه مسلمًا، ونسميه مؤمنًا، والنصراني الذي يعلق الصليب

على صدره ويثلث، ويدعي أن عيسى ابن الله، وأن مريم تدعى من دون الله، وتتخذ إلهًا مع الله ﷻ، نسمي هؤلاء مسلمين ومؤمنين، ونسمي - أيضًا - المشركين الذين يعبدون الله بأي صورة يختارونها، أن هؤلاء جميعًا يسمون مسلمين ومؤمنين، وهذا لا شك نقض لأصل الإسلام؛ لأن أصل الإسلام أن يعبد الله وحده دون ما سواه، وأن تتبع شريعة الإسلام، هذا معنى الشهادة بأن لا إله إلا الله، معنى (لا إله إلا الله): لا معبود حق إلا الله ﷻ، وأن عبادة غيره باطلة، وأنها صارت بالظلم، والبغي، والعدوان من البشر، وشهادة أن محمدًا رسول الله فيها شهادة المؤمن، وإخباره، واعتقاده، وإعلامه لغيره، بأن من لم يشهد للرسول ﷺ بالرسالة ولم يتبعه، فإنه ليس من أهل الإسلام، هذا معنى الإسلام الذي يفهمه من دخل في هذه الكلمة. فاطمة أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما لما أتاها عمر رضي الله عنه، وهو المشرك، وأراد أن يمس المصحف قالت له: **(يَا أَخِي، إِنَّكَ نَجِسٌ، عَلَى شِرْكِكَ، وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهَا إِلَّا الطَّاهِرُ)**[1]، هذه الحقيقة يعلمها المسلم حين يدخل في الإسلام، حين يعلم التوحيد، ويعلم معنى الشهادتين، يعلم أن من لم يوحد الله، ويقر بهاتين الشهادتين، ويأتي بشروطها، فإنه ليس من أهل الإسلام، ولو ادعى ذلك، فكيف يكون اليهودي من أهل الإسلام؟! وكيف يروج على واحد يدعي أنه مسلم أن اليهودي يمكن أن يكون مسلمًا موحدًا ومن أهل الإسلام، والإيمان؟ وكيف يروج على أناس يعدون أنفسهم من المثقفين، والمفكرين في تحرير هذه الجريدة الخبيثة، وأن هذه الكلمة ليست إبطالًا لدين الإسلام، لا شك

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٣ - ٣٤٦)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢١٦).

أن الجميع يعرف بذلك من أولئك المحررين، ومن أشباههم، ولكن للناس غرض فيما ينشرون.

قال هنا: [**بل إن الإسلام والإيمان يخصان كل إنسان يعبد الله، بأي صورة كانت قبل وبعد البعثة المحمدية المباركة. يقول ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾** [البقرة: ١١٢].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ فيها الإسلام الصحيح لله، وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، فيها البعد عن الشرك، وفيها إقامة التوحيد لله، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الإحسان راجع إلى العمل، والعمل لا يكون حسنًا، ولا يكون العبد محسنًا فيه حتى يكون قد أخلص فيه، وحتى يكون فيه قد اتبع ملة الرسول الذي أمر باتباعه، وبعد محمد ﷺ فلا يقبل من أحد في إحسانه، وفي إسلامه، حتى يتبع محمدًا ﷺ، والنبي ﷺ رسالته خاتمة، وهي للعالمين جميعًا. قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وبين ﷻ أن النبي محمدًا ﷺ رسالته لجميع الناس، فقال ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣١-٣٢] وقال - في الآية الأخرى -: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، كذلك في آيات أخر بين ﷻ أن الدين واحد، وأن الملة واحدة لا تختلف، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فالأمة أمة واحدة، يعني: من حيث

الاستجابة لله ﷻ، فكل أتباع الرسل هم على دين واحد، وهو دين الإسلام العام، الجميع على الإسلام؛ ولذلك صلحت قلوبهم بالتوحيد من حيث الشرائع، الشرائع في العمل الظاهر، لما اتبعوا رسلهم كانوا على خير، لكن من حيث العمل الظاهر لم يأت رسول بإقرار الشرك، ولم يأت رسول بغير التوحيد، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، والآيات في ذلك كثيرة.

إذًا: في قوله ﷻ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فيها قيد الإحسان، وفيها قيد الإسلام، وقيد الإحسان فيها الإيمان بالرسول محمد ﷺ، وهذا يدل على أن اعتقاد أن بعثة محمد ﷺ ليست ملزمة للناس، وأن اليهودي على خير، والنصراني على خير، والمشرك الذي يعبد الله بطريقته على خير، وأن هؤلاء جميعًا إذا عبدوا الله، فإنهم من أهل الجنة يدل على كفر بالله، وبكتابه، وتكذيب لذلك. وإن قال: أعوذ بالله أن أكفر بالله، فإن مؤدى هذا الكلام الكفر بالله؛ لأنه تكذيب للقرآن، ومن كذب القرآن، أو رده، فهو كافر بالله ﷻ. قال فيما قال: [**فإن القرآن الكريم عندما يدعو للإسلام، وعندما يقول: أنه لن يقبل غير الإسلام دينًا، فإنه يعني بنص القرآن الكريم الواضح الذي لا يقبل اجتهادات، أو تأويلات... أن أي إنسان يعبد الله، ويعمل صالحًا ما دام لا يدري أنه على دين محرف أو باطل سيكون مصيره الجنة**] عدم العلم هنا في قوله: [**لا يدرى أنه دين محرف أو باطل**] عدم العلم إنما ينفع من كان على غفلة، لم يأته رسول، ولم يسمع أصلًا بمِلَّة الرسول، ولم يسمع بمِلَّة رسوله، فإنه هنا الجهالة يعذر بها؛ لأنه لا يعذب

أحد إلا بعد إرسال الرسول، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ أما موسى عليه السلام فقد أرسل إلى بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام فقد أرسل إلى بني إسرائيل، وأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل بالتوحيد، ونهاهم عن الشرك، فإذا نكسوا بعده، وقست قلوبهم، وفسقوا، ونسوا الله فنسيهم، فأشركوا بالله ﷻ، وعبدوا عزيزًا، فإن هؤلاء لم يؤمنوا برسالة موسى عليه السلام، بل ردوها، وأشركوا، فهم غير داخلين في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ لأنهم قد أتاهم الرسول، وبين لهم التوحيد، وبين لهم ضده، كذلك عيسى عليه السلام قال الله ﷻ عنه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾ [المائدة: ١١٧]، التحريف والشرك بالله ﷻ، وادعاء أن عيسى إله مع الله، وأنه ابن الله ما جاء إلا بعد رفع عيسى عليه السلام. إذًا: هنا فيما يقول هذا القائل: **[أن من لا يدري أنه على دين محرف، أو باطل، فيكون مصيره الجنة]**. هذا فيمن كان غافلًا أصلًا لم تصله رسالة؛ أما من وصلته رسالة موسى، وما دعا فيه عليه السلام من التوحيد، ونبذ الشرك، ولم يؤمن بذلك، فإنه كافر، وهذا الذي عليه اليهود بعد موسى بقرون إلى وقتنا الحاضر، ومن أدركه النبي ﷺ من اليهود على هذا إلا من أسلم منهم، فاليهود الآن جميعًا مشركون، ليس فيهم من يؤمن بموسى عليه السلام على ما كان عليه موسى، كما أن النصارى جميعًا ليس فيهم من يؤمن بعيسى عليه السلام على ما كان عليه عيسى، بل الجميع يدعون أن عيسى ثالث ثلاثة، أو أن عيسى ابن الله، أو أن عيسى إله مع الله ﷻ.

إذًا: قوله: **[ما دام لا يدري أنه على دين محرف أو باطل سيكون مصيره الجنة]** هذا قول باطل مصادم للنصوص، وإذا كان كذلك، فإن من اليهود

من كان في أطراف الأرض، ومن النصارى من كان -أيضًا - في أطراف الأرض، والله ﷻ بيّن أن عيسى عليه السلام قال لهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، فبيَّن لهم الرسل جميعًا؛ موسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ، بأن المشرك مأواه النار، وأن الله حرم عليه الجنة، فلا يعذر أحد يموت على اليهودية، وعلى النصرانية بعد رسالة النبي ﷺ، يعذر من لم يسمع ممن كان على دين موسى غير المحرف، ممن كان على التوحيد، ولم يتبع شريعة محمد ﷺ، ولكنه على التوحيد الذي جاء به موسى، ولم يسمع برسالة النبي ﷺ، نعم هذا يعذر؛ لأنه لا يجب عليه الاتباع إلا بعد أن يبلغ، ولم يبلغ؛ وأما من هو على دين الشرك، والتحريف، وعبادة عزير، والتثليث من النصارى، فهؤلاء كيف يعذرون؟! وكيف تكون رسالة الرسل الذين بلغوهم رسالات الله؟!

قال هنا: [**إذ لا يمكن لنا أن نقول: إن على كل نسمة في هذا الكون دراسة كل الأديان؛ ليصل إلى الدين الصحيح**]. هذا من جراء النظر في استعظام أن يكون البشر من أهل النار، في استعظام أن يكون كل يهودي، أو كل نصراني ممن لم يؤمن بمحمد ﷺ، وبعد البعثة أنه من أهل النار، وأن المشركين يستعظم أن يكونوا من أهل النار.

وما راعى حق الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ قال في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال ﷻ: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣]، وكل من مات على الشرك بالله ﷻ، فإنه إذا كان قد بعث

له رسول، فإنه لا يعذر بذلك، ولا يعذر بعدم البحث، يجب عليه أن يبحث؛ لأن الله ﷻ خلق الخلق لعبادته وحده دون ما سواه، فهو يجب عليه أن يقف، إذا علم أن الله هو الذي خلقه، وأنه لا يمكن أن يخلق نفسه، أن يبحث عن الحق، وأن يطلب الحق، وأن يتحراه، هذا هو الواجب على الناس، أما استعظام أن يكون الناس يطلبون، ويبحثون عن الحق، وأن هذا غير ممكن، نعم غير ممكن واقعًا، لكن هذا لا يعذر به أولئك، وفي الحديث: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»[1]، والجنة مأوى الطيبين، والنار مأوى الخبيثين.

قال: [**إذ لو أن أهل الأرض أرادوا فعل ذلك، إذًا لاحتاجوا عشرات السنين في البحث والتنقيب، وربما درسوا في الديانات القريبة إلى مسكنهم فلا يصلون إلى دراسة الإسلام إلا بعد عمر طويل، بل لعلي أقول آسفًا: إن مخلوقًا محايدًا قادمًا من المجهول إلى آخر كلامه**]. هذا الاستعظام وهذا الاستغراب في قوله: إذًا لاحتاجوا عشرات السنين. هل هو عذر؟ سلمان الفارسي رضي الله عنه بحث عن الحق أكثر من ستين سنة، وأكثر من ذلك؛ لأنه عاش رضي الله عنه ستين وثلاثمائة سنة ومات وهو ابن ثلاثمائة وستين سنة، سلمان الفارسي رضي الله عنه، وأقل ما قيل في عمره: إنه مات وهو ابن عشرين ومائة من السنين. ومكث يبحث عن الحق، يبحث عن الحق، هذا هو المطلوب من الناس أن يبحثوا عن الحق؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] خلقوا لذلك. فيجب عليهم أن يبحثوا، وإذا لم يصلوا إلى شيء، أو هم لم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨، ٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

تصلهم رسالة الله أصلًا، وكانوا غافلين عن الحق، فإنهم يبعث لهم يوم القيامة رسول؛ أما من أرسل إليه رسول من اليهود، والنصارى، ونحو ذلك، ولم يؤمن بذلك الرسول، أو لم يحكم رسالته من التوحيد، والإسلام العام قبل النبي ﷺ فإنه مشرك، وبعد النبي ﷺ فإنه لابد أن يتبع ذلك الرسول.

قال: [**وأخيرًا، وللدلالة على عدل الله - تعالى - نورد هذه الآيات، وهي من سورة الجاثية، وأورد قوله** ﷻ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] **إلى أن قال** ﷻ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]].

نعم الأمم يوم القيامة تجثو، كل أمة تراها جاثية، كما أخبر الله ﷻ، وكل أمة تدعى إلى كتابها، فالنصارى يدعون إلى كتابهم، واليهود يدعون إلى كتابهم، وأمة محمد ﷺ تدعى إلى كتابها، فأمة محمد ﷺ، التي هي أمة الإجابة، أو أمة الدعوة، تدعى إلى هذا الكتاب: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩]، فيشهد الشهداء، ويشهد الأنبياء؛ كما قال ﷻ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الزمر: ٦٩]، قال ﷻ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف: ٦]. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ فيسأل المرسل: هل بلغت الرسالة؟ ثم يسأل المرسل إليه: هل جاءتك رسالة الله؟ فإذا قال: جاءتني رسالة الله، ثم لم يكن موحدًا مؤمنًا لتقوم عليه الحجة، فإنه من أهل النار، من أهل الكفر، أما هذا الكلام وهو أن كل أمة تدعى إلى كتابها، يظن أن معناه أن كل قوم سيحاسبون، كما قال بموجب تشريعاتهم التي يعبدون الله عليها، نقول:

هذا باطل، وغلط، ومن الافتئات على العلم والدين؛ لأن التشريعات، كما قال: سيحاسبون بموجب تشريعاتهم التي يعبدون الله عليها. عبادة الله وحده هذه في أصل الدين، في أصل الإسلام؛ أما التشريعات ففيها الأمر والنهي، والأحكام، والحلال، والحرام، وطريقة الصلاة، وطريقة الزكاة . . . إلى آخر ما جاءت به الأنبياء في شرائعهم؛ أما الأصل وهو الدين فهو واحد عند المرسلين جميعًا؛ إذًا: كل أمة تدعى إلى كتابها، فيدعى النصارى إلى كتابهم، هل حكمتم الإنجيل؟ هل حكَّمتم ما فيه من التوحيد، ومن الإيمان برسول الله محمد ﷺ؟ ويدعى أهل التوراة، هل حكمتم ذلك؟ كل أمة تدعى إلى كتابها، يعني: الذي أنزل عليها، وكذلك إلى كتابها الذي فيه كتابة الأعمال، لهذا قوله: نستدل منها أن كل قوم سيحاسبون بموجب تشريعاتهم، هذا غلط كبير، وافتئات على الآية، وتعدٍّ؛ لأن هذه الآية فيها أن كل قوم يدعون إلى كتابهم، يعني: كتاب أعمالهم، أو كتابهم الذي أنزل عليهم؛ ليرى هل حكموه؟ هل آمنوا به، أم لم يؤمنوا؟ المشرك الذي لم يستجب لرسالة رسوله، اليهودي الذي لم يستجب لرسالة موسى عليه السلام، النصراني الذي لم يستجب لرسالة عيسى عليه السلام فإن هؤلاء مشركون كفرة، ومن كان بعد الإسلام فعلى الجميع أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، ومن كان ذا رسول فلم يؤمن برسول الله ﷺ ومات على ذلك، فهو مشرك كافر، يشهد عليه بالكفر؛ لأنه ليس لأحد أن يعبد الله بالطريقة التي يختارها، بل عليه أن يعبد الله بالطريقة التي بينها خاتم المرسلين ﷺ، إذ أن الطريق إلى الله واحد، وطريقه هو محمد ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن

تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، وهذه الآيات وغيرها فيها الدلالة على بطلان هذا القول من قائله، وعلى أنَّ ما ذكره كفر بالله ﷻ، وأن هذا المقال مقال كفري، وهذه الأمة إذ خلت من إنكار المنكر، وخاصة ما يتصل بالتوحيد والاعتقاد الذي فيه تَجَنٍّ على الإسلام و القرآن، و رَدّ لكلام رب العالمين، والتحريف في الكلم عن مواضعه، وإضلال الناس، فإنها تؤذّن بخطر شديد، وتؤذّن بعقوبة عامة، والله ﷻ لعن اليهود بقوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، فواجب على كل مسلم جاهل، وعالم، وطالب علم، وغير طالب علم أن ينكر ذلك، بما يؤمّل معه أن يصد هذا المنكر، بما يتفق مع طريقة أهل العلم في ذلك، بالاتصال بهؤلاء، والإنكار عليهم، والتغليظ عليهم، والرد عليهم، كلٌّ بما يستطيع، وأقل ما يجب في ذلك مقاطعة هذه الجريدة؛ لأجل أنها داعية إلى الفساد، وإلى الكفر، وبما نشروا. الناس منهم من هو جاهل، منهم من لا يعلم أن هذا الكلام كفر بالله، فيصل منه إلى أن اليهودي مسلم، وأنه إذا مات في الجنة، كما صرح بذلك الكاتب، وأن النصراني إذا مات في الجنة، وأن اليهود والنصارى والمسلمين كلٌّ هؤلاء على الإسلام، وأنه يجب أن يكونوا متحابين متآخين؛ لأنهم على الإسلام، وأنهم جميعًا سيجتمعون في الجنة، ونحو ذلك من الإضلال، والتضليل، فواجبنا القيام في ذلك، بما يجب من إنكاره بالطرق الشرعية، والواجب علي أهل العلم خاصة أن لا يتركوا هذا الأمر؛ لأنهم إذا ترك لهم ذلك لربما أظهروا كفرًا مرة ومرة.

ومثل هذا الكاتب يجب أن يحاكم، وكذلك الذي نشر من أصحاب التحرير، أو رضي به، فإنهم يجب أن يحاكموا على الردة؛ لأن هذا الكلام ردة، وكلام كفر، وكلام فيه تكذيب للقرآن، وكيف لا يكون كذلك وفيه ادعاء أن الإسلام لا يلزم الناس، وأن المسلم والمؤمن يطلق على اليهودي، والنصراني، والمسلم، والمشرك، والذي يعبد الصنم، والذي يعبد الوثن، الذي يعبد الصليب، والذي يعبد بوذا، والذي يعبد كذا وكذا، كل من عبد الله على طريقته، فيسمى عند كاتب هذا المقال مسلمًا ومؤمنًا، ما دام أنه يعمل صالحًا، وأن الناس يحاسبون على شرائعهم بعد بعثة النبي ﷺ.

من أطاع الرسول فقد اهتدى، ومن تولى فإنه من أهل النار إذا مات عالمًا بذلك، وأسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يقومون مخلصين له، ويجعلنا ممن يغضب لغضبه، ويرضى برضاه، ونعوذ بالله من طريق الهالكين، ونعوذ بالله من أن يأتي لهذه البلاد التي نور الله ﷻ أرضها، ونور قلوب أهلها بالتوحيد وبالالتزام بالسنة، وبالالتزام بالإسلام، أن يأتي آت إليها، لكي يخرب أساس العقيدة في قلوب أهلها، فإن صلاح الأرض بالتوحيد، وفساد الأرض بالشرك والكفر، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، **قال المفسرون: إفساد الأرض يكون بالشرك، وصلاح الأرض يكون بالتوحيد**[1].

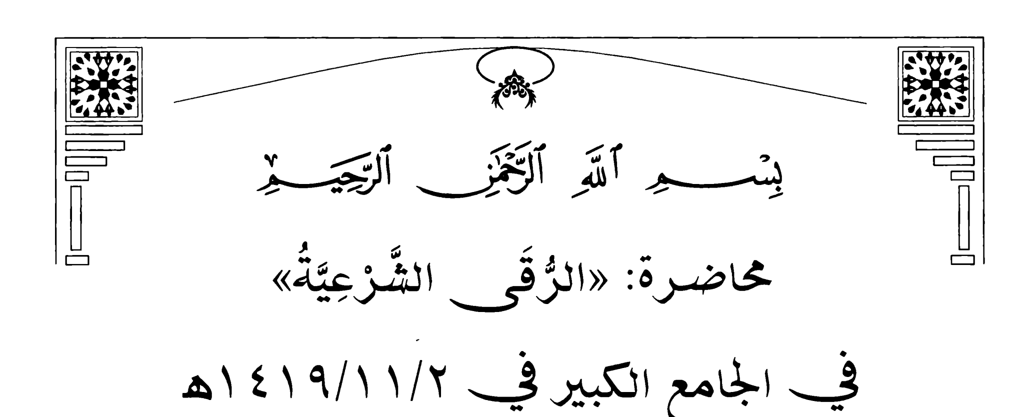
فإذا اعتقد الاعتقادات الباطلة، ونشأ أُناس على مثل هذا الاعتقاد الفاسد

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٠١، ٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

الذي لا يفرق فيه كاتبه بين اليهود، والنصارى، والمسلمين، وأن الجميع سيجتمعون في الجنة، وأنه لا يلزم الإيمان بمحمد ﷺ، وأن كل واحد له أن يعبد الله على طريقته، وأن من عبد الله على طريقته التي يفضلها، ما دام أنه يعمل صالحًا على حسب رغبته، وطريقته، فإنه من أهل الجنة، وأن ذلك من عدل الله. هذا من الظلم في حق الله أن يجعل المشرك، الذي يسب الله ﷻ بالشرك، أن يجعل من أهل الجنة، الجنة دار طيبة، إنما هي للطيبين، والذي يحمل في قلبه عقيدة خبيثة كفرية شركية، ويدعو مع الله إلهًا آخر، ويعبد الصليب، ويعبد الأوثان، ويعبد عزيرًا، ويعبد المسيح، ويعبد أمه، هؤلاء سبوا الله أعظم مسبة، وقلوبهم امتلأت خبثًا، وأرواحهم خبيثة، فمأواهم النار، وما للظالمين من أنصار. هذا وأسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، وأن يصلح لنا القول والعمل، وأن يصلح علماء المسلمين، وأن يوفقهم لكل خير، وأن يصلح ولاتنا، وأن يوفقهم لكل خير، وأن يعينهم على الحق والهدى، وأن يرد الباطل على أهله، وصلِّ الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد ﷺ.

❦ ❦ ❦



محاضرة: «الرُّقى الشَّرْعِيَّةُ»

في الجامع الكبير في ١٤١٩/١١/٢هـ

وقد علق عليها سماحة الشيخ / عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ ورفع درجاته في عليين

السلام عليكم، ورحمة الله، وبركاته. الحمد لله الذي مَنَّ على عباده أجمعين بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، حتى ترك أمته على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك، اللهم صلِّ، وسلم على عبدك، ورسولك محمد كلما ذكره الذاكرون، وصلى عليه المصلون، اللهم صلِّ، وسلم على عبدك، ورسولك محمد كلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وسلم اللهم تسليمًا مزيدًا، أما بعد؛

فأسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلني وإياكم من أهل تقواه، ومن أهل طاعته، ومن

الذين مَنَّ عليهم بالعفو والعافيه، كما أسأله ﷻ أن يجعلنا ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، وهذه الثلاث عنوان السعادة للعبد إذا أخذ بها.

كما أسأل المولى ﷻ أن يبارك لنا جميعًا في أعمارنا، وأعمالنا، وأقوالنا، وأن يجعل موازيننا مثقلة، ونعوذ به من الحَوَر بعد الكَوَر، ونعوذ به من الضلال بعد الهدى، اللهم آمين.

ثم إنه يعلم الجميع أن هذه الندوات، والمحاضرات التي ترتب في هذا الجامع المبارك منذ القديم، ترتب وتوضع جداولها، ويختار المشاركون فيها بعناية، ومتابعة سماحة شيخ الجميع العلامة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - فسح الله في أجله، وأمده بالعفو، والعافية، وجزاه عنا، وعن المسلمين خيرًا -.

فهي ثمرة من ثمرات جهده وجهاده، وهي ثمرة من ثمرات عنايته بالمسلمين في إرشادهم، وتبيين الحق لهم، فأسأل الله ﷻ أن يجزل له المثوبة، وأن يبارك في أعماله، وعمره، وقوله، وأن يبارك في ذريته، وأن يجعله إمامًا من أئمة الهدى، كما أسأله ﷻ أن يجعل خير عمره آخره، وخير عمله خواتمه، وأن يجزيه خير ما جزى به عالمًا عن أمة محمد ﷺ.

موضوع هذه المحاضرة: الرقى وأحكامها.

وموضوع الرقى مهم، وأهميته ظاهرة لكل أحد منكم؛ لأن المسلم يحتاج إلى الرقية دائمًا، يحتاج إليها في تعويذ نفسه، وتعويذ أحبابه، كما كان النبي ﷺ يفعل، يقرأ المعوذتين، وينفث في كفه في يده ﷺ، ويمسح بها رأسه،

ووجهه، وما استطاع من جسده، وفي تعويذ من يحب؛ لدفع البلاء قبل وقوعه، ولتكون تحصينًا وحرزًا للمرء من تسلط الشيطان على العبد.

ويظهر -أيضًا- أهمية علم المسلم بالرقى، أن الرقى اختلط فيها المشروع بالممنوع، اختلطت فيها الرقى الشرعية بالرقى البدعية بالرقى الشركية، وقد كان أهل الجاهلية يتعاطون رقى شركية، وكان يتعلمها الناس، ينقلها الخالف عن السالف، فلما جاءت الرسالة المحمدية على نبينا - عليه أفضل الصلاة والسلام - منعت الرقى، حتى أذن بما ليس فيه شرك من ذلك، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله تعالى -، فأن تكون على بينة من الرقى الشرعية، والرقى الممنوعة هذا مهم؛ لأنه فرقان ما بين المشروع، وما بين الشرك، ووسائل الشرك، وكثير من الناس ربما راج عليه صلاح الراقي، أو ظاهر صلاح من يتعاطى الأدوية، فيصف له أشياء؛ إما من الأذكار، وإما من الأوراد، أو نحو ذلك يصفه له، ويكون غاشًا له من أنه يرشده إلى غير المشروع، ويرشده إلى أمر فيه بدعة، أو فيه شرك - والعياذ بالله -؛ لهذا كان من الواجب عليك أن لاتستعمل من الرقى إلا ما علمت أنه مشروع؛ لأن الأصل فيها المنع إلا ما كان جائزًا فيها، وهذا له شروط، وبيان - يأتي إن شاء الله تعالى - وتظهر أهمية هذا الموضوع، أن كثيرًا من وسائل الشرك في بلاد الإسلام إنما انتشرت بواسطة المتطببة، والذين يعالجون بالأدوية، ويعالجون بالقرآن، ومنهم المشعوذون، والذين يتعاطون استعمال الجن وشياطين الجن - والعياذ بالله - وقد ذكر ابن بشر في أول تاريخ نجد أن من أسباب انتشار الشرك في نجد، هو نزول المتطببة، والمداوين من أهل البادية في القرى، وقت الثمار، فيحتاج إليهم الناس، إما في رقية، وإما في

مداواة، فأمروهم بالشرك، وأمروهم بغير المشروع، فانتشر بذلك - فيما يستظهر ابن بشر رحمه الله - عن طريق الجهلة أولئك، أو عن طريق المشعوذين، والسحرة - كثير من الشرك، والفساد، ولا غرابة، فالنفوس تواقة لزوال ما بها، سواء أكان بالمشروع، أم بغيره، ولاشك أن العلم بحدود ما أنزل الله ﷻ على رسوله مطلوب في أمور العقيدة، وأمور الأحكام، وهذا الموضوع متصل بالتوحيد والعقيدة، فالعلم به ما الذي ينبغي على كل مسلم أن يحرص عليه، وأن يطلب معرفة حكم الله ﷻ فيه.

الرقى أصلها أدعية، وقراءة، ونفث يكون فيه استعانة، أو استعاذة، هذا أصلها[1]، يعني: القصد منها أن يكون ثَمَّ دفع للبلاء أو رفع للبلاء باستعاذة، أو باستعانة؛ ولهذا صارت الرقى على قسمين:

القسم الأول: رقى يستعاذ فيها، ويستعان بالله ﷻ وحده، فهذا هو المأذون به، والمشروع.

القسم الثاني: ورقى يستعاذ فيها ويستعان بغير الله ﷻ، وهذا هو الشرك، وهو الممنوع، وكان أهل الجاهلية يتعاطون الرقى بكثرة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ [القيامة: ٢٩-٣٠]، وكما قال ﷻ: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]، أي: حين حضور الموت يطلب المرء من يرقيه؛ كما قال الشاعر[2]:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

---

(١) انظر: العين (٥/ ٢١١)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٢٤)، ولسان العرب (١٤/ ٣٣٢).

(٢) هو: خويلد بن خالد بن المحرث بن زبيد بن مخزوم -أبو ذُؤَيْبٍ الهذلي- الشاعر =

يعني: الأسباب التي كانو يتعاطونها، فكان أهل الجاهلية يتعاطون الرقى لدفع أو رفع، يعني: لدفع البلاء، ودفع المرض، ودفع العين، أورفعها وإزالتها، مثل: الأدوية، إزالتها بعد وقوعها، لكن كانت أكثر رقاهم يستعيذون فيها بغير الله ﷻ، بآلهتهم، أو بأصنامهم، أو بالجن - والعياذ بالله من ذلك كله-، أو يستعينون فيها بغير الله ﷻ؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم سؤال عوف بن مالك رضي الله عنه للنبي ﷺ: **«كنا نَرْقِي في الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ تَرَى في ذلك؟ فقال: اعْرِضُوا عليَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لم يَكُنْ فيه شِرْكٌ»**[1]. يعني مالم يوجد شرك فيها، ورواه غيره بلفظ: **«اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا»**[2].

فأفاد هذا الحديث:

أولًا: أن الأصل في الرقى عند من لم يعلم الأصل فيها المنع، وأن المرء إذا أراد أن يرقي برقية، فإنه يعرضها على من يعلم؛ حتى يتأكد من سلامة الرقية من المخالفة، قال النبي ﷺ له: **«اعْرِضُوا عليَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لم يَكُنْ فيه شِرْكٌ»**.

= المشهور، أسلم على عهد رسول الله ﷺ، ولم يره، كان من الصابرين؛ حيث ابتلي بموت خمسة من أبنائه بالطاعون في عام واحد، وكان لهم بأس، ونجدة فصبر، سمع خطبة أبي بكر رضي الله عنه بعد موت النبي ﷺ، ثم رجع إلى باديته مات في عهد عثمان رضي الله عنه.
انظر ترجمته في: الإصابة (١١/ ١٢٤-١٢٦)، وأسد الغابة (٢/ ١٩٣، ٦/ ٩٨).
وانظر: لسان العرب (١/ ٧٥٧، ١٢/ ٧٠).

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٨٨٦)، والحاكم (٤/ ٢٣٦).

ثانيًا: ودل على جواز الرقية، أن النبي ﷺ حث على نفع الأخ لأخيه، فجاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما سألوه عن رجل أصيب بلدغة عقرب، أو حية، وسألوه عن الرقية: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ**»[(١)].

وهذا يدل على تجويز الرقية، لكن الرقية التي ليس فيها شرك؛ ولهذا النبي ﷺ كان يرقي نفسه[(٢)]، ورقى غيره[(٣)]، وأيضًا رقاه جبريل عليه السلام[(٤)]، وأمر بأن يسترقى لآل جعفر، ولغيرهم كما في حديث أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها: «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ، فَقَالَ: اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**»[(٥)] والنظرة هي عين تكون من الجن في الغالب، أو من الإنس، فأمر بها يعني: أمر بطلب الرقية، فدل ذلك على أن الاسترقاء، والرقية مشروع بفعله ﷺ، وبإقراره - كما سيأتي -[(٦)]، وبأمره ﷺ، وإقراره هو الذي جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه في الصحيح في قصة لديغ الحي من العرب؛ حيث أصابته لدغة، قال رضي الله عنه: «**أَنَّ رَهْطًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ انْطَلَقُوا فِي سَفْرَةٍ**

(١) أخرجه مسلم (٢١٩٩) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢١٨٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، و(٢١٨٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٣٩)، ومسلم (٢١٩٧).

(٦) قال الخطابي: (وكان ﷺ قد رقى ورُقِي، وأمر بها، وأجازها، فإذا كانت بالقرآن، وبأسماء الله فهي مباحة، أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا، أو قولًا يدخله شرك). انظر: معالم السنن (٤/ ٢٢٦)

سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا بِحَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ، فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلاَءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ قَدْ نَزَلُوا بِكُمْ، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، فَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَهَلْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ شَيْءٌ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللَّهِ إِنِّي لَرَاقٍ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضَيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ فَجَعَلَ يَتْفُلُ وَيَقْرَأُ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى لَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ، فَانْطَلَقَ يَمْشِي مَابِهِ قَلَبَةٌ، قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لا تَفْعَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ»[١]، وفي رواية: «وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ وَيَتْفِلُ»[٢]، فدل ذلك على مشروعية الرقية بفاتحة الكتاب، بل مشروعية الرقية بعامة، وبفاتحة الكتاب بخاصة، وعلى أن أخذ الجُعْل عليها لا بأس به مطلقًا.

النبي ﷺ كما ذكرنا رَقى، ورُقي، وأمر، فرقى نفسه بالمعوذتين[٣]، وكان يرقي ﷺ ببعض الأدعية، فلما نزلت المعوذتان أخذهما، وترك ما سوا هما، وأيضًا أقر الرقية بالفاتحة، وجمع الفاتحة، والمعوذتين في الرقية فيه مناسبة

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٣٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

وهو أن الفاتحة هي أم القرآن مشتملة على معان عظيمة، منها الاستعانة بالله ﷻ وتوحيد الله ﷻ في العبادة في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والمعوذتان فيهما التعويذ، والاستعانة، والاستعاذة هما ضربا الرقية؛ لأن الراقي: إما مستعيذ، وإما مستعين، أو بالأمرين معًا، فصح عنه ﷺ في الرقية أشياء كثيرة من الأدعية:

منها قوله ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ إِلَّا عُوفِيَ»**(١).

وكان ﷺ يرشد أن الإنسان إذا أصابه ألم في شيء من جسده أن يمسح بيده على الذي يؤلمه من جسده، ثم يقول سبع مرات **«أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»**؛ كما في حديث عُثْمَانَ بْنِ أبي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ ﷺ: **«أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»**(٢).

ورقى النبي ﷺ بالرقية المشهورة: **«بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»**(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٠٦)، والترمذي (٢٠٨٣)، وأحمد (٤/ ٤٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٤٤)، والحاكم (١/ ٤٣٢، ٤/ ٢١٣، ٤١٦)، وابن حبان (٢٩٧٨)، والطبراني في الدعاء (١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦).

وهذه رقية جبريل عليه السلام للنبي ﷺ.

وقد صح عنه - أيضًا - ﷺ أنه كان يرقي إذا زار مريضًا بقوله: **«أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»**[١].

وغير ذلك من الأدعية، التي هي في رفع البلاء، يعني: بعد نزول المرض، أوقبله، كقوله ﷺ: **«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ، حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»**[٢].

وكما كان يقرأ سورتي المعوذتين قبل المنام، ويمسح بهما جسده[٣].
دلت هذه الأحاديث على أن الرقية مشروعة، أو جائزة، وعلى أن النبي ﷺ أورثنا أدعية معروفة، وسورًا نقرأها، أرشد إليها الناس ﷺ، فهذه هي الرقية المشروعة؛ فإذًا: نتحصل من ذلك على أمور:

الأول: أن الرقية المشروعة هي دعاء يدعو به المرء، يحصن به نفسه، وينفث على بدنه، أوفي يديه، أو على من يرقيه ينفث، أو يتفل - كما سيأتي بيان الفرق بينهما إن شاء الله-، وعلى أن هذه الرقى التي أرشد إليها النبي ﷺ هي بكتاب الله ﷻ، أو بالأدعية، التي فيها استعانة واستعاذة بالله ﷻ وحده؛ رجاء ما عنده في دفع المرض، أو في رفعه، أوفي دفع العين أو في رفعها، ودل - أيضًا - على أن الرقى الشرعية هي التي تكون بهذا المعنى،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٤٨).

يعني: فيها توحيد الله ﷻ استعانة واستعاذة، وفيها الإقبال على الله ﷻ دون ما سواه؛ ولهذا قال العلماء: تجوز الرقيه بشروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون بأسماء الله، وصفاته ﷻ يعني: أن يستعين فيها بالله ﷻ، متوسلًا بأسماء الله ﷻ وبصفاته.

الشرط الثاني: أن تكون باللغة العربية، أو ما يعرف معناه، إن كان بغير العربية.

الشرط الثالث: أن يعتقد الراقي، والمرقي أن هذه الرقية سبب من الأسباب، ونفع الأسباب إنما هو بإذن الله ﷻ، قد تنفع، وقد لاتنفع بإذن الله ﷻ وتقدست أسماؤه، فالذي ينفع في الحقيقة، والذي يورث النفع بالسبب، وينتج المسبب هو الرب ﷻ، هو الذي بيده ملكوت كل شيء: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [فاطر: ٢]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٧]، والأسباب يؤمر العبد بتعاطيها، لكن مع تعلق القلب بالله ﷻ، قال العلماء هذه الشروط الثلاثة في جواز الانتفاع، في جواز استعمال الرقية، ما جاء في الكتاب، والسنة، أو القرآن بعمومه، وما جاء في السنة من الرقى هي منطبقة على هذه الأمور، فالرقية بالقرآن فيها أنها بأسماء الله ﷻ، وبصفاته، فيها الاستعانة بالله ﷻ، والاستعاذة بالله ﷻ، وفيها التوكل على الله، وفيها تفويض الأمر إليه ﷻ، وفيها التقرب إليه بأفضل ما خرج منه ﷻ، وهو كلامه القرآن العظيم عَزَّ ربنا وتقدست أسماؤه وتعالت صفاته، وفيها أنها باللسان العربي المفهوم، وفيها - أيضًا - أنها أعلى مايتقرب، وأجمع ما يشمل

المعاني، فالعدول عنها إلى غيرها عدول عن الفاضل إلى المفضول، عدول عن العالي إلى ما دونه، مما يعرف معناه، ويكون من الأدعية التي يختارها الناس، فإذا دلت هذه الشروط على أن أفضل ما يرقي به الإنسان أن يرقي بالكتاب، وبالسنة، والقرآن جعله الله ﷻ شفاءً؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧]. فهو شفاء لما في الصدور للأمراض الحسية، والمعنوية.

وهو شفاء - أيضًا - فيما يقع وأيضًا تعويذ فيما لم يقع، وقال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال - أيضًا - ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

والاستشفاء بالقرآن يكون في أمور البدن، كما يكون في أمور النفس، يعني: أنه إذا مرض الإنسان في عضومن أعضائه، أو أصابه شيء، فإن القرآن شفاء للأمراض العضوية، كما مر معك في حديث اللديغ، هذا رجل لدغته حية، أو عقرب، فرقي بالفاتحة بكتاب الله ﷻ، فبرأ فقام كأن لم يصبه شيء، هذا مرض حسي، ولدغة شديدة أزالها الله ﷻ بسبب الرقية بكتابه، كذلك الأمور المعنوية، أو الأمور النفسية، مثل: ضيقة الصدر، أو مثل: العين التي تؤثر على العقل، أو على النفس، ونحو ذلك، هذه - أيضًا - شفاؤها في الرقية بكتاب الله ﷻ، وبسنة النبي ﷺ، أو بما شرع مما يجوز من استعمال الأدعية المعروفة المعنى.

الشرط الثاني الذي ذكرنا: هو أن تكون باللغة العربية، أو بما يفهم معناه من غيرها، وإذا كانت باللغة العربية، فيجب أن تكون معلومة المعنى،

ليست كلمات متقاطعة لايعرف معناها أسماء مجهولة، فلابد أن تكون بأسماء الله ﷻ وبصفاته، أو بما أبيح من الأدعية، التي فيها التوسل بأسماء الله وصفاته، وألا يكون فيها أسماء مجهولة، وقد سئل الإمام مالك رحمه الله عن الرقى التي فيها أسماء مجهولة، قال: وما يدريك لعلها كفر، يعني: لعل في الأسماء المجهولة ما يكون فيها أسماء شياطين، أو أسماء ملائكة، ينادي، ويستغيث بهم، أو ينادي الشياطين، أو يتقرب بذلك، فيكون ذلك كفرًا؛ لذلك لابد أن تشتمل الرقية المشروعة على أسماء معلومة، أسماء الله ﷻ، وصفاته المعلومة، وتكون باللغة العربية، وإذا كانت بغير اللغة العربية، فيجوز بشرط أن تكون معلومة المعنى للراقي، وعدم اشتمالها على شرك بالله ﷻ، أو أسماء مجهولة لايعلم معناها.

الشرط الثالث: قال: أنْ يعتقد أنها سبب. وهذا مهم؛ لأن من الناس من يظن أن الشفاء من عند الراقي لابسبب الرقية، إذ يقول هذا الراقي هو الذي عنده القدرة، والراقي نافع وطبيب، وقد يحسن، وقد لا يحسن، والسبب هو الرقية، والنافع الضار هو الله ﷻ وتقدست أسماؤه.

فإذًا: الرقية سبب، والراقي مثل الطبيب يبذل هذا السبب، والتعلق من المرقي بالله ﷻ، يسأل أن ينفع سبحانه وتعالى بهذه الرقية، وبقراءة القارئ، كان أهل الجاهلية يعتقدون في الرقية بإطلاق، كانوا يعتقدون فيها أنها مؤثرة جزمًا، وكانوا يعظمون الرقية، وتتعلق قلوبهم بالراقي، وبالرقية.

ويكون التوكل على الله ﷻ حينئذ ضعيفًا، وهذا يكون في النفوس سواء في نفوس السابقين، يعني: في الجاهلية؛ أما في نفوس - أيضًا - بعض

أهل الإسلام يكون هناك تعلق، وضعف في التوكل، ويكون هناك رغبة في ما عند الناس، والأكمل في الرقية أن يكون المرء طالبًا العافية من الله ﷻ إذا لم يرقِ نفسه إلا إذا عرض عليه، «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ»[١]، ولهذا جاء في حديث حصين بن عبد الرحمن السلمي المعروف، الذي قال فيه: «كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِى انْقَضَّ الْبَارِحَةَ قُلْتُ: أَنَا. ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ في صَلاَةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ.

قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ قُلْتُ: اَرْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ على ذَلِكَ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ. فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمُ الشَّعْبِيُّ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ ابْنِ حُصَيْبٍ الأَسْلَمِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: لا رُقْيَةَ إلا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ.

فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهى إلى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النبي ﷺ قَالَ: «عُرِضَتْ على الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النبي وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنبي وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلاَنِ، وَالنبي لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي فَقِيلَ لي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الأُفُقِ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لي: انْظُرْ إلى الأُفُقِ الآخَرِ. فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ فَقِيلَ لي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ». ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ في أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا في الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ. وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عليهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ. فَأَخْبَرُوهُ

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٧).

فَقَالَ: فَقَالَ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: أَنْتَ مِنْهُمْ. ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[(١)].

فقوله هنا: (لا يسترقون) يدل على أن الأكمل أن لا يكون من عادة الإنسان أن يطلب الرقية من غيره، بل إما أن يرقي نفسه، وإما أن ينتظر حتى يأتي أحد فيرقيه، فيقول له: أرقيك؟ فهنا لا يدخل في طلب الرقية، هذا من جهة الكمال، يعني: السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب، ولاعذاب، هذه صفتهم، وقد جاء في لفظ عند الإمام مسلم: «لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»، فحذف لفظ «لَا يَكْتَوُونَ»، وزاد: «لَا يَرْقُونَ».

وهذه اللفظة من أهل العلم من حكم عليها بالشذوذ، والمخالفة، كشيخ الإسلام ابن تيمية، ومنهم من صححها، كالحافظ ابن حجر، وغيره[(٢)].

ونفي الرقية هنا: (لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ) نفي أنه يرقي، يعني: الراقي يخرج من السبعين ألفًا، هذا فيه نظر من جهة المعنيين، وذلك أن الراقي محسن، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، والإحسان مأمور به في الشرع[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري [(٥، ٥٧، ٥٧٥٢ مطولًا)، و(٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١ مختصرًا]، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٨)، والنسائي في الكبري (٤/ ٣٧٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٨)، وزاد المعاد (١/ ٤٩٥)، وشرح النووي على مسلم (١٤/ ١٦٨)، وفتح الباري (١١/ ٤٠٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢، ٣٢٨).

المقصود أن الذي يتعاطى طلب الرقية دون أن يرقي نفسه، ويتعاطى ذلك دائمًا، ويتعلق بالراقي هذا ضعف توكله إذا كان هذا من طبعه؛ ولهذا كان الأكمل أن لا يتعلق قلب المرء بالراقي وبالرقية، هذا بعض ما يتعلق بالرقية المشروعة؛ لأننا ذكرنا: إن الرقية قسمان:

قسم مشروع، وقسم ممنوع، رقى شرعية، ورقى شركية، أو بدعية، فهذا القسم الأول - مع بعض الكلام -.

مما يتصل - أيضًا - بالرقى الشرعية، أن الرقية المقصود منها إيصال القرآن إلى المرقي، إذا كان عن طريق النفث، أو الدعاء له، والاستعانة، والتوسل بالله ﷻ بأسمائه وصفاته، أن يجيب الدعاء، والرقية إما أن تكون بنفث، أو بتفل، أو بما هو دون هذين؛ لهذا اختلف العلماء في مسألة: هل تشرع الرقية بنفخ دون نفث؟ على قولين، ورجح أن الجميع جائز.

فإن كان بنفخ، وهو ما ليس معه شيء من الريق، وإنما هو إخراج هواء فقط، فهو جائز، وإن كان بنفث، فهذا هو المشروع الذي كان ﷺ يقرأ، ويتعوذ، وينفث في يديه، وينفث على المريض - أيضًا -، وإما أن تكون بما هو أعظم من النفث، وهو التفل، والنفث إخراج بعض الريق، قليل من الريق، مع الهواء، يعني: إذا أراد أن ينفث، يعني: يقرأ الفاتحة، وإذا ختم ينفث مع بعض الريق، أو يتفل، ومعه التفال، معه بصاق أكثر مما مع النفث، وهذا النفث، أو التفل قد يكون مباشرة على البدن، وقد يكون بواسطة ماء، أو بواسطة زيت، أوشيء آخر، كل هذا مأذون به، قد كان، أو بكتابته على الشيء، كتابة بعض الآيات على المريض، ونحو ذلك قد جاء عن الصحابة رضي الله عنهم في هذا أشياء منها: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يأمر أن يكتب

للمرأة إذا شقت عليها الولادة أو تأخرت ولادتها أن يكتب في إناء: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، كذلك الآية: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وتسقى منه المرأة، التي تأخرت ولادتها، وشق عليها ذلك، ويصب الباقي على صدرها، وعلى شيء من بطنها، ونحو ذلك مما جاء عن بعض الصحابة ﷺ أنهم كانوا يكتبون على بعض البثور، ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وقد قال صالح ابن الإمام أحمد رحمه الله: اعتللت مرة، فقرأ لي أبي في ماء، ونفث فيه، ثم أمرني بشربه، وأن أغسل وجهي، ورأسي منه، وكذلك روى عبد الله بن الإمام أحمد في جواز ذلك، المقصود من هذا: أن إيصال الماء، وإيصال القراءة، إيصال الرقية بالنفخ بالنفس، أو بالنفث إلى الماء، ثم يسقاه المريض، أو يصب عليه، أن هذا لا بأس به لفعل السلف له، ولم ينكر، ولأن له أصلًا في السنة، لكن كلما كانت الرقية مباشرة كلما كان أفضل، ولهذا قال الجد الشيخ محمد بن ابراهيم رحمه الله ورفع درجته في الجنة: كلما قرب الوقت كان أنفع، يعني: يقرأ في الماء، كلما كان أقرب بالنفخ، أقرب بالنفث، أقرب بالرقية، كلما كان أنفع، وكلما كانت الوسائط أقل كان أنفع، يعني: قراءة المرء على نفسه، هذا ما فيها واسطة واحدة، لكن كون المرء يقرأ على الإنسان صار هناك واسطة ثانية، وكون - أيضًا - ينفث في ماء، ثم الماء يشرب، ويغسل به صار هناك واسطة ثالثة، أو كونه يكتب في صحن، ويغسل بزعفران أو بنحوه ثم يشرب، هنا صار عندنا واسطة ثالثة، كلما ضعفت؛ ولهذا كان الأعلى ما ثبت في السنة، وهي القراءة المباشرة من الإنسان على نفسه، أو بقراءة أحد عليه، ثم القراءة

بالماء، ثم الكتابة في ورق، وحله بالماء، هذا مما يسوغ، لكن مما لم يكن عليه عمل السلف، هذه بعض المسائل المتعلقة بالرقية المشروعة.

القسم الثاني من الرقى: الرقى الشركية.

والنبي ﷺ قال في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمائِمَ، وَالتِّوَلَةَ، شِرْكٌ**»[١].

فالرقى المقصود بها هنا الرقى الشركية، التي كان يستعملها أهل الجاهلية، أو من شابههم، والرقى الشركية ممنوعة؛ «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[٢]. ممنوعة وهي شرك بالله ﷻ.

ما صفة الرقى الشركية؟

الرقى الشركية تشتمل على أحد أشياء:

الأول: أن يكون فيها استغاثة، أو استعانة، أو استعاذة بغير الله ﷻ، استعانة بشيطان، بولي، باسم ولي، ينفث، وينفخ على أحد، ويدعو، ولو كان فيها استعانة بالله، لكن معها استعانة، أو استعاذة بولي، أو بميت، أو بشيطان، أو بجني، فهذا شرك بالله ﷻ، أو أن تكون الرقى هذه الشركية، أو أن يكون فيها أسماء مجهولة ما يعرف معناها، يكتب أسماء لا معنى لها، هذه قد تكون من الشياطين؛ ولذلك يمنع منها؛ لأنها وسيلة من وسائل الشرك، ولا يجوز أن تستعمل؛ لأنه قد يكون فيها شرك، ووسيلة الشيء - في القواعد - لها حكمه، إذا كان هذه قد تكون وسيلة إلى الشرك، فتمنع

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

كما يمنع المقصد وأيضًا الوسائل، الرقى الشركية قد تكون بعزائم، التي يسميها السحرة والمشعوذون العزائم، التي يكتبون فيها آيات، ولكن ربما نكسوا الآيات، ويضعون في الورقة التي تحل وتشرب، أو ربما تحفظ كتميمة في الجيب، ونحوها، أو تعلق، يضعون فيها مربعًا فيه أرقام مجهولة، وفيه حروف غير معلومة، أو مثلث، ويكتب عليه على أنحائه بعض أسماء الله، ولكن في داخله أسماء مجهولة، ونداءات، وأرقام لا يعلم معناها، وهذا كله لا شك أنه من وسائل الشرك، أو من الشرك المحقق؛ لأنهم يستغيثون، ويستعيذون بالشياطين، ومن صور الرقى الشركية، أن الرقى الشركية تشتمل على أدعية فيها وسيلة من وسائل الشرك، مثل: التوسل بذوات الأولياء، أو بحرمتهم، أو بجاههم، فهذه تمنع؛ لأن التوسل بالذوات، أو بالحرمة، أو بالجاه هذا بدعة، ووسيلة من وسائل الشرك.

الرقى البدعية، أو التي فيها اعتداء، مثل: واحدٍ يؤلف له رقية، أو ربما يجتهد أحد في الرقية، يكون فيها اعتداء، مثل: رقية ذكرت عن بعض العلماء أنه يقول فيها، يعني: في الرقية: رددت عين الحاسد إلى نفسه، وإلى أعز الناس لديه، أو أحب الناس لديه. العائن اعتدى، لكن أحب الناس إليه والده، أو والدته، أو قريبه، أو ولده ما اعتدى، فترد العين إلى من لم يعتد، هذه دعوة فيها إثم؛ لأن فيها اعتداء في الدعاء، فهي من الدعوات، أو الرقى البدعية، وإن كان ذكرها ابن القيم رحمه الله - في معرض كلام له في زاد المعاد؛ فإذًا: يظهر بهذا أن الأصل في الرقى المنع إلا ما جاز منها، وهذا يدل على أنه يجب عليك التحري، وأن لا تقبل الرقية من أي أحد، وأن لا تذهب إلى

كل من قيل إنه راق؛ لأنه ربما لم يكن على هدى وعلم، إذا ظهرت لك رقية، أو أرشدت إلى شيء، ولم تكن من الكتاب أو السنة، فاعرضها على أحد من أهل العلم يبين لك، هل هي جائزة، أم لا؟ لأن النبي ﷺ قال: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ**»[١]. الذي لا يعلم يعرض الرقية «**لا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[٢].

وهنا تعرض الرقية على عالم يقول لك هل هذه جائزة؟ هل هي غير جائزة؟ هل هي مشتملة على معنى حق وجائز، أم ليس كذلك؟ فإذًا: الواجب على الجميع الأخذ بالمشروع، وترك، أو الحذر والتحذير من الرقى الشركية أو البدعية؛ لأنها وبال على صاحبها؛ ولأن الشرك يحبط العمل- والعياذ بالله -، فيأتي يريد النجاة، ثم يبوء بخسارة الدنيا، والآخرة - والعياذ بالله -، الذي يرقي له صفات، يعني: الراقي يكون:

أولًا: مخلصًا لله ﷻ يعني: يكون في عمله، وأقواله ليس من أهل الشرك، وإنما هو من أهل التوحيد والإخلاص، وأيضًا إذا رقى أحدًا، فيخلص الاستعانة، والاستعاذة بالله ﷻ في الانتفاع بهذه الرقية.

الخصلة الثانية من صفات الراقي: أن يكون ذا علم، المقصود بالعلم هنا المقيد، يعني: أن يكون ذا علم بأن الرقية المشروعة تكون الرقية بالقرآن، بما ثبت في السنة بالأدعية المعروفة، يكون ذا علم، يعلم أن هذه الرقية مشروعة، عرضها على عالم، وقال: هذه الرقية لا بأس بها؛ أما إذا

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

كان ذا جهل ليس من أهل العلم، وليس عنده تحر فيما يترك، أو فيما يأتي، فإن هذا من علامات عدم إحسانه للرقية، أو عدم السماح له بأن يرقي، أو التمكين بأن يرقي.

الصفة الثالثة: أن يكون يقصد النفع، هذه صفة مستحبة أن يقصد نفع إخوانه، نفع المحتاج، وهذا دل عليه حديث جابر رضي الله عنه قال ﷺ: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ**»[١].

ونفع الإخوان، نفع المحتاج، نفع المريض إحسان، ولو أخذ عليه جعلًا، لكن النفع إحسان، والإحسان مطلوب بين العباد، وأحب العباد إلى الله أنفعهم إلى عباد الله.

الصفة الرابعة: ومن صفات الراقي أن يكون معلقًا المرقي بالله ﷻ، لا يعلق المرقي، لا يعلق المريض بنفسه، ويأتي يعمل على نفسه هالة من العظمة، ومن الانتفاع بالرقية، ويحدث بأحاديث: أنا شفيت من مرض كذا، وأنا قرأت، وشفيت من السرطان، وأنا قرأت على فلان، وشفيت من مرض كذا، ويعظم نفسه عند من يقرأ عليه.

الصفة الخامسة: من صفات الراقي المحمودة؛ أن يكون ذا خشوع، وخضوع، وإخبات لله ﷻ، وأن لا يتعاظم ويعظم نفسه، وينفع بما أعطاه الله ﷻ، ولا يعظم نفسه يعلق الناس به، بل يعلق الناس بالأذكار المشروعة والأوراد التي ثبتت في السنة، ونحو ذلك، ويأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر، ويفتح لهم أسباب الخير؛ لهذا صار كثير ممن رأينا كثير، وخاصة

---

(١) سبق تخريجه (ص١٥٧).

الجهلة، والنساء يتعلقون بالراقي من حيث هو فلان، رقيته كذا، وربما ما قرأ في الماء أبدًا، أو ربما قرأ شيئًا يسيرًا، ونحو ذلك، يعني: ما اجتهد، وتحرى الصواب، وتحرى الآيات التي تنفع، أو نحو ذلك؛ وإنما هكذا بالاسم، فهذا غير محمود، بل الذي ينبغي أن ينصح الراقي الناس بأن النافع هو الله ﷻ، وأنا صاحب سبب، والرقية - أيضًا - سبب، ويعلمهم الأوراد المحمودة، ويأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر.

الصفة السادسة: أيضًا من صفات الراقي أن يكون متنزهًا عن موارد الزلل، والفتنة، خاصة في الرقية على النساء؛ لأن الشيطان ربما دخل على الإنسان من جهة الرقية في الخلوة بالمرأة، أو في وضع يده على المرأة، أو نحو ذلك مما نهي عنه شرعًا.

فالواجب على الراقي أن يحذر من وسائل الشيطان، ومن سبل الفتنة التي ربما أدت به إلى افتتان في الدين - والعياذ بالله -، وحصل هذا من بعض من تعاطوا الرقية، ونسأل الله ﷻ للجميع قبول التوبة، والهداية إلى سواء الصراط.

أما المرقي الذي يرقى عليه، المريض الذي أصابته عين، من صفاته التي ينبغي أن يتحلى بها:

أولًا: أن يعظم الرجاء، والاستعانة، والاستعاذة بالله ﷻ، والله ﷻ قال لعباده: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]. وقال ﷻ في آية الأنعام ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٧ - ١٨]، وقال - أيضًا - ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠].

فإذًا: أنت يا من تحتاج إلى من يرقيك، أعظم الرجاء بالله ﷻ، كما تذهب إلى الطبيب، وتعرف أن الطبيب سبب، والنافع هو الله ﷻ، فكذلك الراقي سبب، والنافع هو الله ﷻ.

ثانيًا: وأيضًا أيها المرقي، يا من يحتاج إلى الرقية، إياك والوسواس، فإن مجال العين، والحسد مجال للوسواس، الإنسان ينظر، الرجل، أو المرأة ينظر، ويقول: أنا أصابني كذا بقول فلان كذا، أصابني كذا بالحسد أصابني كذا.

فيأتي إلى أوهام كثيرة، ويعظم عنده الأمر، ويورثه هذا مرضًا إلى مرضه، والواجب على العبد أن يعظم التوكل على الله ﷻ، وأن يأخذ بالأسباب، ولكن لا يجعل للشيطان من قلبه نصيبًا في أنه يوسوس له، ويضعفه؛ لأنه إذا ضعف تسلط عليه الشيطان أكثر.

ثالثًا: ومن صفات المرقي: أن يتعلم الأوراد هو بنفسه، ليس دائمًا يحتاج إلى الناس، هو يرقي نفسه، يرقي نفسه بفاتحة الكتاب، بسورة الإخلاص، والمعوذات، بآية الكرسي قبل أن ينام، بالأوراد طرفي النهار، وبعد الصلوات المكتوبة، ونحو ذلك، فتحصنه؛ لأن هذه الأدعية والرقى تنفع دفعًا، وتنفع رفعًا، يعني: تنفع بدفع السوء، تكون مثل اللباس، مثل الحديد، الذي يحصنك من أثر الضرر الذي يأتي لك، فهي مثل الألبسة التي تقي؛ لأنها سبب نافع، والله ﷻ هو النافع الضار ﷻ، هناك مخالفات نختم

بها الكلام، يقع فيها الذين يرقون وأيضًا الذين يسترقون.

أما مخالفات الراقين:

أولها وأعظمها: أن يتخذ القراءة والرقية حرفة، يتفرغ لها تفرغًا كاملًا، والمعلوم أن الناس بحاجة إلى الرقية، والتفرغ لها لم يكن من هدي الصحابة في عهده ﷺ، مع أن فيهم راقين، ولم يكن من هدي الصحابة رضي الله عنهم، ولا التابعين؛ وإنما نشأ في عصور متأخرة، فالذي عليه هدي السلف الصالح، والذي دلت عليه السنة أن ينفع المرء إخوانه بجعل، أو بغير جعل في الرقية، ولكن لا يتفرغ لها، لا يتخذ الرقية حرفة، يكون كالطبيب المتفرغ لها.

وهذا من جهة أنه لم يرد، أو لم يكن في الزمن الأول، مع قيام الحاجة إليه، أيضًا من جهة أخرى، فيما رأينا من الذين تفرغوا، أورثتهم أشياء ممنوعة كثيرة، ممن تفرغ للرقية تجد عنده أشياء من المخالفات؛ لأنه يحتاج إلى أشياء يفعلها، وإلى أشياء يتركها، وفعلوا أشياء من بيع بغير برهان، وبفعل الرقية عن طريق الأشرطة، وعن طريق الأصوات، يكون هو يقرأ في غرفة، ويضع السماعات في غرفة أخرى على الراقين، ونحو ذلك مما فيه مخالفة للوارد.

وهذا ينبغي أن يمنع سدًا للذريعة؛ لأنه ربما أفضى إلى أشياء مذمومة من توسع هؤلاء القراء في أشياء لا تجوز، أو لم يأذن بها الشرع.

ثانيًا: أيضًا من المخالفات التي هي منتشرة عند القراء، وهي - أيضًا - أشد من الأولى: هي استخدام بعضهم لقرينه من الجن، وهذه شبهة شبه بها

بعض القراء، وحتى سرت في عدد منهم، وهو أنه يقول: أستعين بمسلمي الجن، أو بقريني، أستعين بمسلمي الجن إذا حضروا، أو بقريني في معرفة ما المرقي؟ معرفة ما به هل فيه عين؟ هل فيه سحر؟ هل فيه كذا وكذا؟ والاستعانة بالجن الأصل فيها المنع، أجاز بعض العلماء أنه إذا عرض الجني أحيانًا، يعني: نادرًا، عرض للمسلم في إبداء إعانة، له أن يفعل ذلك، لكن ليس هذا من هدي النبي ﷺ، ولا صحابته، بل قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وغيره: أن الإنس له مع الجن حالان:

الحال الأول: أن يأمرهم، وينهاهم، يأمرهم بالتوحيد، ينهاهم عن ضده؛ لأنهم مكلفون، فهم مثل غيرهم في الأمر، والنهي.

والحال الثانية: مع الجن، شياطين الجن، هي أن يستعيذ بالله ﷻ من شرهم، وأن يسترقي بالرقى المحمودة المشروعة بدفع شرورهم؛ أما الاستعانة بالجن، حتى ولو كان حاضرًا، فلم يكن عليه هدي النبي ﷺ ولا صحابته، ومن أجازه من العلماء، فإنما هو إذا عرض في حال معينة، وهذا لا ينبغي أن يكون في حال الرقية؛ فإذًا: الواجب هو ترك الاستعانة بالجن؛ لأن هذه وسيلة من وسائل الشر، والشرك بالله ﷻ، ثم - أيضًا - فيمن استعان بمسلمي الجن، هذا أورثهم أنهم جعلوا هناك مصائب، وفرقة، وشحناء في النفوس من جراء إخبارهم بما أخبرهم به من زعموا أنه مسلم الجن يخبرهم أن هذا فيه عين، والعين من زوجته الثانية، أو سحر، أو شيء من كذا، فيحدث بما أخبره به هذا الجني، والجني قبول خبره فيما تخبر به متوقف على أنه عدل، وأنه ثقة، وعدالة الجن لا تعلم، حتى ولو كان قرين الإنسان، أو كان حاضرًا معه، لا تعلم عدالة الجني، هل هو

عدل، أم غير عدل؟ ولهذا ذكر علماء الحديث في كتب المصطلح أن رواية الجني من مسلمي الجن روايتهم ضعيفة؛ لأن الرواية في صحتها موقوفة على معرفة العدالة، معرفة الثقة، وهذا لا سبيل إلى الوصول إليه، فكيف يخبر بخبر الجني، هذا الذي يزعم أنه مسلم؟ يخبر بأن أخبره الجني بأن هذا فيه سحر من فلانة هذه المرأة، فيها سحر من زوجة زوجها الثانية، من ضرتها، أو من امرأة أبيها، أو من عمتها، فيخبر بذلك، فتقع شحناء، وقطيعة إلى آخره، بل قد يقول: البلاء من زوجك، أن زوجك فعل كذا وكذا، فتحدث، وهذا لا يجوز اعتماده، ولا يجوز الاستعانة بالجن في ذلك سدًا لذريعة الشرك بالله، وللفرقة التي قد تحصل في المؤمنين.

ثالثًا: أيضًا من المخالفات التي في الراقين: أنهم تساهلوا في المشروع في الرقية، ولكثرة الناس، وقلة الوقت أصبحوا يرقون بأنواع من الرقية في وسيلتها هي مخالفة للوسيلة المشروعة، مثلًا: بعضهم يصنع أختامًا، ختم فيه الآية، يختم بها على زعفران، ثم يضع فيها الأوراق، أنا رأيت من ذلك ختمًا كبيرًا يختم به على الورقة الآية، الختم لا بد فيه من ضرب على الورقة، وهذه آية من القرآن، وهذا امتهان للقرآن أنه يأتي بختم فيه الآية، القرآن يكرم، ثم يضربه على الورقة ضربة هذا مخالفة؛ لأنه امتهان للقرآن، وامتهان القرآن محرم، من ذلك مثلًا: أنه يأتي بما يسميه قراءة عادية، وقراءة مركزة، ويقولون أيضًا: قراءة ملكية، كيف؟ يقول هذا قرأت فيه كذا إلى آخره؟ وهذا كله وسيلة ومن وسائل أكل أموال الناس بالباطل، وخلاف الأصل، الأصل أن يقرأ بالمشروع دون تفريق، ما تقول هذه قراءة عادية بخمسين ريالًا، وقراءة ممتازة بمائتين، وقراءة ملكية القارورة بألف، هذا

مما لا يسوغ؛ لأنه أولًا: يفضي إلى أشياء منكرة، ثم هو - أيضًا - مما هو مخالف لما جاء في نصوص السنة، يعني: في أصل الرقية، فهذا مما ينبغي الحذر منه، ومخالفته، وأن يكون المرء الراقي مخلصًا صادقًا، معتمدًا على المشروع تاركًا لغير المشروع حذرًا من مزلة الشيطان له، هذه بعض المخالفات، التي يقع فيها بعض الذين يرقون. من جهة أخرى هناك المخالفات العظيمة الشركية، التي يقع فيها السحرة، والمشعوذون، والمتطببة بالباطل، فيأتون بالرقى - كما سبق - الشركية، يعطون أوراقًا فيها أسماء شياطين، أو فيها أسماء غير معروفة، أو نحو ذلك، فهذا الحذر الحذر منه؛ لأنه شرك بالله ﷻ، وقد يكون معه - والعياذ بالله - وصية بذبح لغير الله ﷻ مما يخرج المرء من دين الله؛ لأنه شرك أكبر، وعبادة يجب أن تكون لله ﷻ، أو يأمره بأن يفعل أشياء من الشرك - والعياذ بالله - أو من الكفر، كامتهان المصحف، كإهانة المصحف، ونحو ذلك مما هو كفر بالله ﷻ؛ لهذا يجب على الجميع التعاون على البر والتقوى، والتعاون على إنكار المنكر، من علم أنه يتخذ في قراءته، أو في رقيته أساليب غير شرعية من الشرك، والشعوذة، والدجل، فإنه يجب الإبلاغ عنه، ولا تبرأ ذمتك حتى تبلغ عنه؛ لأن هؤلاء يفسدون في الأرض، والله ﷻ أمر بإصلاح الأرض، ونهى عن إفسادها، فالواجب التعاون، فإذا علمت أو رأيت، فيجب عليك أن تحذر من أن تسكت، ويجب عليك أن تبلغ من جهات الاختصاص الهيئة، أو تبلغ الإمارة، أو تبلغ القاضي في البلد، أو المحكمة، أو نحو ذلك مما تبرأ ذمتك، أو تبلغ بعض أهل العلم الذين تعرفهم مما تبرأ ذمتك، لكن لا يجوز السكوت.

هذه كلمات تبصرك عن قرب، وبدون تعمق في موضوع هذه المحاضرة وهو (الرقى وأحكامها)، ولا بد للجميع من العناية بهذا الموضوع، وأن يتفقهوا في الدين؛ لأن «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[١]، وأن ينتبهوا للنساء في البيوت، وللجهلة من أن يذهبوا إلى قراء، أو إلى من يرقي، بدون أن تعلم شخصه، وعدالته، وثقته، وأمانته، وحسن استعماله للرقية، فالواجب على الجميع أن يتعلم، وأن يحذر من وسائل الشرك، وأن يحرص على السنة، وما جاء فيها من إرشاد، وبيان، فالخير كل الخير في اتباع سنة محمد ﷺ؛ لأنه لا خير إلا دلنا عليه، ولا شر إلا حذرنا منه.

فدلنا على الرقية المشروعة، وذلك بالقرآن، أو بما أرشد إليه ﷺ من الأدعية المعروفة، وكذلك نهانا عن الشر من الرقى الشركية، وما شابهها مما هو وسيلة إليها، وأمرنا ﷺ بكل خير، وحضنا عليه ﷺ وبارك على نبينا محمد.

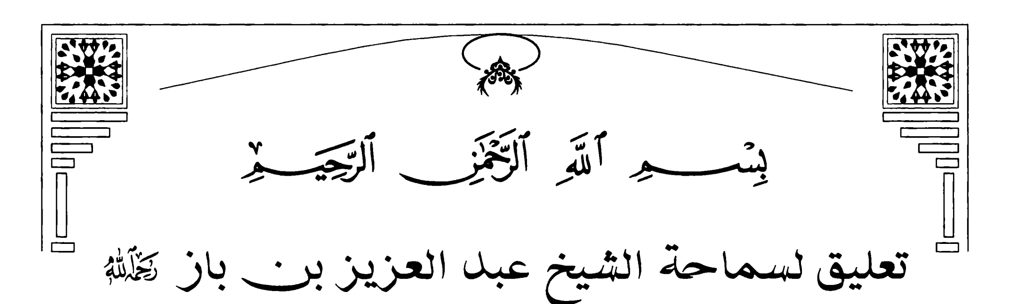
أسأل المولى ﷻ أن يجعل ما سمعنا نافعًا، وأن يجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على الإخلاص له، وعلى توحيده، وتحقيق توحيده، وأن يجعلنا من الذين رضي عنهم، رضي قولهم، ورضي عملهم فأرضاهم، إنه سبحانه وتعالى جواد كريم، كما نسأل المولى - جلت قدرته - أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يهديهم إلى الرشاد، وأن يوفقهم إلى كل سبيل خير فيه نصرة للإسلام، والمسلمين، وفيه نفع للبلاد والعباد، كما أسأله ﷻ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يجعلنا

---

(١) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، ونعوذ به من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الزيغ بعد الإيمان، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، اللهم أنزل علينا جميعًا عفوك، ورحمتك، ومغفرتك، وعافيتك على قلوبنا، وأبداننا، وصحح اللهم منا اللسان، والبنان، والقلب، والجوارح، وقوي عقيدتنا، وإيماننا، وتوحيدنا، إنك جواد كريم، أنت أكرم مسؤول، وأنت بالإجابة جدير، ونحن محتاجون فقراء إليك ربنا الله فأجب ما سألنا واغفر لنا جمًّا، وصلَّى الله، وسلم، وبارك على عبده ورسوله محمد.





تعليق لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله

الحمد لله، وصلى الله، وسلم على رسول الله، وعلى آله، وأصحابه، ومن اهتدى بهداه، أما بعد؛

قد سمعنا جميعًا هذه المحاضرة القيمة، التي تفضل بها صاحب الفضيلة الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ**. جزاه الله خيرًا وضاعف مثوبته، وهي محاضرة قيمة في موضوع جدير بالعناية، وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، وأن يضاعف له المثوبة، وأن يوفقنا وإياكم إلى العلم النافع والعمل الصالح، وأن يمنح الجميع الفقه في الدين، ووصيتي للجميع العمل بما سمعتم من التوجيهات، والفائدة من جهة الرقية، كثير من الراقين ليس عنده البصيرة في الرقية، وكثير منهم يحدث منه ما لا ينبغي، فينبغي للمؤمن أن يتوخى - إذا أراد الرقية - المعروفين بالخير، والمعروفين بالاستقامة، والمعروفين بالعلم؛ حتى لا يقع فيما يخالف الشرع، وقد سمعتم ما جاء في الحديث يقول ﷺ: «**لا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[1]، ويقول ﷺ: «**لا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أو حُمَةٍ**»[2]، والعين: عين العائن، والحمة: سم ذوات السموم، يعني: أنها أولى من

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٦٥).

غيرها، وإلا فالرقية لكل شيء، منها الأمراض وما يعرفه الإنسان من البلاء، وقد رقى الصحابة ﷺ لديغًا فعافاه الله، رقاه بعضهم بالفاتحة فعافاه الله، وقال لهم النبي ﷺ لما أخبروه: «**أَصَبْتُمْ**»[١]. صوبهم ولم يعنف عليهم، وأخذوا جُعْلًا من أصحاب المريض، ورقوه بالفاتحة، فالمقصود أن الرقية أمرها لا بأس به، وهي شرعية، كما قال ﷺ: «**لا بَأْسَ بِالرُّقَى ما لَمْ تَكُنْ شِرْكًا**»[٢] وكان يرقي، قد رقى[٣] ورقي ﷺ[٤] وكان الصحابة ﷺ يرقون، والرقى تكون بالقرآن، وتكون بما جاء في الأحاديث، وتكون بالأدعية الطيبة المباحة، والمؤمن يتحرى في رقيته ما جاءت به النصوص، ويتحرى ما يعلم من الأدعية الطيبة، يدعو بها للمرقي، ويتحرى الإخلاص في ذلك، ويعلم أن الله ﷻ هو الذي يشفي، بيده الشفاء والعافية، وإنما الرقية سبب من الأسباب، فعلى الراقي والمرقي الثقة بالله، والتعلق بالله، والإيمان بأنه ﷻ هو الذي بيده الضر، والنفع، والعطاء، والمنع، والشفاء، والعافية، وتكون القلوب به ﷻ مطمئنة إليه، يعلم الراقي والمرقي أن الشفاء بيد الله، فيعلق رجاءه بالله، ويسأل الله أن ينفع بالأسباب، سواء كانت الأسباب رقية، أو كأي علاج بأدوية أخرى، النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[٥].

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٥٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٥٦).

(٣) سبق تخريجه (ص ١٥٧).

(٤) سبق تخريجه (ص ١٥٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٧٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩، ٤/ ٨٤).

فالتداوي والعلاج لا بأس به بالرقية وغيرها، لكن مع الثقة بالله، والاعتماد على الله، وأن لا يرقي إلا بما شرع الله، بما أباح الله، وأن لا يداوي غيره، وأن لا يتداوى إلا بما أباح الله، وأن يكون قلبه معلقًا بالله، واثقًا بأنه ﷻ هو الذي بيده الشفاء، وإنما هي أسباب، والشفاء بيد الله ﷻ، والرقية - كما سمعتم - لها شروط ثلاثة:

الأول: أن تكون الرقية بالقرآن، أو بما جاء في الأحاديث، أو بالأحاديث المباحة، والأشياء الواضحة المباحة؛ أما بأسماء مجهولة، أو بالأشياء المجهولة، أو بالشرك، أو بالتعلق على غير الله، أو بالتوسل بالجن كل هذا ممنوع. لا بد من هذا الأمر تكون الرقية بأشياء واضحة من الآيات، أو من الأحاديث، أو أشياء واضحة مباحة لا بأس بها.

والثاني: لا يجوز الرقية بما يخالف الشرع، أو بالأسماء المجهولة.

والثالث: أن يعتقد أنها سبب، وأن الشفاء بيد الله هو الذي يشفي ﷻ، وإنما هي أسباب، ومما ينبغي التنبيه عليه - كما نبه فضيلة الشيخ/ صالح - الحذر من سؤال الجن، والاعتماد على أقوالهم، ويقول: هذا سحرته أخته، أو أخت زوجته، أو أمه، أو فلانة، أو فلان، كل هذا باطل، كل هذا كذب، ولا يجوز الاعتماد على ذلك، ولا يجوز للراقي سؤالهم، والاعتماد على قولهم؛ لأن فيهم الكذاب، وفيهم المجهول، وفيهم الفاسق، وفيهم الكافر، ولا يجوز الاعتماد عليهم، ولا سؤالهم، وإنما يرقيه، وإذا كان به جن تكلم على الجني، ووعظه، وذكره، وحذره من البقاء في الإنسي، وأن هذا ظلم، وأنه لا يجوز له، الواجب عليه الخروج، وأن يتقي الله، وإن كان مسلمًا يراقب الله، ويحذر مغبة الظلم، أو ما يصدقه بأني دخلت فيه بسبب

فلان، وأن فلانة فعلت أختك، أو أمك، أو زوجة أخيك، أو جارة أم فلان، هذا مما يجب الحذر منه، وأن لا يصدق هؤلاء الكاذبون من الجن، ولكن الراقي يعظهم، ويذكرهم، ويأمرهم بالخروج، وأن بقاءهم ظلم، إذا كان مسلمًا فيتقي الله، ولا يظلم أخاه، وإن كان غير مسلم، كذلك يجب الحذر من الظلم، فالظلم عاقبته وخيمة، فيذكره، ويحذره من بقائه في المسلم، وأن هذا ظلم يجب الحذر منه.

وبكل حال فالواجب على الراقين أن يتقوا الله، وأن يراقبوا الله، وأن يرقوا بالآيات القرآنية، والأدعية النبوية، والأدعية المباحة، وأن يحذروا ما حرم الله من الأسباب المحرمة، وأن يحذروا الكذب، وتصديق الجن، أو سؤالهم، أو الاعتماد عليهم، كل ذلك يجب الحذر منه، وأن يكون الراقي يعتمد على الله، ويعلم أنه مسبب الأسباب، وأن بيده الضر والنفع، وأنه القادر على كل شيء ﷻ؛ ولهذا بين النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[1]. يعني: الرقى المجهولة، أو الرقى بغير ما شرع الله وبما أباح الله، أو الرقى التي فيها توسل بالشياطين، والجن، وغير ذلك، إنما الرقى هي التي تكون بالقرآن العظيم، والأدعية النبوية، والأدعية المباحة. والتولة، الصرف، والعطف هو السحر، والتمائم، ما يعلق على الناس، وما يعلق على الأولاد، وغير الأولاد من الحروف، كلها منكرة، يجب الحذر منها؛ أما حديث في السبعين ألفًا «**لا يَسْتَرْقُونَ ولا يَكْتَوُونَ**»[2]

---

(١) سبق تخريجه (ص ١٦٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ١٦٥).

هذا من باب الفضل، عدم الاسترقاء أمر أفضلي، وعدم الكي أفضل، وإلا فلا بأس أن يسترقي، ولا بأس أن يكتوي.

النبي ﷺ كَوى وكُوِي، واسترقى، وأمر عائشة رضي الله عنها أن تسترقي، وأمر أن تسترقي، فترك الاسترقاء من الباب الفضيلة، من باب ترك سؤال الناس، وإذا استرقى للحاجة، أو كوى للحاجة، فلابأس؛ ولهذا قال ﷺ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ، وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**»[(١)] فالكي آخر الطب، عند الحاجة إليه لا بأس بها، وأما رواية: «**لَا يَرْقُونَ**». فهي رواية شاذة غير صحيحة، وإنما المحفوظ «**وَلَا يَسْتَرْقُونَ**»[(٢)].

أما كونه يرقي، فهذا مشروع؛ لنفعه أخاه؛ كما في الحديث: «**مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ**»[(٣)].

المفروض أن ينفع أخاه، ويرقيه، هذا أمر مشروع، ومأجور، لكن مع تحري الرقية الشرعية، والحذر مما حرمه الله من الرقى الجاهلية.

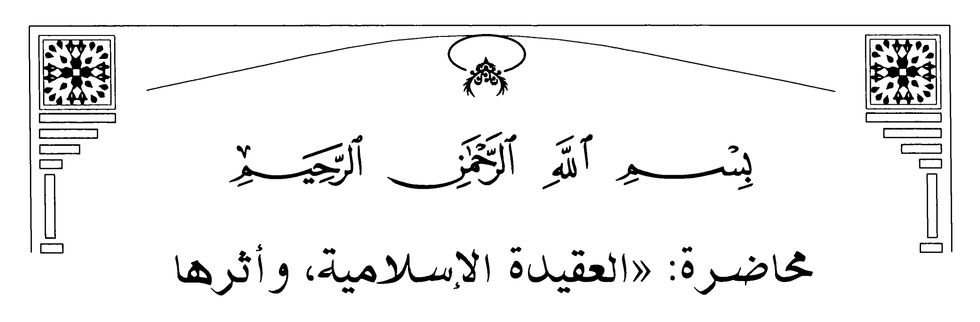
نسأل الله أن يوفق الجميع للعلم النافع، والعمل الصالح، ونسأل الله أن يمنحنا وإياكم الفقه في الدين، ونسأل الله أن يضاعف الأجر لفضيلة الشيخ صالح، عما بذل وعما وضح وبين، ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الهداة المهتدين، إنه سميع قريب وصلِّ الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وأتباعه إلى يوم الدين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٠٨)، ومسلم (٢٢٠٥).

(٢) راجع (ص١٦٥).

(٣) سبق تخريجه (ص١٥٧).



محاضرة: «العقيدة الإسلامية، وأثرها في بناء الفرد والمجتمع»

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا، أما بعد؛

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياك ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وممن إذا أذنب استغفر، وأسأله ﷻ أن يعيذنا من مضلات الفتن، وأن يجعلنا من الذين اهتدوا بهداه، نعوذ بك ربي أن نضل أو نضل، أو نزل أو نزل، أو نجهل أو يجهل علينا، اللهم فأعذنا. هذا وإن موضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه متصل بالعقيدة، فعقيدة الإسلام، وبيان ذلك أهم وأوجب ما يعلمه العبد؛ لأن بها صحة إيمانه، وصحة إسلامه، والعبد بلا عقيدة كالجسد بلا روح؛ لأن العقيدة هي أساس قيام الأعمال، فكل عمل ليس على أساس عقدي صحيح، فإنه غير مقبول؛ لأن الله ﷻ قال لنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] قال: ﴿مَنْ عَمِلَ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. فلابد في العمل من أن يكون العبد مؤمنًا، ومعنى كونه مؤمنًا أن يكون ذا عقيدة صحيحة، عقيدة

إسلامية واضحة، التي هي عقيدة الإيمان؛ ولهذا قال لنا علماؤنا، علماء أهل السنة والجماعة: إن العقيدة الإسلامية مبنية على فهم أركان الإيمان، فمن آمن بأركان الإيمان الستة، وحقق ذلك، فقد حقق العقيدة الإسلامية الحقة، وأركان الإيمان هي أركان العقيدة، فإذا اعتقد العبد الاعتقاد الصحيح في الله ﷻ، فآمن بالله ﷻ ربًّا، وآمن به ﷻ إلهًا، وحده لا شريك له، وآمن بأسماء الله ﷻ وبصفاته، وأنه سبحانه وتعالى لا مثيل له في أسمائه وصفاته، ولا ند له، ولا سمي له، ولا كفء له ﷻ، وآمن بأنه سبحانه وتعالى أرسل رسلًا، جعلهم هداة للخلق إلى الله ﷻ، فمن أطاعهم استحق الجنة، ومن عصاهم استحق النار، ويؤمن بكل رسول أرسله الله ﷻ، وآمن بالملائكة، وآمن بالكتب، وآمن باليوم الآخر، وآمن بالقدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى، فإنه على خير؛ لأن هذه الأركان أركان الإيمان هي أساس عقيدة الإسلام؛ لهذا إذا قيل لك: ما هي العقيدة؟ فقل: العقيدة هي أركان الإيمان الستة، فأركان الإيمان الستة من فهمها، وفهم تفصيل الكلام حولها، علم العقيدة الإسلامية؛ ولهذا بنى علماؤنا - رحمهم الله تعالى - بيان العقيدة الإسلامية، بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على ما دلت عليه النصوص، بنوها على أركان الإيمان الستة وما يتصل بذلك من مباحث، كما سيأتي مبينًا - إن شاء الله تعالى -؛ لهذا أؤكد على أهمية دراسة هذا الموضوع، وأن كل واحد منكم يعتني بالعقيدة؛ يعتني بها حفظًا، ويعتني بها تعلمًا، ولا عيب على كبير أن يجلس إلى أهل العلم، يتعلم العقيدة بجميع ما في أركان الإيمان من مباحث؛ لأن هذا معه النور في القلب، وكلما قويت العقيدة قوي النور في القلب؛ لأن حقيقة العقيدة هي ما تعقد عليه القلب من المعلومات، من

الأخبار، من استسلامك لله ﷻ؛ لأن الإيمان بالله ﷻ، وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله ﷻ، هذا إذا آمن به العبد فقد عقد قلبه على أمر صحيح، لا غلط فيه، وأما إذا لم يعقد قلبه في الله ﷻ على معتقد صحيح؛ إما من جهة استحقاقه ﷻ للألوهية وحده، وإما من جهة نفي بعض الأسماء والصفات، أو تحريف ذلك، وعدم الاستسلام لما دلت عليه النصوص، أو قدم العقل على كلام الحق ﷻ، فإنه لم يحقق الإيمان بالله، كذلك إذا لم يؤمن بما جاءت به النصوص في الكلام على اليوم الآخر، وأجرى ذلك على ظاهره؛ لأنه أمر غيبي، فإن قلبه لم يعقد على الإيمان عقدًا صحيحًا؛ ولهذا ترى أن كثيرًا من أهل العلم يعبرون عن العقيدة، والإيمان في مثل هذا الموضع بقولهم: هذا عقد الإيمان. يعني: هذا الذي يكون المؤمن معه عاقدًا قلبه عليه، وإذا عقدت قلبك على علم، فإن ذلك معناه المحافظة عليه بشيء لا ينفك عن القلب؛ لهذا نعرض لبيان العقيدة الإسلامية بعامة على منهج أهل السنة والجماعة، ومنهج أهل السنة والجماعة مبني على دلالات النصوص؛ لهذا بنوا عقيدتهم في أركان الإيمان، بل وفي كل الأخبار الغيبية، وما يعتقد بنوا ذلك على الاستسلام للنص، وهذا أصل عظيم مبدئي، فارق فيه أهل السنة والجماعة غيرهم؛ لأن الناس في تحديد مصدر الاعتقاد، نعتقد بناءً على ماذا؟ اختلفوا، وأهل السنة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان، ومن تبعهم، وأئمة الإسلام؛ كالإمام مالك، والشافعي، وأحمد، وكسفيان الثوري، وسفيان ابن عيينة، والليث، والأوزاعي، وإسحاق، وابن خزيمة، وابن جرير، وجماعات أئمة الإسلام قالوا: العقيدة تُبنى على الكتاب، وعلى صحيح

السنة، يعني: على ما ثبت في السنة؛ وأما غيرهم فقالوا: مصدر تلقي العقيدة الإسلامية يكون بالعقل أولًا، ثم بالنص ثانيًا. فالعقل عندهم يقدم على ما دلت عليه النصوص؛ لشبهة قامت عندهم في ذلك، ولكن الحق أنه لا أحد يخبر عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، ولا عن الملائكة، ولا عن الأمور الغيبية أعلم من الله ﷻ. هل ثم أعلم من الله ﷻ؟ هل ثَم أصدق من الله ﷻ؟ هو ﷻ أصدق، وأعلم من يخبر عنه ﷻ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، فالله ﷻ يجب أن نستسلم لخبره، فما أتانا منه ﷻ من الأخبار، فهو المصدق؛ كما قال ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأمر والنهي، فكل خبر أخبر الله ﷻ به، وأخبر به رسوله ﷺ، فهو صدق وحق؛ لهذا أول درجات العقيدة الإسلامية الصحيحة أن تتبين منهج تلقي هذه العقيدة، نتلقى العقيدة ممن؟ من شيخ، أو نتلقى العقيدة من عقل، أو نتلقى العقيدة من بلدٍ؟ العقيدة تُتلقى من مصدر العقيدة، وهو كلام الرب ﷻ وكلام المصطفى ﷺ، وهذه قضية يجب أن تكون مسلمة عندنا في أي مسألة نعرض فيها للعقيدة، إذا قال لك قائل: هذا هو كذا في أمور الاعتقاد، في ألوهية الرب ﷻ، أو في صفاته، أو في القدر، أو في اليوم الآخر، فقل: ما النص؟ ما الدليل؟ لأن هذه الأمور غيبية، والغيب هل يخبر عنه بشر؟ لا بد أن يخبر عنه من يعلم الغيب، وهو الله ﷻ، أو من أظهره الله ﷻ على الغيب؛ كما قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧]. فإذًا: تحديد مصدر تلقي العقيدة الإسلامية يجب أن يكون مسلَّمًا، وهو الرب ﷻ، وكلام المصطفى ﷺ،

وما أبردها على القلب! وما أحسنها على القلب! لهذا أجمع أهل السنة والجماعة، وأئمة الإسلام على أننا لا نتجاوز القرآن والحديث، أن نمر ما جاء من الأمور العقدية، والأمور الغيبية، وأن لا نتجاوز القرآن، والحديث، فإذا جاءنا أحد بشيء من العقيدة، بشيء من أمور الغيب، بشيء من التصرفات للمخلوقات، أو بشيء من أحوال ما لا نرى، فنقول له: ما الدليل على ذلك؟ ماذا قال ربنا؟ ما الذي أعلمك؟ كيف علمت هذا؟ الدليل محدد، مصدر تلقي العقيدة الكتاب، ومقبول السنة، يعني: وصحيح سنة المصطفى ﷺ؛ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، أي: في الأخبار، في العقائد، وكذلك في الأحكام، في الأمر والنهي، ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [الحشر: ٧] فانتهوا ﷺ.

إذًا: فمبنى كلامنا على عقيدة الإسلام هو ما دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة؛ فإذًا: هذا الأصل يمشي معنا في كل مسألة نعرض فيها لأمور الاعتقاد؛ لهذا نقول أولًا: إن العقيدة لما قامت على أركان الإيمان الستة، فإن أركان الإيمان الستة جاءت مبينة في الكتاب، وجاءت مبينة في سنة المصطفى ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، بل قال - في آخر الآية -: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، فذكر أن الكفر بأركان الإيمان هو أبعد الضلال؛ وذلك لأن هذه الأركان، هذه الأمور

هي أركان الإيمان.

وقال ﷻ - في موضع آخر في بيان القدر -: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

فإذًا: أركان الإيمان الستة دليلها كثير في الكتاب، وفي سنة المصطفى ﷺ فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر رضي الله عنه أن جبريل جاء يسأل النبي ﷺ عن الإيمان: «يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.....» إلى آخر الحديث، في آخره قال ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١)، وهذه هي أركان الإيمان الستة، وقد جاءت في أحاديث متنوعة.

إذًا: هذه الأركان الستة هي التي ينبني عليها فهم العقيدة، فلننظر ولنتأمل ماذا يدخل في هذه الأركان الستة من الكلام بما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، نصوص الوحيين العظيمين؟ الإيمان بالله هو أعظم الأركان، والإيمان بالله حتى نتكلم عليه، ونفهمك إياه مرتبط بمعنى الإيمان.

ما هو الإيمان؟ الإيمان في هذا الموضع المتعلق بالعقيدة نعني به ما تعقد

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

القلب عليه، يعني: أن تصدق تصديقًا جازمًا لا ريب فيه بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وهذا التصديق لا بد معه من نطق باللسان حتى يصح، ولا بد معه من عمل بالأركان حتى يصح ذلك التصديق، وهو ثمرات العقيدة بعامة، هو منه العمل من مسمى الإيمان، كما أن القول من مسمى الإيمان، والإيمان بالله ﷻ، وبملائكته إلى آخره، هذا معناه أن تصدق تصديقًا جازمًا بما دلت عليه النصوص في الله ﷻ، في ذاته سبحانه وتعالى، وفي صفاته، وفي أفعاله ﷻ، وبما دلت عليه النصوص في الملائكة، وبما دلت عليه النصوص في الرسل، والكتب، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله - تعالى -.

الإيمان بالله لإفهامك معناه - بما دلت عليه النصوص - نقول: الإيمان بالله جاء في النصوص على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: إيمان بالله في ربوبيته.

النوع الثاني: وإيمان بالله في ألوهيته.

النوع الثالث: وإيمان بالله في أسمائه وصفاته

والإيمان بربوبية الله ﷻ معناه: أن تؤمن بأن الله ﷻ وحده سبحانه وتعالى هو الرب، هو الذي خلق هذا الملكوت، وخلق السماء، وخلق الأرض، وخلق الناس جميعًا، خلق المخلوقات التي تراها، وخلق ما لم تر؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال - أيضًا - ﷻ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: ٣١]، أي: أنهم أقروا بهذه المفردات من

مفردات الربوبية، وأن الله ﷻ هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يدبر الأمر، وهو الذي يصرف الأشياء على ما يريده ﷻ، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي خلقها، وأمرها إليه يصرفها كيف يشاء ﷻ.

فإذًا: الإيمان بربوبية الله ﷻ معناه: أن نؤمن بأن الخالق لهذا الملكوت موجود أولًا، وهو الذي خلق وحده، وهو الذي ينفذ أمره وحده، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو الذي يتصرف، هو الذي يغني من يشاء، ويفقر من يشاء، هو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، أصح هذا، وأمرض هذا، رفع هذا ووضع هذا، أعطى الملك من يشاء، ونزع الملك ممن يشاء، رفع دولة، وخفض أخرى، هو الذي يتصرف في هذا المكلوت كيف يشاء؛ ولهذا المؤمن بربوبية الله ﷻ يرى تصرف الرب ﷻ في الملكوت، ويعلم أن هذا حكمة عظيمة يعلمها الرب ﷻ، وحكمة الله سبحانه وتعالى من صفاته سبحانه وتعالى، فهو ﷻ لا يتصرف إلا لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وحكمة الله ﷻ معناها: أنه سبحانه وتعالى يضع الأمور التي يدبرها في مواضعها اللائقة بها الموافقة للغايات المحمودة منها.

إذا قلت: وضع الشيء في موضعه. فهذا عدل، وإذا وضع الواضع الشيء في موضعه ليوافق الغاية المحمودة منه، فإن هذا لحكمة، والله سبحانه وتعالى فيما يتصرف فيه في ملكوته هو الذي يتصرف وحده، أمره نافذ، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن سبحانه وتعالى، إذا تبين لك ذلك، وعلمت أنه سبحانه وتعالى هو المتصرف، فانظر إلى ثمرة هذا النوع من الإيمان.

نقول: ما موضوع المحاضرة؟ العقيدة الإسلامية، وأثرها على الفرد،

وعلى المجتمع، من آمن بالله ربًا، وأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف، وهو المعطي، وهو المانع، فماذا سيحدث في قلبه إذا آمن بربوبية الله عز وجل على هذا النحو الكامل؟ سيعظم في قلبه أولًا محبة الرب عز وجل؛ لأنه يرى ربه سبحانه وتعالى هو المتصرف في هذه السماوات، وفي هذه الأرضين، فيعظم محبته، وتعلقه بالله؛ لأنه تعلق بالقوى الأقوى؛ ولهذا جاء في الأثر: «**أن المؤمن لو كادته السماوات والأرض لجعل الله له من بينها مخرجًا**». وكما في حديث أبي العبّاس عبد الله بنِ عبَّاس رضي الله عنهما قال: «**كنتُ خَلفَ النّبيِّ ﷺ يومًا، فقال: يا غُلامُ؛ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا استعَنْتَ فاسْتَعِن بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجُفَتِ الصُحُفْ**»(١).

الإيمان بربوبية الله عز وجل، وأنه هو المتصرف في هذا الملكوت يثمر في قلبك التوكل عليه عز وجل، يثمر في قلبك تفويض الأمر إليه عز وجل، فالأمة بل الفرد أولًا المؤمن بالله عز وجل ربًا إيمانًا كاملًا، فهو مفوض أمره إلى الله عز وجل؛ كما قال العبد الصالح: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ [غافر: ٤٤]، وكما قال شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

تتوكل على الله ﷻ، تفعل الأسباب التي جعلها الله ﷻ أسبابًا لحدوث المسببات تفعل العلل، التي جعلها الله ﷻ عللًا لمعلولاتها، وتفوض الأمر إلى الله، تتوكل على الله لعلمك أن هذا الملكوت لا يحدث فيه شيء إلا بإذن الرب ﷻ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، إذا نظرت إلى ورقة تتقاذفها الرياح، فالله ﷻ يعلمها؛ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. سبحان الرب وتعالى وتقدس! فما أعظمه! وما أجله ﷻ عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا!.

إذًا: الإيمان بربوبية الله ﷻ له أثر على قلب العبد، له أثر على قلبك، إذا أعطيت شكرت، وإذا منعت تعلم أن المنع من الله ﷻ، وأن الله ابتلاك فلتكن إذًا فيما أعطيت إياه ممن إذا أعطي شكر، وفيما منعت منه ممن إذا ابتُلي، ومنع صبر. وهذا حقيقة الإيمان بالله ﷻ ربًّا؛ لأن المؤمن بالله ﷻ ربًّا دائمًا قلبه مطمئن بالله ﷻ؛ لهذا سئل بعض السلف: **(من الصادق في إيمانه؟ قال: الذي لا يحركه زيادة عطاء، ولا نقص عطاء)**؛ لعلمه بأن الله ﷻ هو الذي بيده كل شيء، فمن إذا أُعطي فرح في الأرض بغير الحق، وإذا ابتُلي قنط، ويئس، وظن الظنون، وشك الشكوك، فهذا ما حقق الإيمان الكامل بالله ﷻ ربًّا. وثمرات الإيمان بالربوبية يطول الحديث عنها، وهي من المهمات التي ينبغي لكم أن تتأملوها في القرآن، كلها في القرآن؛ لهذا يكثر في القرآن ذكر صفات الربوبية، لمَ؟ حتى تؤمن، وإذا آمنت اطمأننت صار قلبك سليمًا، صار قلبك متعلقًا بالله ﷻ، لا ترى الخلق شيئًا.

النوع الثاني من الإيمان: الإيمان بتوحيد الرب ﷻ في إلهيته، الإيمان بإلهية الله ﷻ.

وهذا النوع من الإيمان هو الذي من أجله بعثت الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب؛ لأن الإيمان الأول، بالربوبية، - يعني: بأن الله وحده هو الرب، هو المتصرف، هو الخالق، هو الرازق، هو المعطي، هو المانع - أدركه الجاهليون، وأدركه الناس؛ لما يرون من آثار صنعة الله ﷻ، يرون السماء، وعجائب ما فيها، يرون الأرض وعجائب ما فيها، يرى الإنسان تركيب أكله، تركيب جسمه، لا شك أنه سيستسلم، يرى أنه جاء بغير اختيار، وسيذهب بغير اختيار منه، فليس ثَم إلا أن يستسلم للربوبية؛ لهذا الربوبية لم تنكرها الأمم، وإنما الابتلاء في هذا النوع الثاني؛ لهذا قال لنا ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من المرسلين والأنبياء، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أي: لئن أشرك الأنبياء، أو المرسلون أو أشرك أتباعهم، ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهو أعظم الخلق ﷺ، فما بعده أولى، ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾؛ إذًا: فما معنى الإيمان بألوهية الله ﷻ وحده؟ معناه أن تؤمن معتقدًا جازمًا في اعتقادك بلا تردد، ولا ريب أن المستحق للعبادة هو الله ﷻ، أن المستحق للخضوع، والذل، والرغب، والرهب فيما عنده هو الله ﷻ، لِمَ؟ لأن مقاليد الأمور بيده سبحانه وتعالى.

فإذًا: الذي يعبد ويتذلل له من بيده الدنيا والآخرة سبحانه وتعالى، أنت تريد مصلحتك في الدنيا، ومصلحتك في الآخرة؛ إذًا: تتوجه في العبادة

لإلهٍ واحد هو الذي يملك هذا الشيء، وهو الرب الواحد الأحد الله ﷻ؛ فإذًا: معنى توحيد الإلهية، معنى الإيمان بالله إلهًا وحده دون ما سواه: أن توحد الله بأفعالك؛ بصلاتك لا تصلي إلا لله، بصيامك لاتصوم إلا لله ﷻ، بدعائك لا تدعو إلا الله، وبمفردات الدعاء، فلا تستغيث إلا بالله ﷻ، إذا دهتك كربة فاطرق باب الواحد الأحد؛ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]. أما المخلوق فهو ضعيف مثلك؛ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: ٣] أيشركون هذه الأشياء، ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأنبياء: ٤٣] ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ٢١] هل الإله يكون من الأرض، إنسان خلق من الأرض، مخلوقات متنوعة، أصنام أوثان من الأرض، تتخذ إلهًا من الأرض تعبده، وتتوجه إليه، وتدعوه، وتستغيثه، وتذبح له، وتتقرب إليه، ويتعلق قلبك به. إنكار من الرب ﷻ ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ قال بعدها ﷻ: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أي: أهم ينشرون الموتى؟ أهم يحيون حتى يعبدوهم؟ هؤلاء ضعاف مساكين.

فإذًا: توحيد الإلهية هذا أعظم أنواع الإيمان، لم؟ لأن الابتلاء حصل به، فالقلب قلب الموحد، قلب ذي العقيدة الصحيحة يثمر إيمانه بالله الواحد الأحد، وأنه هو الرب المستحق للعبادة دون ما سواه، يثمر بأنه لا يرجو رجاء العبادة إلا من الله ﷻ، لا يرجو حصول شيء خائفًا راغبًا راهبًا إلا من الله ﷻ، لايخاف خوف السر إلا من الله ﷻ، بعض الناس يخاف خوف السر أن يصيبه الولي بمصيبة بدون أسباب ظاهرة كما يفعل الرب ﷻ، أن يصيبه الجني بشيء بدون أسباب ظاهرة، يخاف مثل هذا الخوف،

خوف السر، وهذا من خوف المشركين؛ كما قال ﷻ - مخبرًا عن قول إبراهيم عليه السلام -: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: ٨١] ثم قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]. إذًا: من الذي أحق بأن يخاف؟ المشرك؛ أما المؤمن بالله الواحد الأحد.

فإذًا: لا يخاف إلا من الله. أيضًا أنواع الدعاء، هل وحَّد الله ﷻ في الإلهية؟ من إذا جاءته مصيبة ذهب إلى ولي ميت، أو إلى نبي ورغب عنده تفريج الكربات، الله سبحانه وتعالى هو الذي يملك السماوات والأرض، وهو الذي جعل لك من كل هم فرجًا.

كيف يتوجه العبد في دعائه إلى من دون الله ﷻ؟! لهذا أوصى النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما - وهو غلام صغير - بالتوحيد الخالص. فقال له ﷺ: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله**»[١]. إذا سألت فيما لك به حاجة مما لا يقدر عليه المخلوق، فاسأل الله وحده، وإذا كان المخلوق يقدر على الشيء، فاسأل المخلوق لا بأس، ولكن سؤالك للمخلوق على أنه سبب، ولهذا ترى أنه في حياتك - وتأمل هذا - تؤتى من جهة عدم استسلامك لله ﷻ، تأتي وتطلب من مخلوق طلبًا؛ إما واسطة، وإما شيء، وإما أنه يعطيك مالًا، أو يعطيك وظيفة إلى آخره، ويبقى قلبك متعلقًا بوجاهته، وبقوته، وبسمعته، أو أنه يقدر على هذه الأشياء، وتنسى الواحد الأحد، تؤتى من هذه الجهة، الذي ينبغي إذا سألت المخلوق فيما يقدر عليه، ذهبت للطبيب؛ ليعمل لك عملية، وتأخذ دواء إلى آخره، هذه أسباب، لكن مسبب الأسباب من؟ هو الله ﷻ،

---

(١) سبق تخريجه (ص١٩٣).

فهو الذي يُلين القلوب، ويفتح الموصد من الأبواب؛ لتيسير أمرك فيما جاز سببًا؛ أما الطلب من الأموات، ومن الأولياء، ومن المدفونين، فهؤلاء منزلتهم إما إلى خير، وإما إلى غير ذلك عند الله ﷻ، وهم لا يعطون من سألهم؛ لأنهم مشغولون بأنفسهم، إما أن يكونوا في نعيم فلم يجعل الله لهم أن يعطوا الناس، وإما أن يكونوا في غير ذلك، فهم مشغولون بأنفسهم؛ لهذا قال لنا ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] نهي، و«أحدًا» يقول علماء الأصول: إنها نكرة في سياق النفي، فتعم كل من صدق عليه أنه أحد، كل أحد لا تدعوه. إذًا: الذي يقول لنا: ادعوا، لا بأس أن تدعوا الولي، خالف الآية أو ما خالف؟ الله ﷻ يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨] لا شك، لمَ؟ لأن دعوة غير الله هي حقيقة الشرك.

إذا قيل لك: ما الشرك؟ فقل: هو دعوة غير الله معه؛ بأنواعها من الاستغاثة، ومن الاستعاذة، ومن الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأشباه ذلك، وكل هذه من أنواع العبادة.

القاعدة العامة لهذا النوع من التوحيد أن تؤمن بأن المستحق لكل نوع من أنواع العبادة هو الله ﷻ وحده، وأن ألوهية الرب ﷻ ألوهية بحق، وأن تأليه البشر لغير الله، فهو بالباطل، وبالظلم، وبالعدوان؛ كما قال لنا ربنا ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾، أي: كأنه لا باطل إلا هذا، دعوة غير الله هو الباطل، وكأنه لا باطل إلا هو؛ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. لهذا يجب علينا أن نحقق هذا الإيمان بالله ﷻ

إلهًا وحده دون ما سواه، وهذا هو معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، يعني: لا معبود حق إلا الله، لاحظ: لا معبود حق إلا الله؛ لأن الإلهية معناها العبادة، لا معبود حق إلا الله، هل معنى ذلك أن ثَم معبودات غير الله ﷻ؟ نعم، المشركون يعبدون، يدعون غير الله، يستشفعون بمن لا يملك الشفاعة، ونحو ذلك، وهذا شرك بالله ﷻ؛ لهذا توقن إذا كنت مؤمنًا بالله ﷻ إلهًا واحدًا أحدًا أن كل المعبودات التي عبدت إنما عبدت بالباطل، بالبغي، بالظلم، بالعدوان، وأن المعبود بحق هو الله وحده دون ما سواه، فخذ هذه معك، عُبِد شيء، شجر، حجر، ولي، نبي، ملك، جني، إنسي، من عُبد مباشرة، حقيقة العقيدة الإسلامية، إيمانك بأن هذا المعبود الذي تُوجه إليه بالدعوة أنه عُبد بالباطل، وأن عبادته هي الشرك بالله ﷻ. الشرك منه: شرك أكبر، ومنه شرك أصغر.

الشرك الأكبر بالله ﷻ هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ﷻ، أن تذبح لغير الله، تذبح للولي، يأتي آت إلى قبر ولي فيذبح له، هذا شرك أكبر بالله؛ لأن الذبح لمن؟ الذبح لله. إراقة الدم هذه عبودية، عبادة عظيمة نتقرب إلى الله بها في أيام عيد الأضحى، فهي عبادة عظيمة، صرفها لغير الله تقربًا، أو ذكر اسم غير الله ﷻ على الذبيحة، هذا شرك أكبر بالله ﷻ، تارة يكون شرك استعانة وربوبية، وتارة يكون شركًا في الألوهية، وكلٌّ منها مخرج من ملة الإسلام، ومن العقيدة الإسلامية الصحيحة - النذر، أنواع الدعاء -؛ ولهذا هذه المسألة تحتاج إلى تفصيل، فعليكم لبيانها ومزيد إيضاحها بـ (كتاب التوحيد) للإمام المصلح والشيخ الجليل شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله؛ لأنه انشغل بهذه المسألة زمانًا طويلًا، وذهب

إلى علماء في مكة، والمدينة، والبصرة، وحقق هذه المسألة، وكتب للأمة كتابًا عظيمًا اسمه «كتاب التوحيد»، فارجع إليه في بيان هذه المسألة مع شرحه.

القسم الثالث من أركان الإيمان بالله:

الإيمان بأسماء الله ﷻ وبصفاته: يعني الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات، ما معنى توحيد الأسماء والصفات؟

يعني أن نؤمن بأن الله ﷻ ليس له مثيل في أسمائه، وفي صفاته، فله ﷻ الأسماء الحسنى، وله ﷻ صفات عُلى جليلة عظيمة، ولكن ليس كمثله شيء، فهو ﷻ متوحد في الجلال بكمال الجمال ﷻ.

توحيد الأسماء والصفات، إيمانك بأن الله ﷻ لا مثيل له في أسمائه وصفاته، لا سمي له لا ند له لا كفو له ﷻ، وأدلة هذا الأصل العظيم كثيرة في الكتاب والسنة؛ كما قال ﷻ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] وكما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠] أي: له النعت. المثل في هذه الآية: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] أي: النعت والصفة العليا، المثل هنا بمعنى: الصفة والنعت؛ وكما قال ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] أي: أحد في ربوبيته، وأحد في إلهيته، وأحد في أسمائه وصفاته، لا مثيل له ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١ - ٢] أي: الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها. ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]؛ لكمال غناه ﷻ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] فليس له كفئًا ﷻ؛ كما قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

توحيد الأسماء والصفات كثر كلام الناس فيه، لكن الذي دلت عليه النصوص أنه سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، والصفات العلى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ودلت على أن الله عز وجل له أسماء مختلفة المعنى، وكل اسم مشتمل على صفة غير الصفة التي في الاسم الآخر؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣]

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١).

نسأل الله الكريم من فضله، في القرآن أسماء كثيرة لله عز وجل، في القرآن العظيم صفات للرب عز وجل، أسماء الله، وصفاته؛ منها صفات ذاتية، ومنها صفات فعلية، ما الفرق بينهما؟

الصفات الذاتية لله عز وجل هي التي لا تنفك عن الموصوف، يعني: لا ينفك الرب عز وجل عن الاتصاف بها، مثل: صفة الوجه له عز وجل: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧].

من الصفات الذاتية صفة اليدين لله عز وجل، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ومن الصفات الذاتية لله عز وجل الرحمة، فإن الله سبحانه وتعالى كتب على نفسه الرحمة، صفة ذاتية لا تنفك، الله عز وجل متصف بهذه الصفة لا تنفك عنه عز وجل، يعني: في كل حال هو رحيم عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

من صفاته ﷻ الذاتية: أن له عينين ﷻ، وكل ما جاء في الكتاب، والسنة نثبته من الصفات الذاتية، ومن الصفات الفعلية على أساس أنه ليس كمثله شيء، بعض الناس يقول: هذه الصفات والأسماء إذا أثبتناها على ما في الكتاب والسنة هذا يؤدي إلى التشبيه؛ لأنه يصير صفة الرب ﷻ مثل صفة المخلوق، لله وجه، وللمخلوق وجه. فنقول: الذي وصف نفسه بهذه الصفات من؟ هو الله ﷻ. ولما وصف نفسه بهذه الصفات قال لنا ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. لماذا خص صفتي السمع، والبصر بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؟ هذه فيها نكتة، فائدة، عظيمة في توحيد الأسماء والصفات، لمَ؟ لأن صفتي السمع والبصر مشتركة بين أكثر، أو كل المخلوقات الحية بالروح، أنت تنظر إلى النملة ألها سمع وبصر؟ لها سمع وبصر، هل سمع النملة من جهة أذن لها؟ الجواب: ما تدري مثلًا، الذي ما يدري ما يدري، أو يقول: لا. هل بصر النملة حينما أبصرت قلنا: إن للنملة بصرًا، ولها سمعًا؟ معناه أن النملة تدرك المسموعات بقدر ذاتها، وتدرك المبصرات بقدر ذاتها، لكن إذا قيل لك: كيف تشبه النملة بالإنسان؟ الإنسان هو الذي له سمع وبصر، فهل النملة تشبه الإنسان حينما تقول: لها سمع وبصر؟ النملة وضيعة حقيرة بهواء تطير، البعوض كذلك، المخلوقات الكبيرة: الحمار، والفيل... إلى آخره إذًا: فإثبات صفتي السمع، والبصر المشتركة بين المخلوقات إثبات لوجودها، ومعنى السمع إدراك المسموعات. ومعنى البصر إدراك المبصرات لكن هل سمع النمل، والبعوض مثل سمع الإنسان وبصر الإنسان؟

الجواب: لا. هل سمع الطير، وبصره مثل سمع الإنسان وبصره؟ لا. هل

سمع الملائكة، وبصر الملائكة مثل سمع الإنسان، وبصره؟ لا . الملائكة تسمع كلام الرب ﷻ، إذا أراد الله أن يوحي بالأمر في السماء، سمع له كجر السلسلة على الصفوان ينفذهم ذلك[(١)]، يعني: الملائكة، الملائكة يغشى عليها، فيفيق جبريل عليه السلام، ثم تفيق الملائكة، فتقول الملائكة لجبريل عليه السلام ماذا قال ربكم؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير؛ كما في حديث النَّوَّاسِ ابْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: «**قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُوحِي بالأمرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَات مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رَعْدَةٌ - شَدِيدَةٌ، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا سَمِعَ بِذَلِكَ أَهْل السَّمَاوَات صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُون أَوَّل مَنْ يَرْفَع رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيه بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَة، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُول جِبْرِيلُ: قَالَ:** ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. **قَالَ: فَيَقُولُونَ كُلّهمْ مِثْل مَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إلى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّه ﷻ**»[(٢)].

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١)، ولفظه: «**فِي عنْ أبي هُرَيْرة رضي الله عنه عنِ النَّبي ﷺ قال: «إذا قضى اللّهُ الأمْر فِى السّماءِ، ضربتِ الْملائِكةُ بِأجْنِحتِها خضعانًا لِقوْلِهِ، كأنّهُ سِلْسِلةٌ على صفْوانٍ ينْفُذُهُمْ ذلِك** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾» [سبأ: ٢٣].

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٢٧)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٢٣٦)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٣٤٨)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٩١)، وابن أبي حاتم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وساقه بإسناده (٣/ ٥٣٨)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٥٢)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٦٦)، والبغوي في تفسيره (٣/ ٥٥٧).

إذًا: قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ هذا إثبات ماذا؟ إثبات وجود للصفة، ولكن المماثلة كما أنها منقطعة ما بين مخلوق ومخلوق، فهي منقطعة أعظم الانقطاع ما بين المخلوق، وما بين الرب ﷻ.

فإذًا: إثبات الصفات للرب ﷻ إثبات وجود لا إثبات كيفية؛ ولهذا لا يمكن لمخلوق أن يعلم كيفية اتصاف الله ﷻ بصفاته، بل هذا إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن نؤمن بوجود هذه الصفات، وبأنه سبحانه وتعالى متصف بالسمع، والسمع معروف المعنى، ومتصف بالبصر، وهو معروف المعنى، ومتصف سبحانه وتعالى بالوجه، والوجه معروف المعنى، ومتصف باليدين، ومتصف بالعينين ﷻ على ما يليق بجلاله وعظمته. وكذلك الصفات الفعلية، ربنا وصف نفسه بالاستواء في سبع مواضع من كتابه، فقال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] وهكذا في آيات متعددة كلها في إثبات صفة الاستواء.

الإنسان يستوي؛ كما قال الله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] الإنسان يستوي، لكن هل استواء المخلوق كاستواء الله؟ لا. استواء الله على عرشه أثبته الرب ﷻ لنفسه، ومعناه أن تؤمن بأن الله ﷻ على عرشه علوًا خاصًا، ولا سبيل إلى إدراك الكيفية.

الذين أوَّلوا، ونفوا، وعطلوا، وحرفوا الكلم عن مواضعه، لم يقم في قلوبهم من إثبات الصفات إلا التمثيل، إلا التشبيه؛ فلذلك حرفوا وأوَّلوا،

قالوا: ما يعقل هل الله ﷻ في كتابه، والنبي ﷺ في سنته يوصف بما يشبه به خلقه؟ لا .

وصف الله ﷻ على صفته سبحانه وتعالى على ما يليق بجلاله وعظمته؛ ولهذا قال من قال من السلف: (**وكلُّ ما تُخِيِّلَ في الذِّهْنِ أوْ خَطَرَ بالبَالِ، فإنَّ اللهَ ﷻ بخلافِه**)[1]، الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات أن تؤمن بأن لله ﷻ أسماء، وأن له ﷻ صفات كما يليق بجلاله وعظمته، وأن هذه الصفات على معناها الظاهر منها، لكن لا مماثلة بين صفات الله ﷻ وبين خلقه، فهو سبحانه وتعالى متصف بالصفات على ما يليق بجلاله، وعظمته.

لهذا من القواعد المتقررة عند أهل العقيدة الإسلامية الصحيحة (أن القول في الصفات، كالقول في الذات يُحتذى فيه حذوه، ويُنهج فيه على منواله)[2] فكما أنك تؤمن بوجود الله ﷻ إيمانًا مع قطع النظر في الكيفية، فكذلك الإيمان بالصفات إيمان بوجودها، وباتصاف الله بها، مع قطع الطمع في الكيفية، لا سبيل إلى الكيفية، كل ما خطر ببالك فالله ﷻ بخلافه سبحانه وتعالى .

إذا آمنا بالأسماء والصفات، فما ثمرة هذا على النفس؟ ما ظنكم فيمن آمن بأن الله ﷻ هو القوي العزيز، ماذا سيكون في قلبه؟ إذا آمن المؤمن - يعني: حقق الإيمان - بأن الله ﷻ من أسمائه الجميل ﷻ، وأن من صفاته

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٥٦)، ولمعة الاعتقاد (ص١٢).

(٢) انظر: معالم السنن (٧/ ١٢٢) مع مختصر المنذري والتهذيب؛ حيث ذكر كلام السلف في الإثبات والإمرار، وقد أورد الذهبي هذه القاعدة في كتابه العلو (ص٢٣٦) بالمعنى نقلًا عن الخطابي، وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٣)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٩)، والصواعق المرسلة (١/ ٢٢٩).

الجمال، لهذا ماذا يقول لك ابن القيم؟ يقول لك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته، بعد أن ذكر معاني الأسماء والصفات، وذكر صفة الجمال، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في نونيته[(١)] :

وَهْوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيفَ لاَ ... وَجَـمَـالُ سَـائِـرِ هَـذِهِ الأَكْـوَانِ

مِـن بَـعـضِ آثَـارِ الجَمِـيـلِ فَـرَبُّـهَـا ... أولَـى وأجدَرُ عِـنـدَ ذِي العِرفَانِ

فَجمَالُهُ بِالذَّاتِ وَالأَوصَافِ وَالـ ... أفـعَـالِ والأَسـمَـاءِ بِـالـبُـرهَـانِ

جمال سائر هذه الأكوان بعض آثار صفة الجمال لله عَزَّ وَجَلَّ، كما أن قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ظهرت آثارها في خلقه، فالقوة التي عندك أثر من آثار قوة الله عَزَّ وَجَلَّ، النور الذي تراه أثر من آثار نور الله عَزَّ وَجَلَّ، الرحمة التي ترى الناس يتراحمون بها أثر من آثار رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، العزة التي في بعض المخلوقين أثر من آثار عزة الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل لخلقه من الصفات ما يناسب ذاتهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصفات العبد مخلوقة، وصفات الرب عَزَّ وَجَلَّ غير مخلوقة، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الواحد الأحد الذي لم يزل، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم عَزَّ وَجَلَّ.

الجمال: يعني نريد - أيها الإخوة - أن نفتح قلوبنا لمعنى الإيمان بالأسماء والصفات، ترى الجمال اربطه بجمال الرب عَزَّ وَجَلَّ، إذا كان يعجبك الجمال فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي له الجمال المطلق، ما ترى من جمال المخلوقات هذه ذرة من ذرة من ذرة إلى آخره من جمال الرب عَزَّ وَجَلَّ. إذا كان يعجبك قوة

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى(٢/ ٢١٤).

في عظيم من العظماء، فأين عظمة الرب ﷻ، وقوته ﷻ.

إذا تذكرت أن الله ﷻ يعلم السر، وأخفى، وآمنت بأسماء الله وصفاته، ألا يورث لك ذلك المراقبة، والخوف؟!.

قال ﷻ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] الله ﷻ أليس هو الشهيد ﷻ؟ أليس هو عالم الغيب والشهادة ﷻ، السميع البصير الذي يعلم كل مسموع، ويبصر كل مبصر، يبصر ويسمع دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، هذا ما يجعل العبد يخاف.

إذًا: الإيمان بالأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة، ليس إيمانًا عقليًا مجردًا كما عند الطوائف الضالة، لا، إيمان معه ثمرة، فإذا قصر العبد، وغشيته معصية، وخلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، ضعف إيمانه بتوحيد الأسماء والصفات، وضعفت آثار إيمانه، فتَذَكَّر، أَنَاب سريعًا، وعظم في قلبه صفة الرب، فلجأ إلى الله ﷻ، واستغفره، وانطرح بين يديه.

صفة النزول لله **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ»**(١)، فما ظنك بمن آمن بهذه الصفة.

إذا صلى آخر الليل كيف سيكون شعوره؟ كيف سيكون إيمانه؟ كيف سيكون خشوعه؟ إذا عظم يعظم الشعور بقدر ذلك، وإذا ضعف يضعف بقدر ذلك. إذًا: أيها المؤمنون، الإيمان بأسماء الله وصفاته له ثمراته

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

على الأفراد، ولا شك في صلاح عملهم وفي علمهم بالله وفي صلاح تقواهم، وفي أنسهم بالله، وفي رغبهم فيما عنده، تجد في قلوبهم نورًا، يرون الأشياء لا كما يراها الجهلاء؛ لهذا إذا وقفت عند آية، إذا مررت بآية فيها ذكر الأسماء والصفات، تأمل لا تعجل؛ ليكون إيمانك بالله ﷻ قويًا، هذه جملة من ذكر الإيمان بالله أطلت فيها؛ لأنها هي أهم المهمات في هذا الباب.

أركان الإيمان الأخرى؛ عندنا الإيمان بالملائكة، الإيمان بالكتب، الإيمان بالرسل، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالقدر.

الإيمان بالملائكة معناه: أن تؤمن، وتعتقد أن لله ﷻ خلقًا خلقهم لعبادته، وأنهم بأمره يأتمرون، وأنهم عن نهيه ينتهون، وأنهم مشغولون بعبادته لا يُعبدون؛ كما قال ﷻ عنهم - في وصف الملائكة في آيات في سورة الأنبياء -: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] مرسلون يرسلهم الله ﷻ إلى ما شاء، من الملائكة من هو موكل بالقطر، موكل بالمطر يعني: ترى المطر يأتي إلى بلد، ويذهب عن بلد، الله ﷻ يرسل الملائكة بالرياح يرسلها بالقطر، تعطي بلدًا، وتمنع بلدًا على حسب ما أراد الرب ﷻ؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، وكما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١] الملائكة منهم الموكل بالموت، وملك الموت تحته جنود يعملون معه في قبض أرواح العالمين؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقال - في آية الأنعام -: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] إذًا: هو ملك وتحته رسل، سماهم الله ﷻ رسلًا، ما ترى من الأحوال في

الملكوت، فالله ﷻ يأمر به ملائكته، وجنوده، فيعملون له ﷻ، وينفذون أمره في خلقه، الله ﷻ ينفذ أمره بكن، لكن شاء لحكمته أن يخلق خلقًا لعبادته يجعلهم يأتمرون بأمره، ويفعلون ما يشاء، لا لحاجته إليهم ﷻ كما يحتاج الملوك لأعوانهم لكن لإظهار عبودية الخلائق بأنواعها له ﷻ، الملائكة لا يطلبون، لا يتوسل بهم، لا يُستغاث بهم، وإنما هم عباد.

وهذه الموضوعات أنا طرقتها بصفة تناسب الحضور، وإلا فإن عرضها بصفة علمية عميقة يحتاج - كما هو معلوم - إلى موضع غير هذا، نقول في الإيمان بالملائكة أن له ثمرة، نعلم أن الملائكة يوحدون الله، يسبحونه، يأتمرون بأمره، فهذا يورث المحبة؛ لهذا يجب علينا أن نحب ملائكة الرحمن ﷻ، فبيننا وبين الملائكة محبة وصلة، الملائكة عند الرب ﷻ يستغفرون لنا، ويحبوننا، يحبون أهل الإيمان، ونحن كذلك نحب ملائكة الرحمن؛ كما قال ﷻ - في أول سورة غافر -: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧] وفي آية الشورى قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥].

إذًا: الملائكة بيننا وبينهم محبة؛ لأنهم عباد لله ﷻ، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون ﷻ.

من الملائكة من هو موكل بأشياء، فنوقن بأنه لم يخن أحد من الملائكة الأمانة، فكلٌّ أدى أمانته على ما أمره الرب به ﷻ، فباطل معاداة أي ملك، وإنما هذه صفة الكفرة؛ ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة: ٩٨] من لم يؤمن بالملائكة فهو كافر، ومن عادى ملكًا واتخذه عدوًا، فهو كافر - أيضًا -.

أيضًا من ثمرات الإيمان بالملائكة: المراقبة والخوف؛ لأن من الملائكة من هو موكل بكتابة ما تلفظ به؛ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] فيورث العلم بالملائكة الاستحياء، ويورث الخوف، وأشباه ذلك، وإذا غلط العبد، فإنه يسرع بالإنابة، والاستغفار؛ حتى يمحى ما كتبه الملك عليه، وحتى يثبت ما كتبه الملك له.

الإيمان بالرسل قسمان:

القسم الأول: إيمان إجمالي.

القسم الثاني: وإيمان تفصيلي.

الإيمان الإجمالي: معناه أن نؤمن، ونصدق، ونجزم غير مترددين، ولا عندنا ريب أن الله ﷻ لم يترك خلقه هملًا، بل أرسل إليهم رسلًا من البشر، فأبلغوهم رسالة الله ﷻ، وأن رسل الله ﷻ هم أكرم خلق الله ﷻ، وأنه سبحانه وتعالى اختارهم، وأنهم مؤيدون بالآيات، والبراهين، والمعجزات، فأعطاهم ما أعطاهم من الآيات ما على مثله آمن البشر، منهم من كانت حجته التأثير في الأمور الكونية، ومنهم من كانت حجته وبرهانه التأثير في الأمور البدنية، ومنهم من كان برهانه وحجته ومعجزته في كتابه، ومنهم من ليس له معجزة إلا التحدي العام، وهكذا، إذا استطعتم فافعلوا شيئًا.
والإيمان الخاص بالرسل أن نؤمن بكل من سمى الله ﷻ من المرسلين، فكل رسول سماه الله ﷻ في كتابه، أو جاء في السنة، فنؤمن بأن الله أرسله،

وأن الله أرسل رسلًا، منهم من علمنا في الكتاب والسنة، ومنهم من لا نعلمه؛ لأن الله لم يقص علينا خبرهم: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] الإيمان بالرسل أنهم أتوا جميعًا بدين واحد، وهو دين الإسلام، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ﴾. وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فإذًا: كل رسول جاء بدين الإسلام العام، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، هذا دين الإسلام العام الذي جاء به كل رسول عقيدة واحدة، لكن من حيث الشريعة مختلفون؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[1]، وقد جاء هذا -أيضًا- في القرآن في قول الحق ﷻ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]، فنؤمن بمحمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ونؤمن بنوح عليه السلام وأنه أول المرسلين، ونؤمن بأولي العزم من الرسل الذين أخبر الله ﷻ بهم في سورة الأحزاب، وفي سورة الشورى، ونؤمن بموسى، وعيسى، وبإبراهيم الخليل، وبداود عليهم السلام، ونؤمن بهم، ونحبهم، ونتولاهم؛ ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، كذلك نؤمن بكتب الله ﷻ، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل كتبًا جعلها حجة على خلقه، ونؤمن إيمانًا خاصًا بالقرآن العظيم، وأنه كلام الله ﷻ، وأن الله جعله مهيمنًا على الكتب جميعًا، كما أخبر بذلك سبحانه وتعالى في سورة المائدة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإيمان بالرسل، وبالكتب، وخاصة الإيمان بالقرآن، والإيمان بمحمد ﷺ، هذا له أعظم الثمرات في حياة الأفراد، وفي حياة المجتمعات، فيجب على من آمن بمحمد ﷺ رسولًا وعلى من آمن بالقرآن كتابًا ألا يأخذ الأمور العلمية، ولا الأمور العملية إلا من القرآن، ومن سنة محمد ﷺ، وأن الحكم إلى الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، احكم بينهم ليس في القضاء فحسب، وإنما حتى في الأمور التي يختلف الناس فيها، تجادلت أنت وفلان في أمر من أمور العقيدة، الحكم بما أنزل الله، لا بما عند فلان وفلان، فالحكم في الأمور العلمية، وفي المخاصمات، وفي الأمور العملية يجب أن يكون إلى الله ﷻ، إلى كتابه، وإلى محمد ﷺ، إلى سنته.

الإيمان باليوم الآخر -أيضًا-، هذا يشمل أشياء، الإيمان باليوم الآخر من أركان الإيمان: ما معنى الإيمان باليوم الآخر؟ تؤمن يعني: القدر المجزئ الذي من لم يؤمن به فليس بمؤمن فهو كافر، تؤمن بأن الله ﷻ جعل يومًا يحاسب فيه العباد، فيجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، هذا القدر يجب على كل أحد أن يؤمن به، فهو ركن الإيمان، ثم كل من وصله علم يتعلق باليوم الآخر في الكتاب والسنة، فهذا يجب عليه أن يعلم ما بلغه مما جاء في الكتاب، وفي سنة المصطفى ﷺ.

الإيمان باليوم الآخر يبدأ من الإيمان بالموت، والموت مخلوق موجود، انفصال الروح عن البدن، الروح لها حياتها والبدن يكون في التراب، بعد الموت الروح، والبدن ليس كحالتهما قبل الموت، قبل الموت الحياة للبدن والروح تبع للبدن، تحس أن البدن يتلذذ والروح تتلذذ تبعًا لتلذذ البدن، إذا

أكلت وشبعت الروح تهدأ، إذا حصلت شيئًا فرحت فرح بدنك يعني: حصلت شيئًا مسرورًا في عينك في الكلام، وإلى كذا البدن يلتذ بما يلمس، بما يرى، بما إلى آخره.

الروح تلتذ تبعًا للبدن؛ أما بعد الموت، فالحياة للروح والبدن معًا، ولكن الحياة للروح أصالة، والبدن تبع، فتتلذذ الروح، ويصل التلذذ إلى البدن، وتتألم الروح، والتألم والعذاب يصل إلى البدن؛ فإذًا: النعيم والعذاب بعد الممات الإيمان به واجب، والإيمان بذلك أن تؤمن بأن الله ﷻ نعَّم المؤمنين وعذب الكافرين، نعم المؤمنين بتنعيم أرواحهم في الجنة، وأبدانهم في قبورهم؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ**»(١)، والبدن - أيضًا - القبر حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، فبينهما اتصال عجيب لا يعلمه إلا الرب ﷻ، والبرزخ كله نؤمن به، وأنه دار نعيم، أو دار عذاب(٢)، ونؤمن بأن الله ﷻ يبعث العباد، وأنه ﷻ يأمر أن ينفخ في الصور نفخة، فهي تصعق

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٧١)، والنسائي في الكبرى (١/ ٦٦٥)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ومالك في الموطأ (١/ ٢٤٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٣٠٥)، والحميدي في مسنده (٢/ ٣٨٥)، وعبد بن حميد في مسنده (ص١٤٧)، والطبراني في الكبير (١١٩، ١٢١)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٤٨) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في إثبات عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين للإنسان بعد موته؛ كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وجاء - أيضًا - من حديث البراء، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي قتادة، وعائشة، وغيرهم رضي الله عنهم.

الخلائق، ثم يأمر أن ينفخ فيه أخرى، فتستيقظ الخلائق إلى الرب ﷻ، وتسير إلى موقف الحساب. هاتان النفختان فيهما يحصل بينهما أشياء، أنبه بأن كثيرين قد ما يعقلون ما في القرآن من ذكر ما يحصل يوم القيامة، فلا بد بشيء من التفصيل، ولو أطلت يعني دقيقتين - إن شاء الله -.

الإيمان باليوم الآخر: النفخة الأولى هي نفخة الصعق، والنفخة الثانية هي نفخة البعث.

النفخة الأولى بينها وبين النفخة الثانية أربعون، قال: «**بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَبَيْتُ**» يعني: أبيت أن أقول ما ليس لي به علم. النبي ﷺ قال: «**بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**» قال ﷺ بعدها: «**وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ من الْإِنْسَانِ إلا عَجْبَ ذَنَبِهِ فيه يُرَكَّبُ الْخَلْقُ**»[1] يعني: آخر فقرة، أو آخر خلية من خلايا عظام الظهر، ومنه يركب الخلق يوم القيامة، يعني: أنت إذا قبرت وتحلل بدنك - إذا شاء الله ﷻ ذلك - يبقى منك بذرة في الأرض، هذه البذرة منها يركب الخلق يوم القيامة؛ كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «**ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللهُ - مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ - نُعْمَانُ الشَّاكُّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ**»[2] ماء من السماء كمني الرجال، هذه البذور تنبت تصبح كالأشجار، بين النفختين قبل النبات يحصل أشياء، إذا قرأت في القرآن: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ۝٣ وَأَلۡقَتۡ مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق: ١ - ٤]، ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: ١ - ٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ١ - ٢]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥]، هذه كلها تحصل بين النفختين، بين النفختين الأرض تتغير؛ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وهو التبديل الأول، الذي يدفن وراء الجبال، أو يدفن في السهل على رمل، الأمر واحد؛ لأن الأرض ستكون شيئًا واحدًا؛ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ١٠٥]، وما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في نونيته، في بيان هذا الأمر قال[١]:

وإذَا أرَادَ الـلـهُ إخـرَاجَ الـوَرَى ... بَـعـدَ المَمَاتِ إلى المَعَادِ الثَّانِي

ألقَى عَلَى الأرضِ التي هُم تحتها ... والـلـهُ مُـقـتَـدِرٌ وذُو سُـلـطَـانِ

مَـطَرًا غَـلـيـظًـا أبـيـضًـا مُـتَـتَـابِعًـا ... عَـشـرًا وَعَـشـرًا بَـعـدَهَـا عَـشـرَانِ

فَتَظَلُّ تَنبتُ منهُ أجسَامُ الوَرَى ... وَلُحُومُـهُـم كَـمَـنَـابِـتِ الـرَّيـحَـانِ

حَـتَّـى إذَا مـا الأمُّ حَـانَ وِلادُهَـا ... وتمَـخَّـضَـت فَـنِـفَـاسُـهَـا مُـتَـدَانِ

أوحَى لَهَا ربُّ السَّما فتَشقَّقَت ... فَـبَـدَا الجَنِينُ كَـأكـمَـلِ الـشُّـبَّـانِ

(حَتَّى إذَا ما الأمُّ) يعني: الأرض.

بعد ذلك ينفخ في الصور، فهذه أجسام بلا أرواح، فتهتز الأجسام، تعود

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (١/ ١٠٧).

روح كل صاحب روح إلى جسده، فتهتز الأجسام فينظر الناس، يتلفتون؛ كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] قيام؛ لأنهم نبتوا، لماذا قال ينظرون؟ لأن الأرض تغيرت، ينظرون يتلفتون هل هذه هي الأرض التي عهدوها؟ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، ثم ينساق الناس إلى مكان الحساب، تنصب الموازين، والكتب تتطاير، الصحف تتطاير، يؤتى بالجنة، ويؤتى بالنار، وينزل الرحمن ﷻ لفصل الحساب، فالإيمان باليوم الآخر معناه إيمان بهذا كله؛ إيمان بالصحف، إيمان بالميزان، إيمان بالنار، إيمان بالجنة، إيمان بالصراط، كل ما أخبر الله به مما يكون بعد القيامة، بل في البرزخ، هذا كله من الإيمان باليوم الآخر، فمن علم ذلك تفصيلًا وجب عليه أن يؤمن به.

آخر أركان الإيمان: هو الإيمان بقدر الله ﷻ خيره وشره، وهذا يطول الكلام فيه، يحتاج إلى بيان واسع، لكن خلاصته أن معنى الإيمان بالقدر: أن تؤمن بأن الله ﷻ علم الأشياء جميعًا قبل وقوعها، وقبل كونها، وكتب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقاديرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الخالق لكل شيء؛ الطاعات والمعاصي، وكل شيء هو الذي يخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه لا يجوز أن يقال: إن ثمت شيئًا في أرض الله، وفي ملكوت الله لا يخلقه الرب ﷻ، فنؤمن معنى الإيمان بالقدر أن نؤمن بأن الله قدر الأشياء، يعني: علم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما ستكون عليه الأمور أمور المخلوقات، المكلفين وغير المكلفين، فعلم ذلك؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علمه أول بالأشياء، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لو شئت شيئًا لا يشاؤه الله ﷻ فلن يكون، ثَم نؤمن بأن

الله خالق كل شيء، ومن ذلك الأفعال والطاعات، يعني: صار الإيمان بالقدر على مرتبتين:

مرتبة قبل وقوع المقدر، وهو العلم السابق وكتاب الله ﷻ.

ومرتبة بعد وقوع المقدر، أو مقارنة له، وهي خلق الله لكل شيء، ومشيئته ﷻ.

هنا تنبيه القضاء والقدر، نقول هذا أمر قضاه الله، وقدره، ما الفرق بين القضاء والقدر؟[1].

اختلف العلماء في ذلك، لكن أقربها إلى القلوب، وإلى الأذهان هو أن القضاء من الانتهاء، والقدر من ترتيب الأمور، وتقديرها قبل وقوعها، فالقدر هو مقادير الأشياء قبل أن تقع، والقضاء إذا وقعت، وانتهت صارت قضاءً؛ كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤] ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي: اجعله قضاءً مبرمًا وانتهي، والقاضي يقضي؛ لأنه ينهي الأمور، ويجعلها على نحو ما ظهر له. فالقضاء هو انهاء. نؤمن بالقدر السابق وما يقدره الله علينا، ونؤمن بالقضاء، وهو إنفاذ الله ﷻ لما قدر ﷻ.

إذا تبين لك ذلك، فهذا عرض موجز لأركان الإيمان، لأركان العقيدة

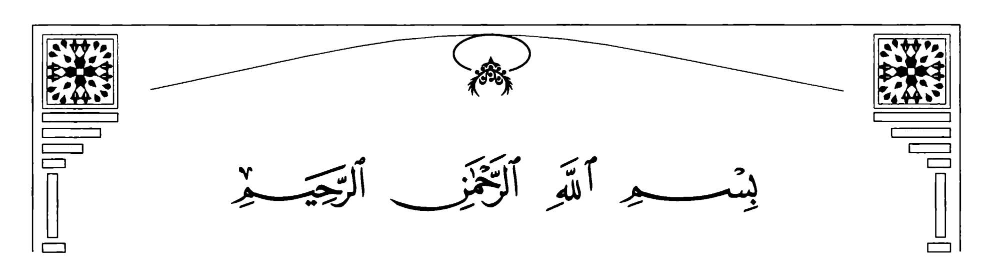
---

(١) قال الزهري: (القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء، ونقضه).ا.هـ.
انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٧٨)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦)، وشرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (١/ ٧١).

الصحيحة، يحتاج منك إلى أن تقبل على تعلمه، بأن تقبل على فهمه، وهذا الاعتقاد كما رأيت له ثمرات في صحة عملك، له ثمرات في صحة إخباتك لربك، له ثمرات في عبوديتك لربك، وأيضًا له ثمرات في المجتمع بعامة، في الأمم، في الدول، فأمة الإسلام لما آمنت بهذا حقيقة وحكمة، وصارت العقيدة مؤثرة في حياتها، رأيت ماذا كان عليه حال أهلها، فنحن اليوم يجب علينا أفرادًا، ويجب علينا مجتمعات أن نحقق العقيدة الإسلامية في أنفسنا، أن نعلمها أولًا علمًا بينًا بأدلتها، وأن لا نتردد، ولا نرتاب، ثم نحققها في أنفسنا، تظهر ثمرات العقيدة الصحيحة علينا في أنفسنا، وفي بيوتنا، وفي مجتمعاتنا، فإن في ذلك الطمأنينة، والعلم، والنور الذي تراه ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: بالعقيدة أحييناه، بالإيمان الصحيح؛ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] لا شك لا يستوي هذا وهذا؛ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] هذا الجواب: لا يستوون، مؤمن لا يستوي مع غيره. فإذًا: أحضكم في ختام هذه الكلمة على الاعتناء بالعقيدة، وعلى أن يكون للعقيدة ثمرة في حياتك، وأن لا تكون العقيدة مجرد أمور قناعية عقلية، لا بد أن لها أثرًا في الختام.

أسأل الله ﷻ أن يثيبكم على ما سمعتم، وأن يثبت ما سمعتم في قلوبكم، وأن يمن عليكم بحسن الاتباع، أن يمن علي وعليكم بحسن الاتباع، والعمل بما علمنا، اللهم نسألك أن تغفر لنا جميعًا، اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولأحبابنا جميعًا، اللهم طهرنا من الذنوب والآثام وارفع درجتنا، فإن صفتك يا ربي المغفرة والرحمة، وصفتنا التقصير والمعصية والغفلة، اللهم

فاغفر لنا جمًّا، وارحمنا رحمة واسعة، واجعلنا من الذين رضيت عنهم فأرضيتهم يا كريم، نعوذ بك أن نضل بعد الهدى، أو أن نزيغ بعد ما جاءنا من البينات والهدى، اللهم نسألك أن تصلحنا وتصلح مجتمعاتنا، اللهم وفق ولاة أمورنا لما تحب وترضى، اللهم اجعل ما يستقبلونه من الأيام في الأمن والإيمان والهدى، ونصرة الدين والشريعة خيرًا مما خلفوه، واجعلنا وإياهم من الذين يرتفعون كل يوم في درجات الإيمان يا كريم، اللهم وأبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة، ويعافى فيه أهل الغفلة والمعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، اللهم وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء وصلى، الله وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «القضاء والقدر»

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، أحمده ﷻ على ما أنعم به، وتفضل، وعلى ما قضى به وقدر، فهو المحمود في كل أوان بكل لسان وعلى كل حال، له الحمد ﷻ كما ينبغي لجلاله، وعظمته، له الحمد كثيرًا كما أنعم كثيرًا، وله الشكر كثيرًا كما تفضل كثيرًا، له الحمد في الأولى، والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله ﷺ وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا، أما بعد؛

فأسأل الله ﷷ أن يجعلني وإياكم ممن رضي، وسلم، وآمن، وتابع، اللهم اجعلنا ممن مننت عليه بالهدى، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب، ثم أيها الإخوة المؤمنون، موضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه ركن من أركان الإيمان؛ ولأنه - أيضًا - تلتبس معه، وفيه أوهام كثير من المسلمين؛ ولأنه - أيضًا - ربما جاء الشيطان بشبه على قلب المؤمن؛ ليضله عن نظام التوحيد الذي هو القدر، فيكون ذلك سببًا لزيغ قلبه بعد هدايته؛ ولهذا قال علي رضي الله عنه: **(الْقَدَرُ سِرُّ اللهِ**

فَلَا تُفْشِه)[١]، فالواجب على المؤمن أن يكون مستمسكًا بالوحي؛ كما أمر الله ﷻ عباده بذلك، وقال ﷻ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وأن لا يتعدى العبد المؤمن ما أنزل الله ﷻ في القرآن وما بينه رسوله ﷺ في سنته؛ لأن الهدى الكامل في الكتاب، والسنة، ومن رغب الهدى من غيرهما أضله الله، والنبي ﷺ صح عنه أنه قال: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»[٢]، يعني: أمسكوا عن الكلام في القدر بما لم توقفوا فيه على علم من الله ﷻ، أو من الوحي الذي أوحي إلى رسوله ﷺ، فالواجب على كل مؤمن أن يسعى في تعلم هذا الركن من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر من الله ﷻ خيره وشره، وأن يتعلم - أيضًا - أنه لا يجوز له أن يخوض في مسائل القضاء والقدر، ولا الهدى والضلال، ولا الشقاوة والسعادة، ولأحوال الناس الذين جعلهم الله ﷻ متفاوتين في الإيمان، في الأرزاق، وفي الأخلاق، أن لا يخوض في ذلك إلا بعلم موثوق، وهو ما جاء في الكتاب، والسنة؛ لأن القدر في الحقيقة أمر غيبي؛ كما قال علي رضي الله عنه: **(الْقَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلَا تُفْشِه)**؛ لهذا كلامنا - فيما ستسمع، إن شاء الله تعالى - إنما هو من مشكاة الوحي من القرآن، والسنة، ولا يجوز لأحد أن يخوض في مسائل الغيب بعامة،

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٤٢/ ٥١٣)، وفيض القدير (١/ ٣٤٨)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٩)

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٢٧، ١٠٤٤٨)، والحارث في مسنده (٢/ ٧٤٨ - زوائد الهيثمي)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٧/ ١٢٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨)، وقال في تحفة الأحوذي (٦/ ٢٨١): (رواه الطبراني بإسناد حسن من حديث ابن مسعود)، وانظر: مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٢)، وقال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٤١): (إسناده حسن). وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٨٦).

وفي مسائل القدر إلا عن علم، ودليل؛ لأن الخوض في ذلك بالعقول، والأوهام، والأقيسة مسلك من مسالك الضلال، والشيطان يأتي العبد؛ ليضله عن سبيل الله بأن يخوض في فعل الله ﷻ بالعلل؛ والأقيسة؛ ولهذا أحسن ابن تيمية رحمه الله في قوله في تائيته القدرية المشهورة؛ حيث يقول(١) :

وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

فإنهمُ لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ ... فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ

يُريد المرء أن يدرك لمَ حصل كذا؟ ولمَ اهتدى فلان، وضل فلان؟ ولمَ أعطي هذا، ومنع ذاك؟ ولمَ مرض هذا، وصح ذاك؟ ولم هذا صار ملكًا، وذاك صار عبدًا؟ ولمَ؟ ولمَ؟ ولمَ؟.

فإذا خاض في أفعال الله، وفيما يحدث في الملكوت بقوله: لمَ؟ فإنه سيضل كما ضل أهل الجاهلية، إلا أن يتابع ما علل الله ﷻ به ما يحدث في كتابه، أو جاءنا عن النبي ﷺ؛ فإذًا: الأصل الأصيل - كمقدمة لهذا الموضوع المهم - أن لا نخوض في القدر إلا بعلم، وأن نؤمن به - كما

---

(١) انظر: الأبيات بتمامها في مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٥ - ٢٥٥)، وشرح القصيدة النونية لابن عيسى (٢/ ٢٢٢-٢٢٣)، ومطلع القصيدة يقول فيها شيخ الإسلام رحمه الله:

سُؤالُك يا هذا سُؤالُ مُعانِدٍ ... مُخاصِمِ ربِّ الْعرْشِ بارِي الْبرِيّةِ

فهذا سُؤالٌ خاصمَ الْملأ الْعُلا ... قدِيمًا بِهِ إبْلِيسُ أصْلُ الْبلِيّةِ

ومنْ يكُ خصْمًا لِلْمُهيْمِنِ يرْجِعنْ ... على أُمِّ رأْسٍ هاوِيًا فِي الْحفِيرةِ

ويُدْعى خُصُومُ اللّهِ يوْم مَعَادِهِمْ ... إلى النّارِ طرًّا معْشر الْقدرِيّةِ

سيأتي - بخيره، وشره، وألا نقول: لما يقضي الله ﷻ لم حدث ذاك؟ ولمَ لمْ يحدث كذا وكذا؟

الإيمان بالقضاء والقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وذلك أن النبي ﷺ لما كان جالسًا في أصحابه أتاه جبريل عليه السلام على صورة رجل، فقال: «**يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**الْإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». **قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ:** «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». **قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ:** «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...**» إلى آخر الحديث، في آخره قال ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1]، فالإيمان بالقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان، وجاء في القرآن إثبات ذلك في غير ما موضع؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. وكما قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]. وقال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣]. فما من شيء يحدث إلا ويحدث بقدر الله ﷻ، فما معنى القدر؟ وما معنى القضاء؟ وهل بينهما صلة، أو أن معناهما واحد؟

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

القدر في اللغة: هو التقدير، قدرت الشيء، أقدره تقديرًا إذا جعلت له مقدارًا، ووصفًا، ويكون عليه إما في هيئته، أو في وقت وقوعه، أو ما أشبه ذلك، وهذا يقوله المرء عن نفسه، يقول: أقدر، أو يقدر أنه يفعل كذا وكذا في اليوم الفلاني، يفعل كذا، واليوم الفلاني كذا، يعني: يجعل لأفعاله مقادير موقتة بأوقاتها وفق إرادته هذا من جهة اللغة[١].

أما من جهة الشرع، فإن القدر عُرِّف بعدة تعريفات، اجتهد فيها العلماء[٢]، ومن التعريفات الحسنة في ذلك:

أن يقال: القدر هو تقدير الله ﷻ للأشياء قبل وقوعها بعلمه بها الأزلي، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وخلقه سبحانه وتعالى لكل شيء، وأن لا يكون شيء إلا بمشيئته - تعالى -.

أما القضاء، فإن مادة قضى في القرآن، بل وفي اللغة تكون لعدة معان، منها أن يكون معنى القضاء: الانتهاء، والفراغ، فرُغ من الشيء، انتهى من الشيء، يُقال: انقضى الشيء، أو قُضي الأمر يعني: انتهى؛ كما قال ﷻ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١] أي: انتهى، وفرُغ. وكما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: ١٤]، ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدرنا عليه الموت، فوقع، وانقضى، فصار قضاء، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٥/ ٦٢)، ولسان العرب (٥/ ٧٢)، والقاموس المحيط (ص٥٩١) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٢٢).

(٢) انظر: الدرر السنية (١/ ٥١٢).

ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، أي: افعل، وأنفذ ما تريد إنفاذه، فإنما تنفذ شيئًا في هذه الحياة الدنيا[١].

فإذًا: القدر بينه، وبين القضاء فرق، وهو أن الأمر الذي قدره الله ﷻ إذا وقع وانتهى صار قضاء، وفي أثناء وقوعه وقبل ذلك يُسمى قدرًا[٢]؛ ولهذا كما ترى في التعريف أن القدر فيه علم الله ﷻ؛ لأن الله سبحانه وتعالى علمه بالأشياء أزلي، أو علمه بالأشياء أول لا بداية له، وكذلك كتابته ﷻ للأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[٣] - كما سيأتي -.

ثم الله ﷻ لا يكون شيء، ويحدث إلا بمشيئته، وخلقه، فإذا وقعت هذه الأشياء، وانتهت صارت قضاء.

فإذًا: الإيمان بالقضاء والقدر معناه: أن يؤمن العبد أن ما يكون من الأشياء ويقع، فإنما هو بتقدير سابق من الله ﷻ، لا يقع الأمر، ولاتقع الأشياء بدون علم، ولا كتابة، ولا مشيئة، ولا خلق من الله ﷻ، فلا يقع شيء إلا بإذنه - تعالى -، وعلمه السابق، وكتابته سبحانه وتعالى لكل شيء، فإذا وقع، وانتهى، قضي وصار قضاء.

فنؤمن بالقدر خيره وشره قبل وقوعه، فكل ما قدر الله على عبده من خير،

---

(١) انظر: مادة: (ق ض ى) في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦)، والقاموس المحيط (ص١٧٠٨)، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص٤٤١ - ٤٤٢).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٦)، والدرر السنية (١/ ٥١٢ - ٥١٣).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كتب الله مقادِير الْخلائِقِ قبل أنْ يخْلُق السّماواتِ والأرْض بِخمْسِين ألْف سنةٍ».

أو شر نؤمن به، ونُسَلِّم، وإذا قُضي، وصار قضاء، فإننا نؤمن، ونسلم، سواء أكان من الخير، أم من الشر؛ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قَالَ عَلْقَمَةُ: «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبهُ المُصِيبةُ فَيَعْلَمُ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ**»(١).

إذا تبين ذلك، فإن الإيمان بقدر الله ﷻ واجب، وركن، وفرض بأن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك، وهذا الإيمان لا يكمل، بل لا يكون العبد مؤمنًا بالقضاء والقدر، حتى يؤمن بأربع مراتب ذكرها الله ﷻ في القرآن، وجاءت - أيضًا - مبينة في السنة.

أما المرتبة الأولى: فأن تؤمن بأن الله ﷻ يعلم كل شيء، وعلمه بالأشياء سابق قديم أزلي، فيعلم ما سيكون على الفئة، والصفة التي سيكون عليها؛ لأن علمه ﷻ نافذ، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

فتؤمن بأن علم الله ﷻ شامل، وكامل، وسابق، فلا يقع شيء إلا والله قد علمه قبل ذلك، فلا مجال للاستئناف، ولا مجال للبداءة، والبداء، ولا مجال لوجود أشياء لم يعلمها الله ﷻ.

المرتبة الثانية: أن الله ﷻ لما خلق السماوات والأرض قدر مقادير الأشياء التي ستكون في السماوات والأرض قبل خلقها بخمسين ألف سنة؛

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٢٣)، والبخاري معلقًا- كتاب التفسير، باب تفسير سورة التغابن- (ص٩٢٩)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ٦٦)، وشعب الإيمان (٧/ ١٩٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٦).

كما ثبت أنه ﷺ قال: «**قَدَّرَ الله الْمَقَادِيرَ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[1]، ومعنى (قدر) هنا: كتب. قال ﷻ - أيضًا في بيان الكتابة -: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ما الزبور؟

الزبور اسم لكل كتاب أنزله الله ﷻ، فكل كتاب أنزله الله مكتوب فيه: (الأرض يرثها عباد الله الصالحون)، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ ما الذكر هنا؟

هو الكتاب السابق الذي كتبه الله ﷻ في اللوح المحفوظ، سماه ذكرًا هنا، كما سماه النبي ﷺ ذكرًا في قوله ﷺ: «**وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**»[2]، وأيضًا قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠].

فما من شيء يحدث إلا وقد كتب في اللوح المحفوظ، فتكون الأشياء على وفق ما كتب الله ﷻ، سيأتي أن هذه الكتابة ليس معناها الإجبار، هذه كتابة؛ لأن الله يعلم ما سيكون، وأن كل شيء سيكون على نحو ما كتب ﷻ، هاتان المرتبتان، العلم والكتابة، سابقتان لوقوع المقدر.

والمرتبتان الثالثة والرابعة مقارنة لوقوع المقدر: وهي أن تؤمن إيمانًا جازمًا بأنه لا يحدث شيء إلا والله ﷻ خالقه، الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، ومن ذلك فعل العبد من الطاعة، والمعصية؛ كما

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩١، ٧٤١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] (ما) هنا قد تكون مصدرية، فتكون والله خلقكم وعملكم، يعني: خلق ذواتكم، وخلق عملكم، وقد تكون (ما) هنا موصولة بمعنى: الذي، فيكون معنى الآية: والله خلقكم والذي تعملونه، وعلى كلٍّ فإنها دليل على أن ما يعمله العبد، فإنه خلق لله ﷻ، والعبد فاعل له حقيقة؛ إذًا: ما يحدث الشيء إلا والله ﷻ هو الذي خلقه.

المرتبة الأخيرة الرابعة مما يقارن وقوع المقدر: أن مشيئة الله ﷻ نافذة، وأن مشيئة العبد تبع، ولا يمكن للعبد أن تستقل مشيئته بإحداث ما يريد، بل ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فمشيئة العبد، واختيار العبد، وإرادة العبد تبع، أوهي خاضعة لمشيئة الله، فإذا شاء الله ﷻ الشيء كان، وإذا شاء العبد، ولم يشأ الله ﷻ لم يكن إلا ما يشاؤه الله ﷻ، تريد يا عبدي وأُريد، وليس لك يا عبدي إلا ما أريد.

إذًا: فإيماننا بقدر الله ﷻ تلحظ أنه إيمان بأمر غيبي يكون، وهو علم الله، وكتابته السابقة، وأن هذه الأشياء التي تحصل إنما هي بخلق الله ﷻ، ومشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

إذا تبين لك ذلك: فالقدر - وهو ما قدره الله ﷻ - مكتوب في اللوح المحفوظ، وأيضًا يكتبه الملك عليك مجملًا إذا أتاك، وأنت في بطن أمك جنينًا بعد أربعين ليلة، أو بعد مائة وعشرين ليلة، فيكتب الأجل، والرزق، والشقاوة، والسعادة؛ كما صح عنه ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ومن حديث غيره أنه قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ**

يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا»(١).

فبعد تمام المائة والعشرين يأتيه الملك، وهذه الرواية هي لفظ مسلم، وفيها زيادة في (**مِثْلَ ذَلِكَ**)، والرواية الأخرى المعروفة في الصحيحين ليس فيها كلمة (**مِثْلَ ذَلِكَ**)، وهذه لها فائدة ربما يأتي بيانها، ثم بعد ذلك يأتيه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، يؤمر بكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أوسعيد، فهذه أول الكتابة؛ ولهذا قال السلف: «**السَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**»(٢)، ولما كان النبي ﷺ مع صحابته

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ١٠٧) عنْ أبي الطُّفيْلِ عامِرِ بْنِ واثِلة قال: «كان عبد اللّهِ بْنُ مسْعُودٍ يخْطُبُنا بِالْكُوفةِ، فيقُولُ: الشّقِيُّ منْ شقِي فِي بطْنِ أُمِّهِ، والسّعِيدُ منْ سعِد فِي بطْنِ أُمِّهِ، فقال حُذيْفةُ بْنُ أُسيْدٍ، رجُلٌ مِنْ أصْحابِ النّبِيِّ ﷺ: عجبًا مِنْ أمْرِ هذا، يقُولُ: السّعِيدُ منْ سعِد فِي بطْنِ أُمِّهِ، والشّقِيُّ منْ شقِي فِي بطْنِ أُمِّهِ فقال عبد اللّهِ: يا حُذيْفةُ، وما يُعْجِبُك مِنْ هذا؟ ثُمّ قال: ألا أُحدِّثُك بِالشِّفاءِ مِنْ ذاك؟ ثُمّ رفع الْحدِيث، فقال: إِنّ ملكًا مُوكّلًا بِالرّحِمِ، إِذا أراد اللّهُ ﷻ أنْ يخْلُق شيْئًا بِإِذْنِ اللّهِ، فيقُولُ: يا ربِّ أجلُهُ، فيقْضِي ربُّك ويكْتُبُ الْملكُ، ثُمّ يقُولُ: يا ربِّ رِزْقُهُ، فيقْضِي ربُّك ويكْتُبُ الْملكُ، ثُمّ يقُولُ: شقِيٌّ أمْ سعِيدٌ؟ فيقْضِي ربُّك ويكْتُبُ الْملكُ، فيكُونُ كذلِك، ما زاد، وما نقص».

في جنازة في البقيع، جلس ﷺ وأخذ ينكت الأرض بمخصرته ﷺ، قال علي رضي الله عنه: «**كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وإلا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً، قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَقَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ثُمَّ قَرَأَ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ - ١٠]»[1]، ولهذا من الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن قدر الله السابق لايكون إلا بأسباب يعملها العبد، توصله إلى القدر الذي قدره الله ﷻ، والله سبحانه وتعالى قدر المقدمات، وقدر النتائج، قدر الأسباب، وقدر النهايات، وهذا هو الذي بينه النبي ﷺ في هذا الحديث، مستدلًا عليه بآية سورة الليل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦] فالرجل أو المرأة كتب الإنسان سعيدًا، ولكن إيمانك بأنك كتبت كذا أوكذا معه عملك للسبب الذي يوصلك، فإذا كنت تريد أن تكون من أهل السعادة، وما كتب غائب عنك مجهول، فاعمل فكل ميسر لما خلق له.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧).

لهذا الإيمان بالقدر لا يتم إلا بنظامين:

أولهما: نظام التوحيد.

والثاني: نظام الشرع.

أما نظام التوحيد، فأن تعلم أن الأمور مفروغ منها، ومكتوبة، وأن الله ﷻ أناط الأشياء التي كتب بأسبابها.

وأما نظام الشرع، فهو أن تسعى للأسباب التي تجعلك من السعداء، والتي تبعدك من أن تكون من الأشقياء.

فإيمان العبد بالقدر الإيمان النافع، الإيمان الذي يكون حجة له هو أن يؤمن بهذين النظامين؛ الإيمان بفعل الله، وقدره، ثم الإيمان بالشرع في أن يفعل الأسباب، خذ مثلًا - في غير الهداية، في غير الأعمال الصالحة، في غير السعادة والشقاوة -: أنت مؤمن بأنه سيكون لك ولد - إن شاء الله تعالى -، أنت مؤمن بأنك ستكون طالب علم، ستحصل ألف ريال.

هل من آمن بذلك، وقعد عن فعل أسباب العلم، أو عن التزوج، والنكاح حتى يأتيه الولد، هل إيمانه حقيقي؟ ليس كذلك؛ لأنه لم يفعل السبب الذي يوصله إلى المقصود؛ فإذًا: في قوله ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧] يدلك على أن التيسير لليسرى، وعلى أن كون العبد يكتب من أهل السعادة، أو هو مكتوب من أهل السعادة منوط هذا التيسير بفعله للأسباب التي توصله إلى ذلك.

فإذًا: الكتابة لا يمكن أن تكتب إلا أن تتعلم الكتابة، لا يمكن أن تقرأ إلا أن تتعلم القراءة، فتعلمك القراءة كنتيجة مكتوب، ولكنه مكتوب مع

السبب الذي يوصلك إليها، ولا يكتب عليك أن تكون قارئًا، ولا تسعى في أسباب القراءة، لا يكتب لك أن تكون غنيًا، ولاتسعى في أسباب الغنى، لا يكتب لك أن تكون عالمًا، ولا تسعى في أسباب العلم، لا يكتب لك أن تكون مهتديًا صالحًا، ولا تسعى في أسباب الصلاح.

إذًا: فالكتاب السابق الذي كتبه الله ﷻ، والذي نؤمن بقدر الله ﷻ السابق هذا إيمان بما قدر الله ﷻ، وهو التوحيد.

ثم إيمان بأنه لن يحدث شيء من الهداية، والضلال من الطاعة، أو المعصية إلا بفعل العبد، فإذا فعل الطاعة كانت عاقبته أن يكون من أهل السعادة، وإذا فعل غير ذلك كانت عاقبته أن يكون من أهل الشقاوة - والعياذ بالله -.

إذًا: فالقدر على هذا - قد بسطت لك، وسهلت لك التصور - ليس جبرًا، بل القدر إيمان بالغيب، تؤمن بالقضاء والقدر، تؤمن بالغيب، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن من الإيمان بالقدر أن تسعى في الأسباب النافعة، إذا تبين لك ذلك، فقدر الله ﷻ الإيمان به له مظاهر، أو له صفات يتصف بها العبد المؤمن:

الصفة الأولى: أن المؤمن بقدر الله ﷻ، لا يعارض القدر بمحض آراءه، وأفهامه؛ ولهذا ضلت فئات في الأمة؛ كالجبرية، والقدرية؛ لأجل أنهم قالوا: إن القدر يمكن أن يُدرك بالعقول، والأفهام، فقاسوا فعل الخالق على فعل المخلوق، فضلوا في هذا الباب، ومن الذين ضلوا القدرية، ومن الذين ضلوا الجبرية.

وهدى الله ﷻ أهل السنة لاتباع ما جاء في الكتاب والسنة، فصاروا وسطًا بين طوائف الضلال في ذلك؛ أما القدرية فهم صنفان:

الصنف الأول: القدرية الغلاة، وهم الذين قال فيهم النبي ﷺ في الحديث: «**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ إِنْ مَرِضُوا فَلاَ تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلاَ تَشْهَدُوهُمْ**»(١)، وهذا الصواب أنه مرسل، ولا يصح مرفوعًا، وبعض أهل العلم قال: بمجموع هذه الروايات يصل إلى الحسن(٢)، والقدرية الغالية الذين ينفون علم الله ﷻ يقولون: لا، الله سبحانه وتعالى لا يعلم الأشياء إلا بعد أن تقع - تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا -.

القسم الثاني من القدرية: القدرية الذين ينفون القدر، سُموا قدرية؛ لأنهم ينفون القدر، لا لأنهم يُثبتون؛ لأنهم ينفون القدر قيل لهم قدرية، القدرية نفاة القدر الذين قالوا: إن الله لا يخلق فعل العبد، وإنما العبد يخلق

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة عن جمع من الصحابة، منهم: ابن عمر، وحذيفة، وجابر، وأنس، وأبو هريرة، وابن عباس، وسهل بن سعد، وعائشة رضي الله عنهم، أخرجه أبو داود (٤٦٩١، ٤٦٩٢)، وابن ماجه (٩٢)، وأحمد في المسند (٢/ ٨٦، ١٢٥)، والبزار في مسنده (٧/ ٣٣٨)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٤٤ - ١٥١)، وابن المستفاض في القدر (ص١٧٣ـ ١٩١)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٦٥)، (٤/ ٢٨١)، والصغير (١/ ٣٦٨)، (٢/ ٧١)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٥٩)، والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: الضعفاء للعقيلي (١/ ٢٦٠)، والعلل للدارقطني (٨/ ٢٨٩)، والعلل المتناهية لابن الجوزي (١/ ١٥١ - ١٦٠)، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٢/ ٢٩٧ مع عون المعبود)، وشرح الطحاوية (ص٣٠٥)، ومصباح الزجاجة (١/ ١٦)، وفيض القدير (٥/ ٢٨٢).

فعل نفسه، فالعبد هو الذي يخلق الصلاة، هو الذي يخلق المعصية، هو الذي يخلق الذكر، هو الذي يخلق قراءة القرآن، هو الذي يخلق المشي . . . إلى آخره.

وهؤلاء - أيضًا - قدرية، ومناقضون للنصوص، وما كان عليه الصحابة ﵃، الفعل فعل الإنسان، فعل له ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩].

فأنت تُدسي نفسك بفعل المعصية، وتزكي نفسك بفعل الطاعة، هذا الفعل الذي يكون منك هل هو خلق خلقته، أم هو فعل فعلته حقيقة، واخترته؟

هو فعل فعلته حقيقة باختيار منك، لكن من الذي خلقه؟ الذي خلقه هو الله ﷻ.

كيف خلق الله الفعل؟ لأن العبد لا يمكن أن يفعل الفعل إلا بشيئين:

الشيء الأول: أن يكون عنده قدرة محصلة لهذا الشيء الذي يريد أن يفعله.

الشيء الثاني: أن يكون عنده إرادة جازمة بها يحصّل الشيء الذي يريد أن يتوجه إليه، فإذا اجتمعت القدرة التامة، والإرادة الجازمة غير المترددة، حصل للعبد أن يفعل الشيء إذا شاء الله ﷻ يعني: أن الفعل الذي تفعله، رفع الكأس هذا الذي معي أنا قادر أني أرفع الكأس، لكن لو ما أردت أن أرفع لا تنفع القدرة، يحدث الفعل؟ لا يحدث.

لو كان عندي إرادة، ويدي لا تستطيع الرفع، هل يحدث الرفع؟ لا . فإذًا: يحدث الرفع بقدرة لي على الرفع مع إرادة جازمة أن أرفع، فإذا كانت الإرادة مترددة ما يحصل، واحد يذهب إلى المسجد، أو ما يذهب ما

يحصل، واحد يقرأ القرآن أو ما يقرأ ما يحصل، فإذا كان عندك قدرة على الذهاب، وعندك إرادة، حصل الفعل.

القدرة التي في الإنسان من الذي خلقها؟ خلقها الله ﷻ، الإرادة التي في الإنسان من الذي خلقها؟ خلقها الله ﷻ؛ إذًا: النتيجة التي تكون من شيئين خلقهما الله ﷻ، من الذي خلق النتيجة؟

هو الذي خلق ما به حصلت النتيجة، فإذًا: خلق الله ﷻ فعل الإنسان؛ لأن الإنسان لا يفعل الشيء إلا بما خلق الله ﷻ، فالمحصلة أنها خلق لله سبحانه وتعالى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

فجعل عمل الإنسان عملًا له، وخلقًا لله سبحانه وتعالى، فالإنسان يعمل، لكن لا يخلق؛ فلهذا صار التوحيد في الإيمان بالقضاء والقدر أن فعلك أيها العبد هو فعلٌ لك لست مجبورًا عليه، أنت الذي تختار الطاعة، وأنت الذي تختار المعصية، وإذا اخترت فتختار بقدرتك، وإرادتك.

فالله ﷻ خالق القدرة، وخالق الإرادة، وما نتج عنهما، فهو خلق الله ﷻ؛ ولهذا ضلت القدرية النُفاة، المعتزلة، ومن شابههم في هذا الباب؛ لأنهم جعلوا العبد يخلق الأفعال، والله ﷻ هو الذي يخلق الأفعال سبحانه وتعالى.

أما الفئة الثانية يقال لهم الجبرية، الجبرية هم الذين يقولون: الإنسان مجبور على كل شيء، كيف تفعل؟ الصلاة: أنا مجبور على الصلاة، المعصية: مجبور على المعصية؛ ولذلك قيل لهم جبرية يقولون: (الإنسان كالريشة في مهب الهواء يحركها الهواء كيف يشاء)، فحركات

الإنسان، وطاعته، ومعصيته، وأفعاله كلها بإجبار الله ﷻ له، وهؤلاء الجبرية قسمان:

القسم الأول: جبرية في الظاهر، والباطن، وهم الجهمية، وغلاة الصوفية، ومن شابههم الذين يقولون: الإنسان ليس له اختيار أصلًا، وإنما يُفعل به كالريشة في مهب الهواء.

القسم الثاني: الجبرية المتوسطة، أو الجبرية في الباطن دون الظاهر يقولون: في الظاهر هو مختار، لكن في الباطن في الحقيقة هو مجبور على الفعل، وهو قول الأشاعرة، والماتريدية، وهؤلاء وهؤلاء يقولون: الإنسان مجبور، وليس بمختار، وهذا خلاف النصوص التي فيها إثبات اختيار الإنسان؛ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١٠ - ١٣].

الإنسان هو الذي يختار؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

لأنك أنت الذي اخترت وهكذا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. إذًا: الإنسان يختار ويفعل، وهو محاسب على ما فعل، أما هؤلاء فيقولون: الإنسان لا يفعل، لا يخلق فعل نفسه، وأيضًا لايفعل؛ لأن الفاعل في الحقيقة هو الله ﷻ.

الجهمية، وغلاة الصوفية يقولون: الفاعل ظاهرًا، وباطنًا هو الله - تعالى

الله عن قولهم - يعني : الإنسان حينما يشرب الخمر من الذي يشرب؟ يقال : الله الذي يشرب الخمر، أعوذ بالله، الإنسان إذا فعل معصية يقال : الله.

الإنسان هو الذي فعل ؛ لذلك جاء الأشاعرة، وهم الجبرية المتوسطة، فقالوا : الإنسان مجبور، لكنه مجبور في الباطن ؛ أما الظاهر فليس بمجبور، هو مختار في الظاهر، لكن في الداخل الله يجبره، وأتوا لذلك بلفظ جديد قالوا : الأفعال هل يفعلها الإنسان حقيقة، أم لايفعلها؟ قالوا : لا، أفعال الإنسان خلق الله، وإجباره، لكنها كسب الإنسان. الإنسان يكسبها، كيف يكسبها؟

قالوا : تضاف إليه إضافة، عند التقاء كذا بكذا حصل كذا، طيب، هؤلاء يقال لهم - أيضًا -: نفاة الأسباب، الذين يقولون: لا يوجد شيء سبب لمؤثر، طيب حينما أشرب الماء هذا، ويحصل لي الارتواء، هل الارتواء بالماء؟ نزل المطر، فنبت الزرع، هل النبات بالماء؟ يقولون : الإنبات الذي أنبت هو الله، وأنبت عند التقاء الماء بالتراب، الذي أروى هو الله، وحصل الرِّي حين لامس الماء اللسان، ودخل في جوف البدن. واحد تزوج، وجامع أهله، وحملت وولدت، كيف حملت؟

قالوا : الله الذي أحملها عند التقاء الذكر بالأنثى، وهذا - كما ترى - نقص في العقل ؛ لتنفي أن يكون الشيء سببًا، هذا ما يصدق أو أحد يعقل الأمور، ولهذا أتوا بلفظ جديد، وهو لفظ الكسب[1]. فقالوا : الكسب،

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ كما في مجموعة الفتاوى (٨/ ١٢٨) عن الأشاعرة: (ثم أثبتوا كسبًا لا حقيقة له فإنه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين =

هذا أحدثه الأشعري، وهو موجود في القرآن، وفي السنة بمعنى العمل، وهو الذي يقول به أهل السنة، وأحدثوا لفظ الكسب، و هو أن العمل يضاف إلى العبد إضافة مقارنة، وليس إضافة فعل، وعمل حقيقة؛ لهذا قال بعض العلماء[(١)]:

مما يقالُ ولا حقيقةَ تحتهُ ... معقولةٌ تدنو لذوي الأفهامِ
الكَسْبُ عند الأشعري والحالُ ... عند البهشمي[(٢)] وطفرةُ النَّظَّامِ[(٣)]

يعني: ما يعقل.

= الكسب والفعل، ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثة أشياء لاحقيقة لها طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، واضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدر بمجرد الاقتران العادي والاقتران العادي، يقع بين كل ملزوم، ولازمه، ويقع بين المقدور، والقدرة، فليس جعل هذا مؤثرًا في هذا بأولى من العكس، ويقع بين المعلول وعلته المنفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا تتجاوز محلها؛ ولهذا فر القاضي أبو بكر إلى قول، وأبو إسحاق الإسفرائيني إلى قول، وأبو المعالي الجويني إلى قول لما رأوا ما في هذا القول من التناقص).

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٤٥٩)، والنبوات (ص١٤٤).

(٢) يعني: أبا هاشم الجبائي، عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المعتزلي، تنسب إليه فرقة البهشمية توفي سنة ٣٢١هـ. انظر: في تعريف الأحوال عنده: الفرق بين الفرق (ص١٧٢ - ١٨٦)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٦٣)، والملل والنحل (١/ ٧٨).

(٣) هو إبراهيم بن سيار الضبعي البصري شيخ المعتزلة توفي سنة بضع وعشرين ومائتين. انظر: ترجمته في: تاريخ بغداد (٦/ ٩٧)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤١)، ولسان الميزان (١/ ٦٧). وفي تعريف طفرته قال عبد القاهر البغدادي: «من فضائحه: قوله بالطفرة، وهى دعواه أن الجسم قد يكون في مكان، ثم يصير منه إلى المكان الثالث، أو العاشر منه من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه وبين العاشر، ومن غير أن يصير معدومًا في الأول، ومعادًا في العاشر». انظر: الفرق بين الفرق (ص١٢٤).

لما كان لا يعقل، أصحاب الأشعري، والأشاعرة الذين كثير منهم فسروا القرآن بما لا يعقل، هنا أتوا إلى تفسير الكسب، فاختلفوا فيه إلى أكثر من عشرة أقوال، كل واحد عنده تفسير للكسب، والكسب في القرآن، قال ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: لها ما عملت، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١]، فالكسب في القرآن، والسنة هو العمل، لماذا سمي كسبًا؟

لأن العبد يحصله بنوع مشقة، ففيه اكتساب؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فرق الله ﷻ في الطاعة بين الطاعة، والمعصية، فقال في الطاعة: ﴿كَسَبَتْ﴾. وقال في المعصية: ﴿اكْتَسَبَتْ﴾. لماذا؟ لأن الطاعة ميسرة، قال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: الطاعة ميسرة، فيمكن أن تحصلها بأسباب ميسورة؛ أما المعصية، فتحتاج منك إلى مخالفة للفطرة، وللإيمان الذي في قلبك، حتى تفعلها؛ لهذا زاد المبنى ليدل على زيادة المعنى، فقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

أي: ما يمكن تكسب المعصية أنت بسهولة، أيضًا فيها مشقة على النفس - يعني: من وجهة تحصيلها -، ومخالفة للإيمان، ومقتضى طاعة الله ﷻ.

أهل السنة وسط في ذلك بين هاتين الفرقتين، ما بين الجبرية، وما بين القدرية، فيقولون: إن الله ﷻ قدر الأشياء، وكتبها ﷻ، وإن هذه الكتابة لا تعني الجبر، ولا تعني أنه ﷻ لا يخلق الأفعال، بل هو سبحانه وتعالى قدر وكتب، وتحصل الأشياء.

إذا كان كذلك، فهل الإنسان يفعل الأشياء بمحض إرادته، وتحصل؟ الجواب: لا.

ولهذا يدخل في صميم مبحث القضاء والقدر التوفيق والخذلان، فما من عبد يحدث له شيء من الخير إلا وهو توفيق من الله ﷻ، وما من عبد يفعل فعلًا من معصية الله ﷻ إلا والله ﷻ قد خذله؛ ولهذا قال النبي الصالح عليه السلام ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، نسأل الله التوفيق، ونعوذ به من الخذلان.

فما معنى التوفيق؟ وما معنى الخذلان؟

تؤمن بالتوفيق، وبالخذلان هذا من الإيمان بالقضاء والقدر.

الإيمان بالتوفيق: أن تعلم أنه لا يمكن لك أن تفعل شيئًا من الطاعة، من الخير مما فيه مصلحتك في الدنيا، والآخرة إلا والله ﷻ يعينك عليه، وإلا لو وكلك إلى نفسك لكان الشيطان، والمضادات تمنع من تمام العمل؛ لهذا المؤمن يرى أن لله ﷻ عليه منة في كل فعل يفعله؛ لأنه هو الذي يريد أن يتوجه إلى الطاعة، يريد أن يتوجه إلى المسجد، يريد أن يكون من الصالحين، فلو لم يعن من الله ﷻ، ووكل إلى نفسه، جاءت الشياطين، والفتن، وجاء أصحاب السوء، وآتاه وآتاه بما يصده عن الحق؛ لهذا قال ﷻ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

لله منة بتوفيقه، فما معنى التوفيق؟ لفظ التوفيق والخذلان مما اختلف فيه الذين تكلموا في القدر، فهناك تعريف للتوفيق، والخذلان عند أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح، وهناك تعريف له عند الأشاعرة،

والماتريدية ومن نحا نحوهم من الجبرية المتوسطة، وهناك تعريف له عند القدرية.

الذي يهمنا من هذه - لقصر الوقت - تعريفه عند أهل السنة والجماعة:

أن التوفيق هو: إعانة خاصة من الله ﷻ لعبده في تحصيل ما يرضيه. والخذلان هو ترك العبد لنفسه فيما يعمل من الأعمال. والنبي ﷺ وهو أعلم الخلق بربه يقول ﷺ: **«فَلاَ تكلني إلى نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ»**(١)، لا تكلني لنفسي طرفة عين؛ لأن العبد إذا وكل إلى نفسه في طرفة العين هذه ما حدثت؛ إذًا: لابد من إعانة من الله ﷻ؛ لهذا العبد الصالح المؤمن إذا حصل رزقًا يعلم أن الله هو الذي يسره، إذا فعل طاعة يحمد الله ﷻ عليها، فالله هو الذي يعين، والله هو الذي ييسر، والله هو الذي يهدي العباد.

نرجع إلى الكلام الأول، وهو أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يكون إلا بأسباب، ومظاهر تكون فيه:

الأول: أن يعلم أنه مختار، وأن لا يلقي باللائمة على غيره.

الثاني: أن لا يخوض فيما قدر الله ﷻ بعقله، وفهمه؛ لأن القدر كما قال علي رضي الله عنه: **(الْقَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلَا تُفْشِه)**(٢)، كما روى أحمد في مسنده أن النبي ﷺ خرج على أصحابه رضي الله عنهم يومًا، وهم يتجادلون في القرآن، هذا ينزع بآية، وهذا ينزع بآية، فكَأَنَّمَا فُقِئَ في وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ - يعني احمر من

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٤٧)، وابن حبان (٩٧٠)، وأحمد في مسنده (٥/ ٤٢)، والحاكم (١/ ٧٣٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٢١).

الغضب - ﷺ: «فقال: بهذا أُمِرْتُمْ أو بهذا بُعِثْتُمْ أن تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ إنما ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُمْ في مِثْلِ هذا أنكم لَسْتُمْ مِمَّا ههنا في شيء انْظُرُوا الذي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ والذي نُهِيتُمْ عنه فَانْتَهُوا»(١)؛ لأنهم يتنازعون في القدر، فإذًا: أن تخوض في الأفعال، ولماذا هذا غني؟ ولماذا هذا فقير؟ لماذا أنا أمرض أصير مريضًا، ومشلولًا، وابني يُبتلى من يوم مولده، وآخر يكون صحيحًا معافى لا يُبتلى؟ إذا خضت في لِمَ قضى الله عليَّ كذا؟ ولم قدر الله عليَّ كذا؟ فيخشى أن يأتيك الشيطان، حتى تضل في هذا الباب؛ ولهذا الواجب في القضاء والقدر التسليم لله ﷻ، وأن تعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعَت الأقلام، وجفت الصحف؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ(٢).

ربنا ﷻ جعل الاختلاف بين الناس فتنة، وهذا ابتلاء، وامتحان، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٧٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٧٩)، واللالكائي في الاعتقاد (٤/ ٦٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) عن أبي العبّاس عبد الله بنِ عبّاس ﵄ قال: «كنتُ خلف النّبيِّ ﷺ يومًا، فقال: «يا غُلامُ؛ إنِّي أُعلِّمُك كلِماتٍ: احْفظْ الله يحْفظْك، احْفظِ الله تجِدْهُ تُجاهك، إذا سألْت فاسْألِ الله، وإذا استعنْت فاسْتعِن بالله، واعْلمْ أنّ الأمّة لوِ اجْتمعتْ على أنْ ينْفعُوك بِشيءٍ لمْ ينْفعُوك إلاّ بِشيءٍ قدْ كتبهُ الله لك، وإنِ اجْتمعُوا على أنْ يضُرُّوك بِشيءٍ لمْ يضُرُّوك إلاّ بِشيْءٍ قدْ كتبهُ الله لك، رُفِعتِ الأقْلامُ، وجُفتِ الصُحُفْ».

قال المفسرون عند هذه الآية: جعل الله ﷻ اختلاف الناس فتنة لبعضهم، فالفقير يفتن بالغني، ينظر إلى الغني، وغناه، وما فيه من نعيم، وهو يريد أن يتوسع في الحياة، ولا يجد، جعل الله ﷻ الغني فتنة للفقير، وأيضًا بالعكس جعل الله ﷻ الفقير فتنة للغني، هل الغني يشكر، ويعلم أن هذا من عند الله، ويستعمل المال فيما يُحب الله ﷻ، ويرضى، ويشكر، ويعطف على الفقراء، ويُحب المساكين. . إلى آخره، أم ليس كذلك؟[1].

كذلك الذي خلقه حسن، أو المرأة التي خلقها حسن جعلها الله ﷻ فتنة لمن ليس كذلك، ينظر، جعل الله هذا فتنة، لهذا جعل الصحيح فتنة للمريض، والمريض فتنة للصحيح، واحد ينظر إلى أنه في ريعان شبابه جاءته مصيبة، فأصيب في رجليه، أصيب في سمعه، أصيب في بصره، والناس يتمتعون بحواسهم، هنا يظهر الإيمان بالقضاء والقدر.

من علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنه يرضى بما قضى الله، ﷻ هذا هو المؤمن؛ لهذا في القرآن كثيرًا ما يذكر الله ﷻ في وصف أهل الجنة: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضا العبد عن ربه يكون في الدنيا، قال العلماء: الرضا مقام الأولياء، والكاملين، وميزانه أنه لا يختار خلاف ما قدر الله ﷻ له، لا يختار خلاف ما قدر الله ﷻ له، يعني: مما يحدث في هذه الدنيا؛ أما في الطاعات، والبعد عن المعاصي، فيجتهد في رضا الله ﷻ، ويبتعد عنه.

فرضا الرب ﷻ عن العبد منوط برضا العبد عن الله ﷻ؛ ولهذا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٢٥)، وزاد المسير (٣/ ٢١٦)، وابن كثير (٦/ ١٠٠).

قال ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. قال علقمة من التابعين: من هو من يؤمن بالله يهد قلبه؟ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى، ويسلم.

أي يكون ليس في صدره حرج من ما قضى الله ﷻ عليه، هل الرضا واجب؟

قال العلماء: الرضا ليس بواجب، بل هو من أعمال الإيمان الكاملة، ومن المستحبات العظيمة، ولكن الواجب عند المصائب الصبر. هناك قسمان للرضا:

القسم الأول: الرضا بالمصيبة، وهذا ليس بواجب - كما ذكرت لك-، وهو الذي يحدث عند الناس إذا قيل لهم الرضا.

القسم الثاني: وهناك رضا آخر واجب، وهو داخل في الإيمان بالقدر، وهو الرضا بفعل الله ﷻ، يعني: ما يفعله الله ﷻ ترضى به، لا ترد ما فعل الله ﷻ، ولا تنكر على الله ﷻ ما فعل، ولا تضاد ما فعل الله ﷻ في ملكوته بك، أو بغيرك، لكن هل ترضى بالمصيبة التي أضيفت إليك؟ هذا مستحب، مثاله: مثلًا: واحد فقد ولد، أو فقد مبلغًا من المال، هنا هذه المصيبة ليس واجبًا أن ترضى بها، ولكنه مستحب، ولك الأجر العظيم على ذلك، لكن الرضا بأن الله قدرها هذا واجب؛ إذًا: فمسألة الرضا إذا اتصلت بالقدر السابق فواجب الإيمان به، وإذا اتصلت بالمقضي لا بالقضاء السابق بالقدر السابق، وإنما بالمقضي بالمصيبة في نفسها، فهي مستحبة؛ أما الصبر فهو واجب على كل حال.

المظهر الثالث من مظاهر الإيمان بالقدر في حياة المسلم: أن العبد المؤمن يكون بين نظرين:

١ - بين نظر إلى السوابق.

٢ - وبين نظر إلى الخواتيم.

لأن النبي ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**»[(١)]، ولذلك قال طائفة من السلف: (**قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم يقولون بماذا يختم لنا؟**)[(٢)] فقلوب الناس على قسمين: أما قلوب الأبرار، فمعلقة بالخواتيم، يقولون: ماذا يختم لنا؟ وأما قلوب السابقين، والمقربين، فقلوبهم معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟

قال بعض السلف: «**ما أبكَى العيونَ ما أبكاها الكتاب السابق**»[(٣)]؛ ولهذا المؤمن بين مخافتين: بين مخافة أن يكون كُتِب أن يكون كتب شقيًا،

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٢٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٥٠٨)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٢١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٠/ ١٩١).

(٣) أخرج هذا الأثر أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣١٢) بسنده لأبي عمران عبد الملك بن حبيب الجوني الإمام الثقة التابعي الجليل، توفي سنة ثلاث وعشرين وقيل ثمان وعشرين ومائة. انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٥٥)، وانظر: جامع العلوم والحكم (ص٥٧).

وهو لا يعلم، وبين مخافة أن يكون خُتِمَ له بالشقاوة، وهو لا يعلم.

وعلاج هذا وهذا في الإيمان الحقيقي بالقدر، وهو أن يسعى في الأسباب التي تجعله غير زائغ قلبه، ولا عمله؛ لهذا ذكرت أن القدر لا يتم إلا بنظامين:

١ - نظام الشرع، وهو العمل.

٢ - ونظام التوحيد، وهو الإيمان بما سلف.

المظهر الرابع:

أننا نقول: الإيمان بالقدر خيره وشره من الله - تعالى -، فهل أفعال الله ﷻ فيها شر؟

من مظاهر الإيمان أن يعلم العبد أن الشر إذا أصابه، أو حصل له، سواء في مصائب الدنيا، أو في الأفعال، أفعال المعاصي، والذنوب، فيعلم أن الشر بسببه، وأن الله ﷻ ليس في أفعاله شر؛ كما قال النبي ﷺ في ثنائه على ربه لما قام الليل، قال: «**وَالشَّرُّ ليس إِلَيْكَ**»[1]، يعني: الشر لا يضاف إلى الله ﷻ، فالشر ليس في أفعال الله، أفعال الله ﷻ كلها خير؛ لأنها تفضي إلى المصلحة.

إذًا: كيف نؤمن بالقدر خيره وشره؟

هو شر بالنسبة إلى من وقع عليه؛ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]. قال ﷻ: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]، فالأيام نحسات يعني: فيها شر، وقال: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] ونحو ذلك، تقع المصيبة وهي من جهة فعل الله خير، ولكنها من جهة إضافتها إلى العبد، وحصولها للعبد، وفعل العبد لها شر؛ لأنها بالنسبة إليه مكروهة، وليست بمرغوب فيها، إذا كان كذلك، فالواجب على العبد إذا وقع له الخير أن يعلم أنه من عند الله ﷻ منة وتفضلًا وتكرمًا، سواءً من الخير الديني الذي هو أعظم الخير، أو من الخير الدنيوي، فيحمد الله ﷻ على الخير، ويؤمن بقدر الله ﷻ، وإذا حصل له من الشر ما حصل، فيعلم أنه إنما حصل له بسبب نفسه.

فإذًا: إذا وقع للعبد ما هو شر بالنسبة إليه، فالواجب عليه أن يصبر، ويستحب له الرضا، ومن يؤمن بالله يهد قلبه، ولا يعترض على قضاء الله ﷻ وعلى قدره، بل يعلم أن ما أصابه إنما هو بسبب ذنوبه، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والسيئة هنا: ما يسوء العبد، والحسنة: ما يحسن عنده؛ فإذًا: الخير والشر فيما يحدث لك إذا قدر الله ﷻ لك الخير وقضاه من الخير، فاعلم أنه من عند الله، فاحمد الله، واعلم أن الله منَّ به، وتفضل، فأعظم شكره وطاعته، وإذا حصل سيئة حصل شر بالنسبة إليك، إذا حصلت مصيبة فسلم، واصبر، وارض، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

وفي الختام تنبيهات مهمة في هذا الباب - الإيمان بالقضاء والقدر -: كتاب الله ﷻ السابق، وهو ما كتبه في اللوح المحفوظ، هذا يُسمى

أُم الكتاب، وهو لا يتعرض لتغيير ولا تبديل، وهناك قدر وتقدير مكتوب في صحف الملائكة، وهو الذي يكتب كل سنة ليلة القدر.

القدْر هنا بمعنى: القَدَر ليلة القَدَر، أو ليلة القدْر؛ لأنه في ليلة القدر من كل سنة يُقدر الله ﷻ، فيكتب في الصحف التي بأيدي الملائكة الموكلة بأحوال الناس ما سيقع في السنة المقبلة؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أما ما في أم الكتاب فلا يتعرض لتغيير، ولا تبديل، وأما ما في صحف الملائكة، فيمحو الله ما يشاء، ويثبت[١]، وهذا معنى قول عمر رضي الله عنه، وقول غيره من الصحابة، والسلف رضي الله عنهم: «**اللهم إن كنت كتبتني شقيًا فاكتبني سعيدًا**»[٢]، وهذا يتغير، فالله ﷻ يجعل الأمور منوطة بأسبابها فإذًا: كما في قوله «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٣].

العمر غير الأجل؛ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، والعمر غير الأجل، الأجل منقضٍ؛ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٦٧)، وتفسير البغوي (٣/ ٢٣)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٠) وفتح الباري (١٠/ ٤١٦).

(٢) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٦٣، ٦٦٤)، وذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٠)، وابن القيم في شفاء العليل (ص٩٠)، والعيني في عمدة القاري (١١/ ١٨٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٦٧، ٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

أما العمر، والأثر، فيقبل التغيير؛ لأنه هو الذي في صحف الملائكة، فينيط الله ﷻ هذا العمر بفعل العبد، وهو الذي يعلم ما سيفعله العبد، وهذا لإظهار فضل الله ﷻ، ولإظهار أنه ينبغي على العبد أن يقبل على الأسباب، التي تجعله يُنسأ له في أثره، ويرزق، ويكثر ماله إلى آخره.

فإذًا: تغيير القدر، أو تغيير ما كتب في صحف الملائكة منوط بأسباب: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»؛ ولهذا قد يزيد العمر بالبر؛ كما قال ﷺ: «**صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ**»(١) هذا التنبيه الأول.

التنبيه الثاني: أن الله ﷻ حجب حكمته عن الناس، ولو أطلع الناس على حكمته في الأشياء لهلكوا، وحاروا؛ لأن الحكمة منوطة بالعلم، وعلم الإنسان قاصر، ولو حصل للإنسان أنه يعترض على الشيء الذي لا يعلمه؛ لأجل أنه لا يعلم الحكمة، فإنه سيضل، بل سيحرم العلم، والهدى، وخذ مثلًا في حرمان بعض العلم بسبب الاعتراض: ما جاء في سورة الكهف من قصة موسى عليه السلام مع الخضر، سورة نقرأها كل جمعة، وفيها من العبر، وفيها من الفوائد ما يُحيي الإيمان في النفوس في جميع أحوال الإنسان، وأحوال المسلم، هذا الخضر مع موسى، الخضر عنده علم من علم الله؛ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وموسى عليه السلام علمه قاصر عن علم الخضر، ركبا في السفينة خرقها

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٩) وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه)، وأخرجه أحمد في المسند (٢/ ٣٧٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٨) وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الخضر؛ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا﴾ [الكهف: ٧١] موسى اعترض؛ لأنه لا يعلم ما الحكمة من الخرق، هل الخرق فيه مصلحة، أم ليس فيه مصلحة؟ لكن ظاهره مساكين ما عندهم شيء، وتخرق سفينتهم، تتلف عليهم، ظاهره ظلم، أليس كذلك؟ موسى عليه السلام لظاهر العلم الذي عنده قال: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧١ - ٧٣].

لأنه ما علم موسى عليه السلام ما الحكمة، والحكمة مرتبطة بالعلم، بعد ذلك قُتل الغلام؛ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤] شيء منكر عظيم في الآية الثانية، ماذا قال الله عز وجل مخبرًا عن قول الخضر؟ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥].

في الموضع الأول قال: ﴿أَقُل لَّكَ إِنَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥]؛ لأنها أول مرة، في الثانية قال: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥]. إذًا: موسى عليه السلام اعترض على علم الخضر الذي علمه الله عز وجل، وهو كما جاء في الحديث، كما قال الخضر: «**يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ**»[1]. أي: أنه لا شيء، فاعترض موسى عليه السلام، وهذه القصة ليبين لنا الله عز وجل، وليبين للعباد أن عدم العلم مدعاة لعدم الاعتراض، إذا لم تعلم فاسكت.

(١) أخرجه البخاري (١٢٢، ٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

واحد يجيء يستفتي عالم، فيحضره، له حق يعترض وهو لا يعلم؟ ما له حق؛ لأنه لا يعلم، فأفعال الله ﷻ في ملكوته لا تعلم أنت الغايات من ورائها؛ فلذلك وجب عليك التسليم، فإذا اعترضت على علم الله، وأنت لا تعلم حقيقة الحكمة، فإنه سبب لزيغ القلب، وسبب للبعد، وما أحسن قول ابن الوزير أيضًا في كتابه (إيثار الحق على الخلق)[1]، إذ يقول في ذلك لما ذكر قصة موسى والخضر، وذكر الحكمة، وما يتعلق بها، أحسن إذ قال:

تسل عن الوفاق فربنا قد حكى بين الملائكة الخصاما
كذا الخضر المكرم والوجيه المكلم إذ ألم به لماما
تكدر صفو جمعهما مرارًا فعجَّل صاحب السر الصراما
ففارقه الكليم كليم قلب وقد ثنى على الخضر الملاما
وما سبب الخلاف سوى اختلاف العلوم هناك بعضًا أو تماما
فكان من اللوازم أن يكون الإله مخالفًا فيها الأناما

لأننا لو فهمنا، لو كان علمنا كعلم الله ﷻ لفهمنا الأسرار، لكن علمنا قاصر، فلا يمكن أن نفهم، قال هنا مبينًا السر في ذلك -وهذه قاعدة عامة-:

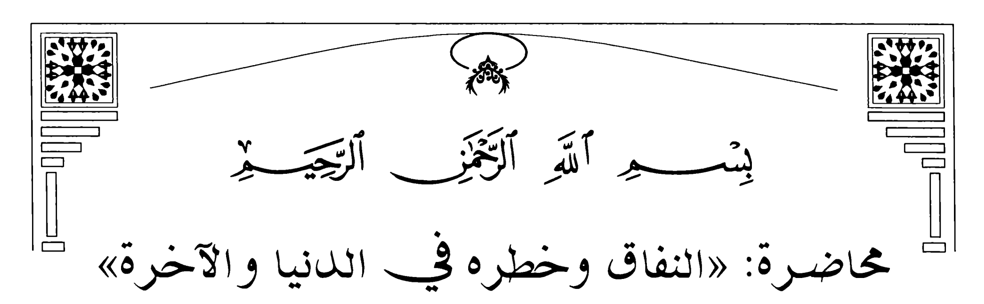
وما سبب الخلاف سوى اختلاف العلوم هناك بعضًا أو تماما
فكان من اللوازم أن يكون الإله مخالفًا فيها الأناما
فلا تجهل لها قدرًا وخذها شكورًا للذي يحيي الأناما

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق (١/ ١٩٩).

(فلا تجهل لها قدرًا) يعني: هذه الوصية.

اللهم اجعلنا ممن يؤمن بقضائك وقدرك، اللهم يسر لنا الخير حيث كنا، وجنبنا الشر حيث كنا، واجعلنا ممن رضيت قوله وعمله، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا، وأصلحنا وأصلح بنا، ووفق ولاة أمورنا لما تحب وترضى، واغفر لنا ولوالدينا ولمن له حق علينا، وصلِّ الله، وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «النفاق وخطره في الدنيا والآخرة»

في الجامع الكبير بالرياض وقد علق عليها سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء «حفظه الله»

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، ﷺ وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.

أما بعد؛

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، كما أسأله ﷻ بكل وسيلة بها يجيب ﷻ، أن يعيذني وإياكم من النفاق كبيره، وصغيره، ومن أهله، ومن صفاتهم، وأن يثبتنا على

دينه حتى نلقاه، اللهم نسألك ثباتًا على الحق، ونسألك صبرًا على الإسلام، والسنة، ونعوذ بك من أن نضل أو نضل، أو نَزِل أو نُزَل، أو نَظلِم أو نُظلَم، أو نجهل أو يجهل علينا، اللهم فأجب جمًّا.

موضوع هذه المحاضرة عن النفاق، وبيان ما جاء في الكتاب، والسنة، من بيان معناه، وخطره في الدنيا والآخرة على الفرد، وعلى المجتمع، وبيان صفات أهله، ولا شك أن هذا الموضوع من المهمات العظيمة؛ وذلك لأن فقه الكتاب، والسنة، والعلم بما جاء فيه الآي، والحديث هذا مما ينبغي إشاعته، ونشره في الناس، والعلم به؛ لأن في ذلك فقهًا بكتاب الله ﷻ، وبسنة رسوله ﷺ، وفي الكتاب والسنة نصوص كثيرة جدًا في بيان النفاق، وبيان أهله، وبيان صفاتهم، وبيان ما يصيبهم في الدنيا، وكيف يتعامل معهم في الدنيا، وبيان مآلهم في الآخرة، بل وفي البرزخ، وبيان ما يقولون، وبيان ما يعملون، وهذا العلم به علم النصوص، والعلم بالنصوص من أشرف ما يتقرب المرء به إلى ربه ﷻ، ثم من أسباب الاهتمام بهذا الموضوع: أن الصحابة ﷺ كان كثيرون منهم يخافون النفاق، ويخشون أن يكونوا من المنافقين، هذا عمر رضي الله عنه خليفة راشد، وصاحب رسول الله ﷺ، والمبشر بالجنة في حياته ﷺ، يقول لحذيفة - وكان عنده خبر المنافقين -: (يا حذيفة هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟ من خوفه أن يكون منهم، وهو على تلك المنزلة العالية، فقال له: لا، ولاأزكي بعدك أحدًا)[1]، وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ قَالَ: (**أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ**

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٣٤٧).

مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلَّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ)(١) .

وصلى أبو الدرداء رضي الله عنه مرة في مسجد، فأطال الصلاة، وكان بجانبه جبير ابن نفير التابعي المعروف، فلما أتى قبل السلام أكثر أبو الدرداء رضي الله عنه من الاستعاذة من النفاق، يسأل الله ﷻ أن يعيذه من النفاق، فلما انصرف قال له جبير: يا أبا الدرداء، أكثرت من الاستعاذة من النفاق، فما لك وللنفاق، يعني: أن النفاق ليس لك، وأنت صاحب رسول الله ﷺ... إلى آخره، قال: دعنا منك، دعنا منك، دعنا منك. إن العبد المؤمن لا يأمن أن يقلب الله قلبه في طرفة عين؛ ولهذا العاقل والمؤمن الصادق الصالح يخشى أن يقلب الله قلبه، فيخسر الدنيا، والآخرة، والذنوب يغشاها كثير، وهي على باب الغفران، ولكن الشأن في مسالك النفاق الأكبر، أو الأصغر المستدام عليها؛ ولهذا أحسن ابن القيم رحمه الله حين قال في نونيته(٢):

وَاللَّهِ مَا خَوْفِي الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا ... لَعَلَى طَرِيقِ الْعَفْوِ وَالْغُفْرَانِ

لَكِنَّمَا أَخْشَى انْسِلَاخَ الْقَلْبِ مِنْ ... تَحْكِيمِ هَذَا الْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ

وَرِضًا بِآرَاءِ الرِّجَالِ وَخَرْصِهَا ... لَا كَانَ ذَاكَ بِمِنَّةِ الرَّحْمَنِ

وتحكيم الوحي والقرآن، والاستجابة له، وهو أخص صفات المؤمنين، والبعد عن ذلك، والتنكب عن سبيله، والإعراض عنه، هذا من أخص

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (١/ ١٣٥- مع الفتح) - كتاب الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله - وقال الحافظ: وصله ابن أبي خيثمة في تاريخه لكنه أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولًا في كتاب الإيمان له.ا.هـ.

(٢) انظر: النونية لابن القيم مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٦٠٢).

صفات المنافقين؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١]، فالمنافقون لهم صفات جاءت في الكتاب والسنة؛ فإذًا: هذا الموضوع مهم فقهيًا في النصوص، وأيضًا حذرًا وخوفًا من أن يكون العبد من أهل هذه الصفة، وهو لا يشعر، ثم - أيضًا - ليحذر مستقبلًا، وليكون على حجة من نفسه، ثم - أيضًا - من أوجه الاهتمام بهذا الموضوع، أن معنى النفاق قد يكون ظاهرًا بينًا في عهده ﷺ، لكن يخفى بيانه وإيضاح صورته في الأزمنة المختلفة، وخاصة في هذا الزمان، ومن الناس من أدخلوا في المنافقين من ليس منهم، ومنهم من جعلوا النفاق الأصغر أكبر، ومنهم من لم يضبط الضوابط لحد النفاق الأكبر، وحد النفاق الأصغر؛ ولهذا العلم بهذه الأصول من أهم المهمات، ثم أخيرًا البحث في النفاق، وما يتعلق به بحث عقدي، والعقيدة هي أول ما يهتم به المخلصون.

النفاق معناه في اللغة: أن يظهر المرء شيئًا، ويخفي شيئًا[(١)].

ثم جاء في الشريعة في أن يخفي الكفر، ويظهر الإسلام، وهكذا عرف العلماء النفاق: بأنه إظهار الإسلام، وإبطان الكفر[(٢)]، أخذًا من قول

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٥/ ٤٥٥)، ولسان العرب (٥/ ١٤٤)، وتاج العروس (٢٦/ ٤٣٥)، والمعجم الوسيط (٢/ ٩٤٢)، والتعريفات (ص٣١١).

(٢) انظر: تفسير السعدي رحمه الله (١/ ٤٧)، وتهذيب الآثار (٢/ ١٧٢)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ١٩٠)، وشرح السنة للبربهاري (ص٣٠)، ومجموع الفتاوى [(٧/ ٣٠٠، ١١/ ١٤٠، ٢٨/ ٢٣٤)]، وطريق الهجرتين لابن القيم رحمه الله (٢/ ٤٠)، وشرح السنة للبغوي(١/ ٧٦).

الله ﷻ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: ٩ - ١٠]، وسورة البقرة ذكر الله ﷻ فيها - وهي ثاني سورة في القرآن - في أولها صفات المؤمنين في آيات قليلة، ثم صفات الكفار، ثم ذكر ﷻ المنافقين، وصفاتهم في آيات كثيرة، وهذا يدلك على أن العلم بهذا الأصل، ومعرفة حدوده من العلم بكتاب اللهِ ﷻ، ومن أهم المهمات.

فإذًا: النفاق في الشرع أن يبطن الكفر، ويظهر الإسلام. يعني: المنافق في قلبه في داخله، ليس بمؤمن ولا يؤمن بالبعث بعد الموت، بل وأيضًا يوالي الكفار، ويحب انتصار غير دين الرسول ﷺ، ونحو ذلك، وفي الظاهر يظهر الإسلام، وربما يصلي مع الناس أحيانًا، وربما أظهر بعض الشعائر، لكنه منطوٍ في قلبه على الكفر بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر. قال بعض العلماء: إنه في الأصل أنه مشتق من نافق اليربوع، اليربوع الذي هو الجربوع، هذا - كما هو معروف - بيته يكون له مخارج مختلفة، يعني: أنه يخدع من يأتيه، إذا أتاه من هنا خرج من هناك، يعني: أظهر من هناك، وأخفى الحقيقة.

إذا تبين ذلك، فإن حقيقة النفاق لم تظهر في الإسلام إلا بعد ظهور دولة الإسلام في المدينة، أما في مكة لما كان النبي ﷺ فيها، والمستضعفون من المؤمنين، فإنه لم يظهر المنافقون؛ لأنه من شاء آمن، ومن شاء كفر؛ أما لما هاجر النبي ﷺ، وظهرت العزة، وظهرت راية الإسلام، وقوي الحق فإن أناسًا أرادوا الحفاظ على دنياهم، فأظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وهؤلاء عاملهم الرسول ﷺ في الظاهر معاملة المسلمين، يعني: لهم ما

للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى إنهم كانوا يرثون ويورثون باعتبار الظاهر، وأنهم من أهل الإسلام، بل إن النبي ﷺ ربما داراهم ﷺ، وربما استصلحهم كما هو معلوم في السيرة، وفي حديثه ﷺ.

فإذًا: ظهور النفاق، لا يكون النفاق ظاهرًا إلا مع قوة الدولة، وأما إذا ضعف الإسلام، وأهله، وضعفت دولتهم، فإنه لا يحتاج الناس أن يظهروا الإسلام، ويبطنوا الكفر فلن يعاقب، ومن أظهر الإسلام فإنه كغيره، فلهذا حقيقة النفاق ظهرت في عهده ﷺ، وجاءت هذه الآيات الكثيرة التي ذكرها الله ﷻ في عدد من السور، وهذا ليس مختصًا بعهده ﷺ، بل كان بعد ذلك هناك منافقون، وسموا في أزمنة من أزمنة الإسلام زنادقة، ففي بعض الأزمنة ذهب اسم النفاق، لايقال منافق، وإنما يقال زنديق، فإذا قيل فلان زنديق، وهو في بلد الإسلام، فيُعنى به في التاريخ: أنه كان يبطن الكفر، ويظهر الإسلام، واستدل على إبطانه للكفر بأشياء ظهرت منه؛ إما مسبة الله ﷻ أو لرسوله ﷺ، أو انتقاص لدين الإسلام، أو تهجين لهدي النبي ﷺ، أو أشباه ذلك.

والنفاق إذًا: إذا كان كذلك، فإذًا هو باقٍ ما بقيت القوة، وهذا يعني: أن النفاق الأكبر الذي هو صفة المنافقين الذين يظهرون الكفر، أن هؤلاء قد يوجدون في أي زمان، وفي أي مكان تبعًا لقوة الإسلام، وقوة أهله، لماذا يظهرون؟ إذا خافوا على دنياهم، مع أنهم في الباطن مقرون بعدم الإيمان، وكرههم لدين محمد ﷺ، قال العلماء: النصوص دلت على أن النفاق قسمان:

القسم الأول: نفاق اعتقادي.

القسم الثاني: نفاق عملي.

أما النفاق الاعتقادي، فهذا هو وصف من هو كافر في الباطن، وذلك بأن يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، كيف يبطن الكفر؟ يبطن بغض الرسول ﷺ، يبطن بغض دينه، يبطن بطلان تحكيم كتاب الله ﷻ وسنة رسوله، يبطن بغض التوحيد، وبغض أهله، وموالاة الشرك، وأهله، ونصرتهم ضد أهل توحيده، ونحو ذلك، فالنفاق الاعتقادي هو ما يرجع إلى الاعتقاد، يعني: أنه في اعتقاده أبطن، وأظهر، أبطن الكفر، وفي الظاهر هو على الإسلام، وهذا له صورة كثيرة، أعظمها وهي:

الصورة الأولى: أنه يكون في الباطن مشركًا، يكون في الباطن يعبد غير الله ﷻ، يتعلق بغير الله ﷻ، ويخافه خوف السر، أو يرجوه رجاء العبادة، أو يحبه محبة العبادة التي صرفها لغير الله شرك ونحو ذلك؛ كتعلق الذين يعبدون الأولياء، والأموات بأوليائهم، وأمواتهم، أو يضمر الكفر بكتاب الله ﷻ، والبغض للقرآن، والبغض لسنة النبي ﷺ، فهذا الإبطان، أو هذا الإخفاء هذا أعظم ما يكون، ففي الظاهر مع المسلمين، لكنه في الباطن مشرك يحب الشرك، ويحب عبادة غير الله، ويحسنها، ويود أن لو كانت له فرصة لنشرها، وإعانة أهلها -والعياذ بالله- وقد يكون من جهة الكفر - كما قلنا - أنه لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر أصلًا، وإنما هو كافر بلقاء الله ﷻ.

الصورة الثانية: أنه يظهر الإيمان بمحمد ﷺ، بل يعتقد أن محمدًا ﷺ ليس برسول، أو أنه مرسل للعرب، أو أن هؤلاء المرسلين كل واحد أتى بالإصلاح في نفسه، وليسوا منبئين من عند الله ﷻ، كما يقوله طائفة من

الفلاسفة، أو أنهم وصلوا إلى النبوة، والرسالة بالمجاهدة، وبالتدريب، حتى وصلوا إلى مقام الفتح، والإصلاح، وهذا صنيع طائفة من الزنادقة المنسوبين إلى الإسلام في عصور مختلفة، المنتسبين إلى الفلسفة في الواقع ليسوا بمؤمنين بأن محمدًا ﷺ رسول حقًا، وإنما يقولون: حقيقة الرسالة فيوضات، حقيقة الرسالة إلهام المرسلين، هؤلاء رجال عظماء مصلحون أدوا ما عليهم، لكن ليسوا منبئين من عند الله ﷻ يجب اتباعهم، وتحرم مخالفتهم، وهذا وقع فيه كثير من أهل العصر، إذا كتبوا عن العلماء تدرج عليهم هذه النحلة، ويكتبون عن النبي ﷺ على أنه عظيم من العظماء، وعلى أنه مصلح في التاريخ، ولا يضمنون هذا حقيقة الإصلاح الذي جاء به ﷺ، وهو أنه رسول من عند الله ﷻ منبئ بكلمة الله ﷻ، وأوحى إليه كلامه، وأنما جاء به اتباعه، وهذا نوع مما كان عليه الفلاسفة، وراج على طوائف.

من صور النفاق الأكبر: أن أهله يكرهون تحكيم الكتاب والسنة، ويبغضون الرجوع إلى القرآن والسنة فيما يختلف فيه الناس، يعني: في القضاء، وفي الحدود، وفي الأحكام الشرعية المختلفة، بل إذا دعوا إلى الله، ورسوله ليحكم بينهم، إذا فريق منهم معرضون، لماذا؟ إذا كان لهم الحق جاءوا مذعنين، وإذا كان ذلك، فإنهم يهربون من كتاب الله، ورسوله، لماذا؟ لأنهم ليسوا مؤمنين، وإنما هم منافقون، وهذه الصفة جاءت في القرآن في آيات كثيرة في وصف المنافقين في سورة النساء، وفي سورة النور، وفي غيرها.

من صفات المنافقين، أو من صور النفاق الأكبر: أن المنافقين النفاق الأكبر هؤلاء لا يوالون المؤمنين، ولا يوالون الإيمان، بل يوالون

الكفر والكافرين؛ ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] في الباطن يوالون الكفر، يريدون، ويرغبون، ويسعون في انتصار الكفر على الإسلام، وأن يخفى نور الإسلام، وينتصر الكفر - والعياذ بالله -.

ومن صور النفاق الأكبر: أنهم يسرون بانخفاض دين الرسول ﷺ، ويفرحون بعلو دين غيره ﷺ، يعني: يسرون بضعف المسلمين، يعني: يسرون بضعف الإسلام، يعني: في أهله، ويفرحون إذا قوي الكفر، وهذا يدل على عدم إيمان، وهذه - أيضًا - في القرآن في آيات كثيرة، هذه بعض الصور للنفاق الأكبر الاعتقادي، والنفاق الأكبر الاعتقادي كفر بالله ﷻ، وصاحبه في الدنيا معذب بإذن الله، وفي الآخرة - أيضًا - في الدرك الأسفل من النار؛ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: ١٤٥].

أما النوع الثاني من النفاق، فهو ما يسمى النفاق الأصغر، أو النفاق العملي، وهو أن يكون عنده خصلة من خصال المنافقين، والمنافقون النفاق الاعتقادي لأنهم لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولايخافون الله ﷻ، لا يرجون لقاءه، ولا يخشونه، بل يهزءون بذلك كله، فهم ماديون همهم الحياة الدنيا، لا يأبهون أن إذا حدثوا كذبوا إذا كان فيه مصلحة لهم بأي شكل، وإذا عاهدوا غدروا، وإذا اؤتمنوا خانوا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا وعدوا أخلفوا إلى آخره، ويتخلفون عن الصلوات، ولا يصلون إلا إذا كانوا في حضرة الناس، ويتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس، ويعلنون فيما بينهم، وبين إخوانهم أنهم معهم، وإذا كانوا مع المؤمنين قالوا: نحن معكم.

ونحو ذلك لهم صفات كبيرة. أما النفاق العملي فهو أن يكون في المرء خصلة من خصال النفاق، أو خصلة من خصال المنافقين، يعني: النفاق العملي، وهذه جاءت في عدة أحاديث من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ**»[١]، وفي الرواية الآخرى زاد: «**وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ**»[٢]، فهذه خمس صفات من صفات المنافقين النفاق الأصغر، النفاق العملي، لماذا سماه العلماء نفاقًا عمليًا؟ لأنه ليس اعتقاديًا، وإنما يظهر من عمله أنه مشابه لأهل النفاق، وهذه مما يجب على كل مسلم أن يخاف على نفسه، وهذا معنى قول الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ أبي مُلَيْكَةَ قَالَ: (**أَدْرَكْت ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ**)[٣].

يعني: النفاق العملي، لا الاعتقادي، يعني: النفاق العملي الذي قد يصل بصاحبه إلى أن يحبط عمله - والعياذ بالله -، النفاق العملي في هذه الصفات وفي غيرها - كما سيأتي بيانه -.

فإذًا: معنى النفاق العملي أن تكون فيه صفات المنافقين، لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر؛ لأنه إذا آمنت باليوم الآخر، فإنك ستخشى من الكذب، وإذا كذبت مرة، فإنك ستنيب إلى الله ﷻ، وتستغفره؛ أما الديمومة فإنه من خصاله أنه إذا حدث كذب، ويعد ويخلف من خصاله - كما سيأتي بضابطه -

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه (ص ٢٥٥).

ويعاهد، ويعاقد، ويفجر، ويغدر، كأنه لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخر، فهذه لا شك خصال المنافقين؛ ولذلك جاء فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عبد اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»[1]، وفي لفظ آخر قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ**»[2]، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**»[3] - والعياذ بالله -.

هذه الصفات الخمس من صفات النفاق العملي؛ أولها: «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ**»، المؤمن صادق أولًا مع ربه ﷻ إذ آمن، وصادق مع المؤمنين إذ أعلن الإيمان، وهو مبطن للإيمان أما المنافق فهو كاذب في الحقيقة في إظهار الإسلام، وإبطان الكفر، فإذا كان كاذبًا في هذا الأمر الأعظم، يخادع الله ﷻ، ويخادع الذين آمنوا، فإنه لا غرابة أنه إذا حدث على الناس كذب في أي أمر؛ لأنه في أصل الأصول كذب على ربه ﷻ، وعلى الناس، ويظن أنه يروج كذبه.

إذًا: من إذا حدث كذب، الكذب المحرم، إلا لمصلحة شرعية بضوابطها المعروفة في الفقه، وفي أحوالها. الكذب المحرم متى يكون الكاذب فيه خصال المنافقين؟ من كان هذه طبعه، طبعه أنه إذا حدث كذب، يعني: عنده

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) سبق تخريجه (ص ٢٦٢).

(٣) هذه الزيادة عند مسلم (٥٩).

استمرارية على ذلك، المؤمن ربما يكذب مرة، ربما يكذب مرتين، ربما يكذب قليلًا، لكن من خصاله أنه يكذب، ولا يبالي دائمًا، كل يوم يكذب، ولا يبالي، كل يوم يكذب ولا يبالي فيما يحرم فيه الكذب، فهذا لا شك أنه من خصال أهل النفاق؛ لأنه معناه لا يخشى الله ﷻ، ولا يخشى لقاءه، وقد صح عنه ﷺ أنه نهى عن الكذب، وقال: «**إِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ**»[(١)] الكذب يهدي إلى الفجور؛ لأنه إذا كذبت، وكذبت فمعنى ذلك هو سيأتيه الشيطان لماذا تستقيم؟ لماذا تخشى محارم الله ﷻ؟ لماذا تحافظ على الفرائض؟ لماذا؟ ثم يأتيه الكذب فيدخل فيه النفاق بفروعه.

إذًا: ضابط «**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ**» يكون عنده ديمومة لذلك، طبع فيه أنه يكذب دائمًا؛ أما إذا حصل منه الكذب، فيجب على المؤمن إذا وقع في الكذب أن يستغفر الله ﷻ، وأن ينيب إليه، وأن يتبع السيئة بالحسنة، وأن يجعل الحسنة ماحية للسيئة، إذا حصل مرة، مرتين، يعني: قليلة؛ ولهذا سئل النبي ﷺ: «**أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: لَا**»[(٢)] لماذا؟ يعني دائمًا المؤمن يكذب؟حديثه كذب هذه خصال المنافقين؛ لأن الكذب في الغالب لا يكون عن شهوة غالبة، وإنما يكون عن عدم خوف الله ﷻ، ولاخوف لقائه؛ أما مثلًا: الزنا، والسرقة، ونحو ذلك يكون عن شهوة غالبة، فربما غلبته فحصل.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٧).

لكن الكذب هذا يكون دائماً عليه معناه: أنه ما يصدر عن شهوة، ولا عن غلبة طبع، وإنما عن فساد في خلقه، ودينه، وفطرته. الصفة الثانية من خصال النفاق العملي: «**وَإِذا عاهَدَ غَدَرَ**». العهد يجب الوفاء به، قال ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١] والنبي ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ**»[١]، فإذًا: إذا صار المسلم يعاهد عهدًا فيما بينه، وبين الناس، فإنه يجب عليه الوفاء به، فإذا صار من صفته أنه لا يبالي بالعهود، ولا يبالي بالعقود، كحال بعض الناس الذين لا يبالون بأي عقد، ولا بأي عهد بينهم، وبين الخلق، فإن هذا من صفات النفاق العملي؛ لأنه هو نتيجة من نتائج عدم الإيمان باليوم الآخر، دائمًا لايرعي لمؤمن ذمة، ولا يرعي حقًا لكافر، ولا يرعي حقًا لمتعاقد معه - يعني: من وقع بينه، وبينه عقدًا - ولا عهدًا؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤] أمر الله بالوفاء بالعهد، لماذا؟ لأنك ستسأل عما عاهدت الناس عليه؛ ولهذا صار أعظم الخيانة وأعظم النفاق أن يعاهد الله ﷻ العبد على شيء عهدًا موثقًا، ثم يخالف، فهذا نفاق، وربما كانت عقوبته - أيضًا - النفاق - والعياذ بالله - إلى يوم القيامة؛ كما قال - ﷻ في سورة براءة -: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ٢٢)، وابن عدى (٦/ ٦١، ترجمة ١٥٩٩ كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف)، والبيهقي (٦/ ٧٩)، والدارقطني (٣/ ٢٧) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧]، فعدم الوفاء بالعهد إذا عاهد غدر، إذا كانت صفة دائمة له قرينة هي للكذب؛ لأنه يكذب ويخالف العهد، يكذب ويغدر، فهذه صفات من لا يؤمن باليوم الآخر، ولا يخشى لقاء الله ﷻ.

فإذًا: الواجب على المؤمن أن يفي بالعهد، عهد الله ﷻ، ومن النذر إذا نذر نذرًا فيه طاعة الله ﷻ، فيجب عليه الوفاء به، وذلك كما قال ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ**»(١).

ومن ذلك العهود العظمى، مثلًا: واحد كان في مصيبة من المصائب يتوجه إلى ربه بالمعاهدة، ربي أعاهدك على أنك إذا أنجيتني من كذا وكذا، فإنني لن أفعل هذا. ثم بعد ذلك ينجيه ربه ﷻ، فيعود، ويخالف، نسأل الله العفو والعافية، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وإسرافنا في أمرنا، كذلك العهد مع الخلق.

إذًا: النفاق العملي من مظاهره أنه إذا عاهد غدر، يعني: عنده صفة الاستمرار، ربما يحصل من المؤمن غفلة، ربما يحصل من المؤمن ذنب، يغدر مرة أو لا يفي بالعهد؛ لغلبة ظلم في قلبه، أو غلبة شهوة، أو نحو ذلك، لكن لا تحصل منه دائمًا أنه لا يبالي بالعهود، لا يبالي بالعقود، هذه من صفات المنافقين.

الخصلة الثالثة: قال: «**وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ**»، إخلاف الوعد من صفات

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

المنافقين، وله ضابطان، أو شرطان ذكرهما أهل العلم:

الأول: أن يكون حين يعد يضمر الإخلاف، وهذا جاء في حديث رواه أبو داود في سننه، وإسناده قوي، قال ﷺ: «**لَا تُمَارِ أَخَاكَ ولا تُمَازِحْهُ ولا تَعِدْهُ مَوْعِدَةً فَتُخْلِفَهُ**»[1]، يعني: حين تعد، إذا كنت تعد؛ لأجل أن تتخلص من الذي أمامك، وأنت في قرارة نفسك أنك بوعدك ستخلف، ويتكرر هذا منك، هذا من صفات النفاق العملي - والعياذ بالله -. أما إذا وعدت، ثم حصل شيء، وأخلفت بغير ملك منك، أو بغير قصد أن تخلف، و اجتهدت أن تفي، لكن لم يحصل الوفاء، وصار بعض الأحيان هذا، هذا ليس من صفات النفاق العملي، لكن إذا وعدت وأنت حين تعد تنوي الإخلاف، أو أنك مستمر على هذا، وهو الشرط الثاني: أن ذلك على صفة الخصال الفطرية، يعني: الديمومة، قلنا: فإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر.

فإذًا: الوفاء بالوعد، وعدم إخلاف الوعد هذه من صفات المؤمن، إذا وعدت فاجتهد؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما على فراش الموت، فتذكر وعدًا وعده أخًا له، وهو أن يزوجه ابنته، - كما رواه الفريابي وغيره - عَنْ هَارُونَ بْنِ رِئَابٍ: «**أَنَّ عبد اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: انْظُرُوا فُلَانًا - لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ - فَإِنِّي كُنْتُ قُلْتُ لَهُ فِي ابْنَتِي قَوْلًا**

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد (ص١٤٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ص٩٩)، والقضاعي في الشهاب (٢/ ٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٤٤)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٥٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٤٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

كَشَبِيهِ الْعِدَّةِ، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ ﷻ بِثُلُثِ النِّفَاقِ، وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهُ»[(١)]، خشية فوات ذلك بالموت، هذه من طبقات الخلص الذين يخشون أن يعدوا موعدة ويخلفوها، فكيف حالنا اليوم، وحال الأكثرين منا، إلا من رحمهم الله ﷻ ممن لا يبالي بالوعد؟! بل ربما كان يترتب على الوعد أشياء، يعده وذاك ينتظره مدة طويلة، أو يكون مبنيًا عليها أشياء مالية يصرفها، ونحو ذلك، فيخسر الآخر، ونحو ذلك، وهو لا يبالي بموعدته التي وعدها إياه، وقد أثنى الله ﷻ على نبيه إسماعيل عليه السلام بأنه كان صادق الوعد، يعني: هذه من خصال أهل الإيمان، أنه إذا وعد جاهد نفسه أن يفي بالوعد؛ أما أهل النفاق فإنهم يعدون، وحين يعدون لا يبالون، ينوون عدم الوفاء، وهذا نوع من الغدر في أهل الإيمان.

الخصلة الرابعة: «وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ»، لا يبالي من يخاصمه، إذا صارت بينه، وبين أحد خصومة ليس عنده باب للمعاذيير، ليس عنده باب للمغفرة، ليس عنده باب للتؤدة، بل فجر في خصومته، وأتى بكل شيء بما له علاقة بالخصومة، أو ليس له علاقة بالخصومة، اختلف هو وإياه في أمر فيما بينهم في العمل، أو في أمر مالي، وهو مطلع على أسراره، إما سلوكياته، أو كذا، فأخذ يفجر، فيذكر كل شيء عنه، ويشوه - كما يقال في العصر - سمعته في كل مجلس ويذكر؛ لأجل خلاف بينه وبينه، هذا من خصال أهل النفاق، أنه إذا خاصم فجر في خصومته، ولم يراقب الله ﷻ في ذلك، وهذا كما يحصل - أيضًا - بين الناس فيما عند القضاة إذا التقى الخصمان عند

---

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٢٩)، والفريابي في صفة النفاق (ص ٦٤) وابن أبي الدنيا في الصمت (ص ٤٥٦).

القضاة، فالواحد يذكر ماله علاقة، ولا يعتدي على أخيه بالسباب، والشتام . . . وإلى آخره، بل ما عنده يذكره، والمؤمن عف اللسان، عف البيان؛ كما قال - ﷻ في أمره لعبادة المؤمنين -: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣]، والخصومات إذا وجدت فهي سبب للقطيعة؛ ولهذا من صفات أهل النفاق الذين لا يرعون صلة بين المؤمن والمؤمن، ولا صلة للرحم، ولا علاقة، ولا دفعًا للموبقات والخصومات، فإنهم إذا خاصموا فجروا - والعياذ بالله -، يعني: أن هذا من طبيعتهم لا يرقبون من مؤمن إلًا، ولا ذمة.

الخصلة الخامسة التي في هذه الأحاديث: «وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ»، - والعياذ بالله -، والأمانة معناها واسع في الشريعة، وأعلى الأمانة التكليف، وهي التي جاءت في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وهذه أمانة التكليف، والمنافق اؤتمن على هذا الأمر، فخانه مع أنه يعلم حدودها، يعلم القرآن، ويعرف، لكنه خانه في أعظم شيء، كذلك الأمانات الأخرى يخونها، الله ﷻ في التكليف ائتمنك على توحيده فوحده، ائتمنك على عدم الشرك به، والبراءة من الشرك وأهله، فتقرب إلى الله ﷻ بذلك، ائتمنك على الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فكن على ذلك، وائتمنك على الصلاة، وجعلها صلة ما بينك، وبين ربك، فكن على ذلك، ائتمنك على أعضائك، فكن على ذلك، ائتمنك على المال، فحافظ على المال ولا تنفق إلا في حله، ائتمنك على أولادك، وعلى أسرتك، فارع الأمانة، والتكليف بجميع فروع الشريعة من باب

الطهارة إلى كتاب القضاء، هذا كله تكليف عظيم، لكن المنافق لا يأبه، يفعل ما يشتهيه، يفعل ما يهواه، ولا يراعي أحكام الشريعة، أيضًا ما يؤتمن عليه الإنسان في الأمانات الخاصة التي يسميها الناس الودائع، أضع عنده وديعة، أضع عنده شيئًا، أضع عنده السيارة، أضع عنده مالًا، والله ﷻ أمر بالوفاء بالأمانات، ورعايتها، وأدائها في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨] الأمانة أنت مؤتمن في عملك، العمل أمانة، أنت مؤتمن على الوديعة التي بين يديك حافظ عليها، واحد عنده واحد مسافر، وترك عنده سيارة، هل له الحق في أنه يذهب، ويجيء بها بدون استئذان؟ لأنها تذهب بعض قيمتها، معارض السيارات يجعلونها عندهم، ويعطونها فلانًا، ورأوها سيارة جيدة، راحوا وأخذوا . . . إلى آخره، هل هذا إذا وقع مرة لحاجة، فربما، لكن يكون ديدن المؤمن أنه لا يحافظ على الأمانة، الأمانة شديدة؛ لأنه ائتمنتك، فإذا كنت على قدر الأمانة، فتوكل على الله ﷻ، وإذا كنت تخشى أن لا تفي بالأمانة فاعتذر، لا تلق نفسك في تهلكه؛ لهذا من خصال المنافقين النفاق العملي أنهم دائمًا يخونون أمانتهم في عملهم، أكبر الأمانات بالتوحيد، والتكليف أمانتهم في أسرتهم، أمانتهم في أولادهم، يخونون الأمانة في أي مجال، يسرقون يرتشون لا يهمهم المال من أين أتى، ومن أين ذهب، ولا يرقبون حلًا، ولا حرمة، بل الحلال ما حل في أيديهم، والحرام ما حرموه، وهذا إخلاف الأمانة، اؤتمنت على هذا الشيء فارع الأمانة، أو اعتذر، هذا الذي يجب على المؤمن؛ لهذا من كان ديدنه عدم رعاية الأمانة، فهو من أهل النفاق، وربما يزيد؛ ولهذا بعد تمام هذه الخصال، قال طائفة من العلماء: النفاق يتبعض، يعني: يزيد شيئًا فشيئًا، ليس النفاق العملي إما أن يوجد

وإما أن لا يوجد، بل يزيد عند المرء خصال النفاق شيئًا فشيئًا، حتى يكون منافقًا خالصًا - والعياذ بالله -.

إذا تبين ذلك في تعريف النفاق الأكبر، والنفاق الأصغر، وبعض صفات هؤلاء، وبعض صفات هؤلاء، فنذكر أن الله ﷻ وصف المنافقين في القرآن بأوصاف، والنفاق لا يوجد في الرجال فقط، يوجد في النساء، قال ﷻ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧]. وقال ﷻ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] المنافقون الرجال فقط؟ النساء - أيضًا -، هم الآن يقولون: النساء شقائق الرجال في كل شيء. فالنفاق إذا كان موجودًا في الرجال فأيضًا موجود في النساء، فيهن منافقات؛ إما نفاق اعتقادي، وإما نفاق عملي؛ لأنهن مكلفات، وفيهن هذا، وفيهن هذا، وصف الله المنافقين، والمنافقات بأنهم فئة، قال ﷻ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٦٧]. فجعل من صفات المنافقين والمنافقات أن بعضهم من بعض، ووصف الله المؤمنين في الآية الأخرى في هذه السورة في براءة، قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]. فجعل المنافقين، والمنافقات بعضهم من بعض؛ لشدة التداخل فيما بينهم، والكيد للإسلام، ولأهله، والمؤمنون، والمؤمنات فيه ولاية فيما بينهم، ونصرة، ومحبة.. إلى آخره، فوصف هذا التداخل بأنهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، وأعظم المنكر الشرك بالله ﷻ،

والكفر، وعدم الإيمان باليوم الآخر، وعدم تحكيم الشريعة، شريعة الله ﷻ الكتاب والسنة، يأمرون بالمنكر، ثم يأمرون بالمنكرات، والموبقات؛ بالسحر، بخيانة الأمانة، بالكيد لأهل الإسلام، بالموبقات السبع، وغيرها؛ الربا، الفواحش، وما شابه ذلك.

من صفاتهم: أنهم - بلغة العصر - يتكتلون بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، ينهون عن المعروف بطريقة مباشرة؟ لا، لو كان بطريقة مباشرة لافتضحوا، أليس كذلك؟ لكنهم يسلكون سبلًا تنهى عن المعروف بطرق مختلفة، يأمرون بالمنكر بطرق مختلفة؛ لهذا من كان قلبه منطويًا على حب المنكر، والرغبة في إشاعته، فهذه من صفات المنافقين، والمنافقات، أليس المنافق الأكبر - رأس المنافقين - هو الذي تولى كبر إشاعة الفاحشة في المؤمنين، ونسبة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما المبرأة من فوق سبع سماوات نسبتها إلى الفحش؟

فهم يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف، إن سمعوا سبة طاروا لها فرحًا، وإن سمعوا صالحًا فله خمدوا، أو عنه سكتوا إلى آخره.

فإذًا: هؤلاء تجدهم في أماكن كثيرة في العالم، في أنهم يتكاتفون في إضعاف دين الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، وفي إظهار المنكر في أكبر صوره، والبعد عن الإسلام، وتشكيك الناس في دين الله، تشكيك الناس في الغيب، تشكيك الناس في صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، تشكيك الناس في الإيمان باليوم الآخر، إضعاف الناس عن الرغبة في الآخرة وتحبيب الإقبال على الماديات بأنواعها، ووصفهم الله ﷻ وصف الخلطة التي بينهم، وما يعلمونها، قال: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أي: أنهم

إذا جاء أمر الصدقة، فإنهم لايسعون فيها، بل يتوارون عنها؛ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أنهم إذا جاءهم أمر الصدقة فإنهم لا يسعون فيها، بل يتدارون عنها؛ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المؤمن إذا جاء باب من أبواب الصدقة، وفعل الخير للأقربين، أو للبعيدين، أو للمسلمين، فإنه يسارع في الخيرات، هذه من علامة الإيمان أن يسارع في الخيرات، ويفتح باب الخير، ويفتح باب الصدقات، ويفتح بابًا للمسلمين، وللمحتاج، وللمنكرب... إلى آخره؛ أما المنافق فتجده وجهه يسود إذا أتت إعانة أهل الإيمان، ويفرح إذا رأى أهل الإيمان في حاجة، وضيق، قال ﷻ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وهذا من جزائهم.

من صفات المنافقين التي ذكرها الله ﷻ في كتابه، وجاءت في السنة - أيضًا -: أنهم لا يصلون إلا مع الناس، وأما إذا خلوا إلى أنفسهم، فإنهم لا يصلون، لا يحافظون على الصلاة، قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه لما ذكر صلاة الجماعة - كما في صحيح مسلم -: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤتى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ**»(١).

المنافق ما يصلي، إذا أتى مع الناس صلى، وإذا خلى بنفسه لم يؤدِّ الصلاة أصلًا، إنما يصلي مراءاة فيما ظهر، وفيما بطن لا يصلي - والعياذ بالله - هذا ما يخشى الله، ولا يخشى الحساب، في القرآن ذكر الله ﷻ أن المنافقين يظنون الظنون بالله ﷻ، وبرسوله، ما معنى الظنون؟ يعني: يظنون

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ظن السوء ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ [الفتح: ٦] أي: على المنافقين، والمنافقات، ما ظن السوء؟ يظنون أن الله ﷻ لن ينصر الدين، ولن ينصر أهله، كما ظنوا في أول الأمر في عهده ﷺ ظن السوء أنهم يظنون أن أهل الإيمان لن ينصروا، ظن السوء أنهم سيفتقرون إذا طبقوا شرع الله ﷻ، أو ألزموا بأمر الله؛ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فهذا من صفاتهم أنهم يظنون ظن السوء، الله ﷻ أخبر في القرآن أن المنافقين والمنافقات سيكون لهم العذاب في الدنيا، ولهم العذاب في البرزخ، ولهم العذاب في الآخرة، قال ﷻ في وصفهم في آخر سورة براءة، وسورة براءة تسمى السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، فقال ﷻ في وصفهم: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]. نعذبهم مرتين، قال العلماء: يعني في الدنيا، وفي البرزخ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في الآخرة، بل جعل الله ﷻ سورة كاملة في القرآن باسم سورة المنافقين؛ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وبين من صفاتهم ما بين، ومنها: أنهم لو قالوا سمعت لقولهم، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]، ومن صفاتهم: أنهم قالوا: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: ٨] أي: هم الأعز، والأذل المؤمنون، وقال ﷻ في وصفهم - في سورة البقرة -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١] أي: أنهم يقولون: نحن نصلح بالشرك، نحن نصلح بالماديات، نحن نصلح بأن

لا نذكر الناس بالله ﷻ، نحن نصلح بعدم تحكيم الشريعة، وتحكيم القوانين: قانون أمريكا، أو قانون فرنسا، أو قانون بريطانيا . . . إلى آخره، نحن نصلح بجعل الإسلام في المسجد، نحن نصلح بأن لا يحكم القضاة بالإسلام، نحن نصلح . . إلى آخره؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأنواع النفاق، وبخصاله ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]؛ لأن حقيقة وجود الإفساد في الأرض هو تحكيم شرع الله ﷻ؛ لأن الأرض لا تطيب إلا بشريعة خالقها، وهو الذي برأها، فإنها لا تطيب، ولا تصلح إلا بشريعة الله؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. لا تفسدوا في الأرض بالشرك بالكفر، بالمنكر، بعد إصلاحها بالتوحيد، والطاعة، والسنة[١]، وهذا لا شك أنه من خصال المنافقين.

إذا تبين هذا، فيظهر لك أن النفاق خطر، ولا شك خطر علينا كأفراد، وخطر - أيضًا - على المجتمعات المسلمة، أما خطره على الأفراد، فإن الشيطان يأتيك شيئًا فشيئًا في خصال النفاق، حتى يكون العبد - والعياذ بالله - منافقًا خالصًا؛ لهذا الله ﷻ في القرآن ما نهى عن اتباع الشيطان، ولكن نهى في القرآن في آيات عدة عن اتباع خطوات الشيطان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ﴾ [النور: ٢١] لماذا قال: الخطوات؟ لأن الشيطان لا يأتي المؤمن الموحد، فينقله من الإسلام إلى النفاق، من الإسلام إلى الكفر، ولكن ينقله عبر خطوات؛ كما نهى الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٠١، ٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

يأتيك في خصال، النفاق تتساهل بالغدر بالعهد، تتساهل بإخلاف الوعد، تتساهل بعدم أداء الأمانة، تتساهل بالذنوب، تتساهل بعدم أداء الفرائض، تتساهل بالشرع، تتساهل بالتوحيد، تتساهل حتى يكون شيئًا فشيئًا، فيقلب الله القلب، وإذا كان أبو الدرداء رضي الله عنه خاف ذاك الخوف، فإننا أحق بالخوف، فمن يأمن؟ فهل نأمن البلاء بالنفاق بعد خوف أبي الدرداء رضي الله عنه، بل بعد خوف عمر رضي الله عنه؟

بقيت المسألة الأخيرة، وهي ما أحكام المنافق الظاهرة؟

أحكام المنافق في دار الإسلام ما هي؟ المنافق دلت سنة النبي ﷺ من قوله، ومن عمله أن المنافق يدخل في عموم المسلمين باعتبار الظاهر، وأنه ظاهرًا له الحقوق العامة التي للمسلم، وفيما يعلمه الإمام، أو يعلمه ولي الأمر من حاله، من نفاقه، أومن سلوك، فإن النبي ﷺ لما قيل له في شأن المنافقين الذين تكلموا بالكلام الذي جاء في سورة المنافقين، قيل له في قتلهم، قال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

ولهذا صارت حالة المنافقين في دار الإسلام أنهم في المسلمين يعاملون ظاهرًا معاملة المسلم مع الحذر منهم، والإمام، أو ولي الأمر، فإنه بحسب ما يرى من المصلحة، والنبي ﷺ قال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»، بل ربما عفا عن بعضهم، وبر ببعضهم؛ إما لأجل أبنائهم، أو مصلحة شرعية متوخاة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المنافق له أحكام المسلمين في الميراث، يعني: أنه يرث، ويورث؛ لأن أحكام الميراث

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٥، ٤٩٠٧)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر رضي الله عنه.

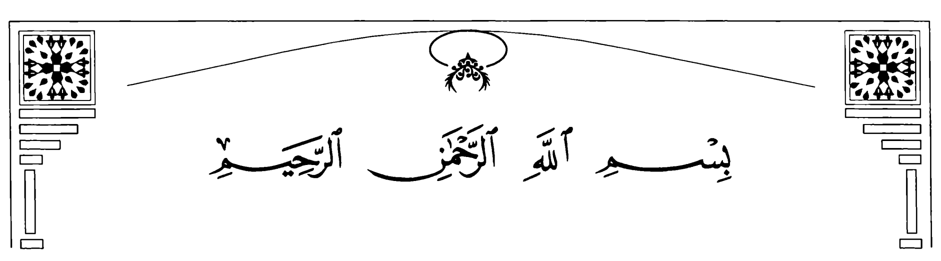
يعتبر فيها الظاهر، وهو الإسلام، ما دام أنه مظهر الإسلام، ولم يظهر منه ظاهرًا مكفر، ولا يخرجه عن الدين، لم يحكم عليه بشيء من ذلك، فإنه يحكم له بأحكام المسلم، فيرث، ويورث، وهكذا كانت سنة النبي ﷺ في المنافقين، فإنهم ورثوا وأيضًا ورثهم أبناؤهم؛ لأن الباطن حكمه إلى الله ﷻ والاعتبار بالظاهر.

الحال الثالثة: من أظهر من المنافقين، أو من أظهر - من هذا الصنف - نفاقًا، أو أظهر ما يدل على بغضه لدين الله، أو سبه للرسول ﷺ، أو سبه لدين الله، ونحو ذلك، فإنه يقرر على ذلك، ثم اختلف العلماء هل إذا تاب تقبل توبته؟ قال: أنا تبت من هذا القول. فهل تقبل توبته، أم لا؟ على ثلاثة أقوال:

منهم قال: لا تقبل توبته ظاهرًا، وإذا كان صادقًا فيما بينه، وبين الله ﷻ فإنه تنفعه عند الله؛ أما في الظاهر، فلا تقبل، فيجب قتله، يعني: بحكم القاضي، أو الإمام.

وقال آخرون، وهو القول الثاني: إن المنافق، أو الزنديق إذا أظهر شيئًا من ذلك، فإن توبته - يعني: إذا أظهر التوبة - تقبل؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. وهذا القول ليس بجيد؛ لأن معناه أن المنافقين كل يوم واحد منهم يظهر، ويسب الله ﷻ، أو يسب الرسول ﷺ، أو يسب دين الإسلام، أو يستهزئ بشيء، أو يضعف الإسلام، أو المسلمين بما في صدره من حسرة، وكمد، وحقد، ثم بعد ذلك إذا دعي ليحكم عليه بإذن ولي الأمر، قال: أنا تبت. معنى ذلك أن كل واحد سيفعل منهم، ثم يقول: أنا تبت. ثم الثالث: أنا تبت. ولهذا هذا القول أضعف الأقوال الثلاثة في قبول توبته.

القول الثالث، وقد رجحه طائفة من المحققين: أنه بحسب القرائن، فإذا احتفت القرائن بأنه صادق في توبته، صادق في رجوعه إلى الله، فإنه يقبل، وإذا لم تحتف القرائن الدالة على صدقه، فإنها لا تقبل توبته، وهذا له حكم الزنادقة، والاتحادية، والماديين الذين لا يؤمنون في الباطن، لكنهم في الظاهر مع المسلمين، وهكذا في أمثالهم هذا ما يحضرني في هذا الموضوع في هذا المقام، ولا شك أن ما طرقته قليل بالنسبة إلى مافي الموضوع من نصوص، وأحاديث، ولكن هكذا اقتضى الخاطر المكدود، وأسأل الله ﷻ أن يجنبي وإياكم النفاق، وسبيل أهله، وأن يجعلنا من المؤمنين حقًا الذين رضي قولهم، ورضي عملهم، اللهم نعوذ بك من كل وسيلة إلى الشر، ومن كل انتكاسة في القلب، أو في القول، أو في العمل، اللهم ثبتنا على دينك، اللهم نسألك الثبات في القول، والعمل، والاعتقاد، إنك كريم جواد، كما أسأل ربي ﷻ بأسمائه الحسنى، وبصفاته العلى، أن يوفق ولاة أمورنا إلى كل خير، ويؤلف بين قلوبهم، ويجمعهم على الحق، والهدى، وأن ينصر الحق، وأهله، إنه ﷻ جواد كريم، كما أسأل ربي ﷻ أن يوفق علماءنا لما فيه رضاه، وأن يجزيهم عنا خير الجزاء من سبق منهم، ومن بقي، فأسأله لهم الرضوان، والرحمة، وأن ينفعنا بعلومهم، وأن يجعلهم أبرارًا هداة رافعين منار الإسلام، والسنة في الأرض كلها، إنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، وأستغفر الله، وأتوب إليه، وصلِّ الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.



تعليق لسماحة مفتي عام المملكة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ - حفظه الله -

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله، وسلم، وبارك على أشرف الأنبياء، وأشرف المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله، وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد في هذه الليلة استمعنا جميعًا إلى هذه المحاضرة القيمة النافعة المفيدة الجامعة التي تحدثت عن موضوع مهم، وهو موضوع النفاق، ولقد ألقاها على مسامعكم معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ وزير الأوقاف، والشؤون الإسلامية، والدعوة والإرشاد - وفقه الله -، الحقيقة ليس لي على هذه المحاضرة تعليق، فإن المتحدث - وفقه الله - استوفى المقام حقه، وتحدث عن تعريف النفاق، وعن سبب النفاق، وعن الوسائل التي يكون فيها النفاق، وعن التخلص من النفاق الاعتقادي، والنفاق العملي، إلى غير ذلك مما استدعاه المقام. الواقع أن المسلم في هذه الدنيا الذي من الله عليه بالإسلام، وعرف الإيمان، وعرف الهدى، وتبصر في أمره، يعرف أن هذا الإيمان نعمة الله أنعم به عليه، وفضل من الله تفضل به عليه، ولو شاء ربك لجعلك مثل أولئك في ضلالهم، وحيرتهم، فمن شرح الله صدره للإسلام، وعرف الحق، واستبان الهدى، ووفق للعمل به، فليحمد الله

على هذه النعمة، وليقل دائمًا وأبدًا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

فإن هذا الإيمان نعمة من الله على العبد جليلة؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧] ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢]. فمن تصور نعمة الإيمان، ثم نظر إلى فئام من خلق الله، صرفوا عن هذه النعمة، وحيل بينهم، وبين هذه النعمة لا قصورًا في العقل، والرأي، والإدراك، ولكنها حكمة ربانية، وعدل من الإله حال بينهم، وبين الهدى، فلم يقبلوا هدى الله، ولم يستجيبوا لرسوله، بل صخوا آذانهم عن سماع الحق، وأغلقت قلوبهم عن فهم الحق؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦] خلق من خلق الله ضلوا عن سواء السبيل؛ ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣]، وضح الحق أمامهم واستبان الهدى من الضلال، ولكن يصرف الله من شاء من عباده عن قبول الحق، هؤلاء المنافقون في عهد رسول الله ﷺ إخوانهم مسلمون، آباؤهم مسلمون، عشيرتهم مسلمون، ولكن أفرادًا منهم عاشوا في النفاق مغموسين في النفاق

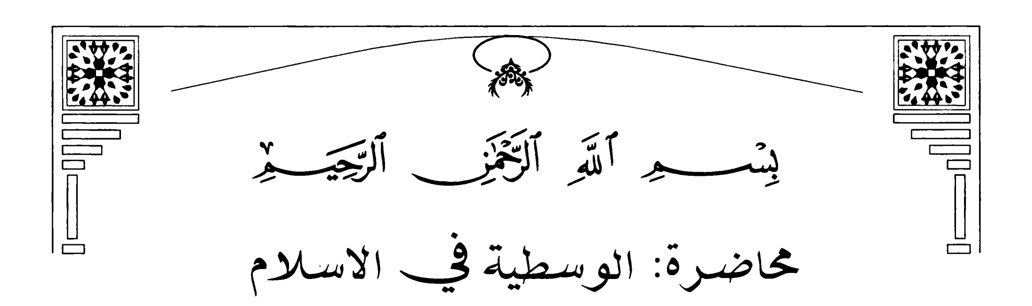
إلى أن لقوا الله، يصلون وراء رسول الله، ويصومون معه، ويجاهدون معه، ويجاهد معه، ويسمعون القرآن، ويرون فتوحات الإسلام، وعز الإسلام، وانتشار الإسلام، وعلو الإسلام، وما زادهم ذلك إلا ضلالًا، وبعدًا عن الهدى، كل فرصة تسنح لهم تنطلق ألستنهم، وتتحدث عما أكنته قلوبهم من الحنق على الإسلام، وأهله، رأوا كل الآيات، والعلامات، ومع هذا ما ازدادوا إلا نفورًا، وبعدًا عن الهوى - والعياذ بالله - في غزوة تبوك وبعد أن فتح الله مكة على نبيه، ودانت له الجزيرة العربية بالإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، المنافقون لا يزالون في نفاقهم، ولا يزالون في ضلالهم، ولا يزالون في غيهم، رغم وضوح الأدلة وبروز الحق، وعلوه، ولكن كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. فلهذا كان المؤمن الذي يرى الإيمان نعمة، وفضلًا من الله عليه إذا عرف أسباب النفاق، خاف من النفاق، وخاف أن يدخل إيمانه نفاقًا من حيث لا يشعر، وأن يلبس الأمر عليه، وأن يضل سعيه من حيث لا يعلم؛ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] قال بعض السلف: ما خاف النفاق إلا مؤمن، وما أمنه إلا منافق. فالمؤمن يخاف على نفسه، لا يأمن العواقب، ولا يثق بنفسه، بل هو يلجأ إلى الله في كل آن، وحين أن يثبته على قوله الثابت، وأن يعيذه من النفاق قليله، وكثيره، وأن يعصمه من هذه الشبهات، والضلالات، ولقد بين الشيخ - وفقه الله - أن النفاق أصله كراهيته لهذا الدين، وبغض الإسلام، وأهله، فليحذر المسلم من أن يتفوه لسانه بكلمات سيئة يزل بها قدمه من حيث لا يشعر، إما أن يسخر بوحي

الله، أو يسخر بسنة رسول الله، أو يستهزئ بأهل الإسلام والدين، أو ينتقص الشريعة، ويسيء الظن بها، كحال بعض الكتاب المنحرفين في هذا العصر، مما ينشرون، وتخطه أيديهم من نفاق، وضلال؛ إما - والعياذ بالله - دعوة إلى باطل، دعوة إلى السفور، والفجور، ودعوة إلى البعد عن الإسلام، ودعوة إلى استباحة محارم الله، بوسائل شتى، وطرق عديدة، إذا تأملها الإنسان يشم منها رائحة النفاق، وأن أولئك ليس في قلوبهم غيرة على دين الله ولا محبة لله، ورسوله، ولكن في قلوبهم المرض، والضلال، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النور: ٤٨]، لكن في قلوبهم المرض والضلال، قال: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨] إلى أن قال: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور: ٥٠] فهؤلاء المنافقون، إذا دعوا إلى تحكيم الشريعة، والتحاكم إليها، واعتقاد كمالها، وشمولها، وصلاحيتها، للحاضر والمستقبل كما أصلحت الماضي، رأيت في قلوبهم مرضًا، ورأيتهم يصدون عنك صدودًا ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يخلو من هؤلاء ثلاثة، إما في قلوبهم مرض، أو ريب في الإسلام، أو يخافون أن يحيف الله عليهم، ورسوله، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥١﴾ [النور: ٥١].

فليحذر المسلم هذا النفاق، وليسأل الله الثبات على الحق، وليقبل شرع الله، وليرض به، وليسلم، وليؤمن، وليعتقد أن هذه شريعة الله صالحة لمن مضى، وصالحة للحاضر، والمستقبل، وأنه دين كامل، شرعه الله، وبعث

به خير خلقه محمد بن عبد الله، فليرض بذلك، ولتطمئن نفسه، وليحذر من التحدث والتفوه بالكلمات البذيئة التي لا خير فيها، فإن الألسنة تدل على ما في القلوب من ضلال، وبلاء، وضلال، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]. تعرفهم في لحن أقوالهم، وما تنطق به ألسنتهم من النفاق، والبغض للإسلام وأهله. أسأل الله لي، ولكم الثبات على الحق، والاستقامة عليه، وأن يجزي محاضرنا عما شنف به الأسماع من الخير، والهدى خيرًا، وأن يغفر لنا، ولوالدينا، وجميع أموات المسلمين، وصلِّ الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبة، وسلم تسليمًا مزيدًا.





محاضرة: الوسطية في الاسلام

١٤٢٣/٧/٢٣هـ في جامعة الملك فيصل بالإحساء

لله الحمد والشكر بَيَّنَ الطريق، وأوضح المحجة، أرسل رسله مبشرين، ومنذرين لئلا يكون للناس حجة، ونصلي، ونسلم على نبي الهدى الصادق النية، واللهجة، وعلى آله، وصحبه، ومن اقتفى أثره، ونهجه، صاحب المعالي الشيخ/ **صالح عبد العزيز آل الشيخ**، وزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد، صاحب المعالي الأستاذ الدكتور/ يوسف بن محمد الجندان، مدير جامعة الملك فيصل، صاحب السعادة الأستاذ/ خالد بن عبد العزيز البراك، وكيل محافظة الإحساء، أصحاب الفضيلة والسعادة، أيها الحضور الكرام، من أرض تعشق العلم وأهله إليكم تحية الله لعباده المؤمنين، فالسلام عليكم، ورحمة الله، وبركاته أما بعد؛

(الوسطية في الإسلام) عنوان محاضرتكم الليلة لمعالي الشيخ/ **صالح ابن عبد العزيز آل الشيخ**، معالي وزير الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة، والإرشاد يصحبكم معها، فمرحبًا بك يا صاحب المعالي، وبصحبك الكرام في إحساء العلم، والأدب، تضيفون إليها ليلة من لياليها، التي تعودت نسائمها أن تبتهج بالعلم، وتسر بملاقاة أهله فضيلة الدكتور/ محمد بن عبد الرحمن وكيل كلية التربية.

كلمة الجامعة يلقيها معالي الأستاذ الدكتور/ **يوسف بن محمد الجندان**.

كلمة الدكتور / محمد بن عبد الرحمن:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة، والسلام على خاتم رسل الله، نرحب بكم حفلنا الكريم في هذه الليلة المباركة، وقبل أن نستمع إلى الحديث الشائق الذي ننتظره من معالي وزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد.

أقول: إن الوسط هو رمز الاعتدال، والتوازن، والفضيلة، وهو مقام يتفق الجميع على نشدانه، وعلى تطلبه، والفضيلة وسط بين رذيلتين، سلوك الطريق الوسط أساس في التوافق الاجتماعي، وبناء العلاقات الإنسانية، بل إن النجاح، والفشل في الحياة متوقف إلى حد كبير على هذا النمط من السلوك، لعلنا يا حفلنا الكريم لا نخطئ إذا قلنا: إن أشد الأخطار فتكًا بالأمم تلك التي تصيبها من الداخل، تلك التي تجعلها تعرض عن المنهج الوسط الذي دعا إليه الحق ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وإن كل ابتعاد عن المنهج الوسط يولد التصدع، والشرخ في كيان الأمة، وكلما كثر هذا الشرخ كثرت الفتن، وتفككت العرى، والأوصال، وتولدت تيارات وفرق، يلعن بعضها بعضًا، وتكفر كل فرقة الفرقة الأخرى، من هنا كان هذا الاجتماع في هذه الليلة؛ لنستمع إلى حديث كم اشتقنا له؛ لنستمع إلى حديث عن الوسطية دين الإسلام، عن الوسطية في الإسلام دين الوسطية؛ لنستمع إلى هذا الحديث من فارس من فرسان الكلمة، وحبر من أحبار العلم، ومن رجل في موقع

المسؤولية في الدعوة، والإرشاد، إنه سليل بيت العلم، وخريج مدرسة الوسطية، إنه معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ** وزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد، وقبل أن نستمع إلى حديثه لعلنا نتجاوز ما تعارف عليه من أن المعرف لا يعرف، فنذكر مزيدًا من التعريف، معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ**، ولد في مدينة الرياض، وأكمل تعليمه الثانوي فيها، ثم تخرج من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من كلية أصول الدين، وعمل بعد ذلك في السلك الأكاديمي بها إلى عام ستة عشر وأربعمائة وألف، منح إجازات علمية عالية من عدد من علماء المملكة العربية السعودية، ومن غيرها من علماء العالم الإسلامي، من علماء تونس، والمغرب، وباكستان، والهند، وغيرها، له مشاركات فاعلة في التأليف، والتحقيق، وله مؤلفات تبلغ عشرين مؤلفًا، وتحقيقًا في العلوم الشرعية المختلفة، ومع ذلك له دروسه ومحاضراته وتوجيهاته التي تبلغ أكثر من ثمانمائة درس، شارك في ندوات ومؤتمرات، وصدر الأمر الملكي بتعينه نائبًا لوزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة سنة ستة عشر وأربعمائة وألف، ثم صدر الأمر الملكي الكريم في عام عشرين وأربعمائة وألف بتعينه وزيرًا للشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد، له مشاركات في عدد من المجالس، فهو عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وهو المشرف العام على مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة النبوية، هو رئيس مجلس الأوقاف الأعلى، وهو رئيس مجلس الدعوة، والإرشاد، ورئيس المجلس الأعلى للجمعيات الخيرية لتحفيظ القرآن

الكريم، وهو المشرف العام على مؤسسة الحرمين الخيرية، والمشرف العام على إدارة المساجد، والمشاريع الخيرية، وهو رئيس الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ورئيس المجلس التشريعي لوزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية، وهو عضو المجلس الإسلامي للدعوة، والإغاثة بالقاهرة.

هذه سيرة عطرة، وهذه مناصب كلها تزيد من رغبتنا، وشوقنا إلى أن نسمع حديثه، فليتفضل مشكورًا، أسأل الله ﷻ أن يفتح عليه بما ننتفع به، وينتفع هو به.

كلمة معالي الشيخ/ **صالح بن عبد العزيز آل الشيخ**:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لاشريك، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد؛

فإنني في غاية السرور، والحبور أن أكون في بلد التاريخ، والعلم، والأدب، وبلد الرجال الذين أثروا تاريخ الأمة في مجالات التاريخ، والفقه، والأدب، ثم إني مسرور، وشاكر لدعوة معالي أخي الكريم الأستاذ الدكتور/ يوسف ابن محمد الجندان مدير جامعة الملك فيصل؛ لما خصنا به من اهتمام لزيارة الجامعة، والالتقاء بمنسوبيها في محاضرة تخدم الأهداف التربوية التي تسعى إليها الجامعات في تنوير العقل، وفي دعم التوجه الصحيح في النظر إلى القضايا المشكلة، ثم لجميع الإخوة العاملين في

هذه الجامعة، ولجميع أصحاب الفضيلة المشايخ، وأصحاب السعادة، ومن شاركنا هذه الليلة لهم مني الشكر، والتقدير على حضورهم، وأن حظيتُ باستماعهم لهذه الكلمة، هذا الموضوع اختارته الجامعة، وهو موضوع: (**الوسطية في الإسلام**) وأحسب أنهم اختاروا ذلك؛ لأن هذا الموضوع قديم جديد، وهو موضوع الشرع، وموضوع العقل، وهو موضوع فرد متعدد الجوانب يحتاجه المرء في موقفه مع نفسه، وفي تعامله مع من حوله، وفي تقييمه للأفكار، وفي وضعه لنفسه منهجًا يفكر به في تقييم ما حوله من الأوضاع، والأشخاص، والمستجدات، والسياسات، والمعطيات المختلفة، الموضوع ليس موضوعًا شرعيًا فحسب؛ وذلك لأن الإسلام جاء بالعقيدة التي تعصم من الزلل، بالشريعة التي تقي من الهوى، وجاء - أيضًا - بمنهج تفكير يُربي أهل الإسلام عليه؛ حتى لا تتقاذفهم الأمواج، فلا يصلوا إلى بر السلامة، في القرآن الكريم وفي السنة تأصيل لمنهج التفكير، وهو الأهم في نظري في كل زمان ومكان، منهج العلم، منهج النظر، منهج التفكير، كيف تفكر؟ كيف تتعلم؟ كيف تقيم؟ كيف تتعامل؟ لأن الإنسان بين عاطفة جامحة، وهوى باطن، وبين عقل يرشده إلى الطريق المستقيم، فجاءت الشريعة تهذب العاطفة، وتربي العقل على الصواب؛ لذلك كان هذا الموضوع مهمًا؛ لأنه يرسم منهج الإسلام، ويرسم منهج التفكير، فهو من حيث فهم الشريعة مهم، ثم هو - أيضًا - مهم في هذا الوقت؛ لأننا نرى في هذا الزمان التقلبات كثيرة، ومتعددة، سواءً أكانت التقلبات السياسية، أو الدعوية، أو الفكرية، وغير ذلك، فيحتاج الإنسان معها إلى تصور يعصمه من الخطأ في النظر إلى هذه الأشياء،

وتعلمون أن علماء الإسلام في جميع ميادين العلم، والمعرفة وضعوا أصولًا تُقيم بها العلوم، أو يُوصل بها إلى الصواب في العلوم؛ فأهل التفسير وضعوا أصول التفسير، وأهل العقيدة وضعوا أصول العقيدة، وأهل الفقه وضعوا أصول الفقه، وأهل الحديث وضعوا مصطلح الحديث، وأهل التاريخ - أيضًا - منهم من وضع مصطلح التاريخ، وأهل اللغة وضعوا أصول اللغة، والمصطلح اللغوي، وهكذا في كل ميدان من ميادين العلم في العلوم التي كان يُعتنى بها، كذلك في العلوم النظرية أهل الإسلام سبقوا إلى وضع الأصول في علم الجبر، وعلم الهندسة، والنظر إلى الأفلاك، وسواءً أكان ما وصلوا إليه صحيحًا من كل جهة، أو كان خطوة في الطريق إلى الصواب، ولكن المهم أنهم نظروا إلى أنه لابد من وضع منهج للوصول إلى الصواب في النظر إلى العلوم، وإذا كان الأمر كذلك فمعناه أنه من المهمات للوصول إلى الصواب في أي شيء: أن يكون الإنسان، والمرء والمسلم خاصة معتنيًا بما يعصم فكره من الغلط، وأهل المنطق قالوا في تعريف المنطق: أن المنطق هو قوانين تعصم الفكر، أو العلم من الخطأ، وإذا كان كذلك، فهذه حاجة من حيث العموم لا من حيث خصوص العلم، حاجة في كل ميدان أن يوجد من التوجهات ما يعصم العقل، والفكر، والفهم من الغلط، من أعظم ما يصل به المرء إلى ذلك أن يكون مترفقًا معتدلًا؛ لأن الاعتدال، والوسطية هي بين الطرفين، والإنسان دائمًا إما أن يتجه إلى الزيادة، فيكون في طرف الإفراط، وإما أن يتجه إلى النقص، فيكون في طرف التفريط، فإذا لزم الجادة والاعتدال فإنه يوشك أن يصل، وأن يهيأ له منهج التفكير الصحيح في جميع شؤونه، هذا الموضوع مهم لما

ذكرت ولغيره مما يكتنف العالم اليوم، وخاصة في أوساط القضايا الإسلامية من تنازعات كبيرة، ومن قضايا متعددة تلاحقنا يومًا بعد يوم، هو مهم للمحافظة على وحدة الناس، وعلى تقاربهم؛ لأن تقلب الأحوال، وتغيرها يوشك إن لم يُرسم منهج فيه للتعامل أن يكون هناك محن، وضغائن، مما دعا الشرع المطهر إلى نبذها، وتجافيها.

هذه الوسطية هي التي جاءت في قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. في منهج عام يبين حقيقة هذه الأمة في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقد قال علماء التفسير كابن جرير، وكغيره: إن الوسط هم الخيار والعدول، والوسط: هو الاعتدال، وهذا صحيح لمجيئه عن عدد من مفسري السلف، قبل أن ندخل في تفاصيل الأدلة، والأحوال، وما يتصل بها، فالوسطية إذ كانت بهذه المثابة، وهذه الأهمية، وأنها مما امتن الله به على هذه الأمة أن جعلها أمة وسطًا، فلهذه، الوسطية سمات من نظر في قواعد الشريعة، وفي تفصيلاتها، سواءً أكانت في العقائد، أم في الفقه والشريعة، وجد هذه ماثلة أمامه، فمن سماتها: أن المنهج الوسط، أو المنهج المعتدل يرفع روح السماحة، أو يزيد من روح السماحة، والتسامح، ويرفع الحرج عن العباد؛ لأنه كلما كان المرء بين طرفين، فإن الحرج منفي عنه، سواءً كان الطرفان في العقيدة، أم الشريعة، أم في التعامل - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله -.



سمات الوسطية

من سمات الوسطية: أن صاحب التوسط، والاعتدال صاحب عدل، لا تجده ظالمًا في أرائه ظالمًا للغير، وكذلك لا تجده متساهلًا، فهو صاحب عدل، عنده ميزان سليم يعدل به الأمور.

من سمات المنهج الوسطي: أنه موافق للشرع الكريم، وموافق للفطرة السليمة المحببة للنفوس، وهو - أيضًا - موافق للعقل السليم الذي يتطلب الاعتدال، ويرسم منهجه.

من سمات المنهج الوسط، والمنهج المعتدل: أنه يعتمد في المسائل الشرعية على العلم الصحيح من أهله الراسخين فيه.

ومن سمات منهج الاعتدال، والوسط، والوسطية: أنه يُراعي القدرات، والإمكانات، ولا يُلغي النظر في تقييم الأشياء، وفي التعامل معها على القدر، وعلى الإمكانات، والمعطيات.

من سمات هذا المنهج: أنه يراعي الزمن، ويراعي الناس على اختلاف أنواعهم - كما سيأتي تفصيل بعض هذه الجمل -.

سبب الاهتمام بمنهج الوسطية:

لماذا نهتم بهذه الوسطية؟ لأن الوسطية أمر بها الله ﷻ، وأمر بها رسوله ﷺ؛ ولأن المنهج المعتدل هو الحق في نفسه؛ ولأن المنهج الوسط والمعتدل يسلم من الأهواء، التي تأخذ الناس يمينًا وشمالًا، ولكون هذا

المنهج - أيضًا - يُوصل إلى تحقيق مرادات الشارع، وإلى تحقيق مقاصد الشريعة في الدين والدنيا؛ ولأن المنهج المتوسط، والمعتدل يُبعد عن الفتن، التي أجمع العقلاء، والعلماء على طلب نفيها، ودفعها.

أسباب تحصيل الوسطية:

إذا كان كذلك، فما أسباب تحصيل هذه الوسطية؟

من أسبابها: معرفة المنهج الصحيح من الكتاب والسنة بأدلته على فهم العلماء الراسخين.

من أسباب تحصيل الوسطية، والثبات عليها: قوة العلم في أي مجال دخل فيه الإنسان، كما ذكرنا أن منهج الوسطية في الإسلام لا نقيده في المسائل الشرعية، بل هو منهج يتسم حتى في المسائل النظرية، وفي المسائل السياسية، وفي تقييم الأفكار، والأشخاص، والاتجاهات، ونحو ذلك، فهو منهج متكامل.

من أسباب تحصيله، والثبات عليه، يعني: تحصيل الاعتدال، والوسطية: قوة العقل في إدراك الأمور، والنظر في تجارب الناس، والاعتبار من التاريخ؛ لأن إلغاء التجارب التي مر بها الناس، وأخذ الأمر على أنه أنفٌ مستأنف، كل حادثة يُنظر إليها على أنها الأولى، ولانستفيد من التاريخ، لا نستفيد من التجارب يحرمنا من معرفة التوسط في الأمور، أو من أسباب تحصيل الوسطية، والثبات عليها.

أسباب الانحراف عن الوسطية:

في مقابل ذلك هناك أسباب تنحرف بنا عن الوسطية من أعظمها: الجهل

بأنواعه، والجهل كما هو معلوم ليس شيئًا واحدًا، الجهل مقابل للعلم، كما أن العلم يتفاوت، ودرجات، فكذلك الجهل يتفاوت وهو درجات.

من أسباب الانحراف عن الوسطية: وجود الهوى، والهوى يسبق الأحكام، فإذا كان عند الإنسان هوى، وهذا الهوى له بواعث، قد تكون البواعث لهذا الهوى نفسية، وقد تكون إقليمية، وقد تكون مذهبية، وقد تكون، وقد تكون إلى أي اتجاه، أو عاطفية، أو إعجابية، وأشباه ذلك، فهذا الهوى يحرف عن الوصول إلى الوسط، ثم يأخذ الإنسان إلى ما هَوِيَهُ من الأمور، فيتجه إليها.

من أسباب الانحراف عن المذهب المعتدل الوسطية: غلبة العاطفة على مقتضى الشرع، والعقل، والناس إنما يتحركون بمحابهم، وعواطفهم، ولكن العاطفة لابد لها أن تُعقل بالعقل، والشرع، فإذا عُقلت العاطفة بالعقل، والشرع، فإنه حينئذٍ يسير في منهج صحيح، فإلغاء العاطفة غلط، وزيادة الاهتمام بالعاطفة، أو تغليب العاطفة على النظر الصحيح غلط، فما الذي يُحكم ذلك؟ هو العقل، والشرع، فلذلك كان من أسباب الانحراف عن الوسطية غلبة العاطفة على العقل - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى -.

من أسباب ذلك: الابتداع في الدين بما لم يأذن به الله ﷻ، إما في أصل الدين، وهو توحيد الله ﷻ، أو في الأمور العملية، والعلمية، فيحدث الناس ما لم يكن عليه الدليل من كتاب الله ﷻ، ومن سنة رسوله ﷺ، وكل الانحرافات في تاريخ الإسلام من الفرق التي ظهرت هي بين طرفين، سبب ذلك حصول الابتداع في أول الأمر، ثم الناس يتتابعون على ذلك،

فيدافعون عن بعض هذه المسائل التي ابتدعت.

من أسباب الانحراف عن الوسطية: عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص الراسخين فيه المتحققين فيه، عدم الرجوع إلى علماء الشرع الراسخين في المسائل الشرعية، عدم الرجوع إلى العقلاء، وأهل التجربة، والفهم في هذه المسائل، عدم الرجوع إلى أهل الاختصاص في اختصاصهم.

الآن هناك الكثير من التجاذبات في مسائل متعددة، سواءً كانت علمية، أو تنظيرية، أو سياسية، أو عقلية، أو منهجية، والآراء مختلفة بين شاب إلى جهة اليمين، وآخر إلى جهة الشمال، أو اليسار، والحق بين ذلك؛ لذلك صار عند المندفعين ممن انحرفوا عن الأخذ بمنهج الاعتدال اتهام لمن يخالفهم، فيتهمون العلماء الراسخين فيما يتهمونهم فيه من أنواع المداهنة، وترك الحق، وعدم القول.. إلى آخره، مما هم بعيدون عنه تمام البعد، وكما قال صاحب المثل: وويل للشجي من الخلي، أو أنهم يتهمون العقلاء، والكبار بأنهم لا يتحمسون للمسائل، وأن هؤلاء كبار سن، أو تقدمت بهم السن، وأن الدور للشباب، هم أهل الاندفاع، هم أهل النظر، أو يتهمون أهل الاختصاص، فتجد أن بعض من عندهم اختصاص يشابه اختصاصًا آخر، تجد يحصل اتهامات بين هؤلاء وهؤلاء، كما يحصل بين بعض الأطباء النفسيين، وبعض الذين يرقون، فيحصل اتهامات لا هذا يقر لهذا، ولا ذاك يقر لذاك، ونحو ذلك.

كذلك في المسائل المالية، بعدم الرجوع لأهل الاختصاص،

واختصاصهم، فتجد أنه لا يسلم للمدارس الاقتصادية، والنظريات الجديدة؛ لأجل أنها بالجملة يقول: هذه مخالفة للشرع دون النظر فيها، أو أنه يتجه إلى إبطال ما عند الآخرين من الصواب، والنظر.

اهتمام الكتاب، والسنة بالوسطية:

إذا تبين هذا الوصف الإجمالي لأهمية الموضوع، وإلى دوافعه، وأسباب وجود الوسطية، والثبات عليها، وأسباب الانحراف عنها، ونحو ذلك، فإننا ننظر إلى أن الشريعة الإسلامية في كتاب الله ﷿، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي القواعد الشرعية، وفي مقاصد الشريعة، نجد أن الاهتمام بالوسطية كثير جدًا في آي القرآن، في أصل الدين، وفي تفصيلاته - أيضًا -، ومن ذلك قوله ﷿: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهنا في الآية وقفة عند قوله ﷿: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. فجعل هذه الأمة مختصة بالوسطية؛ لكي تشهد على الناس الذين انحرفوا عن هذا الوسط، بأن سلكوا الغلو في البشر، كما سلكته النصارى مثلًا، وألهوا البشر، أو سلكوا الجفاء في حق الأنبياء، كما سلكته اليهود، فقتلت الأنبياء، ونحو ذلك، وأشباه هذه كثيرة. قال الله ﷿ بعدها - في بيان القدوة التي يُرجع إليها في هذا الأمر -: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: على هذه الأمة التي خالفت غيرها من الأمم، فهي مطلوبة أن تقتدي برسول الله ﷺ، وأن تهتم بسنته؛ لأنها هي الميزان.

ومن ذلك قوله ﷿: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩] وهذا ظاهر في النفقة في أن الإنسان في

عطائه لا يكون مقترًا، ولا يكون مسرفًا.

وكذلك في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

والأحاديث في هذا الباب - أيضًا - كثيرة جدًا، قال النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١)، وهذا حديث صحيح.

وكذلك قوله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»(٢)، وفي بعض روايات البخاري «. . .**وَالقَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا**»(٣)، وفسرها أهل الحديث وشراح الحديث بأن (**وَالقَصْدَ القَصْدَ**): الاعتدال، فالاعتدال الاعتدال تبلغوا، قوله ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**»(٤) بمعنى أن هذا الدين فيه من السماحة واليسر، بحيث أنه من أراد التشدد فيه، فإن هذا الدين يحجه بالرجوع إلى المنهج المعتدل في ذلك.

كذلك ما جاء في الحديث الذي حسنه جماعة من أهل العلم، حديث

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي في المجتبى (٣٠٥٧)، وفي الكبرى (٤٠٤٩)، وابن خزيمة (٤/ ٢٧٦)، وابن حبان (٩/ ١٨٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٦)، والبيهقي في السنن الصغرى (٢/ ١٩٠) وفي الكبرى (٥/ ٢٠٧). من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠/ ٣٤٦)، والقضاعي (٢/ ١٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٩٤)، وفي السنن الكبرى (٢/ ٢٧)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٥١).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٣).

(٤) أخرجه البخاري (٣٩).

جابر ﷺ : «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى**»(١).

كذلك الحديث الذي علقه البخاري في صحيحه ووصله البخاري -أيضًا- في كتابه «الأدب المفرد»، والإمام أحمد، وجماعة: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»(٢).

ومن الأدلة على اعتبار الشرع لهذا المنهج المعتدل في جميع الأحوال أن النبي ﷺ صح عنه أنه قال: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا**»(٣).

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا**»(٤).

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وروى نحوه موصولًا في الأدب المفرد (١/ ١٠٨) من حديث ابن عباس ﷺ، ولفظه: «**سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أيُّ الأدْيانِ أحبُّ إلى اللَّهِ ﷻ؟ قال: الْحنِيفِيّةُ السّمْحةُ**»، وروى هذا اللفظ متصلًا مسندًا -أيضًا- الإمامُ أحمد في المسند (١/ ٢٣٦)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ١٩٩) والطبراني في الكبير (١١٥٧٢)، انظر: تغليق التعليق للحافظ ابن حجر (٢/ ٤١).

وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٥) من حديث أبي قلابة ﷺ، وفيه قصة عثمان ابن مظعون لما اتخذ بيتًا فقعد يتعبد فيه.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: (لم يرو هذا الحديث عن صفوان بن سليم إلا حر بن عبد الله تفرد به عبد الله بن إبراهيم). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٠) (وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث).

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

المتنطعون: هم المبالغون في الأمور، ولما أرسل ﷺ عليًا، وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمين بالدعوة إلى الله ﷻ، وبيان الدين لأهل اليمن، قال لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»[1]، في منهج نبوي متكامل؛ لأن التيسير على الناس مقصد من مقاصد الشريعة.

والخلفاء الراشدون أصَّلوا هذا المنهج للناس، واعتبروه اعتبارًا بالغًا، ومن أبلغ ما جاء في هذا الصدد قول الخليفة الراشد، ورابع المبشرين بالجنة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، قال في كلمة جميلة عند عليّ رضي الله عنه وعند الأمة، قال رضي الله عنه: «**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي**»[2]. خير الناس النمط الأوسط، هل خير الناس المتشدد؟ لا، هل خير الناس المتساهل؟ لا، خير الناس (**النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي**)، وهذا ذكره عبد الله بن المبارك رحمه الله من طريق محمد ابن طلحة عن علي رضي الله عنه.

قال الحسن: (**سُنَّتُكُمْ - وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بَيْنَهُمَا: بَيْنَ الْغَالِي وَالْجَافِي، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ: الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِتْرَافِ فِي إِتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي بِدَعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ فكذاكمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَكُونُوا**)[3]. دين الله بين المتساهلين الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨/ ١٤٨٠).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٢٢).

لا يهمهم شيء، لا حلال ولا حرام، المهم أن يعيش، وبين الغالي فيه، الذي يتشدد في دين الله ﷻ.

هذه بعض النصوص، التي تدلك على شدة اعتبار الشرع المطهر، واعتبار الصحابة، والسلف إلى تأصيل معنى الوسطية، والاهتمام بهذا المنهج، النبي ﷺ حذر من الغلو، وحذر من التنطع، وبين ﷺ أن «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»، هذا منهج، إذا أردنا أن نختار فنختار السمح، ما دام أنه في إطار الشريعة المطهرة؛ لأن الناس يحتاجون إلى ذلك في منهجهم، وفي حياتهم، وقول علي رضي الله عنه: (**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي**). ظاهر في حاجة الناس إلى ذلك، لماذا قالها؟ لأنه في زمنه بدأ الغلو، وبدأ الانحراف، سواءً في العقيدة، أو بدأ الانفتاح على أمور الدنيا، والنظر إلى أشياء متنوعة، فبين من يرجع إليه الناس، فقال: (**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ**). والأحق بهذا الوصف صحابة رسول الله ﷺ، وخاصة الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم.

مجالات الوسطية:

مجالات الوسطية متنوعة، سواءً أكان في أصل التشريع، أو فيما نجتهد في الشريعة فيه من المسائل، أو في منهج النظر إلى الأمور، فنذكر عددًا من مناحي الوسطية، ومجالات اعتبار الاعتدال، والوسطية:

أولًا: وسطية الإسلام، الإسلام دين وسط بين الديانات جميعًا؛ لأن الديانات المختلفة لابد أن تجدها: إما أن تغلو في البشر، فتأله البشر، وإما أن تلغي جانب النبوات، وتطرح لنفسها من المسائل، والاتجاهات ما تخط

به بنفسها الخط، فجاءت الشريعة، بل أمر الله ﷻ وأوحى باتباع الأنبياء؛ لأنهم يرسمون الطريق، ولم يجعل للأنبياء قدرًا يصل إلى صفات الإله، بل جعلهم مبلغين لدين الله ﷻ، حقهم المحبة والنصرة، وأن يعذروا، يعني: أن ينصروا، وأن يتبعوا، وأن يقتدوا؛ ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ففي مجال العقيدة تجد أن دين الإسلام وسط، وفي مجال الشريعة، شريعة الإسلام، في أحكامها تجد أنها وسط، في مسائل العبادات، في مسائل المعاملات تجد أنها وسط ما بين الشرائع المتشددة، وبين الشرائع المتساهلة، وبين الشرائع الناقصة التي تغطي جانبًا، والشرائع الأخرى التي تهتم بالأخلاق، هناك ديانات تهتم بالعمل، وهناك ديانات تهتم بالأخلاق، الشريعة الإسلامية تهتم بالعقيدة، وتهتم بالنظم، والتشريعات في إطار متكامل يشمل هذا وهذا.

في الأخلاق هذه الشريعة وسط، أيضًا في النظام الأخلاقي في الإسلام، فلا هي ألغت حق النفس فيما يريده الإنسان لنفسه من الكرامة والعزة، ولا هي - أيضًا - أذنت بالاعتداء على الناس والتعالي، بل قال النبي ﷺ: **«وَإِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»**(١)، وفي بعض الشرائع: **(مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ فَاعْرِضْ لَهُ الآخَرَ - أَيْضًا -، وَمَنْ أَخَذَ رِدَاءَكَ فَلاَ تَمْنَعْهُ ثَوْبَكَ - أَيْضًا -)**(٢)، وهذا غير مطلوب مراعاة حق النفس، ومراعاة ما يطلبه الإنسان لنفسه، وكذلك الاعتداء، واستحلال ما عند الآخرين، كفعل اليهود يستحلون قتل الآخرين إذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: إنجيل لوقا (٦).

اختلفوا معهم، يستحلون أموالهم، يستحلوا أعراضهم، فجاءت الشريعة بحفظ جوانب الأخلاق جميعًا في تعامل الإنسان مع من حوله، وكذلك في اعتدائه، حتى جاء في الاعتداء، أو في مقابله الآخرين: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦].

ولما جاء في التعامل مع الخصوم، وأعداء الدعوة، عدو كيف تعامله؟ هل الغاية تبرر الوسيلة؟ - قال الله ﷻ لعباده: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فإذا كان يعادي المشرك الكافر، غير المسلم يعادي المسلم، فإن المسلم مأمور بأن يعامله بالعدل، حتى ولو ظلمه الآخر، فإنه لايجوز له أن يزيد في ذلك، بل إنه يسير معه بالعدل، فالعدل مطلوب في كل الأنحاء، فمن سمات الشريعة المحافظة على العدل في تعاملاتها، في شريعتها، في علاقاتها بالآخرين.

العلاقة بغير المسلمين قال الله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، ليس معنى مخالفة الدين أن يكون أحد يخالفنا في ديننا أننا نستبيح نفسه، ونستبيح ماله، ونستبيح عرضه، لا ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ إذا لم يكونوا محاربين، بل مجرد أنهم خالفونا في الدين صاروا على غير دين الإسلام، قال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، حتى تبره، وتعطيه، وتحسن إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وتعدلوا معهم في كل الأحوال، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ علل ذلك بأن الله سبحانه وتعالى من صفاته أنه

يحب أهل العدل، والإقساط، حتى في التعامل مع المخالف، فكيف في التعامل مع الموافق.

كذلك في الأمور، والمعاملات المالية، وأنواعها، جاءت الشريعة في أن الإنسان يطلب الحق الذي له، ولا يعتدي على مال غيره، سواءً أكان مسلمًا، أو غير مسلم، ومن ذلك قوله ﷺ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ، بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**»(١) ورواه الشيخان من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وإذا كان كذلك، فإن دماء المسلمين، وأعراضهم، وأموالهم حرام، فلا يبيح الإسلام الأخذ بجنبتي الطريق؛ إما أن يتساهل في ماله، وفي نفسه، وفي عرضه، وإما أن يغلو في ذلك، فيتعدي على الناس في أنفسهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، من خان هل يعامل بالمثل؟

جاء في السنن أنه ﷺ قال: «**أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**»(٢)، وفي أدب حديث المجلس كما رواه أبو داود، وغيره قال: «**إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ**»(٣)، وهذا فيه رعاية لجانب

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧)، ومسلم (١٢١٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٣٤)، وأحمد (٢٤/ ١٥٠)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٧٠)، والدارقطني (٣/ ٣٥) عن أبي بن كعب، مرفوعًا.
وله شاهد من حديث أبي هريرة بإسنادٍ حسن عند أبي داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، والحاكم (٢/ ٤٦)، والدارقطني (٣/ ٣٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٨٣١) وإسناده حسن. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٢٢/ ٣٦٢)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٥٦)، والبيهقي في شعب =

الحفاظ على أنواع التعاملات.

وفي أبواب العقيدة أعظم الخلاف حصل، كما هو معلوم في المسائل التي فرقت بين الأمة في أبواب الاعتقاد، وأبواب التوحيد بأنواعه، فجاءت الشريعة بأن يكون المنهج الوسط هو الحكم، فليس هناك غلو، وليس هناك جفاء، ومن أمثلة ذلك: مسائل التكفير، والنظر إلى صحابة رسول الله ﷺ، والنظر إلى مسائل الإمامة، والولاية، وولاة الأمر، ففي هذه المسائل تجد أن الناس من زمان الإمام علي رضي الله عنه إلى زماننا الحاضر منهم من غلا في باب التكفير فكفر من لايستحق التكفير، أو كفر المسلمين بالأوصاف، أو بالجملة، ومنهم من ألغى باب حكم المرتد في كتب الفقه في جميع المذاهب؛ حتى لا يبقي أحدًا يمكن أن يكون مرتدًا، والمنهج الوسط أن الله عز وجل بين أن المسلم قد يكفر بعد إسلامه، قال الله عز وجل: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، ولكن من الذي يحكم بذلك؟ يحكم بذلك أهل العلم، يحكم بذلك أهل الرسوخ في العلم، والقضاة؛ لأن هذا يحتاج إلى بينات، وإثباتات، فليس مع الذين أطلقوا الباب بأن يجتمعوا، ويحكموا: هذا كافر، وهذا منافق، وهذا من وصفه كذا، وهذا من وصفه كذا، أو الذين يلغون الباب نهائيًا لايطبقون حكم الله عز وجل الذي قال فيه عز وجل: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، و﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ [آل عمران: ٩٠]، وأشباه ذلك من الآيات، وتحقيق ذلك في كتب الفقه «باب حكم المرتد» في

= الإيمان (١٣/ ٥٠١)، وفي الكبرى (١٠/ ٤١٧)، وأبو يعلى (٤/ ١٤٨)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٥).

جميع المذاهب، فهنا ينبغي أن يضبط ذلك، هل يترك للناس جميعًا، أو لكل من أنس من نفسه علمًا، وقراءة أن يتعاطى هذا الباب؟ ربما يكون بعض القراء، حتى من بعض من درس العلم الشرعي، أو أخذ فيه إذا سُئل عن مسائل تتعلق بالزكاة، أو بالبيوع، أو بالشركات، أو بالأوقاف، أو بالطهارة ونحو ذلك، نظر فيها وقال: ربما أحتاج إلى أن أراجع، وربما لم يحسن ذلك، فكيف يتجرأ على أعظم، أو من أعظم أبوب الفقه، وهو (باب حكم المرتد)، وهو سلب الإسلام، والإيمان عن مسلم دخل في الإسلام بكلمة التوحيد، أو هو مولود على الإسلام، فبأي حق يُسلب منه؟ قال العلماء: من دخل في الإسلام، أو المسلم الذي يحمل كلمة التوحيد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لا يحل أن يخرج من إسلامه إلا بشيء في الظهور والبيان مثل ظهور وبيان كلمة التوحيد؛ لأنه دخل في الإسلام بهذه الكلمة العظيمة، فكيف يُسلب منه بشبهات، أو آراء، أو احتمالات؟! والأصل الشرعي أن تدرأ الحدود بالشبهات، وأن يُحكم على الأمور بالمتيقن، وبذلك كان المنهج الوسط في ذلك من جهتين:

أن لا يُلغى هذا الباب، وأن لا يُتساهل فيه، وألا يترك لكل أحد، بل هو موجود على حسب ما أصله الفقهاء في كتبهم، وبحسب حكم الحاكم الشرعي القاضي إذا أُحيلت إليه مثل هذه القضايا؛ لذلك إذا نظرت في تاريخ الإسلام من أوله إلى آخره كَمّ الذين حكم عليهم بالردة، أو حكم عليهم بالكفر لأعيانهم أنهم نوادر في تاريخ الإسلام، وذلك لشدة هذا الأمر في تطبيق هذا الباب.

كذلك في مسائل الصحابة ﷺ من جهة مباحث الاعتقاد، منهم من غلا في الصحابة فجعل لبعضهم نصيبًا من التأليه، ومنهم من تبرأ من الصحابة إلا نفرًا قليلًا منهم، والمذهب الوسط هو ما شهد الله ﷻ به للصحابة ﷺ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وقال في سورة (براءة): ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية، وهذا مذهب وسط.

كذلك في مسائل الإمامة، والولاية، والتي يسميها أهل العصر مسائل الدول، والحكام، ونحو ذلك، المنهج الوسط، والمعتدل فيها أنه لاينظر أنه من شرط صحة الإمامة، أو من شرط صحة الولاية، أو من شرط صحة ولاية الحاكم، ولزوم السمع والطاعة له أن يكون كاملًا، أو أن لا يخطئ، أو أن لا يقع في اجتهادات مخطئة، فالحاكم النظر الوسط فيه بحسب معتقد أهل السنة والجماعة، الحاكم بشر يصيب ويخطئ، الصحابة ﷺ بشر أصابوا، وأخطئوا فيما اجتهدوا فيه، الولاة في كل زمان، وفي كل مكان بشر يصيبون، ويخطئون، إذا اجتهدوا فيما جُعل لهم من المسائل، مسائل السياسة الشرعية، ومسائل الدول، ونحو ذلك، فإنهم يصيبون، وقد يخطئون، فيعامل في ذلك بهذا الأمر، فلا يبالغ في هذا الأمر، وأن يُجعل من شرط صحة الولاية، أو من شرط صحة الإمامة أن لا يخطئ، أو أن لا يخالف الشرع، معاوية ﷺ بلغه عن أحد من الصحابة أنه يتكلم فيه، وأنه يقدح في بعض المسائل التي اجتهد فيها، فطلبه ولما أتاه قال له: (يا أخي، أليس لك ذنوبك؟ قال: بلى، قال: فما ترجو لذنوبك؟ قال: أرجو عفو الله وغفرانه، قال: أفلا رجوت لي ما رجوت لنفسك؟)، وذلك أن

الخوض في الميدان، سواء كان صغيرًا، أم كان كبيرًا، وهو ميدان الأمة، لابد فيه من اجتهادات، والوالي، والإمام، وولي الأمر إذا اجتهد، فإنه يمحض الاجتهاد، يمحض النصح لأمته باجتهاده، وقد يوفق، وقد يخطئ، وهو قد يكون في ذلك له ما ليس لغيره، وهنا من الناس من غلا في هذا الجانب، فجعلوا كل تصرف للوالي، أو للإمام، أو لأولي الأمر، أو للحاكم منوطًا بالشك، وأنهم لا يهمهم أمر الإسلام، وإنما يُشك في كل تصرفاتهم، وأقوالهم، ومنهم من جافى في هذا الجانب، وبرر كل فعل فعله الحاكم، أو الوالي، سواءً كان صوابًا، أو كان خطأً، فالأصل عندهم التبرير، والوسط عندهم هو المطلوب في أن الحاكم له من الآراء أو الأقوال ما يكون مصيبًا فيها، وله - أيضًا - ما يكون مجتهدًا فيه، يرعى فيه المصلحة، وقد يكون اجتهاده يوافق الهدف، وقد يكون اجتهاده ليس بصحيح، لكن هو مأجور على اجتهاده على ذلك إذا صح منه القصد والنية.

من مجالات الوسطية، وأنحائها: الوسطية في الفقه، والأحكام الشرعية ذلك أن مسائل الفقه، والنظر فيها قد يُبالغ فيها الإنسان، ويميل فيها إلى التشدد طلبًا لبراءة الذمة، فإذا أتى إليه شيء يأخذ بالأشد من الأقوال؛ حتى تبرأ ذمة المفتي، أو ذمة المجيب على السائل، يقول بعض الناس: أنا لا أريد أن أدخل في ذمتي شيئًا، أنا ما أريد أن أتحمل ذمة الناس. فيفتي بالأشد من الأقوال، وهو في نفسه يشك أن يكون هذا القول هو الأصح، ومنهم من يرى أن التسهيل في كل شيء لأجل العصر، وهذا ليس بصحيح لا في جهة التشديد، ولا في جهة الصواب، والصحيح في هذا المنهج هو أن نأخذ بقول النبي ﷺ أو بفعله، وأنه ﷺ: «**مَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا**

أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ إلا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَالَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»[١]، فإذا كانت المسألة منصوصًا عليها ، هذا ظاهر، إذا كانت اجتهادية، وليس فيها إثم، فالأصل التسهيل على الناس، والتيسير، سواءً كان ذلك في أمور عبادتهم، أم في أمور معاملاتهم المالية، أم في أمور الأقضية، والأحكام، أم في أمور العلاقات، والتعاملات.

في الأحكام، والفقه من الناس من بالغ في التشدد في المذاهب، بحيث ظن أن التشدد في التمسك بالمذاهب أنه هو النجاة، وأنه المخرج للأمة، ومنهم من بالغ، فألغى اعتبار المذاهب كلية، وقال: لابد أن نأخذ من الكتاب، والسنة دون النظر إلى المذاهب، والوسط، والاعتدال هو المطلوب، المذاهب مدرسة علمية كبيرة مكثت قرونًا، من الزمان أصل فيها العلماء في كل قرن، جماعات من العلماء في كل مذهب أصَّلوا أقوالًا، وأصّلوا تعريفات، وأصّلوا تفريعات في ذلك، فيؤخذ بأفهامهم في ذلك، ولكن لابد من النظر بأن الفقهاء، والعلماء في كل مذهب تنوعت اجتهاداتهم مع تقدم الزمان، فتجد أنه مثلًا: في المذهب الحنفي هناك اجتهادات مختلفة، في المذهب الشافعي فيه اجتهادات للشافعي مختلفة ما بين الفترة المكية، والمدنية، والعراق، ومصر، وكذلك في الفقهاء الشافعية ما بين المصريين، والبغداديين، والخراسانيين، ونحو ذلك، فقهاء الحنابلة - رحمهم الله تعالى - كذلك عندهم مذهب المتقدمين، ومذهب المتوسطين ومذهب المتأخرين، فقهاء المالكية - رحمهم الله تعالى - عندهم نحو هذه، تنوع الاجتهادات.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٩٧).

فإذًا: في المدرسة الواحدة تنوعت الاجتهادات، واختلفت، سواءً في أصول النظر إلى المذهب، أم كان في التطبيقات، والتفريعات، فإذا كان استجد بنا الزمان، وتغيرت الأحوال، وظهر من الأمور ما هو بحاجة إلى اجتهاد متنوع صحيح فإننا بحاجة - أيضًا - إلى عدم المبالغة بالنظر إلى المذاهب باعتبارها، وإلغاء الاجتهاد، والنظر في المقاصد، والنظر في مقاصد الشريعة، والقواعد الشرعية، أو إلى عدم التفقه بالمذاهب، والأخذ بكتب الأحاديث، وكتب أحكام القرآن دون النظر على اعتبار المذاهب، فالوسط أن تؤخذ بهذه المدارس، وكما قال كل إمام من الأئمة الأربعة[(١)]

---

(١) قال أبو حنيفة ﵀: (إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين، فنحن رجال، وهم رجال).

وقال: (إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي ﵀ يقول: (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت).

وقال: (إِذا صحّ الحدِيْثُ فهُو مذْهبِي، وإِذا صحّ الحدِيْثُ فاضْرِبُوا بِقولِي الحائِط).

وقال مالك: (كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ).

انظر أقوال الأئمة في: إرشاد النقاد للأمير الصنعاني (ص١٤٢)، وعقد الجيد للدهلوي (ص٢٢)، والإحكام لابن حزم (٤/ ٥٧٣)، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء للقرطبي (ص١٤٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٩/ ٣١٠)، وإعلام الموقعين (٢/ ٢٠١) ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٣٣٩)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

- رحمهم الله تعالى - إنه: «**إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي**»[1]، إذا كانت القواعد الشرعية قد اختلفت، وتجدد الزمان، فإننا نرعى المصلحة.

الشريعة جاءت لماذا؟ جاءت لشيء، وهو تحقيق مصالح الناس، القاعدة الشرعية العظيمة هي: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] قاعدة الشريعة: تحقيق المصالح، ودرء المفاسد، فكلما كان الاجتهاد فيه تحقيق للمصلحة، ودرء للمفسدة، فهو معتبر؛ فإذًا: الاعتدال في النظر إلى مسائل الفقه، والأحكام يتطلب النظر الجاد في الأدلة، يتطلب النظر الجاد في مقاصد الشريعة، وهي مهمة، أن نعرف المقصد، مقصد الشريعة، حتى نفهم النص، ونفهم الدليل بناءً على فهم المقصد، إذا نظرت إلى الدليل مثلًا، أو إلى كلام الفقهاء نظرًا مجردًا من مقاصد الشرع، أو مقاصد المذهب في المسائل، فإنك تلغي الوصول إلى الهدف الذي أرادته الشريعة، وتصبح تتعامل مع أحكام دون النظر إلى الغايات، والأهداف، مقاصد الشريعة معتبرة في العبادات، مقاصد الشريعة مدونة في المعاملات، مدونة في الأحكام الأسرية، مدونة في الجنايات، مقاصد الشريعة في أنحاء كثيرة مدونة، فاعتبارها واعتبار القواعد الشرعية يحصل به الاعتدال في هذا الأمر.

آسف للاستعجال؛ لأن الوقت قصير أريد أن أمر لأفتح أبوابًا، وللمستوى الجامعي المقصود فتح الأبواب؛ لكي يصل الناس منها إلى

---

(١) يروى عن الإمام الشافعي رحمه الله. انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٠١)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤٨)، ومجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١١)، وحلية الأولياء (٩/ ١٠٧)، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (ص٥٧).

المجالات التي تحدث فيها دون الدخول إلى تفاصيل الأقوال، أو إلى تفاصيل هذه المسائل، من مجالات الوسطية والاعتدال: الاعتدال في الحكم على الأشياء، أن يكون المرء متوسطًا في الحكم على الأشياء، الشرع جاءنا بمنهج عظيم في كيف تتعامل مع الأشياء لتفهمها، ولتحكم عليها، فقاعدة الشريعة المعروفة: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، فالاعتدال يعطيك في أول درجاته أن لا تحكم على شيء بدون أن تتصوره، يأتي واحد لأول وهلة يقول: هذا الشيء كذا يحكم عليه حكمًا، وهو لم يتصور الشيء، سواءً كان التصور لوضع سياسي، أو كان التصور لمسألة علمية، أو كان التصور لوضع اجتماعي، أو كان التصور لشخص، أحيانًا يَبني في الحكم على الأوضاع وعلى الأشياء من الحكم ما يسمى لأول وهلة، أو بتقرير، يقول: بالقواعد المقررة السالفة، بمعنى أنه أسس بذهنه تصورات، فيحكم بها الأشخاص، ما قابل شخصًا، ولا حدثه جمع من الثقات عن حال هذا الشخص، ولكن سمع طرف خبر، تجد أنه ذم هذا الشخص بمجمله، أو مدحه بمجمله، أو أُعجب بشخصيته فامتدحه مطلقًا، أو ذمه مطلقًا، أو من جهة الأوضاع السياسة، فتجد أن الناس - هو الآن - أصبحوا سياسيين، وقادة في السياسة؛ لأنهم يقرءون الصحف، أو مقالات، وتقارير في الجرائد، والمجلات، أو بالنظر إلى قناة كذا وقناة كذا الفضائية، أو بالسمع إلى حوارات، أو بالحديث بينهم، وهذا الأمر يُخرج الناس عن الاعتدال، لابد أولًا أن نعرف أن الفهم، فهم الأشياء، ليس سهلًا، فهم الأشياء، والأوضاع، وفهم الأشخاص، وفهم المجتمعات، هذا ينبني على مقدمات كثيرة، وعلى تحليلات متنوعة، فالمنهج العلمي يقتضي أنه لا يستعجل المرء في فكره بالحكم على الأشياء، وعلى إصدار

الأحكام، وعلى إصدار القرارات دون أن يستوعب مفردات الموضوع التي ينبني عليها تصور الشيء؛ حتى يحكم عليه؛ لأن قاعدة الشريعة: (الحكم على الشيء فرع عن تصوره)، والله ﷻ بين لنا هذا المنهج المعتدل في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ العلم يتنوع، إذا أردنا أن ندرس قضية من القضايا أحيانًا تحتاج إلى علم شرعي، إلى علم اجتماعي، إلى علم سياسي، إلى علم اقتصادي، إذا جاء امرؤ وتجاسر وحكم على الشيء، فهذا خرج عن الاعتدال، وجعل لنفسه ما لم يجعله العقلاء له، بل هو ينبغي أن لا يرضَى عن نفسه.

من المسائل التي تخرج عن الاعتدال في الحكم على الأشياء:

التعميم، فالتعميم ليس من الشرع، وغير مقبول لدى العقلاء، ولا وجه له في منهج النظر، النبي ﷺ إذا بلغه شيء عن بعض الناس ما يقول: حصل في المجتمع كذا وكذا، يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، لم يجعل هذا الأمر ظاهرة؛ لأنه إذا جعلته ظاهرة عم في الناس، وانتشر وضعف الناس عن مواجهته، ولكن إذا جعلته بمحدودية كان هذا هو النظر المعتدل، وعالجت هذا الأمر بهذا الصدد، كذلك في الأمور العقلية: التعميم، يأتي الآن شخص، في الواقع هو لا يحترم نفسه، ولا يحترم عقول الآخرين، إذا جاء يقول: والله الناس صار منهم كذا وكذا، أو يقول: أغلب العلماء كذا وكذا، أو أغلب الناس على كذا، (وأغلب) هذه كلمة تحتاج إلى دراسة، كيف عرفت أنها أغلب؟ وكيف وصلت إلى أنها أغلبية؟ هل درست؟ هل عملت استقراء؟ المنهج

العلمي ما طُبِّق؛ ولذلك هو يغالط نفسه ليقنع نفسه بأن المنهج الذي خطه، أو النتيجة التي توصل إليها صحيحة، يقول: أغلب حتى يكون حكمه صحيحًا، والحكم بالأغلب نتيجته صحيحة؛ لأن رعاية الأغلب معروف أنها صحيحه، سواءً أنها في الشرع، أو في المناهج العلمية، فهو يُقنع نفسه بمقدمة باطلة يقول: الأغلب هو كذا، ولكن أنت إذا نظرت إلى كيف عرف أنها الأغلب، لم يحدث له برهان ولا دليل.

إذًا: فمن مناهج الاعتدال أن تُجتنب، وأنا ما أحب أفعل التفضيل، أفعل التفضيل ليست سليمة في الحكم على الأوضاع، أو الحكم على الأشخاص، أو الحكم على الأفكار، أو الحكم على النوايا، هذا أحسن من هذا، بسرعة، هذا أفضل من هذا، بسرعة، هذا أعلم من هذا، هذا أتقى من هذا، هذا صالح وذاك فاسد، وخذ من الأمثلة، كيف وصلت أن هذا أصلح وهذا أفسد؟ هذه تنبني على أشياء متعددة لا يُوصل إليها إلا باجتماعها، ولهذا لما اختلف أهل السنة - رحمهم الله تعالى - في تفضيل عائشة، وخديجة، فأيهما أفضل عائشة رضي الله عنها، أم خديجة رضي الله عنها؟

اختلف أهل السنة في هذه المسألة، وجاء ناس فضلوا عائشة رضي الله عنها، وناس فضلوا خديجة رضي الله عنها، كان القول المحقق الذي ينبني على الاعتدال، وهو صواب في نفسه، قال: إن في جهات التفضيل، كما ذهب إليه جمع من محققي علماء أهل السنة والجماعة، قالوا: جهات التفضيل مختلفة، وخديجة رضي الله عنها، وأعلى مقامها في الجنة - لها من الصفات ما لم تشاركها فيه عائشة رضي الله عنها، وعائشة رضي الله عنها - في نشر العلم، وحفظ سنة النبي ﷺ، والأحاديث التي روتها - لها صفات لم تشاركها فيها خديجة، فهذه لها

صفات، وهذه لها صفات، وهما زوجتان من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهما وأرضاهما -[١]، فالدخول في أفعل التفضيل، هذا أفضل، وهذا أحسن، وهذا أسوء، يحتاج إلى برهان، وإلى دليل، وإلى تفكير سليم، فدخول العقلاء فيه غير جيد إلا ببرهان؛ ولذلك يبتعد المعتدل قدر الإمكان عن مثل هذه الألفاظ، التي تحتاج إلى أدلة إلى ألفاظ أكثر اعتدالًا، وبرهانية.

كذلك الاعتدال في الحكم على الأشخاص، تجد أنه يحكم على الشخص حكمًا نهائيًا، ومراعاة ما يتميز به الناس في شخصياتهم، وفي علمهم، وما يؤدونه من دور، وما يؤدونه من واجب هو سمة المسلم المعتدل فيما يقوله، وما يذره، الحكم على الأشخاص ينبغي أن يكون كليًّا، سواءً كانوا هؤلاء الأشخاص كبارًا في المقام، أم كانوا أقل من ذلك، تنظر إلى مجمل ما عنده في ذلك، حتى تصل فيه إلى تقريب لذهنك، كيف تنظر إلى هذا الشخص، ومما يؤثر على الاعتدال، والوسطية في هذا الجانب أشياء، ولكن مما يؤثر أمران:

الأمر الأول: الحكم على النوايا والمقاصد، هو يحكم سلفًا على نية المقابل، ومن المنهج الذي جاء في السنة، وقرره عدد من السلف، أنه لا يجوز الحكم على النوايا والمقاصد، ويدل على ذلك ما جاء في السنة عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال: «**بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي**

---

(١) انظر تفاصيل هذه المسألة لشيخنا العلامة صالح آل الشيخ - حفظه الله - في شرحه لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في اللآلى البهية في شرح الواسطية (٢/ ٤٦٤).

نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟ فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ»(١). تعرف أنه قالها تعوذًا، أو لا؟ يمكن أنه دخله الإسلام، دخل راغبًا في ذلك، أو حقيقة، بأي حق تقتله؟ أو بأي حق تعتدي عليه؟

فإذًا: مما يعكر عن الاعتدال الحكم على النوايا وعن المقاصد:

لا، هو قصده كذا، أو لا ينوون كذا، يريدون كذا، ما البرهان؟ وما الدليل؟ تقصر البراهين، والأدلة عن ذلك.

الأمر الثاني: أن يكون عنده معلومات سلفًا، وهذه المعلومات لا تكون صحيحة، ولكن هو جعلها صحيحة؛ لأجل أنها وصلت إليه، واليوم في هذا الزمان كما ترون أن المعلومات أصبحت أكثر أن تحصى، معلومات متنوعة وتقارير خاصة في الإنترنت، أو ما يُنشر في المجلات، أو ما يُبث في القنوات الفضائية، أو ما يتناقله الناس، كل شيء يُنقل، مع أن الهدي النبوي يقول: **«مَنْ حَدَّثَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَذَّابِينَ»**(٢)، وفي لفظ آخر: **«مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ»**(٣)

---

(١) أخرجه مسلم (٩٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٠/ ١٢٠)، والطيالسي (٦٩٠)، وابن أبي الدنيا في الصمت، وحفظ اللسان (٥٣٣)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٠٢٠)، وابن عدي في الكامل (١/ ٢٩، ٢/ ٨١٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٣٧٨)، والخطيب البغدادي في الجامع (٢/ ١٣٤ (١٣٢٢))، وابن عبد البر في مقدمة التمهيد (١/ ٤١)، والبغوي في شرح السنة (١٢٣).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٨).

إذا حدثت غيرك بحديث أنت شاك فيه، أنت داخل في الكذب؛ لأنه ينتشر الكذب، وتنشر الشائعات بدون نظر، ويضعف المجتمع، أو تتكون آراء، أو تتكون أشياء، أو مواقف، أو اتجاهات، كلها بنقل أشياء غير صحيحة.

إذًا: اعتماد ما يحصل إليك لابد أن تميز ما وصل إليك هل هو صحيح، أو غير صحيح، حتى تهيئ لنفسك موقفًا، أو حكمًا، أو قولًا، لابد من التثبت، وكثيرًا مما يُذاع اليوم لا يمكن التثبت منه، بل هي أقوال يستسيغ الناس أن ينقلوها دون بصيرة ولا نظر.

من مناحي الوسطية: الوسطية في منهج التفكير، من أعظم ما تخطه لنفسك في مثل هذه الأزمنة المختلفة بأنواعها أن تؤصل عند نفسك منهج التفكير في الأمور، والقضايا، كيف تفكر؛ لأن الناس كثير منهم، كثير بمعنى: ليس الأكثر، كثير منهم يفكرون، وقد يكون الأكثر تحتاج إلى دراسة استقراء، لا يضعون لأنفسهم منهجًا للتفكير، يُفكر بما يفكر الناس؛ ولذلك من المهم أن تضع لنفسك منهجًا في التفكير؛ حتى تقي نفسك العثار؛ حتى - أيضًا - يستفيد منك الناس، خاصة أهل القدوة، والرأي.

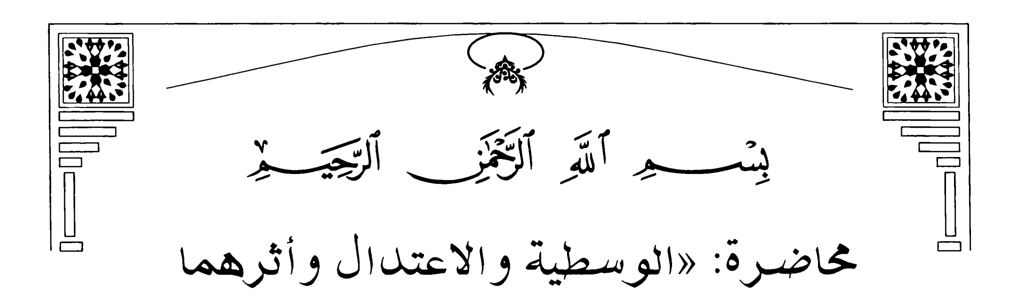
سمات هذا المنهج، منهج التفكير:

أولًا: أن يكون بعيدًا عن الطرفين، وهو الأول طرف المبالغة، والثاني طرف اللامبالاة، الناس منهم من لا يبالي بالكلمة، يقول: أي شيء، ومنهم من يبالي، والاعتدال في ذلك أن تكون ملتزمًا بصدق الكلمة التي تخرج منك، وتعود نفسك على ذلك، أن لا تقول كلمة إلا ولك قناعة فيها من جهة الحجة.

من سمات هذا المنهج المعتدل في التفكير: أن تكون بين العقل الجامح، وبين العاطفة الثائرة، والعقل والعاطفة يتعالجان في كل إنسان، هذا يغلب وهذا يغلب، يأتيه عقل ويضعف العاطفة تمامًا، أو تزيد العاطفة، ويُلغي العقل؛ ولذلك يقول علماء النفس، وجمع من الفلاسفة: أن الإنسان له عقلان؛ عقل جماعي، وعقل انفرادي. العقل الجماعي: هو الذي يُفكر به في محضر غيره، تجد مجموعة من الناس يدخلون، ويفكرون مع بعض، يتجهون إلى عقل واحد، قد لا يكون هو العقل الصحيح، ولكن يتجهون؛ لأن الجميع اتجه على هذا النوع من التفكير، فصار عقلًا جماعيًا خاطئًا، وكثير من تغيرات المجتمعات، وخاصة في البلاد التي قامت فيها ثورات، وأُغري الناس فيها بألفاظ براقة، مثل مثلًا: الشيوعية، صار العقل عقلًا جماعيًا، ولكن الناس ما فكروا في تفاصيل هذه المبادئ؛ لأنها في نفسها فشلت، وانتهت، وكذلك غيرها من المبادئ؛ لأنهم فكروا جماعيًا، وانتصر العقل الخطابي على العقل الإدراكي، العقل الخطابي مؤثر؛ لأنه يحرك العاطفة، ويبعد العقل الإدراكي؛ لذلك قال بعض الفلاسفة: أكثر الناس عاطفيون، والقليل منهم البرهاني. وقليل منهم الذي يفكر بأدلة، وبراهين، ومقدمات، ونتائج، وأكثرهم عاطفيون، فتضع لنفسك منهج تفكير في أن تكون بين العقل والعاطفة، أو أن تضبط العقل بالعاطفة، والعاطفة بالعقل، وأن لا يزيد هذا على ذاك.

وأصلي، وأسلم على خير خلقه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم.





محاضرة: «الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين»

وقد قام فضيلته بإلقائها في جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض في يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة أربع وعشرين وأربعمائة وألف من هجرة النبي ﷺ

المقدم: السلام عليكم، ورحمة الله، بسم الله الرحمن الرحيم، صاحب المعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، وزير الشؤون الإسلامية، والأوقاف، والدعوة، والإرشاد، أصحاب الفضيلة، أيها الإخوة الكرام أبنائي الطلاب، السلام عليكم، ورحمة الله، وبركاته.

أحمد الله حمدًا طيبًا مباركًا كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأصلي وأسلم على خير خلقه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم، وبعد:

صاحب المعالي أرحب بمعاليكم، وصحبكم الكرام، وأنتم أحد أبناء هذه الجامعة، عرفتم في مرافقها متعلمًا، وعالمًا، وحين جئتم في هذا اليوم

المبارك - إن شاء الله -، إنما جئتم لتجديد الصلة، وإن كانت جديدة، ولزيادة الرابطة، ولو كانت قوية، قد عرفكم أبناؤكم الطلاب، وإخوانكم منسوبو الجامعة من أكاديميين وغيرهم، عالمًا شابًا تقيًّا، وبذرة صالحة - إن شاء الله تعالى - من دوحة باسقة، عُرِفَ أبناؤها بالعلم، والتقى، والبصيرة، وثاقب الرأي، وأبناؤكم اليوم وكل يوم يحرصون على الاستفادة من مزيد علمكم، ويستنيرون بنير آرائكم، فأهلًا بكم، وشكر الله لكم موافقتكم على الحضور، والمشاركة في توجيه أبنائكم، وتبصيرهم.

صاحب المعالي، أيها الإخوة الكرام، إن جامعة الإمام وهي ترحب بكم، فتذكر بالفخر، والاعتزاز مواقف رجال من هذه الشجرة المباركة في دعم الجامعة، وتوجيه مسيرتها، والرقي بالعلم الشرعي، ومن بين هؤلاء الرجال الذين لم تنسهم الجامعة سماحة الوالد الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، الذي كان له فضل كبير في إنشائها، ودعمها، وتنفيذ توجيهات المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله للرقي بالتعليم الشرعي، وما يعضده من علوم الآلة وعلوم الحاجة.

كما أن لجهود والدكم الشيخ عبد العزيز بن محمد آل الشيخ - حفظه الله، وأحسن له الخاتمة - أثرًا ملموسًا، ومشكورًا، حين شارك في النقلة الكبرى التي خطتها الجامعة في عهد تأسيسها الثاني، وانتقالها من مرحلة الكليات إلى مرحلة الجامعة؛ لتضاهي كبريات الجامعات النظرية في العالم.

فأسال الله العلي القدير أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وصحائف أعمالهم، وها نحن اليوم يا صاحب المعالي، نعيش النقلة الثالثة في عهد

خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز، وسمو ولي عهده الأمين، وسمو النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء - حفظهم الله جميعًا، ومتعهم بالصحة، والعافية - نعيش عهدًا من عهود التطور، والرقي، فأسأل الله أن يبارك الجهود، وأن يسدد الخطى، وأن يصلح النيات. صاحب المعالي أبناؤكم في شوق إلى الاستماع إليكم، لا أريد أن أستأثر بالحديث، أو أن أقتطع بعض الوقت عليهم، فهم في أمس الحاجة إلى وقتكم الثمين؛ للانتفاع بعلمكم، والاستماع إلى توجيهكم، فأستبيحكم عذرًا في أن أختم كلمتي، وأرحب بمعاليكم، وصحبكم الكرام مجددًا، وأنتم بين أبنائكم، وإخوانكم، والجميع متشوقون إلى الاستماع إليكم، وكلهم آذان صاغية، وقلوب مفتوحة واعية، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أحمد ربي خير حمد، وأوفاه، وأشكره شكرًا متواترًا على آلائه العظيمة، ومنحه المتتابعة، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليما كثيرًا، أما بعد؛

فإني في فاتحة هذا اللقاء لأشكر لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - ممثلة في معالي مديرها الأخ الدكتور/ حمد السالم، وجميع الوكلاء، وأعضاء هيئة التدريس، وجميع منسوبيها من الطلاب، والموظفين - حُسْن رعايتهم للمطلب الشرعي، وحفاظهم على الديانة، وقيامهم بواجب الأمانة تجاه ملة الإسلام، وشريعة محمد بن عبد الله ﷺ، ولا شك أن

الواجب اليوم عظيم جدًا، ولا شك -أيضًا - أن حماية الإسلام، ورعايته تتطلب منا دائمًا النصح، والمراجعة، ونقد النفس بين حين وآخر؛ حتى يكون العمل صالحًا خالصًا صوابًا.

وأشكر لمعاليه هذه المقدمة التي ذكر فيها ما لا أستحقه، وكان وفيًّا مع السابقين، رحم الله من مضى، ووفق الحي، وجعلنا وإياكم من المتعاونين على البر، والتقوى، والحفاظ على سير السفينة.

وهذه المحاضرة جاءت في هذا الوقت، الذي يتطلب منا الشعور بالمسؤولية، ويتطلب منا الوقوف بحزم مع متطلبات منهج السلف الصالح، ويتطلب منا أن نكون حاملين للأمانة حاملين للمنهج الصحيح، وعقيدة أئمة السنة والجماعة بحق، وأن نكون خير مؤتمن على ذلك؛ لهذا اخترت في خضم هذه الأحداث التي فجع بها كل مخلص لله، ولرسوله، وكل ناصح لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم من وجود الإجرام، والانحراف في بلد السنة، والإسلام التي هي محط الأنظار، وهي منبع نشر عقيدة السلف الصالح، اخترت موضوعًا بعنوان: (**الوسطية والاعتدال وأثرهما على حياة المسلمين**).

هذا الموضوع موضوع شرعي؛ لأن الله ﷻ وصف هذه الأمة بأنها الأمة الوسط قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ولأن لفظ الوسط، وكون هذه الأمة وسطًا، جاء في كل كتب العقائد، فما من كتاب من كتب أهل السنة والجماعة أهل الحديث، والأثر إلا وينصون

فيه على أن هذه الأمة وسط، وعلى أن أتباع المنهج الصحيح وسط - أيضًا - بين الغالي، والجافي.

أعرض لهذا الموضوع بمقدمة تبين أهمية الموضوع، وتبين معنى الوسطية، وسمات الوسطية، ثم ندخل في الموضوع ببيان بعض عناصر، ثم أبين بعض عناصر متعلقة بالتطبيقات للوسطية في الحياة، وفي السلوك، وفي الفكر، وفي غير ذلك.

الوسطية المطلوبة - قبل أن ندخل في أهمية طرح هذا الموضوع - لها سمات، وهذه السمات موجودة في النصوص، وموجودة في سلوك الصحابة، وفي سلوك أئمة الإسلام، أما سماتها:

سمات الوسطية:

فالوسطية، والاعتدال هي سمة الشريعة بنص القرآن، فهذه الشريعة متسمة بأنها شريعة السماحة، ورفع الحرج، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. وقال -أيضًا-: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

من سماتها أنها شريعة العدل في الأحكام، والتصرفات؛ ولذلك كانت وسطًا، فالعدل في الأحكام، والتصرفات يوجب الوسطية؛ لأن غير ذي الوسط لا بد أن يكون في سلوكه، إما إلى تفريط، وإما إلى إفراط.

من سمات المنهج الوسطي الذي هو منهج الشريعة: أن هذا المنهج موافق للشرع، ثم إن هذا المنهج موافق للعقل السليم، فالشرع الصحيح بنصوصه، وقواعده، واجتهادات العلماء فيه يدعو إلى الوسطية

والاعتدال، وينهى عن الغلو، والمبالغة، وكذلك مقتضيات العقل السليم، فإن حياة الناس لا تستقيم إلا بهذه الوسطية، فإن الانحراف عن الجادة بغلو أو جفاء لا يكون معه العيش مستمرًا على وفق مصالح الناس، فمصالح الناس تقتضي عقلًا أن يكون هناك منهج متوسط يجتمعون عليه ويدافعون عنه؛ لأن كلا طرفي الأمور ذميم، كما قال الشاعر[١].

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ ... كِلاَ طَرَفَيْ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمُ

من سماتها -أيضًا-: أن الوسطية، والاعتدال يبرآن من الهوى، ويعتمدان على العلم الراسخ، والعلم إما أن يكون نصًّا من كتاب، أو سنة، أو أن يكون قولًا لصحابي فيما لم يرد فيه النص، أو يكون من اجتهادات أهل العلم الراسخين في ذلك، فاعتماد الوسطية على العلم الراسخ الصحيح مظهر من مظاهرها، وسمة من سماتها.

من سمات الوسطية: أن الوسطية تراعي القدرات، والإمكانات، فليس صاحب الوسطية معجزًا للناس في طلباته، أو ذاهبًا إلى خيالات في آرائه، وتنظيراته.

كثير من الناس صاحب تنظيرات، وصاحب خيالات، وهؤلاء يبتعدون عن الوسطية المرادة؛ لأن الوسطية، والاعتدال تؤثر في حياة الناس واقعًا ملموسًا، وهذا يعني أن تراعى في ذلك القدرات والإمكانات، سواء كانت قدرات الأفراد، أو قدرات المجتمع، أو قدرات الدولة الخاصة بالبلد، أم القدرات المتعلقة بالأوضاع العالمية.

---

(١) انظر: يتيمة الدهر (٤/ ٣٣٦).

كذلك من سمات الوسطية، والاعتدال: أن فيها مراعاة للزمن والناس، فالزمن يتغير، والناس - أيضًا- يحتاجون إلى تجدد باعتبار الزمن، وباعتبار التغير، فمحافظتهم على المنهج الوسط هذا يقتضي أن يكون هناك مراعاة لاختلاف الأزمنة، ولاختلاف الأمكنة، ولاختلاف الناس.

ولهذا نص أهل العلم على أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان، والمكان، والوقائع، والأحوال والناس، لماذا نذهب إلى الوسطية؟ هل هو لعلاج مشكلة قامت، أم هو لأجل إيجاد حلول لمشكلات، أم لغير ذلك؟

نختار الوسطية، والاعتدال؛ لأن الله ﷻ أمر بها، وأمر بها رسوله ﷺ، فهي مأمور بها، ويجب على الناس أن يمتثلوا المأمور، وأن يجتنبوا ما لم يؤمر به في المناهج، والأفكار؛ ثم لأن الوسطية حق، ولأن غيرها باطل، ولأن الوسطية - وهذا هو العامل الثالث - بريئة من الأهواء، فغالبًا يكون طرفا الجهتين؛ إما الغلو، وإما الجفاء، إما التفريط، وإما الإفراط، يكون ثَم هوى يحركه، أما الوسط، والاعتدال المبني على العدل والحق، فإنه يبرأ من الهوى، والهوى مأمور أن نبرأ منه، وأن نسعى في تجنب أثره على النفس في الفكر، والحكم، والتحاكم، قال الله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

والرابع: كون الوسطية موصلة إلى تحقيق مقاصد الشريعة في الدين والدنيا، معلوم أننا نحتاج لتحقيق الشريعة، أن نرعى مقاصد الشريعة، وأن نحقق مقاصد الشريعة في الناس، فالشريعة جاءت لتحكم في الناس، ولتكون حياة الناس على ضوئها، ولم تأت الشريعة لتكون نظريات يباهى

بها، أو تكون خيالات الناس يفتخرون بها دون أن تكون تطبيقًا لواقع، تطبيقًا في الواقع بأحكامها، ومثلها، وعقائدها؛ لذلك فالوسطية والاعتدال - على نحو ما ذكرنا - موصلة إلى تحقيق مقاصد الشريعة في الدين، وفي الدنيا - أيضًا -.

الخامس، والأخير: نختار الوسطية؛ لأن الوسطية أبعد عن الفتن ما ظهر منها، وما بطن، فالفتن في تاريخ الإسلام منذ أن نبع، وظهر المعترض على رسول الله ﷺ بقوله: «**وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»[1].

هذه الوسطية منذ ذلك الحين، مرورًا بخروج الخوارج، والفرق الضالة، إلى أن وصلنا إلى هذا الوقت بما فيه، إلى أن حصلت التفجيرات الأخيرة، وما فيها من أفكار، وما فيها من غلو، وتكفير، وجفاء، هذا كله نختار الوسطية؛ لأنها مبعدة عن الفتن ما ظهر منها، وما بطن.

أسباب الثبات على منهج الوسطية، والاعتدال:

الوسطية في الثبات عليها لها أسباب، فمن أسباب الثبات على الوسطية:

أولًا: معرفة المنهج الصحيح بالكتاب والسنة، وكلام أهل العلم الراسخين فيه، المنهج الصحيح يحتاج إلى معرفة بنصوصه، وأدلته، وكلام أهل العلم فيه، ولم يؤت الناس في بعدهم عن الثبات عن المنهج الحق، والاعتدال، والوسطية إلا لقصورهم في العلم، وغلبة الجهل، أو غلبة بعض الجهل عليهم؛ لذلك كلما كنا حريصين على نشر العلم الصحيح النافع

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣).

من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وفهم السلف للنصوص، أو اجتهادات السلف فيما فهموا من النصوص، فإن ذلك مدعاة للثبات على الاعتدال والوسطية، فالجهل، وترك العلم، والذهاب إلى عقليات، وأفكار ربما لا تكون موافقة للعلم الصحيح، فإن ذلك يبعد عن المنهج الوسطي.

الثاني: من أسباب الثبات على الوسطية: قوة العلم، فإن العلم يزداد بالاعتدال، ويضمحل بالغلو، أو الجفاء.

الثالث: من أسباب الثبات على الوسطية: قوة العقل، والنظر في تجارب الناس، والتاريخ، قوة العقل نحتاجها؛ لأن العقل السليم مأمور به، ولأن صحة العقل أثنى الله ﷻ عليها، فالله ﷻ خاطب في كتابه العزيز أولي الألباب، خاطب الذين يعقلون، خاطب الذين يفهمون، خاطب من يتذكر من أهل اللب الصحيح السليم، ومن أهل العقل الصريح القوي، وهذا فيه إشارة إلى أهمية العقل، والإدراك في فهم النص، وفي فهم المصالح.

قبلها قلنا النظر في التاريخ، وتجارب الناس، وما حصل في التاريخ من إحن، ومحن، وفتن، وما حصل من إصلاح، فإن هذا ينتج عنه الاهتمام بلزوم الوسطية، والاعتدال، التاريخ فيه تجارب كثيرة دامية، فيه تجارب كثيرة قاتلة، وفيه تجارب كثيرة صالحة مصلحة، من نظر فيها بعين الإنصاف، وجد بقوة عقله وإدراكه أن من نجح كان معتمدًا، على الوسطية في قوله، وعلمه، وعقله، وإدراكه.

الرابع، والأخير: من أسباب الثبات على الوسطية: الصبر، الصبر مهم جدًا؛ لأنه سمة أهل العلم، بل هو سمة الأنبياء والمرسلين، قال

الله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال -أيضًا- ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. فمن استخفَّ فليس بذي عقل، ومن لم يكن جازمًا بوعد الله حقًا صابرًا، فأيضًا هو مستخفٌّ، وليس بذي إدراك سليم، فالصبر، وعدم الاستعجال في الأمر كله من سمات الثبات على الوسطية، والاعتدال، وبعدها يكون من أسباب النجاح في المآرب، والمقاصد بمقابل ذلك من أسباب الانحراف عن الوسطية، والاعتدال:

أولًا: الجهل.

والثاني: الهوى.

الثالث: غلبة العاطفة على العقل.

والرابع: استعجال النتائج فيما هو مشروع، وطرح نتائج مرفوضة فيما ليس بمشروع.

الخامس: الابتداع في الدين.

والسادس: اتهام العلماء، والعقلاء بالمداهنة، وترك الحق.

هذا الموضوع: الوسطية، والاعتدال، وأثر الوسطية، والاعتدال في حياة المسلمين، مهم جدًا؛ وذلك لأننا نسمع كثيرًا منهج الوسطية، نسمع كثيرا أهمية الوسطية، واستعمال لفظ الوسطية كثيرًا ما يستعمل دون ضوابط شرعية، أو عقلية.

الثاني: أن مرجع الوسط دائمًا بين طرفين، فمن يحدد الطرفين؟ من

يصف المنهج الوسط؟ من يقول: إن هذا وسط، وإن خلافه ليس بوسط؟ لا بد من قواعد تحكم ذلك؛ حتى لا يجرنا هذا المنهج إلى نبذ مسلمات من الدين، أو العقيدة الصحيحة، طلبًا لوسطية متوهمة، فالوسطية، والاعتدال مطلوبة شرعًا وفق ضوابطها الشرعية التي يقرها أهل العلم الراسخون فيه.

الإسلام عقيدة وشريعة، فعقيدته مبنية على الوسطية، كما نص أهل العقائد، وشريعته مبنية على الوسطية - أيضًا -، والاعتدال، كما نص أهل الفقه، والقواعد، والمقاصد، والأصول.

يقول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، معنى قوله: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كما فسرها الصحابة ﵃، ومن تبعهم، يعني: جعلناكم أمة عدلًا خيارًا بما تتوسطون فيه بين الغالي، والجافي، فهناك غلو وجفاء في الملل والنحل، وهناك غلو وجفاء في أنواع الشرائع التي سبقتنا، هناك غلو وجفاء في الفرق المختلفة في هذه الأمة، هناك غلو وجفاء في الجماعات والتحزبات المختلفة، مما يدل - أيضًا - على هذا المبدأ قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]

وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. فثبت عنه ﷺ أنه قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»**(١). رواه ابن ماجه،

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧)، والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، والنسائي في المجتبى (٣٠٥٧)، وفي الكبرى (٤٠٤٩)، وابن خزيمة (٤/ ٢٧٦)، وابن حبان (٩/ ١٨٤)، والطبراني في الكبير (١٢/ ١٥٦)، والبيهقي في السنن الصغرى (٢/ ١٩٠) وفي الكبرى (٥/ ٢٠٧). من حديث ابن عباس ﵄.

والنسائي، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وصححوه.

وجاء عن علي بن أبي طالب الخليفة الراشد رضي الله عنه وأرضاه، أنه قال: «**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي**»(١). رواه ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي رضي الله عنه، وقال الحسن: (**سُنَّتُكُمْ - وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ - بَيْنَهُمَا: بَيْنَ الْغَالِي وَالْجَافِي، فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ كَانُوا أَقَلَّ النَّاسِ فِيمَا مَضَى، وَهُمْ أَقَلُّ النَّاسِ فِيمَا بَقِيَ: الَّذِينَ لَمْ يَذْهَبُوا مَعَ أَهْلِ الْإِتْرَافِ فِي إِتْرَافِهِمْ، وَلَا مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ فِي بِدَعِهِمْ، وَصَبَرُوا عَلَى سُنَّتِهِمْ حَتَّى لَقُوا رَبَّهُمْ فكذاكم - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَكُونُوا**)(٢).

وهذه قاعدة عند أئمة السلف وعند من صنف في العقائد، يقولون: دين الله الحق، دين الله المرضي عنه، دين الله الذي يؤمر الناس باتباعه وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، وفي الحديث الذي في الصحيح: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ**»(٣)، والنبي ﷺ صح عنه أنه: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا**»(٤).

وفي الحديث الذي في السنن، وفي غيرها، وهو مرسل، وله شواهد من

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٠)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٨/ ١٤٨٠).

(٢) أخرجه الدارمي (٢٢٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠/ ٣٤٦)، والقضاعي (٢/ ١٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٩٤)، وفي السنن الكبرى (٢/ ٢٧)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٥١).

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

حديث محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، ولا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى**»(١).

وصح عنه ﷺ أنه قال: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»(٢)، وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا**»(٣)، ولما أرسل ﷺ عليًا، وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن بالدعوة إلى الله ﷻ، وبيان الدين لأهل اليمن، قال لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»(٤)، وهذه هي قاعدة الدعوة، كما أجمع على ذلك أهل العلم في قوله ﷺ للداعيين اللذين أرسلهما إلى اليمن؛ علي بن أبي طالب، ومعه أبو موسى الأشعري، قال: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا**،

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، وروى نحوه موصولًا في الأدب المفرد (١/ ١٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولفظه: «**سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الأَدْيانِ أحبُّ إِلى اللّهِ ﷻ؟ قال: الْحنِيفِيّةُ السّمْحةُ**»، وروى هذا اللفظ متصلًا مسندًا أيضًا الإمامُ أحمد في المسند (١/ ٢٣٦)، وعبد بن حميد في مسنده (١/ ١٩٩)، والطبراني في الكبير (١١٥٧٢)، انظر: تغليق التعليق للحافظ ابن حجر (٢/ ٤١).
وأخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٥) من حديث أبي قلابة رضي الله عنه، وفيه قصة عثمان ابن مظعون لما اتخذ بيتًا فقعد يتعبد فيه.
وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: (لم يرو هذا الحديث عن صفوان بن سليم إلا حر بن عبد الله تفرد به عبد الله بن إبراهيم). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٦٠) (وفيه عبد الله بن إبراهيم الغفاري منكر الحديث).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).

وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا»، أيضًا جاء عنه ﷺ أنه قال: «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا»[(١)].

إذا تبين ذلك: وأن هذا الاعتدال مطلوب، وأن دلائل الشرع تدل عليه، وأنه منحة لهذه الأمة؛ لكي تبقى وتستمر، وأنه لا بقاء للغلاة، كما أنه لا بقاء للجفاة، وإنما الذي يبقى ويبقى ناصحًا لهذه الأمة، ويبقى مخلصًا لها، ويبقى داعيًا معلمًا عالمًا ناصحًا مؤثرًا، من يكون على هذا المنهج القويم الذي دل عليه النص، ودل عليه سلوك الخلفاء، وكلمات الخلفاء، ودلت عليه أعمال أئمة الإسلام، ودلت عليه مصنفاتهم.

الوسطية لها أنحاء من حيث التطبيق؛ إما من جهة الوصف السابق، أو من جهة التنظير الواقع.

أولًا: الإسلام وسط بين الديانات، فمن تأمل عقيدة الإسلام وجدها الوسط بين الديانات المختلفة، والديانات هي كل دين دان الناس به، والتزموه سواء أكان دينًا أصله حق، أم كان دينًا باطلًا من أصله، فالإسلام وسط بين اليهودية والنصرانية، والإسلام وسط بين المجوس والبوذيين، والإسلام وسط بين أهل القوانين من الرومان، وبين الذين يجعلون الحكم لأنفسهم، الإسلام وسط في الأخلاق، ووسط في المعاملات، الإسلام دعا إلى الأخلاق الحميدة، وحض عليها، بل وصف الله ﷻ نبيه بذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، لكنه لم يجعل من الخلق

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨/ ٥١٨/ رقم ٦١٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٧٩)، وعبد الرزاق (١٠/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (٨/ ٣٤٣).

المحمود ترك العزة، ولم يجعل من الخلق المحمود ترك الحق، بل جعل الخلق المحمود وسطًا بين اللين، وبين القوة، فالقوة في مكانها مطلوبة، واللين مع المسلمين، وغير المسلمين في مكانه مطلوب، فالحق بين ذاك وذاك، والإسلام وسط - أيضًا - في الديانات في أنواع المعاملات، وأنواع التشريعات التي فيها تعامل الناس ما بين من يحل الربا بأنواعه وما فيه ظلم للناس وما بين من يمنع كل أنواع التعامل، ويحرم المال الذي يكتسبه الإنسان إلا من عمل يده.

فالإسلام يدعو إلى التجارة، ويدعو إلى العمل، ويدعو إلى الاقتصاد، ويدعو إلى تنمية المال، ولكنه يمنع في ذلك كله الظلم، ويمنع أخذ أموال الناس بغير حق، ويمنع أن يكون المال دولة بين الأغنياء فقط، كما كان ذلك في شرائع الجاهلية، أو في شرائع من سبقنا من الملل، والشرائع، الإسلام وسط فيما أمر به في المعتقدات، وما أخبر الله ﷻ، وأخبر به رسوله ﷺ، ففي التوحيد وسط بين الغالي فيه ممن يشرك بالله ﷻ كالنصارى، واليهود، وما بين الجافي، والمبتعد عن ذلك، ممن يظن أن الناس جميعًا على التوحيد مهما عملوا، فالإسلام يدعو إلى توحيد الله ﷻ بما أمر الله به في قوله ﷻ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فتوحيد الله ﷻ، والإخلاص له أساس الملة والدين في باب الصفات، وأنتم أهل الاختصاص، الإسلام بل أهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات ما بين المشبهة الممثلة، وما بين النفاة المعطلة، وفي أبواب الإيمان أهل السنة والجماعة، والإسلام الحق وسط ما بين التكفيريين الغلاة، وما بين المرجئة الجهال.

وفي إثبات الإيمان من أنه قول، وعمل، واعتقاد، ووسط بين هؤلاء وهؤلاء، وكذلك الإسلام وسط في الصحابة ﭫ بين الغلاة فيهم ممن ألهوهم، وبين النواصب الذين ذموا بعض الصحابة ﭫ، فأهل السنة والجماعة يثنون على جميع صحابة رسول الله ﷺ، ويقولون فيهم ما قال الله ﻷ: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وفي أبواب الإمامة، والولاية أهل السنة والجماعة، بل دين الإسلام وسط بين من اختلفوا في هذه المسألة العظيمة، من الخوارج في القول والعمل، الذين يرون الخروج على الولاة فيما يرون منهم من أخطاء، أو منكرات، ووسط بين هؤلاء الغلاة الذين يرون الخروج، والطرف الآخر الذي لا يرى نصيحة الإمام أصلًا، ويرى أن ما قاله ولي الأمر فهو صواب مطلقًا؛ لأنهم نواب الله ﻷ في أرضه، وأهل السنة والجماعة يرون الطاعة، كما أخبر النبي ﷺ، بل أمر به في أنه: «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**»[١]، وفي الحديث: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ**» كما ثبت ذلك في صحيح مسلم[٢]، فأمر الولاية، والإمامة عظيم، وشأنه عظيم، لكن معه في منهج الوسطية النصح والبيان، والتعاون مع ولاة الأمر على البر والتقوى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٩).

كذلك منهج الوسطية، والاعتدال عدل، ووسط في الفقه والأحكام، أولًا مراعاة الاجتهاد، فالاجتهاد ماض لم يغلق، وباب الاجتهاد منهم من فتحه على مصراعيه، حتى دخله من ليس بأهل له، ومن لم يعِ النصوص ولا القواعد، والأصول، ففتحه على مصراعيه، ونسمع اليوم من يجتهد في المسائل الشرعية، والنوازل العظيمة ممن لو كانت في عهد عمر رضي الله عنه لجمع لها أهل بدر، واليوم تنزل المسائل العظيمة بالأمة، فيفتي بها الواحد، ويفتي بها الاثنان من عامة طلبة العلم، ممن ليسوا مؤهلين لذلك في رسوخ العلم، مما يجتنبه الجمهرة من العلماء إلا أن يجتمعوا جميعًا؛ لينظروا في هذه النازلة، فالاجتهاد مفتوح بابه، لكن هذا الفتح وسط بين فئتين؛ بين من يرى غلق باب الاجتهاد أصلًا، والبقاء على نصوص السابقين من أهل العلم، وبين من يرى باب الاجتهاد مفتوحًا لكل أحد حتى ولو لم يكن أهلًا؛ لذلك الاعتدال في الفقه، والأحكام، والوسطية في ذلك تدعونا للوسطية بين جهتين؛ بين لزوم المذهبية، ونزع المذاهب، فهناك من يطلب بنزع المذاهب الفقهية، وأن المذاهب ليست بحق على إطلاقها، وإنما كانت لفترة مضت، والواجب الرجوع إلى كتب الحديث والسنة، ونبذ كتب المذاهب مهما كانت، وبين فرقة أخرى، وفئة أخرى ترى البقاء على نصوص المذاهب، وأنه أدرى بذلك، وأن المذاهب، وكلام علماء المذاهب يصلح لما بقي من الزمان، والحق وسط بين الفئتين؛ لأن كلام علماء المذاهب مطلوب فهمه؛ لأنهم هم الذين فهموا الشريعة، وصوروها، لكن لكل زمن أحكام، ولكل زمن فهم، والشريعة منوطة بالمقاصد، ومنوطة بتحقيق المصالح ودرء المفاسد، فالبقاء على نصوص العلماء السابقين الذين ليسوا

معنا في ذلك الوقت في هذا الوقت، وليسوا متطرقين إلى ما نعيشه، وما عندنا من علل، ومقاصد يجب مراعاتها، ومصالح يجب مراعاتها ومفاسد يجب درؤها، هذا ليس من باب الاعتدال، فالاعتدال الأخذ بأقوالهم، وفهم مراداتهم، وأخذ أحكامهم، ومعرفة مآخذهم، ولكن يجب النظر في النصوص؛ لأن النصوص واسعة تسع الأزمنة، والأخذ بكلام العلماء مطلوب في فهم تلك النصوص، فالإسلام وسط في المذهبية ما بين معطلة المذاهب، وما بين الغلاة في المذهبية، كذلك الوسطية والاعتدال سمة لهذا الدين، وسمة لأهل السنة والجماعة فيما بين التشديد المفرط، والتيسير غير المنضبط، النبي ﷺ أمر بالتيسير، وحض عليه، «**وَمَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا**»[1].

وهذا فيه نفي للتشديد الذي هو إيقاع في الحرج، فالذين يأخذون بالتشديد، وأن الحق في الشدة، وأن الحق في التغليظ، ليس هذا بحق، بل هو نوع من الغلو في الأحكام يجب نبذه، وإنما الحق في أن نأخذ بالتشديد في مكانه الذي دل عليه النص، وحينئذ لا يسمى تشديدًا، ونأخذ بالتيسير؛ حيث دل النص على ذلك، أو حيث خيرنا بين أمرين لم يرد دليل في أحدهما نصًا، فإننا نختار أحدهما ما لم يكن إثمًا، وهذا يهم جدًا في البحوث، وفي المقالات، وفي المحاضرات، وفيما نوجه فيه الشباب نجتهد في أن نبتعد عن التشديد الذي يضر، وعن الأخذ بالغلظة، والأخذ بالشدة التي تجعل الناس الذين يوجهون، ويرشدون يأخذون بالمأخذ الأشد، الذي يجعل في النفوس حرجًا، حتى من التعايش مع الناس، والواجب أن يكون

---

(١) سبق تخريجه (ص ٢٩٧).

هناك أخذ بالوسط، والاعتدال في ذلك كله؛ لأن الشريعة جاءت بنفي الحرج، «فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أَبْقَى»(١).

كذلك الشريعة في أحكامها، وفقهها، ومقاصدها وسط في المصالح، والمفاسد، غلا أناس في المصالح، حتى قدموا المصلحة المتوهمة على النص، وحتى قال بعضهم حيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله، وغلا آخرون حيث رأوا إلغاء المصالح مطلقًا، والنظر في النصوص، وأن النصوص فقط هي المصلحة، والأخذ بظاهر النصوص، والشريعة شريعة معللة، شريعة مبنية على المصالح، وعلى درء المفاسد، شريعة مبنية على تحقيق المقاصد، ومن فاته العلم بقواعد المصالح، ودرء المفاسد، وفاته العلم بقواعد الشريعة، ومقاصد الشريعة، فإنه يفوته تحقيق هذه الشريعة المباركة، فهذه الشريعة المباركة، شريعة الإسلام مبنية على علل، مبنية على مقاصد، مبنية على رعاية المصالح، مبنية في الفقه على معرفة الفرق، والجمع بين الأحكام، فمن فاته معرفة المقاصد، والمصالح، والمفاسد، وفاته معرفة العلل المتوخاة من الأحكام، وفاته معرفة الجمع والفرق في الأحكام المنصوص عليها، أو التي اجتهد فيها العلماء، فإنه لا مجال له في الاجتهاد، ولا مجال له في الحكم، ولا مجال له في رؤية أحوال الناس؛ لهذا يجب علينا أن نرعى الوسط ما بين الذين ينفون المصالح مطلقًا، وما بين الذين يغلون فيها، فشريعتنا معللة، نأخذ بالمصالح، وبمقاصد الشريعة، ولهذا نرى كلام أهل العلم الراسخين فيه من مثل: الإمام أحمد، وقبله

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٢٩).

الشافعي، والإمام مالك، وأبو حنيفة، وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، في مسائل كثيرة يرون فيها المصالح المنوطة بالنص، حتى تكلموا في مسائل ربما خالفت ما عليه الفتوى اليوم؛ لرعايتهم للمصالح المتوخاة من الشريعة، فرعاية المقاصد والمصالح مطلب شرعي ضروري؛ لتأصيل منهج الوسطية، والاعتدال في الأمور.

من أنواع التطبيقات لهذا الأمر، وهو الوسطية، والاعتدال، وهذا المنهج القويم: الوسطية والاعتدال في الحكم على الأشياء، الأشياء تتجدد، والقضايا تتنوع، وكل يوم لنا جديد لا شك، فالزمن له حركة، والمدنية وَلاَّدة، والحضارة متوقدة، ولن تقف عند حكم فقيه، ولن تقف عند حكم داعية، أو عند تنظير منظر، الزمن يتحرك، والزمن وَلاَّد، والمدنية تتولد، وتنمو كما هو مشاهد، ومنظور في الزمن الحاضر، والحضارة، والأزمنة الماضية، ولا بد حينئذ من أن يكون هناك منهج واضح معتدل في الحكم على الأشياء، في الحكم على الأوضاع، في الحكم على الأشخاص، في الحكم على الأفكار، وما يطرح في الحكم على النوايا، والمقاصد، في الحكم على المجتمعات، في الحكم على الدول، في الحكم على العلماء، في الحكم على الدعاة، في الحكم على الناس، وهذا المنهج الوسطي يجب أن يؤصَّل في أطروحات، وفي رسائل، حتى لا يكون الناس الذين يرومون الإصلاح، ويرومون الدعوة، ويرومون الإرشاد، حتى لا يكون طلبة العلم في غيبة عن المنهج المعتدل في ذلك.

من قواعد أهل العلم الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والله ﷻ يقول لنا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فمن أراد أن يحكم على

شيء دون علم كامل بهذا الشيء، أو يحكم على وضع، أو يحكم على شخص، أو يحكم على أفكار، وأطروحات، أو يحكم على نوايا، ومقاصد دون معرفة شرعية بذلك، فإنه حينئذ يقفو ما ليس له به علم، والواجب علينا أن نضع هذه الآية نصب أعيننا، وأن نضع قول الله ﷻ في النهي عن القول بغير علم؛ حيث جعله قرينة للشرك في قوله ﷻ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، والنبي ﷺ نهى عن القول بلا علم، «**وَمَنْ أُفْتِيَ بِفُتْيَا بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَانَ إِثْمُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ**»[١]، وأن من يفتي بغير علم، فإنما يتقحم النار.

حينئذ فكيف نحكم على الأوضاع؟ الناس كما ترون يحكمون على كل شيء، فهل يليق بأهل الفكر، والعلم، وأهل المنهج الفكري، والمنهج المستقيم في النظر، والتأمل أن يكونوا مستعجلين، وأن يكونوا من غير ذوي الأناة في الحكم على الأشياء؟ أنتم نخبة سواء من الطلاب من ذوي المستويات العالية، أو من غيرهم، أنتم النخبة، فكيف يسوغ أن يكون لكل شيء منهج إلا التفكير، والحكم على الأشياء بلا منهج، هل يسوغ أن يترك الناس لكل أحد طريقة في الحكم على الأشياء؟ حينئذ ستنتج أشياء وأشياء من مثل ما رأينا، وسينتج هناك أفكار، وآراء، وأحكام على الأوضاع، والأشخاص، والمجتمعات، والدول، وحتى حكم على النوايا، وأهل العلم بما ترون، وبما لا ترون في المستقبل، هل يسوغ أن يكون هناك غياب لمنهج التفكير في الحكم على الأشياء؟

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٧)، وأحمد (١٣/ ٣٨٤)، والحاكم (١/ ١٨٤)، وقال: هذا حديث احتج الشيخان برواته، والبيهقي (١٠/ ١١٦).

إننا نطالب بمنهج نفكر فيه، ونفكر به، بمنهج يكون قاعدة للتفكير كيف تفكر؟ كيف تبني النتائج على مقدماتها؟ هل يسوغ أن يكون هناك حكم على الأِشياء، وحصول نتائج في الحكم، أو في العمل بدون مقدمات للتفكير سليمة؟ كيف نصحح الأفكار؟. كيف نصحح منهج الحكم على الأشياء؟ هذا من أهم المهمات.

الحكم على الشيء فرع عن تصوره، من القواعد: أنه ليس لكل أحد أن يقتحم الحكم على كل مطلب، هناك أشياء عظيمة يجب أن تترك للناس الكبار، للناس الذين لا يحكمون بالظن، ويسيئون النظر، ويسيئون الظن، ويحكمون على كلمة قالها شخص، أو أمر تبنته جهة على الحكم على تلك الجهة بكلها، واجب أن يكون المرء متوسطًا موازنًا بين الإيجابيات، والسلبيات، موازنًا بين المصالح والمفاسد، موازنًا في الحكم على الأشياء بين الغالي فيها، والجافي عنها، فالذي يروم الحكم بدون توسط، فإنه يذهب إلى الخروج عن اعتدال الشريعة، وعن الاعتدال في الأمور، الأشخاص الأصل في المسلم السلامة، ليس الأصل في المسلم الشك، ليس الأصل في المسلم ظن السوء، الأصل في المسلم ولو كان عنده ما لا ينبغي من الأقوال، والأعمال، لكن الأصل فيه السلامة، ليس الأصل فيه الشك، والأصل فيه أنه يقول سوءًا، أو يذهب إلى سوء، الأصل في الأفكار التي يطرحها مسلم أن يكون ديدنه فيها حب الخير، وليس ديدنه فيها حب الشر أو حب المخالفة، أو الوقيعة، أو الإفساد، ولكن ديدنه في ذلك الخير من حيث الأفكار، إلا إن ثبت خلاف ذلك من قول صريح، أو عمل صريح، فإنه حينئذ يكون خلافًا، تلك النوايا والمقاصد يجب اعتبار الظاهر فيها،

وألا نحكم على نوايا، ومقاصد الناس باعتبار ظاهر سلوكي، أو ظاهر قولي؛ لأن النوايا، والمقاصد علمها عند الله ﷻ، ويجب علينا الحذر من أن نظن سوءًا بالناس، والله ﷻ يقول: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال -أيضًا ﷺ- فيما جاء في الحديث لما جاءت الشهادة -: **«قَالَ: هَلْ تَرَى الشَّمْسَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَعْ»**(١).

الوسطية في التفكير مطلوبة، تفكير الشباب اليوم، بل تفكير الناس، بل حتى تفكير بعض الخاصة نراه متفرقًا متشعبًا بين عقل جامد، أو عاطفة جامحة، العقل، والإدراك، والعقل، والاتزان مطلوب، لكن مع عدم إلغاء العاطفة، والعاطفة الجياشة مطلوبة، التعاطف مطلوب، الحماس للدين مطلوب، لكن مع عدم غياب العقل السليم، ورعاية النص، فمن جعل عاطفته حكمًا عليه في كل تصرفاته دون الرجوع إلى علمه، ودون رجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه، ودون رجوع إلى توجيهات من ولي الأمر، أو على قواعد شرعية مبنية، فإنه حينئذ يروم عاطفة كما رامها الخوارج، أو كما رامها المعتزلة، أو كما رامها أهل الأهواء، فأهل الأهواء ما الذي أوقعهم في أهوائهم إلا العاطفة التي لم تنضبط بنص، ولم تنضبط بمنهج، خالف الخوارج الصحابة، فقتلوا خير الناس في زمنهم، وهو علي رضي الله عنه، من قتل عليًّا؟ هل قتله أعداء الإسلام؟ إنما قتله رجل يقوم الليل، ويصوم النهار، وهو عبد الرحمن بن ملجم الخارجي، عبد الرحمن بن ملجم أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مصر لما طلب عمرو بن العاص رضي الله عنه قارئًا للقرآن يقرئ

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٩٨ - ٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٣٤٩، رقم ١٠٤٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٨).

الناس القرآن، قال: أهل مصر يحتاجون إلى قارئ يقرئ الناس القرآن، فقال عمر رضي الله عنه في رسالة أرسلها إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: أرسلت لك رجلًا صالحًا، هو عبد الرحمن بن ملجم آثرتك به على نفسي، إذا أتاك فأكرمه، واجعل له دارًا يقرئ الناس فيها القرآن، جلس عبد الرحمن بن ملجم في مصر حتى ظهرت حركة الخوارج، وأول ما ظهرت في اليمن، ثم في مصر، فأخذت في مصر فأثَّروا عليه؛ لأنه كان كثير الصلاح، كثير العاطفة، لكنه كان قليل العلم والفقه، وكان منعزلًا؛ فلذلك أتاه الأمر من حيث أتاه، وقتل خير الناس علي بن أبي طالب، ولما قيد للقصاص، وقيد منه، وأريد للقتل قال لهم: لا تقتلوني مرة واحدة، وإنما اقتلوني شيئًا فشيئًا، قطعوا أطرافي أمامي؛ لأنظر كيف تقطع أطرافي في سبيل الله عز وجل، وامتدحه واحد من أصحابه، هل كونه خارجيًّا معنى ذلك أن الناس نفوه؟ لا، بقيت دعوة الخوارج سرية متسلسلة في الناس، حتى مدح قاتل علي رضي الله عنه عمران ابن حطان في أبيات يقول فيها - والعياذ بالله -[(١)]:

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

إِنّي لَأَذكُرُهُ حينًا فَأَحسبُهُ ... أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللَهِ ميزانا

تقي من هو؟ هل هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند هذا الشاعر الفاجر الخارجي المجرم، لا، إنما هو قاتل علي رضي الله عنه.

وهكذا -والعياذ بالله- يصل التدين الغالي في الإنسان، حتى يرى حسنًا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٤).

ما ليس بالحسن، فالعاطفة الجياشة، والحماس للدين، والجهاد المظنون، الذي يؤول إلى مثل هذه الأفكار، ومثل هذا الغلو، هذا مرفوض من صاحبه، والوسط والاعتدال يرفضه، بل يحارب أصحابه؛ لأنهم إن بقوا فإنهم سيضلون الناس، فقد حاربهم علي بن أبي طالب ﷺ، وحاربهم ابن عباس ﷺ، وحاربهم معاوية ﷺ، وحاربتهم الدولة الأموية، وحاربتهم الدولة العباسية إلى الوقت الحاضر، فكل أهل الحق يحاربون من يغلو في الدين إلى هذا الأمر، ولوكان يتدين بعاطفة جياشة، أو يقول من قول خير البرية، فالنبي ﷺ حذر من ذلك، الوسطية مطلوبة في التفكير، وفي الحكم على الأشياء، وفي منهج التفكير بين نظر البدايات، والمآلات، كثير من الناس ينظر إلى الأمور باعتبار الحاضر، ينظر إلى الأمور باعتبار الواقع، لكن لا ينظر إلى المآلات، والعقلاء الذين يتبعون الشرع، ويدركون أحكامه، ونصوصه، ومقاصده، فإنهم ينظرون إلى البدايات كما ينظرون إلى المآلات، وقد قال بعض أهل العلم: (من كانت بداياته محرقة، كانت نهاياته مشرقة).

من كان ينظر إلى البداية نظرًا سليمًا في النظر في أسباب حدوث الأشياء وفي بواعثها لينظر كيف يحكم عليها، فإنه سيكون في نظره إلى المآلات سليمًا؛ أما إن كان لا ينظر إلى البدايات ولا ينظر إلى الأسباب والبواعث، ولا ينظر إلى بعد الشيء أو كيف حصل، وإنما ينظر إلى المقصد منه، فإذا كان ما سيتحقق منه سليمًا، فإن بدايته عنده ستكون سليمة ولا شك، فهذا غلط في التفكير؛ لأن التفكير الصحيح أن تنظر إلى البداية وتنظر إلى المآل، فمن فاته النظر في المآلات فإنه يفوته النظر السليم.

وكثير من ذوي العاطفة الجياشة، وذوي النظر القاصر ينظرون إلى الأمور نظرًا سطحيًا بدون اعتبار للمآل، والنهاية، كذلك نطلب نظرًا وسطيًا في التفريق ما بين الواقع، والتنظير، كثيرًا من الناس ينظر نظريات، وخيالات، هي في نفس الأمر قد تكون سليمة، لكنها من حيث التطبيق شبه مستحيلة، أو مستحيلة، فهل يسوغ أن يكون المتفقه، وأن يكون حملة الشرع، بل أن يكون الناس المحبوبون أن يكونوا أسيرين لخيالات غير قابلة للتطبيق، أن يكونوا أسيرين لتنظيرات لا توافق الواقع، الذي يريد الإصلاح الصحيح فيجب أن يعمل من خلال الممكن، من خلال الواقع، لا أن يجانب الواقع، فيعمل تنظيرات يكره بسببها الواقع، أو يجانب الواقع من أجل ذلك، كيف تعمل؟

النبي ﷺ أتى إلى قوم أهل جاهلية، فهل أبطل جميع ما كان عليه الجاهلية؟ ليس الأمر كذلك، أخذ بأحكام الجاهلية في أشياء كثيرة، وجعل من أعمال الجاهلية في كثير من الأمور ميدانًا لانطلاقه، هذا وهم أهل جاهلية، فكيف الأمر إذا كانت المسألة في بلد الإسلام، أو بين أهل الإسلام، أو بين أهل العلم، في أمور مختلف فيها ما بين اجتهاد وآخر، فكيف يكون الأمر كذلك؟

إنكم مطالبون يا حملة الشريعة، ويا دعاة الإسلام، ويا خطباء المساجد، وأئمة المساجد، بل ويا علماء الإسلام، ويا فقهاء الإسلام، أن تكونوا واقعيين في الطرح، فليس الأمر مقبولًا إذا كانت أطروحاتنا خيالية، أو كانت أطروحاتنا بعيدة عن قبول التطبيق، لا يمكنك أن تطبق على الناس ما لم يكن مقبولًا لدى الناس، ما لم يكن مقبولًا في مصالحهم، ويجب أن نرعى أحوال الناس، وما يختلفون فيه، فالخيالات والتنظيرات ليست

بمقبولة، كذلك في مجال الدعوة، إذا كنا نريد من الناس في ميدان الدعوة أن يكونوا خياليين في ميدان الدعوة، يأتون إلى الناس بكلماتهم، وتنظيراتهم، وتحميس الناس إلى ما ليس بميدان للتحميس، ويكونوا خياليين، كمن يدعو إلى الجهاد، ولا ميدان صحيح إلى الجهاد، كمن يدعو إلى الإنكار باليد ولا مجال إلى الإنكار باليد إلا من جهة الاختصاص، فيحمل ذلك الناس على الحماس، وحينئذ يفرغون حماسهم في طرق غير شرعية، قد يكون من نتائجها ما حصل في الأسبوع الماضي، وما قد يحصل مستقبلًا، فيجب عليك أن ترعى كلمتك، في أن لا تكون خياليًا فيما تطرح، وألا تتكلم بكلام ينزله الناس على واقع ليس في ذهنك، بعض المعلمين، أو بعض الدعاة، بعض الأساتذة، بعض الخطباء يقول كلامًا هو في نفسه صحيح، ويكون عند الخطيب، أو عند الداعية، أو عند المعلم أو أستاذ الجامعة، يكون عنده ضوابط تحجزه في أن يزيد على ما ذكر عن الحد المأذون به شرعًا، لكن هو لا يأمن من يخاطب، ومن يحدث على أن يزيد في تطبيق ما ذكر الحد المأذون به شرعًا، والْحَظ قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ﴾ [البقرة: ١٠٤]. نهى الله ﷻ أهل الإيمان عن أن يقولوا راعنا، لماذا؟

لأن كلمة راعنا تحتمل أن تفهم كما يقوله اليهود، (راعنا) يعني: من الرعونة، والغلظة، والشدة يريد بها النبي ﷺ، وأصحابه ﵃، لما كان الفهم يمكن أن يفهم سَيِّئًا، نهى الله ﷻ عن استعمال لفظة، وأمر باستعمال كلمة واضحة بينة، لا لبس فيها، ولا غموض، كذلك الذين يتحدثون إلى الناس عبر الخطبة، عبر المسجد، عبر حلقات الجامعة، عبر المحاضرات التي

تكون في الجامعات، أو عبر الدروس التي تكون في المدارس، ويقول كلمة ليست صحيحة في نفسها، أو يمكن أن تفهم على غير فهمها، أو توقع المستمع في اللَّبْس ثم هو لا يوضح، فإنه حينئذ يكون شريكًا في البعد عن الاعتدال، ويكون شريكًا في عدم الفهم الحسن، كذلك يجب علينا أن ننظر إلى قول النبي ﷺ: **«يَا عَائِشَةُ: إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»**[(١)]، وهذا الحديث في الصحيح كما هو معروف، **«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»**[(٢)] أي: في الكلمة تكون رفيقة، في التفكير تكون رفيقًا، في الإرشاد تكون رفيقًا، في الطرح تكون رفيقًا، فالرفق مطلوب، الله ﷻ رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فهل نريد غير محبة الله ﷻ؟ هل نريد غير ما يرضى الله ﷻ عنه؟ فإذا كنت غير رفيق في أمرك، في تفكيرك، في مقاصدك، في أطروحاتك، في إرشادك، فيما تقول وما تذر، في أعمالك، في الحكم على الأشياء، والحكم على التصورات، والحكم على الأشخاص، فحينئذ تكون قد فوت أعظم شيء، وهو محبة الله ﷻ لك.

الوسطية في الدعوة مطلوبة، الدعوة تحتاج منا إلى تنظيم، تحتاج منا إلى ترتيب، تحتاج منا إلى تعاون على البر، والتقوى، لكن هذه الدعوة حيث إنه لا يصلح فيها الفوضوية، بل يجب أن يتعاون فيها أهل الحق، وأهل الخير يتعاونون فيها، فإنه لا يجوز أن نكون فيها مغالين، فنذهب في الدعوة إلى تنظيمات بدعية، أو تنظيمات سرية، أو إلى حزبية، فالدعوة الحق بين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥).

التنظيم السري، والحزبيات المقيتة، وبين الموالاة، والمعاداة على رموز دعوة متوهمة، وما بين الفوضوية التي لا تنتج دعوة، نحتاج إلى تعاون على البر والتقوى وفق منهج أهل السنة والجماعة، ووفق التطاوع، فالطاعة لا تجوز في بلد الإسلام إلا لولي الأمر، الطاعة المتوهمة لجماعة، أو لدعوة، أو لحزب، أو نحو ذلك هذه ليست شرعية، النبي ﷺ حين أرسل عليًّا، وصاحبه إلى اليمن رضي الله عنهما، مع أن أحدهما كان أميرًا للسفر، فحينما أتى أمر الدعوة قال لهما: «**يَسِّرَا ولا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا ولا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا**»(١)، فليس ثَم مجال لطاعة مطلقة وفق تنظيم سري، أو وفق حزبية مغلقة، بل التنظيم يكون وفق تنظيم ولي الأمر، والطاعة تكون وفق طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ، ثم طاعة ولي الأمر فيما ليس فيه معصية، إذا كان الأمر كذلك، فنحتاج إلى تعاون في الدعوة إلى البر والتقوى، وإلى تكاتف، وإلى أن نكون في الإطار الذي أذن به ولي الأمر، والإطار الذي لا ينتج مفاسد؛ أما الإطارات الأخرى التي يتكلم فيها الناس، أو قد تكون موجودة في بعض البلدان، ونخشى أن تكون موجودة عندنا، أو تنتقل إلينا من تنظيمات سرية، أو حزبيات مبتدعة، فإن هذا مخالف للمنهج الوسطي، ولطريقة أهل السنة والجماعة، فما كَوَّن إمام من الأئمة أئمة الإسلام مع ما حصل في زمنهم، ما كونوا جماعة خلاف ما أقره ولي الأمر، ولم يكونوا تنظيمًا، وإنما كانوا وفق المنهج الوسط الذي يرعى الممكن، ويرعى الدعوة وفق التعاون على البر والتقوى.

نحتاج - أيضًا - إلى وسطية في الدعوة في مسألة حل مشاكل الأمة،

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٢٩).

الدعاة، أو طلبة العلم، أو المنتسبون، أو أهل الغيرة يظنون أن مشاكل الأمة ستحل بغيرتهم، لو كانت كذلك لم يكن ثَم أَغْيَر من نوح عليه السلام على توحيد الله، وعلى إخلاص الدين لله عز وجل، فهل كانت غيرة نوح عليه السلام التي لم يكن ثَم أعلى منها في زمانه، هل كانت كافية في أن يزول الشرك، أو أن تزول الوثنية التي كانت في زمنه؟

لم يكن الأمر كذلك، هل كانت كافية لتنزل نصر الله عز وجل إذ ذاك؟ لم يكن الأمر كذلك، بل مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، هذا هو الصبر الطويل، صبر تسعمائة وخمسين سنة مع وجود الغيرة العظيمة، والعاطفة الجياشة، منهج يجب أن نكون عليه، من ينظر اليوم إلى مشاكل الأمة، وما هي فيه في كثير من الأصقاع من جهل بدين الله، من بعد عن توحيد الله عز وجل الخالص، من وجود لشركيات مختلفة، من وجود لبدع مختلفة، من وجود لمنكرات مختلفة، هل حلها يكون بغيرة متوهمة؟ هل حلها يكون بالإنكار باليد؟ هل حلها يكون بالسعي فيما لا يرضي الله عز وجل من وجود مثل هذه الجرائم، والتفجيرات التي حصلت؟

كيف تحل مشاكل الأمة بجهد أبناء الأمة؟ لا بد أن نكون في ذلك وسطًا بين الذين كأن الأمر لا يعنيهم، ولا يسعون في حل مشكلات الأمة، وبين الذين يغالون، فيذهبون إلى طريق الخوارج، أو طرق بدعية ظالمة بما فيها من سلوكيات، وسبل منحرفة، الأمر وسط في أن نعمل جهدنا وفق

المنهج الشرعي، في أن نعمل متكاتفين متعاونين، وأن نحصر مشاكل الأمة، وأن نسعى فيها، وأن نبذل بالدعوة، والخير، والإصلاح، والمناصحة وفق المتاح، ووفق الشرع المطهر، ووفق المأذون به، فمن حل مشاكل الأمة بخيالات وتنظيرات، فإنه سيكون أسير هذه الخيالات، والمشكلات دون حل لها، كذلك نكون وسطًا في النوازل، التي تقع في الأمة بين تأزيم النوازل وبين الإسهام في حلها.

الأمة مستهدفة ولا شك، أمة الإسلام بعامة، وبلدكم هذا بخاصة مستهدف بلا شك، فكيف تكونون تجاه ذلك؟

يجب أولًا على مستوى هذا البلد المبارك الذي هو معقل الإسلام، ومأرز الإيمان، والمكان الذي انطلقت منه الرسالة الخالدة، وانطلقت منه دعوة التصحيح، والتجديد، والذي تنطلق منه اليوم بشائر الخير بما ترعاه الدولة، وترعاه مؤسسات هذا البلد من وزارات، وهيئات، وجامعات، ومؤسسات خيرية، وما يرعاه علماء ودعاة، وما يرعاه الناصحون، الجميع يجب أن يتكاتف في رد الأزمات، وعلاج الأزمات، لا أن نكون مؤثرين في الناس في أن نزيد من الأزمة، جاءت أزمات، وكثير من الناس زاد من الأزمة بفعله، أو بهيجانه، أو بتحميسه، أو بكونه كأن الأزمة لا تعنيه، وأن لا يؤثر فيها، الواجب علينا أن نكون مؤثرين بالمنهج الوسطي، وأن نعمل في التأثير وفق المتاح، وألا نكون متفاعلين مع الأمور بطريق غلط، أن نكون محمسين بطريقة خاطئة، أن نكون مغالين في الأمور، فالمطلوب منا أن نحافظ أولًا على توحيد الله ﷻ، وأن نكون محافظين على وحدة الكلمة، على طاعة الرسول ﷺ، ثم ثالثًا على وحدة الكلمة، واجتماع

الصف. مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، وألَّف فيها الإمام المصلح المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتابه «مسائل الجاهلية»، قدم لها بثلاث مسائل، هي أعظم المسائل التي خالف فيها أهل الإسلام أهل الجاهلية.

الأمر الأول: التوحيد، فكان أهل الجاهلية على الشرك، فدعاهم إلى التوحيد.

الثاني: طاعة الرسول ﷺ، أهل الجاهلية ما يقيمون طاعة لمقدم فيهم، فخالفهم بطاعة الرسول ﷺ.

الثالث: طاعة ولي الأمر، كان أهل الجاهلية يرون الفوضى، لم يكن في مكة أمير عليها، ولم يكن هناك في البلد أمير عليها، فدعا النبي ﷺ إلى طاعة ولي الأمر.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - بعد سرد هذه المسائل - : فأتى النبي ﷺ فعظم هذه المسائل الثلاث، وأبدى فيها، وأعاد[١]، وهذا هو الذي يجب علينا أن نبدي فيها، ونعيد، فالذين يؤزمون النوازل بإعطاء الشكوك، والأوهام، وطرح الشك، وطرح سوء الظن، ويذهبون بعيدًا عن الدعوة إلى وحدة الكلمة، واجتماع الصف، فإن هؤلاء يسعون إلى ما فيه خلاف الصالح شرعًا، وإلى الغلو فيما يطرحون، فالواجب حينئذ في المسائل، والنوازل أن نسعى في عدم تأزيم النوازل، وأن نسعى في حلها، فالنوازل إذا وقعت تحل بالشرع، تحل بالعقل، والحكمة، والأناة.

---

(١) انظر: مسائل الجاهلية (ص ٧).

الوقت يضايقنا عن المضي في هذه المسائل، نحتاج إلى تنبيهكم إلى نقاط ربما أنتم تبحثون فيها، وحبذا أن تكون هناك بحوث في هذه الأمور التي سأذكرها باختصار؛ لأنها مهمة في توجيه الناس، وتوجيه الشباب، بل توجيه الأمة:

* الاعتدال في السياسة بين المبالغة في النظر إلى السياسة، وما بين الترك كثير من الناس ينظر أنه بسماعه لقناة فضائية، أو بقراءته لتقرير صحفي أنه مؤهل للنظر في السياسة، السياسة صعبة، حتى عند الذين عندهم مؤسسات كبيرة تدعمهم بالمعلومات، ولديهم أجهزة تحر، فليست السياسة بالأمر السهل التي يحكم فيها أفراد الناس، بأن هذا أمر حكمه كذا، وأن هذه قضية يجب أن ننظر فيها كذا، والواجب حينئذ أن نكون متوسطين في السياسة، فهم الأمور السياسية مطلوب، لكن يجب أن تثق في حل الأمور السياسية، أن تثق بولي الأمر، أن تثق بمن أعطي في ذلك؛ لأنه عنده من الأجهزة، والنظر، والإدراك في مصالح الأمة ما ليس عند الأفراد، فمن كان عنده نظر في تقرير صحفي، أو في رؤية قناة فضائية، وحينئذ يجعل نفسه قائمًا بأمر الأمور السياسية، وكأنه الذي عنده الغيرة على الأمة، وغيره ليس عنده غيرة على الأمة، فإنه قد بالغ، وترك الاعتدال.

* الاعتدال في السياسة بين الفهم، والقناعة، ليس كل الأمور يمكن أن تفهم، لكن يجب أن تحاول الفهم، لكن قد لا تدرك القناعة التامة.

* الاعتدال في السياسة بين الاتهام المطلق، وما بين التبرير المطلق، هناك من يبالغون في الاتهام، يتهمون بأول خاطر، وهناك آخرون - أيضًا - في الطرف الآخر يبالغون في التبرير لكل شيء، والعاقل المدرك العالم

طالب العلم صاحب الحق، فإنه يكون وسطًا بين الاتهام، وما بين التبرير، يكون متفهمًا مدركًا يعرف الأمور، ومآخذها.

* الوسطية بين الوطن، والأمة.

* الوسطية بين الأهم، والمهم.

نحتاج إلى بحث في الوطن والأمة، منا من قد يفرط في وطنه الذي هو مخاطب أساسًا لوجود الولاية عليه، ولوجود مصالحه، ومصالح من يكونون حوله فيه يفرط في وطنه رعاية لمصالح الأمة كلها، وهذا ليس بسليم.

مصالح الأمة مطلوبة أن ترعى، وأن يحافظ عليها، لكن أولًا أن يحافظ على مصالح الوطن؛ لأن هذا أنت مخاطب فيه أولًا، ابدأ بنفسك، ثم بمن تعول، ابدأ بنفسك أولًا، بنفسك، ومن حولك في النفقة، بنفسك ومن حولك في المحافظة، فمن أضاع المحافظة على الوطن من جهة النظر إلى المحافظة على الأمة، فإنه لن يدرك المحافظة على الأمة، ولن يدرك المحافظة على الوطن، فلابد أن تكون الأمور بمقدماتها، تحافظ على وطنك؛ لأنه الأهم، وأن تجتمع كلمتنا على ذلك، ونسعى في هذا في أن نكون مؤثرين في الأمة ساعين في مصالحها.

كذلك الأهم والمهم، هناك من لا يرعى الاعتدال في ذلك، يقدم كل شيء عنده مهم، لا، العقلاء من أهل العلم، والدعوة، وأهل التوجيه يرون أن تقديم الأهم مطلوب، حتى ولو فوت مهمًّا، أو مهمات كثيرة، لابد أن ترعى الأولويات، أن تبدأ بالأهم، وأن تؤخر المهم، لابد من أن نكون

أهل إدراك؛ لأن شريعتنا أمرتنا بذلك، أن نكون أهل فهم أهل نظر، وألا نكون متعجلين متوانين في أمورنا، وأن نكون وسطًا بين طرفي الإفراط، والتفريط، بين طرفي الغلو الجفاء.

نسأل الله ﷻ أن يوفقني وإياكم لما فيه رضاه، وأن يجعلنا من النمط الذين وصفهم علي بن أبي طالب، الخليفة الراشد، ورابع المبشرين بالجنة رضي الله عنه وصفهم بقوله: «**خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِمُ الْغَالِي**»(١).

وهذا هو المطلوب منكم، أسأل الله لنا ولكم التوفيق، اللهم اجمع كلمة المسلمين على الحق، والرشد، والسداد، اللهم وفق ولاة أمورنا إلى الخير، واجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، واجزهم خيرًا عن كل ما يقدمونه للإسلام والمسلمين، اللهم نسألك التوفيق في الأمور كلها، وأن تجعلنا من المتعاونين على البر والتقوى، شاكرًا مجددًا لمعالي مدير الجامعة هذه الفرصة وهذا الإكرام بهذه الزيارة، ومقابلة إخواني جميعًا سائلًا المولى ﷻ لي ولكم الرشد والسداد في القول والعمل، وأن يعيذنا من الزلل، والزغل في الطريق، والقول، والمسار، إنه جواد كريم، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

كلمة المقدم معالي مدير الجامعة:

اللهم صلِّ، وسلم على عبدك، ورسولك نبينا محمد، جزاكم الله خيرًا على هذه المحاضرة القيمة الرائعة، التي كنا نود أن تستمر؛ حتى توضح

---

(١) سبق تخريجه (ص ٣٢٨).

لنا أساتذة، وطلابًا هذه المعاني القيمة التي تنطلق من شريعتنا الغراء، ومن منهج الوسط الذي جاء به الكتاب والسنة، وأمامي أعداد كبيرة من الأسئلة، الواقع لن نستطيع أن نأتي عليها جميعًا؛ ولهذا أعتذر للسائلين، وسنطرح بعضًا منها على أن الأسئلة - إن شاء الله تعالى - جميعها ستسلم لمعالي الشيخ صالح، لعله - إن شاء الله تعالى - يتحفنا مرة أخرى بزيارة كريمة؛ لكي يتحدث في كثير من الأمور التي في الحقيقة نحتاج إلى أن نسمع منه، ونستمع إليه، جزاه الله خيرًا.

سؤال: معالي الشيخ، نشهد الله على حبك، ونشكرك على هذا الطرح الجيد، والقول المتوازن، سؤالي هو ما نصيحتكم لنا، نحن أعضاء هيئة التدريس في تربيتنا لأبنائنا الطلاب، وتوجيههم، خصوصًا وأننا نرى بعض زملائنا يتأرجحون بين الإفراط والتفريط، وفي نظري أن المسألة لا تحتمل إلا الوضوح، والصراحة في علاج مسائل جدت؛ كالتكفير، والتبديع، والتفسيق، إضافة إلى عدم الإدراك الحقيقي للولاء والبراء، فما توجيه معاليكم في ذلك، وجزاكم الله خيرًا؟

الجواب: الحمد لله، وبعد: لا شك أن المسائل العلمية التي يطرحها اليوم كثيرون تحتاج إلى فهم، ودقة؛ فمسائل التكفير، ومسائل الولاء والبراء، ومسائل المولاة، والمعاداة، ومسائل الأحكام الفقهية لكثير مما يجري للجهاد، ومفاهيم الجهاد، وشروط الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هذه تحتاج إلى بسط شرعي فيها.

أولًا: أطلب من ذوي العلم، والفقه من أساتذة الجامعة أن يحصروا هذه

المسائل التي يكثر الكلام فيها اليوم، اليوم يتكلم بعض الفئام في الإنترنت، وغيرها عن التكفير بما هو موافق، أو شبه موافق لمنهج الغلاة، ويجب أن يبين الحق في مثل هذه المسائل، وأن يرد على ذوي الشبهات، من الذي وقف للتكفيريين، وقف لهم الصحابة، الخوارج الأولون، أو أعظم مسألة وصفوا بها، أول مسألة هي مسألة التكفير، أول الأمر خرجوا خروجًا لم يكونوا مكفرين، في عهد عثمان ﵁ لما قتلوا عثمان ﵁ قتلوه بالخروج عليه؛ لذلك سموا خوارج، وسموا حرورية؛ لأنهم خرجوا على ولي الأمر بغير تأويل سائغ، يسمون خوارج بذلك، ثم لما أتى وقت عليٍّ وجاء التحكيم، جاءت مسألة التكفير، وهنا هاجمهم الصحابة، وناقشهم ابن عباس ﵄ حتى رجع ثلثهم، ثم بعد ذلك جاءت بعض المسائل الأخرى، مسألة خلق القرآن، وبعض المسائل التي اتسموا بها فيما بعد، مسألة التكفير يجب أن يكون القول فيها واضحًا صريحًا، لا يجوز تكفير مسلم، المسلم الذي دخل في الإسلام بدخول بعد البلوغ، أو ولد فيه على الفطرة لا يجوز إخراجه من هذا الدين إلا بأمر بين في قوةِ بَيِّنَةِ الشهادة التي أدخلته في هذا الدين.

لا شك أن المسلم قد يرتد بقول، أو فعل، أو اعتقاد، أو شك؛ كما نص على ذلك أهل العلم في باب حكم المرتد، والله ﷻ يقول: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويقول: ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤] ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، لكن هل الحكم بالتكفير لآحاد الناس؟ لا.

أولًا: له شروط، وله موانع.

ثانيًا: لا يكفر إلا من أتى بأمر بين في مثل بينة الشهادة؛ أما إذا أتى بأمر فيه شبهة، أو فيه احتمال، فالتكفير أمر عظيم، الإخراج من الدين لا يكون إلا بأمر واضح؛ ولذلك ليس لآحاد الناس أن يفعلوه، وإنما هو للقضاة، خاصة لا بد أن يكون الحكم من قاض يقيم الشروط، وينفي الموانع، فإذا قامت الشروط، وانتفت الموانع، وأقيمت الحجة، حين ذلك يكون الحكم؛ أما آحاد الناس، فليس الأمر كذلك، فالواجب على المدرسين، على الأساتذة، على أعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعة، وفي غيرها، أن يكونوا فاعلين في رد الشبهات، وأن يكونوا موضحين بكلمة واضحة.

جاء الحدث الذي قبل أسبوع، أحداث التفجير المجرمة الآثمة، بعض الناس يعالجها معالجة ضعيفة، كيف؟

حدث عظيم بالغ فيه مخالفة لأحكام الله ﷻ من أوجه كثيرة تزيد على عشرين وجهًا كما حصرت، وترجع أصولها إلى خمسة أصول، كيف هذه تكون معالجتها بأمور خفيفة؟! يجب أن تكون هناك حملة كاملة منكم، وليس لمدة أسبوع، أو أسبوعين، أو شهر، لابد أن تكون كاملة في الجامعة، وفي خارجها بتوضيح شناعة الفعل هذا، وما أدى إليه، وأهمية إيضاح الأمور الشرعية في مثل ذلك، قتل النفس، قتل المسلم، قتل النفس حرام في النصوص، قتل المسلمين حرام بالنصوص، وكبيرة، وظلم، واعتداء وإجرام، قتل المستأمنين، والمعاهدين، وذوي المواثيق، الاعتداء على أموال المسلمين، الاعتداء على أموال المعاهدين، والمعصومين، الاعتداء على الآخرين، ترويع الآمنين، انتهاك حرمة الأمن التي أيدتها الشريعة، ترويع قتل بدون بينة، مسائل كثيرة في ذلك

كيف؟! أعظم جرم بعد الشرك بالله قتل النفس التي حرم الله ﷻ، فهل نترك هذا الأمر، أو نعالجه، أو نذكر بعض العبارات التي لا تكون في قوة هذه الشناعة، والإجرام الكبير، هذا ليس مطلوبًا، لا بد من شحن النفوس في مضادة الإجرام، ومضادة غير المنهج الحق.

سؤال: هذا سؤال يقول: أنه للأسف وجدنا بعض الطلاب من طلاب الجامعة، وغيرهم ممن لهم اطِّلاع على القنوات الفضائية يؤيدون لما يبث فيها من الاعتداء على العلماء، ووصفهم بالمداهنة، كما هو ظاهر في عدد من الكتاب الذين يصرحون بذكر أسمائهم، مما يؤدي إلى تزعزع الثقة بالعلماء، فما رأي معاليكم في ذلك؟

الجواب: الاعتداء على العلماء ليس جديدًا، العلماء ورثة الأنبياء، أول من اعتدي عليه بعد الأنبياء الصحابة رضي الله عنهم، وهم سادة أهل العلم، اعتدي عليهم من الضالين، والمارقين، كذلك أئمة الإسلام اعتدي عليهم، واتهموا بالمجاملة، اتهموا بالمداهنة، اتهموا بالفساد، اتهموا بأخذ الأموال، ليس هذا الأمر من الآن، من قديم، فمن نحا نحو الفرق الضالة التي تتهم العلماء بذلك، فهو ينحو منحى المتقدمين، فيجب الإنكار عليه إنكارًا واضحًا، الإمام أحمد في خطبته المشهورة، التي يحفظها أهل السنة والعلم، في أول خطبته كتابه: (الرد على الجهمية، والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن، وتأولوه على غير تأويله)، قال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إِلَى الْهُدَى، وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى، يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ

الْمَوْتَى، وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى، فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ، وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ هَدَوْهُ، فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ! وَمَا أَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ! يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ وَأَطْلَقُوا عِنَانَ الْفِتْنَةِ، فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ، مُجْمِعُونَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْكِتَابِ، يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ وَفِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، يَتَكَلَّمُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ، وَيَخْدَعُونَ الْجُهَّالَ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمْ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتَنِ الْمُضِلِّينَ[١].

ما أحسن أثر العلماء على الناس، لكن ما أسوأ أثر الناس عليهم، العلماء هم حراس الدين على الحقيقة، لكن ليس من شرط العالم أن يكون كاملًا.

هل من شرط العالم أن يكون كاملًا؟ ليس كذلك، لو كان العلماء كاملين لا يؤخذ عليهم في قول، أو في عمل، فإنهم صاروا أنبياء، والأنبياء هم المعصومون، أما العالم فليس بمعصوم، لكن العلماء لا يجوز الوقيعة فيهم، وقد قال ابن عساكر في أول كتابه في الدفاع عن عودة الأشعري إلى السنة (تبيين كذب المفتري فيما افتراه على الإمام الأشعري) قال: (لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة)[٢]، وهذه لاحظناها فيمن انتقص العلماء السابقين.

لاحظنا من انتقص في وقت الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ، من كان يرمي الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ من الشباب ذاك المتحمس، موجود اليوم الآن

---

(١) انظر: الرد على الزنادقة والجهمية، للإمام أحمد بن حنبل (ص ٥٥).

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (١/ ٢٩).

منهم من هو موجود، لكن الله ﷻ لم يجعل لهم ذكرًا، كما جعل لغيرهم ممن كانوا حول العلماء، كذلك من العلماء القريبين سماحة الشيخ ابن حميد، وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمهم الله تعالى جميعًا، ورفع درجتهم في جنته -، وجدنا من انتقصهم اليوم ليس في عير، ولا في نفير إلا في كلام فارغ، العلماء يجب أن نكون معهم؛ لأنهم مؤتمنون على حمل الشريعة، فهؤلاء الذين يتأثرون بنفي الوقيعة في أهل العلم لا يمثلون جهدًا، ولا علمًا، العلماء يسهرون ليلهم، ونهارهم؛ إما في فتوى، وإما في تعليم علم، وإما في نصيحة منظورة، أو غير منظورة، وإما في صلاة، أو المشاركة في أشياء تدفع عن الأمة الشرور، أو تصلح، أو في التعاون مع ولي الأمر فيما فيه بر وتقوى، ونحو ذلك، فمن أراد الوقيعة فيهم، فإنما إثمه على نفسه، وحسبه أن يكون مع الواقعين في العلماء من الفرق الضالة السابقة.

سؤال: هذا سؤال من الطالبات، عد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب مظاهرة المشركين، ومعاونتهم من نواقض الإسلام[1]، ما ضابط هذه المظاهرة؟

الجواب: هذا هو الناقض الثامن من نواقض الإسلام العشرة، والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لم يذكرها من عنده، فهذه النواقض موجودة بنصها في كتاب: «كشاف القناع عن متن الإقناع»، الشيخ رحمه الله اختصرها، فقوله مظاهرة المشركين، يعني: أن يكون لهم ظهرًا، وردءًا يدفع عنهم عند

(١) انظر: مجموع مؤلفات الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (٣/ ١١٨).

القتال، فإذا قام قتال بين الكفار والمسلمين، فجاء طائفة من المسلمين يكونون عونًا للكفار على المسلم بمظاهرة، يعني: أن يكون ظهرًا للكفار، يدفع عنهم، ويكون ظهرًا لهم؛ لأجل انتصار دينهم، فهذا ناقض من نواقض الإسلام، فأولًا تفهم معنى المظاهرة، وهو أن يكون مظاهرًا لهم، وقول الشيخ مظاهرة المشركين، ومعاونتهم، ليس المعاونة وحدها مكفرة على كل حال، وإنما المظاهرة، والمعاونة حال الحرب، بأن يكون ظهرًا، وردءًا لهم، قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام، وهذا يبينه فعل حاطب رضي الله عنه[1]، لما عاون المشركين ببث سر النبي ﷺ لهم، النبي ﷺ سار للمشركين، فأرسل لهم رسالة يقول فيها: (إن محمدًا قادم عليكم، فخذوا حذركم). وهذا نوع معاونة، بل هو نوع من إفشاء السر، والعين للكافر على المسلم، لكنه لم يكن مراده بذلك أن ينتصر الكفر على الإسلام، لم يكن مراده بذلك، وقصده بذلك أن يظهر الكفار على المسلمين، وإنما كان يريد حماية نفسه، وماله الذي كان بمكة؛ ولهذا لما اكتشفه النبي ﷺ قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا، فإنه قد نافق. قال: دعه يا عمر؛ كما في الصحيحين، استفصل منه، قال: ﷺ: **«ما حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»**، دل أولًا على أن هذا المقام مقام استفصال، ﷺ: **«ما حَمَلَكَ يَا حَاطِبُ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟»**. قال: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ»**. انظر فقه حاطب رضي الله عنه، قال: **«يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَتَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ**

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه صحابي جليل شهد بدرًا وقصته أخرجها البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وانظر تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢)، وأحكام القرآن للجصاص (٥/ ٣٢٥)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (١/ ٤٧٣).

مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ صَدَقَكُمْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، فمن كان ردءًا للكفار يدفع عنهم حال الهجوم عليهم، ويكون بذلك قاصدًا ظهور الكفر على الإسلام، فإنه حينئذ هذا من نواقض الإسلام، فكلمة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تفهم بما ذكره فقهاء الحنابلة، ارجعوا إلى شروح الحنابلة فيما ذكروه وإلى شروح غيرهم، وإلى النصوص الكثيرة في ذلك، فإن هذا بين، والعلماء يقولون: إن الله عَزَّ وَجَلَّ لما ذكر موالاة حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، أي: يخرجون الرسول، ويخرجونكم لعلة أنكم تؤمنون بالله ربكم، لاحظ في الآية أن الله عَزَّ وَجَلَّ صدرها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثم قال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ فجعل الإلقاء إليهم بالمودة ليس مانع من مناداتهم باسم الإيمان، قال: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾، ومع ذلك لم يمنعه أن يصدره بلفظ الإيمان.

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في رسائله لما ظهرت موجة التكفير في ذلك ونقل كلام أهل العلم في ذلك، ناداهم باسم الإيمان؛ لأن هذا النوع من إلقاء المودة ليس مخرجًا من الإيمان، مع

أنه مناف لكمال الإيمان، هذا ظاهر بَيِّن؛ لأنه لا بد من الخروج عن الإيمان أن يكون قصد الكفر بعد الإسلام؛ أما إذا كان قصد الدنيا، فليس قصد الدنيا بمكفر(١).

الغريب أن مثل هذا السؤال يكون بين الطالبات؛ لأن الأسئلة هذه تكون بين الشباب أكثر، وبهذه المناسبة نود أن لا يكون كل ما يبحث بين طلبة العلم من الرجال، أو الشباب، أو غيرهم يبحث عند الطالبات؛ لأن المرأة مطلوب منها أشياء في علمها، وتعلمها، وليكن في طالبات العلم، والأستاذات، ومن يشارك في هذا قدوة في عمل فقيهات الصحابة عائشة ﵄، وفي عمل أم الدرداء الكبرى ﵄، وكذلك عمل أم الدرداء الصغرى، وفي غيرها من فقيهات الصحابة، فإنه كان أكثر اهتمامهن بالأسرة، وما ينفع الناس، فإنه أجزى للانتفاع في الحاضر، وفي المآل، لكن العلم بما ذكر، وجواب ما ذكر في السؤال هذا مهم، ويشكرون على طرح مثل هذه الأسئلة المهمة.

المقدم:

جزاكم الله خيرًا، وقد كنا نود لو يطول هذا اللقاء، ويطول، وهناك مئات الأسئلة الحقيقة، وكلها في الموضوع، وتستحق أن يجاب عليها، ولكن نظرًا لقرب أذان صلاة الظهر نشكر لمعالي الشيخ صالح هذا الوقت الثمين،

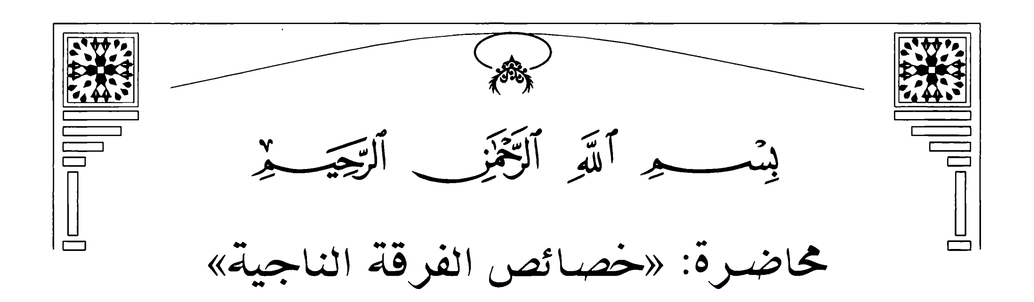
---

(١) سُئل الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن عن الفرق بين الموالاة والتولي، فأجاب ﵀: **«التولي كفر يخرج من الملة، وهو كالذب عنهم، وإعانتهم بالمال والبدن والرأي، والمولاة كبيرة من كبائر الذنوب؛ كبل الدواة، أو بري القلم، أو التبشش لهم، أو رفع السوط لهم»** ا.هـ. انظر: الدرر السنية (٨/ ٤٢٢).

وهذه المحاضرة القيمة، ونتمنى على الله ﷻ أن يسعفه الوقت، وأن يزور أبناءه الطلاب، وإخوانه الأساتذة مرات ومرات، نسأل الله ﷻ أن يكون فيما قدمه هذا اليوم في موازين أعماله، وجزاه الله خيرًا، وشكر له هذا العطاء، وهذا الطرح الجميل، وشكرًا لكم أيها الإخوة جميعًا على حضوركم، وعلى إنصاتكم، واستماعكم، وأسأل الله ﷻ أن يجعل اجتماعنا اجتماعًا مرحومًا، وتفرقنا بعده تفرقًا معصومًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

صاحب المعالي، تتشرف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتقديم هدية تذكارية لمعاليكم يسلمها معالي الدكتور محمد بن سعد السالم مدير الجامعة.





محاضرة: «خصائص الفرقة الناجية»

في مغرب يوم الثلاثاء الموافق: ١٤٢٠/٧/٣هـ

الحمد لله الذي بعث محمدًا بالهدى، ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدًا، أحمده ﷻ حمد عبد معترف بما له ﷻ من الآلاء والنعم، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله ﷺ وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا؛ أما بعد: فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم جميعًا ممن أصلح قوله وعمله، وجعل حياته زيادة في كل خير، ونعوذ به ﷻ من الخذلان، كما نسأله أن يلزمنا كلمة التقوى، وطريقة السلف الصالح التي هي أولى، ثم إني في مقدمة هذه المحاضرة أشكر للأخ الشيخ عبد المحسن العجيمي، إمام هذا المسجد، تنظيم هذه المحاضرات التي نحرص عليها؛ لأن لها فوائد كثيرة، ولأن بها نشر العلم النافع، ونشر العلم النافع به صلاح القلوب، وصلاح العباد، وهو شجرة زكيه تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وموضوع هذه المحاضرة هو بعض خصائص الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، وهذه المحاضرات كما سمعتم تنظم في عقيدة أهل السنة والجماعة، وفي صفاتهم، وتنظيمها في هذا الموضوع مهم؛ لأن الحاجة في كل زمن إلى بيان ما عليه أهل السنة والجماعة الذين وعدهم النبي ﷺ بالنجاة من النار، هو درس لكل مسلم بأن

يحتذي حذوهم، وأن يلازم طريقتهم، وأن يستمسك بعرى الدين الذي هم عليه، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ في الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ**». وفي رواية أخرى قال: «**مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلِيهِ وَأَصْحَابِي**»[(١)]، وهذا الحديث يدل على أن الطائفة الموعودة بمغفرة الله ﷻ، وبالنجاة من عذابه في النار، أنها هي الملازمة للجماعة، وهي الملازمة لما كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه؛ ولهذا تنوعت أسماء هذه الفئة إلى عدة أسماء عند أهل العلم، فتارةً يسمونهم أهل السنة والجماعة؛ باعتبار أن النبي ﷺ نص على أنها الجماعة وأنها على مثل ما هو عليه ﷺ يعني: على السنة، فصاروا أهل السنة والجماعة، ومنهم من يصفهم بأنهم الفرقة الناجية، وهذا وصف جاء متأخرًا، ولم يكن معروفًا في الزمن القريب منه ﷺ، وأُخذ من أنها نجت من النار من بين الثلاث وسبعين فرقة، فسميت فرقة، أو وصفت بأنها الفرقة الناجية، وسميت الفرقة الناجية، ومنهم من يقول: هي الطائفة المنصورة، وهذا باعتبار أن النبي ﷺ بين أنه: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ**

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن، وله طرق، وورد عن عدد من الصحابة منهم:

معاوية رضي الله عنه عند أبي داود في السنن (٤٥٩٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧).

وعوف بن مالك رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠).

وأنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٥)، وأبي يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»(١).

وفي لفظ آخر: «**لَا يزالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ﷻ**»(٢)، وهذا يدل على أن هذه الطائفة على الحق، والحق هو الذي عليه الفرقة الناجية، والحق هو الذي عليه تلك الفرقة التي تميزت من بين الثلاث وسبعين فرقة برضى النبي ﷺ، وبوعده لها بأنها تنجو من النار، ووصفها هنا بأنها منصورة؛ لأنه نظر إلى أن الله ﷻ وعد من استمسك بكتابه، وبسنة نبيه ﷺ، وبالهدي الأول بأنه سينصر؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢] -والعياذ بالله-؛ وكما جاء في قوله ﷻ -في آخر سورة الصافات-: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وكما جاء -أيضًا- في قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ونحو ذلك مما فيه لفظ النصر، والنصرة من الله ﷻ.

لهذا هذه أسماء لشيء واحد، ولمسمى واحد ولطائفة واحدة، فيقال أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية، وهذه أسماء متقاربة متحدة الدلالة، وفي المعنى بعضها يدل على الآخر -كما سبق-.

إذا تبين لك ذلك، فإن هذه الفئة، والطائفة لا شك أنها وصفت بأنها

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٩٢٠) من حديث معاوية ﵁، وقد أخرجاه من حديث جابر، وثوبان، والمغيرة بن شعبة، وسعد بن أبي وقاص ﵁ بألفاظ متقاربة.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٠، ٣٩٥٢)، وابن حبان (١٥/ ١٠٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٠٥).

على الجماعة، وأنها ملازمة لطريق النبي ﷺ، ولطريق صحابته ﵃، وأنها على الحق، وهذا يدل على أنها لم تبدل في دينها عما كان عليه الرسول ﷺ، وصحابته الكرام ﵃ أجمعين، وهذا هو الأصل العظيم في معرفة السمة الكبرى التي تندرج تحتها جميع السمات والصفات، والخصائص في أنهم يلازمون طريقة النبي ﷺ، وهديه، وسنته، وهدي، وطريقة الصحابة ﵃، ومعلوم أن الإسلام ينقسم إلى عقيدة، وإلى شريعة، كما قسمه طائفة من العلماء، وإن كانت الشريعة، يعني بها العقيدة في بعض الاستعمالات، والعقيدة يراد بها ما ليس في أمور الفروع، وأمور العبادات، والمعاملات... إلى آخره.

والشريعة يراد بها - يعني: العقيدة في الأمور الغيبية - الإيمان بالله، وملائكته، وما يعتقد، ولا يدخله العمل من جهة لفظه؛ وأما الشريعة، ففيها أنواع العبادات، والمعاملات، والسلوك إلى آخره، ولاشك أن الصحابة ﵃ في هذه المسائل في العقيدة، والشريعة هناك إجماع منهم على مسائل في العقيدة، وفي الشريعة، وهناك مسائل اختلفوا فيها، فعذر بعضهم بعضًا فيها، وهي في مسائل الأحكام في بعض مسائل الأحكام الفقهية مما لم يجمعوا عليه، فاختلفوا في بعض المسائل الفقهية، ولم يعب بعضهم على بعض فيها؛ لأن في الدليل ما يدل على كل قول من الأقوال، فعذر بعضهم بعضًا فيها، والمجتهد له أجران إن أصاب، وله أجر إن أخطأ، وأما مسائل العقيدة، فإنهم لم يختلفوا فيها، وكذلك طائفة من مسائل الشريعة أجمعوا عليها، سواءً في مسائل ما يجب، أو فيما يحرم، فأجمعوا في الواجبات على شيء، وأجمعوا في المحرمات على شيء؛ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ

مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]؛ لهذا وجب على كل مسلم يريد سلامته، ونجاته، وعلى طلاب العلم بالخصوص الذين ائتمنهم الله ﷻ؛ لأجل حرصهم على العلم، على أن يأخذوا العلم من مصدره، وعلى أن لا يفرقوا دين الله ﷻ، وجب عليهم أن يهتموا بأمور العقيدة، وأمور الجماعة أعظم اهتمام؛ لأنها السمة العظيمة لهذه الفئة، والفرقة الناجية الطائفة المنصورة.

إذا نظرت إلى هذه السمات، والخصائص التي ستأتي، فإنك ستجد أنها منقسمة إلى عدة أقسام، منها ما هو متصل بالأصل الأصيل الذي هو منهج التلقي، ومعرفة الأدلة التي يستدل بها المستدل فيما يرومه من مسائل.

والقسم الثاني: فيما يتصل بقواعدهم في العقيدة التي بها تميزوا عن فرق الضلال: من الخوارج، المرجئة، المعتزلة، وأشباه هذه الفرق التي خالفت طريقة الصحابة ﭫ.

والقسم الثالث: ما يتعلق بمنهج التعامل مع أصناف الخلق، ومسائل الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتعامل مع - كما ذكرت - أصناف المسلمين من طائعين، ومبتدعة، وعصاة.. إلى غير ذلك.

القسم الأول: منهج التلقي، ومعرفة الأدلة التي يستدل بها في المسائل:

فإن أهل السنة والجماعة، والطائفة المنصورة على الحق ساروا على وفق ما أمر الله ﷻ في معرفة ما يستدل به؛ لأن الإنسان المسلم إذا أراد أن يبرهن على قضية، فبم يبرهن؟ هل يبرهن بأي برهان يأتي على ذهنه، ويكون ليس له منهج في الاستدلال، ولا في التلقي، أم أن هناك ضابطًا يضبطه في مسألة

كيف يستدل؟ وبم يستدل؟ لهذا أهل البدع أرادوا الاستدلال ببعض الأدلة دون بعض، فخابوا، وخسروا، الخوارج مثلًا: أخذوا ببعض أدلة القرآن دون بعض، وأخذوا ببعض السنة دون بعض، والمرجئة أخذوا ببعض دون بعض، وهكذا أهل الاعتزال أخذوا ببعض دون بعض، وهكذا، -أيضًا- سلطوا العقل على الأدلة، فجعلوا الدليل تابعًا للعقل، أو استدلوا بالعقل المجرد، وجعلوه هو الحق، وجعلوا الدليل إذا خالف العقل، فإنه لا يستدل به؛ لأجل أن العقل قطعي عندهم؛ وأما الأدلة من الكتاب والسنة، وعمل السلف، أو أقوال السلف، فإنها مظنونة كما يزعمون؛ ولهذا قال بعضهم: **إن العقل هو القاضي المصدق، وإن الشرع هو الشاهد المعدّل**[1].

فجعل مرتبة العقل القضاء، والقاضي هو الذي يفصل، وجعل الشرع شاهدًا، وهذا من أعظم السمات التي يتسم بها من لم يأخذ بطريقة الصحابة رضي الله عنهم؛ لهذا كان مصدر التلقي في معرفته، في المسائل كلها في مسائل الغيب، والإيمان، والقضاء والقدر، بل في التوحيد: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وما سيأتي من مباحث، لابد من معرفة كيف نستدل، وبم نستدل، فأدلة أهل السنة والجماعة على مسائلهم في الأمور التي تميزوا بها عن غيرهم، واتفقوا عليها هي الكتاب والسنة والإجماع؛ وأما العقل، فيجعلون العقل تابعًا للنقل، فإن الشرع دل على العقل؛ ليفهم به النص، لا أن يكون العقل معارضًا لما دل عليه الدليل؛ لأن العقل اجتهاد فرد،

---

(١) قال أبو حامد الغزالي في فاتحة كتابه المستصفى (ص٣): (فقد تناطق قاضي العقل، وهو الحاكم الذي لا يعزل، ولا يبدل، وشاهد الشرع، وهو الشاهد المزكى المعدل، بأن الدنيا دار غرور، لا دار سرور...). اهـ.

والدليل وحي من الله ﷻ، وإذا قال القائل: العقل، فإنما هو قول لا حقيقة له واحدة؛ لأنه إذا قيل: العقل يدل على كذا. فعقل من؟ هل هو عقل واحد، أو عقل اثنين، أو عقل عشرة، أو عقل مائة. . . إلى آخره، فالعقول تختلف، والمدارك تختلف؛ ولهذا في المسائل العظيمة التي ذهب إليها من يقولون: إنهم أصحاب العقول، لما كبروا في السن تغيرت عقولهم، ورأوا أنهم لم يدركوا شيئًا؛ لأنه حتى عقل الإنسان ينمو مع الزمن، فعقله وهو ابن ثلاثين يختلف عن عقله وهو ابن أربعين يختلف عن عقله وإدراكه وهو ابن خمسين وهو ابن ستين، فإذًا: كلمة العقل هذه ليس لها وحدة واحدة ترجع إليها، لا من جهة الأشخاص بأن يقال: عقل - مثلًا - الناس يدل على كذا، وكذلك في عقل المعين يختلف ما بين فترة وأخرى، فالعقل يختلف باختلاف السن، باختلاف المعلومات، باختلاف أنواع الإدراكات ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ لهذا صار العقل في الشرع مقدرًا، ولكنه تابع للشرع؛ لأنه لا يستقل بالإدراك، بل لا بد أن يكون تبعًا للمصدر الحق.

فإذًا: منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة منحصر في أن يكون في الكتاب، والسنة، والإجماع، والكتاب الذي هو القرآن، نعني به: ما يشمل جميع الأحرف السبعة التي أنزلها الله ﷻ، فتارة يستدل بقراءة، وتارة يستدل بالقراءة الأخرى، والنبي ﷺ ثبت عنه بالتواتر برواية أكثر من عشرين صحابيًا أنه قال: «**إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ**»[(١)]، والقرآن حجة لأنه من الله ﷻ؛ لهذا قال الله ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٣٦)، ومسلم (٨١٨).

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، والحكم يكون في المسائل العلمية وفي المسائل العملية، وقال ﷻ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: الشرعية ﴿صِدْقًا﴾ فيما أخبر الله ﷻ به في أمور الغيب، ﴿وَعَدْلًا﴾ فيما أمر به، ونهى من الأوامر، والنواهي، فـ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وفي القراءة الأخرى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾[1].

النبي ﷺ أمرنا بتحكيم سنته ﷺ قال ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

والْحَظ في الجملة الأولى ما قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾؛ حتى لا يكون ما آتانا النبي ﷺ منحصرًا في الأحكام العملية، بل قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، بما يشمل العقائد، وأمور الغيب، وما يشمل المسائل العملية، وأما النهي فهو راجع إلى العمل، لا في الأخبار؛ لأن الأخبار لا مجال فيها للنهي، بل هي ما أوتينا منها، فإننا نصدقه كما أنزل الله ﷻ، وكما أخبر به النبي ﷺ، وصح عنه ﷺ أنه قال: «**أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»[2].

---

(١) قرأ نافع وابن عامر: (وتمّتْ كلِماتُ ربِّك) بالألف على الجمع، وقرأ الباقون ﴿كَلِمَتُ﴾، وحجتهم أنها تُجمع سائر الكلمات وتقع مفردة على الكثرة، فإذا كان ذلك كذلك استُغني بها عن الجمع؛ كما تقول: يعجبني قيامكم، وقعودكم.
انظر: إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع (٢/ ٤٥٧)، وحجة القراءات (٦٢٧)، والسبعة في القراءات (ص٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر (ص٢٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وابن ماجه (١٢)، وأحمد في المسند (٤/ ١٣١)، وابن حبان (١/ ١٨٨)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٨٣)، والبيهقي =

وأمر الله ﷻ بطاعة نبيه ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعًا - كما هو معلوم-، وطاعته تشمل: طاعته في الأخبار بتصديقها، وطاعته في الأوامر، والنواهي بامتثال الأمر، واجتناب النهي، والاستغفار عن التقصير؛ لهذا من المهم أن يكون الاستدلال في مسائل الاعتقاد - في المسائل الغيبية، في مسائل المنهج، في المسائل التي يختلف فيها الناس فيما بين الفرق التي انقسمت - بكتاب الله ﷻ، وبسنة رسول الله ﷺ، ثم بالإجماع؛ لأن الإجماع، حجة، ولما ذكر الشافعي رحمه الله الإجماع وأنه حجة، قالوا له: من أين أتيت بأن الإجماع حجة؟ قال: فقرأت القرآن أريد دليلًا على أن الإجماع حجة، حتى بلغت قوله ﷻ - في سورة النساء -: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وغير سبيل المؤمنين، يعني: غير ما أجمعوا عليه، فتوعده الله ﷻ بأن يصليه جهنم وساءت مصيرًا؛ لأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة؛ كما جاء في الحديث الحسن عن النبي ﷺ: «**إِنَّ أُمَّتِي لا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلاَلَةٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ اخْتِلاَفًا فَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ**»(١).

فإذًا: منهج الاستدلال - وتحت هذه الجملة كلمات - أن يكون بالقرآن، ويشمل ذلك جميع الأحرف السبعة، والموجود منها الآن القراءات، ربما عشر، أو أربع عشرة قراءة، وهي تدخل، أو هي بمجموعها، بعض الأحرف السبعة بمجموعها، ولا صلة بين الأحرف السبعة، والقراءات السبع، القراءات السبع هذا اصطلاح اصطلحه أبو بكر بن مجاهد في كتاب أحد

= في الكبرى (٩/ ٣٣٢) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه.

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٥٣)، والترمذي (٢١٦٧)، وابن ماجه (٣٩٥٠)، واللفظ له.

القراء في كتاب سماه «السبعة» اختار من قراء المسلمين الذين نقلوا القرآن سبعة قراء، وجعلهم في كتابه القراءات السبع، هذا شيء ليس هو مساويًا للأحرف السبعة، وإن اشتركوا في أن هذا سبع، وهذا سبع؛ أما السنة، فيستدل عند أهل السنة والجماعة بما ثبت عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا يعتني أهل السنة والجماعة بصحيح السنة، وما لا يصح من السنة، فلا يستدل به في مسائل الاعتقاد وفي المسائل العظيمة بما لم يثبت عنه ﷺ؛ ولهذا يقول ابن تيمية رحمه الله في معرض كلام له: (**أهل الحديث لا يستدلون بحديث ضعيف في أصل من الأصول، بل إما في تأييده أو في فرع من الفروع**)[(١)]؛ لأن السنة الصحيحة حجة، فإذا ثبت الحديث بأن كان حديثا صحيحًا أو كان حديثًا حسنًا؛ إما أن يكون حسنًا لذاته، أو أن يكون حسنًا لغيره لتقوية الشواهد له، ولم يكن فيه نكارة، ولا شذوذ، فإنه يحتج به، وهذا من التلقي عن رسول الله ﷺ؛ أما الإجماع، فإن الإجماع إذا نقله جمع من العلماء وقالوا: أجمع العلماء على كذا، فإنه يقبل، وأما إذا قال أحد العلماء: أجمع العلماء على كذا، فإنه قد يكون له اصطلاح في الإجماع، كما كان لابن المنذر رحمه الله اصطلاح في الإجماع، وكما كان لغيره اصطلاح في كلمة أجمع، وكذلك اتفقوا على كذا، فإذا نقل أكثر من عالم هذا الإجماع، ولم يتعقب، فإن هذا يدل على صحة هذا الإجماع، وكذلك ما اشتهر من الإجماعات، حتى غدا معروفًا عند أهل السنة والجماعة، بحيث لا يحتاج فيه إلى إثبات نقل عليه، مثل: تقديم أبي بكر رضي الله عنه في الخلافة؛ لتقديمه في الفضل، وكذلك تقديم عمر رضي الله عنه بعده؛ لتقديمه في الفضل، وكذلك تقديم عثمان رضي الله عنه، بعده

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥).

علي ﷺ من عداه من الصحابة ﷺ، لتقديمه في الفضل، وهكذا علي ﷺ فإننا نعلم أن الصحابة ﷺ على هؤلاء الأربعة أجمعوا، واتفقوا على ما صاروا إليه بنقل جماهير المسلمين، بحيث كان فائضًا، ومستفيضًا من المعلوم، وثم بحوث أخرى تتصل بمنهج الاستدلال. إذًا: تلحظ أن منهج الاستدلال عند أهل السنة والجماعة، والطائفة المنصورة ليس فيه تقديم العقل، كما يقدمه المعتزلة، ليس فيه الأخذ ببعض الكتاب دون بعض، كما هو عند الخوارج، والمرجئة، وفئات، ليس فيه تقديم، أو الاحتجاج بالمنامات، أو بما يسمونه الفيوضات، كما عند الصوفية، وعند بعض الناس الذي يرى أنه صار متعبدًا جاءه منام ظنه وحيًا ربما خالف مخالف، لهذا يُحكى عن أحد العلماء، وأظنه عبد القادر الجيلاني وكان سنيًّا، وإن خالف من بعده، فعظموه، حتى خرج أتباعه عن طريقة السلف، قال: جاءني في المنام - أو كما جاء في الرواية - شيطان، فقال: أنا ربك، أسقطت عنك الصلوات، فقال: قلت: أعوذ بالله منك. قال: فساح ولم أره؛ لأن إسقاط الصلوات عن واحد من عباد الله لم تأت به الشريعة، فهذا عالم لا يمكن أن يأخذ بكلام أحد يأتيه، ويجعله مقدمًا على ما جاء في النصوص، وما أوجب الله عليه، ضل بهذا الطريق فئام، فرأوا أن الصلوات، والعبادات ربما سقطت عنهم، وأنهم وصلوا إلى حالة من الإيمان، والقوة، بحيث إنه إذا عاشر منكرًا، أو أنه إذا ترك واجبًا أنه لا يضره في إيمانه، كما عليه طائفة من الذين أسقطوا عن أنفسهم التكاليف، أو ظنوا أنهم يسعهم الخروج عن شريعة محمد ﷺ.

فإذًا: الاستدلال بالمنامات، الاستدلال بأن يقول: جاءني ما جاءني

بالفيوضات، ورأيت كذا، هذا ليس من منهج أهل السنة والجماعة، ولا من طريقة الفرقة الناجية، بل هو من طرق أهل الضلال، فلا يقدم العقل، ولا تقدم المنامات، ولا الفيوضات، ونحو ذلك مما يستدل به من يستدل ممن خالف طريقة الصحابة ﵃، كل المسائل هذه فيها تفصيلات، لكن نذكرها باختصار؛ لأجل رعاية استيعاب الموضوع.

القسم الثاني: القواعد التي رعاها أهل السنة والجماعة، الطائفة الناجية، الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، التي رعوها حتى فارقوا أهل الضلال بتمسكهم بالكتاب والسنة، القواعد في عقيدتهم، وفي سلوكهم، أولًا قالوا: إن التوحيد الذي أمر الله ﷻ به في كتابه، وهو أن يؤمن به ﷻ وحده دونما سواه، يكون في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، وقالوا: إن القرآن دلنا على منهج إثبات الربوبية، وإن القرآن دلنا على أن الله ﷻ هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه، وأن القرآن والسنة دلنا على أن الواجب هو إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ، وعدم تأويل شيء من ذلك يخرجه عن ظاهره، وهذا بَيِّن في أن الأدلة دلت على أن التوحيد الذي طلبه الله ﷻ من الناس لما بعث إليهم الأنبياء، إنما هو التوحيد المتعلق بالإله المتعلق بالألوهية، لما أرسل كل رسول - كما في سورة الأعراف - فإن كل رسول يقول لقومه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات: ٣٥]، فأمر الله ﷻ بهذا التوحيد الذي هو توحيد الإلهية، وهو عبادته وحده دونما سواه، فقرر أهل السنة والجماعة أن التوحيد، الذي ينجي العبد في العبادة، إنما هو أن يوقن بأن الله هو المستحق للعبادة وحده، وأن هذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وأن

توحيد الربوبية يتضمنه توحيد الإلهية، فمن عبد الله وحده دونما سواه، فإنه مؤمن بأن الله ربه وحده، مفارق لطريقة الأشاعرة مثلًا، والمعتزلة، والمتكلمين، الذين قالوا: إن التوحيد المطلوب من العباد الذي ينجيهم هو توحيد الربوبية، فإذا كان كذلك، فإن الله أثبت أن المشركين الذين بُعث إليهم النبي ﷺ كانوا يوقنون بأن الله هو ربهم، وأنه خالقهم، ورازقهم، ومدبر الأمر؛ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١]، يؤمنون بأن الذي يفعل هذا هو الله ﷻ، هذا ربوبية، لكن ما أنجاهم؛ لهذا غلط الأشاعرة، ومن نحا نحوهم لما فسروا (الإله) بأنه القادر على الاختراع، وفسروا (الإله) تارة بأنه المستغني عما سواه المفتقر إليه كل ماعداه[١]. كما قال صاحب السنوسية من كتبهم يسمونها «أم البراهين»[٢] يعني: التي فيها البراهين العقلية الكافية، وهي ليست كذلك، قال: فمعنى (لا إله إلا الله) لامستغنيًا عما سواه ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله؛ إذ الإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه كل ما عداه. هذا كل أحد يؤمن بأن الرب بأن الله ﷻ مستغن عن الخلق، وأن الخلق مفتقرون إليه، هذا يؤمن به أبو جهل، ويؤمن به كل الذين عارضوا الرسل، ليس عندهم إشكال، الإشكال، ومعارضة الرسل في أن يوحِّد المعبود، أن يذروا الأصنام، وأن

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٠١)، ودرء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٢٦)، والملل والنحل (١/ ١٠٠)، والدرر السنية (١/ ٣٢٠).

(٢) أم البراهين لمحمد بن يوسف بن الحسين السنوسي المتوفى سنة خمس وتسعين وثمانمائة، انظر: كشف الظنون (١/ ١٧٠).

يتوجهوا بالعبادة إلى إله واحد، ولهذا في القرآن: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أي: يستحق العبادة ﴿إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، ولما قالوا - في سورة ص -: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

إذًا: فهذا المنهج مهم في أن السلف، والصحابة ﷺ، فمن بعدهم إلى زماننا هذا ممن لزم هذا المنهج يعلمون أن الابتلاء وقع في الألوهية، وممن أبرز هذا أيما إبراز، وركز عليه الحافظ الإمام ابن جرير الطبري في التفسير، فركز عليه، وهناك من قبله من أئمة السنة، لكن هو كرر هذا المعنى في تفسيره في ذكر توحيد الربوبية نصًا، وتوحيد الإلهية نصًا.

أما توحيد الأسماء والصفات، فمعناه: الإيمان بأن الله ﷻ له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وأنه لا مثيل له في أسمائه، ولا فيما اتصف به من الصفات على ما قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والذين خالفوا طريقة أهل السنة قالوا: إن الصفات لا يثبت منها كل ما جاء في القرآن والسنة، وإنما نقسم الصفات إلى صفات دل عليها العقل، وصفات لم يدل عليها العقل، بل دل العقل على أنه لا يوصف الله ﷻ بها، وهذا تفريق بين كلام الله ﷻ، والأخذ ببعض ورد بعض؛ لأن الله ﷻ لما وصف نفسه في كتابه، وسمى نفسه، جعل المجال مجالًا واحدًا، وجعل الطريق طريقًا واحدًا، لم يفرق بين صفة وصفة؛ لأنها كلها أمور غيبية يذكر الله ﷻ عن نفسه العلية، وعن ذاته المقدسة ﷻ ما يجب علينا أن نؤمن به، فلماذا يفرق الإنسان ما بين شيء وشيء، والكل جاء في القرآن والسنة؟ فالتفريق هذا ليس من منهج أهل السنة، بل أهل السنة والجماعة يجعلون

الباب بابًا واحدًا، فكل ما جاء في الكتاب، أو السنة في وصف الله ﷻ، أو في ذكر أي أمر من الأمور الغيبية، فإنهم يثبتونه على ما دل عليه ظاهر اللفظ دون تأويل، أو تحريف يخرجه عن ظاهره، أو عن دلالة ظاهرة، ولهذا تعلمون القاعدة التي قعدها أهل السنة في هذا، بأننا نؤمن بما جاء في الكتاب والسنة من ذكر أمور الصفات، من ذكر صفات الله ﷻ، أو أسماء الرحمن ﷻ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، فنحن لا نكيف، لا نمثل، لا نعطل، ولا نجسم، لا نتأول تلك النصوص بتأويلات تخرجها عن ظاهرها؛ فإذًا: إثبات اليدين لله ﷻ هو مثل إثبات السمع لله ﷻ، قال أولئك ممن ضل في هذا الباب، قالوا: إننا إذا قلنا إن اليدين مثبتة لله ﷻ أو أن الله يوصف بالرحمة، أو أنه يوصف بالغضب، ويوصف بالرضا، هذا معناه شبهناه بالمخلوق؛ لأن هذه أشياء يتصف بها المخلوق. فنقول ما الذي أثبتم من الصفات؟ قالوا: أثبتنا وجود الله ﷻ، وأثبتنا الكلام لله ﷻ، وأثبتنا السمع لله ﷻ، وأثبتنا الإرادة لله ﷻ، وأثبتنا الحياة لله ﷻ، وأثبتنا القدرة لله ﷻ إلى آخره.

فنقول، أليست هذه موجودة في المخلوق؟ أليست الحياة موجودة؟ أليس السمع موجودًا؟ أليس البصر موجودًا؟ أليست القدرة موجودة؟ فما الفرق عندكم ما بين اتصاف المخلوق بهذه الصفات، واتصاف الله؟ قالوا: المخلوق له منها ما يناسبه، قدرته محدودة.

إذًا نقول في المقام الثاني: إنه إذًا ما يليق بالله ﷻ من الصفات لا ينفى عن الله، فنقول لله وجه ﷻ كما يليق بجلاله، وعظمته، ولو لم يخبرنا الرب ﷻ أن له وجهًا لما أثبتناه، لو لم يخبرنا ﷻ أنه متصف بالرضا

وبالغضب، ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المجادلة: ١٤].

قالوا: لا، الله لا يغضب. لماذا لا يغضب؟ قالوا: لأن هذه صفة نقص في المخلوق، أنه إذا حزن كيف يحزن؟ لماذا يحزن؟ هل هو عندكم أن الغضب هنا ينفى؛ لأجل مشابهة المخلوق؟ قالوا: نعم، فنقول الصفات التي أثبتوها لا تشابه المخلوق؟ فلا مجال لهم في الإنكار؛ لهذا من خصائص أهل السنة والجماعة أنهم لا يفرقون في باب الأسماء والصفات، ولا في باب الغيبيات بين باب وباب، في باب الغيب قال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

يأتي آت ويقول: ليس هناك موازين؛ لأن الميزان يحتاجه الشخص الذي يشك فيه، هل هو عادل، أو ليس بعادل؟ والله ﷻ يوم القيامة هو الحكم العدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فما يحتاج إلى موازين؛ فإذًا: الموازين هذه معناها العدل، لماذا قلتم هذا؟ لأجل أن العقل قال لهم لا نحتاج إلى هذا، أما أهل السنة والجماعة، فقالوا: أثبت الله الموازين، فنثبتها، والله ﷻ جعل الميزان في مثقال ذرة، قال: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزلزلة: ٧]، لاحظ كلمة مثقال؛ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: ٨]، ثم وضع الشيء في الميزان ليس هو لأجل حاجة الله ﷻ أن يثبت عدله، ولكن لاجل إقامة الحجة على المخلوق المكلف، بأن هذا هو ميزانك، هذه حسناتك، وهذه سيئاتك، وأنت الآن الحكم على نفسك؛ ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي الآية الأخرى قال ﷻ: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: ١٤]، فيعطى الكتاب

قبل الميزان، فينظر في الكتاب كل شيء عمله من خير، أو شر، فإنه يجده في كتابه، ثم بعد ذلك يضع الله الميزان، وينظر العبد أنه توضع فيه الحسنات، وتوضع فيه السيئات؛ إذًا: التأويل الذي يخرج هذه الآيات عن ظاهرها لا شك أنه باطل؛ إذًا: من خصائص أهل السنة والجماعة؛ والطائفة الناجية: أنهم لا يخوضون في آي القرآن، ولا في دلائل السنة بتأويل يصرفها عن ظاهرها، بل يؤمنون بالغيب كله؛ لأن الله أثنى عليهم بقوله - في أول آية من القرآن -: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، المتقي الذي يخاف الله ﷻ أول صفاته؛ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، ثم بعد ذلك ذكر العبادات، الإيمان بالله إيمان بالغيب، الإيمان بالملائكة إيمان بالغيب، الإيمان بالرسل الذين سلفوا إيمان بالغيب، الإيمان بالكتب إيمان بالغيب، الإيمان بالقدر إيمان بالغيب، الإيمان باليوم الآخر إيمان بالغيب، فرجع حقيقة أركان الإيمان، والعقيدة إلى أنها إيمان بالغيب، فمن آمن ببعض الغيب، وبعض الغيب تأوله، فإنه خارج عن صراط الصحابة، والفرقة الناجية في ذلك.

إذًا: في مسائل التوحيد هذا نهجهم ﵃، وأرضاهم.

القاعدة الثانية: أنهم يؤمنون بأن الله ﷻ جعل لكل شيء قدرًا كما أنه جعل لكل شيء قدرًا، فما خلق الله ﷾ من شيء إلا بقدر، قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال ﷻ - في آية سورة القمر -: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

فإذًا: الإيمان بالقدر هذا من سمة أهل السنة والجماعة، من الإيمان بالقدر مما تميزوا به أنهم يعلمون أن الله ﷻ جعل لكل شيء سببًا، فأناط المسببات والنتائج بالأسباب، وبالمقدمات، فيقول أهل السنة والجماعة: (إن الله ﷻ جعل السبب ينتج المسبب)، ومن فعل السبب، فقد أتى بالواجب عليه؛ لأنه من الواجب على العبد أن يأتي بالأسباب التي توصل إلى المقصود، فأعظم الأسباب التي توصل إلى المقصود الإيمان بالله ﷻ؛ حتى ينجو العبد، أعظم الأسباب التي توصل إلى المقصود طاعة النبي ﷺ، الإيمان بالقرآن، وهكذا، فهذه من الأسباب العظيمة حتى لا يتمنى أحد على الله الأماني، كذلك في الأمور الكونية جعل الله ﷻ الماء منبتًا للزرع، قال ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ جعل الله ﷻ ولد فلان بن فلان مقدرًا أنه سيأتي في اليوم الفلاني، وفي الساعة الفلانية سيخرج إلى الدنيا، لكن جعل لإتيانه سببًا، وهو أن فلانًا يتزوج، ثم يواقع امرأته في وقت معلوم إلى آخره، فتحمل بإذن الله ﷻ، هذه أمور الأسباب يؤمن بها أهل السنة والجماعة، لكن في الأسباب لا ينظرون إلى الأسباب، لا يلتفتون إلى الأسباب، لا ينظرون إليها على أنها التي تحصل المقصود وحدها، بل ينظرون على أنها سبب، والله ﷻ هو الذي ينفع بالسبب، ويجعل السبب سببًا نافعًا، خذ مثلًا: أحدهم يذهب إلى الطبيب فيعطيه دواءً، فلا ينفع الدواء، سبب الذهاب إلى الطبيب سبب مشروع، يعني لا بأس به، تناول الدواء المباح - أيضًا - لا بأس به، فإذا فعل ذلك، هل لا بد أن يحصل له الشفاء؟ لا يحصل، فإذًا: نأتي السبب، ثم بعد ذلك نفوض الأمر إلى الله ﷻ في الانتفاع بهذا السبب، أما محو الأسباب أن تكون

أسبابًا كما عليه غير أهل السنة والجماعة من الذين ينفون الأسباب، ويقولون في القدر بالجبر الجبرية في باب القدر يقولون: لا، الأسباب هذه أشياء خلقها الله ﷻ للظاهر، ولكن في الحقيقة الإنسان مجبور على كل شيء، نقول الآن الإنسان يعلم أنه يشرب الماء، فيرتوي، الارتواء كيف حصل؟ قالوا، ماذا يقول أهل السنة؟ يقولون: الارتواء حصل بسبب الماء، شربت فارتويت. هذا سبب ظاهر، النار وأشعلتها على شيء، فأحرقته، النار هي التي أحرقت، لكن من الذي نفع؟ يعني: جعل الماء يروي؟ هو الله ﷻ.

من الذي جعل النار تحرق؟ هو الله ﷻ، ولو أراد الله ﷻ أن يبتلي العبد بأن يشرب من الماء بحارًا، ولا يرتوي لفعل ﷻ، كما يحصل مع بعض المرضى، أو كما يحصل مع من ابتلاهم الله ﷻ، كذلك لو أراد الله ﷻ أن يبطل فعل النار أن تؤثر بالإحراق لأبطل، لاحظ لأبطل، هذا سبب، كما أبطلها حين قذف إبراهيم عليه السلام في النار؛ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، هذا قول أهل السنة؛ أما أهل البدع، والجبرية، فإنهم ماذا يقولون؟ يقولون: (لما شربت الماء أحدث الله لك الشعور بالارتواء، لما اقترنت النار بهذه الورقة أحرق الله الورقة، لما حصل التقاء الذكر بالأنثى وضع الله ﷻ الحمل)، وهذا كما يرى أي منصف، يرى أن هذا خلل في ماذا؟ في العقل، والتفكير؛ لأنك تسلب الأسباب أن تكون أسبابًا؛ ولهذا أهل السنة ساروا في القدر على منهاج رضي؛ لأنهم نظروا إلى الأسباب نظراً صحيحًا، ومسألة الأسباب مهمة في السلوك، وفي القدر، وفي الإيمان؛ لأن بها وضوح النظرة إلى هذه الأشياء، من منهج أهل السنة والجماعة في باب القدر - أيضًا - أنهم قالوا: إن الإنسان جعله الله ﷻ

مخيرًا، يختار طريق الحق، أو يختار طريق الضلال؛ كما قال ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١٠]، أي: طريق الخير وطريق الشر يختار؛ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧-١٠] ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ في الخير، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ في الشر، هو الذي يسعى في تزكية نفسه، أو يسعى في تدسية نفسه، وخيبتها، لكن كما أنه ليس بمجبر، وهو مختار، لكن هناك شيء مهم، وهو أن الله ﷻ يعين، ويوفق من توجه إليه، كيف يعني؟ الذي يرغب في الخير يعينه الله، ويوفقه، والذي يرغب في الشر، ويسعى إليه يخذله الله، ويكله إلى نفسه، فلهذا المؤمن المصدق بالقدر يرى أنه فيما أطاع الله فيه أنه ليس من عند نفسه، هو نعم اجتهد، لكن الله أعانه، وهذا يحس بها كل واحد في نفسه أن الله أعانه، كذلك الذي عصى الله ﷻ إنما عصى الله ﷻ بمحض اختياره، والله ﷻ خذله، ووكله إلى نفسه.

من القواعد - أيضًا - في هذا الباب: أن أمور الغيب بعامة بابها واحد - كما ذكرنا -، وأنه لا يتعرض فيها بالتأويل، ونخص هنا ذكر التأويل؛ لأن التأويل تجده مبثوثًا في كثير من كتب التفسير، وكثير من كتب الحديث، يخرج المسألة الغيبية عن ظاهرها إلى ما يقبله العقل، والتأويل لفظ كان مستعملًا، بل جاء في القرآن لفظ التأويل، وجاء في السنة، واستعمله المتأخرون على معنى باطل، أما الذي في القرآن، والسنة، فإن التأويل له معنيان:

المعنى الأول: أن التأويل بمعنى التفسير، ويعني تأويل كذا يعني تفسير كذا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، تأويل رؤياي أي: تفسير رؤياي، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ

بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤] أي: بتفسير الأحلام، هذا هو المعنى الأول، التأويل بمعنى التفسير.

المعنى الثاني الذي في القرآن: التأويل بمعنى ما تؤول إليه حقائق القرآن، حقائق الأحكام، أو حقائق الأخبار توؤل إليه، يعني: ما تؤول إليه في النهاية، وهذا كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ويشمل تأويل التفسير في ما اشتبه على بعض الناس علمه، ويشمل التأويل الذي ما تؤول إليه الحقائق يوم القيامة، وكذلك في قوله ﷻ - في سورة الأعراف -: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: تأويل القرآن؛ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٣] إلى آخره.

إذًا: في قوله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ﴾ أي: ما تؤول إليه حقائق القرآن يوم القيامة. تؤول إليه يعني: تنتهي إليه يوم القيامة، يبين الوصف الحق، يبين الجنة، يبين النار، يبين الظالم، يبين الحقائق، هذان المعنيان صحيحان.

أما التأويل الثالث الباطل الذي ينفيه أهل السنة والجماعة وليس من منهجهم: هو أن يصرف اللفظ الذي في القرآن، أو السنة مما يتعلق بأمور الغيب إلى معنى آخر لا يدل عليه الظاهر؛ لأجل العقل. وهذه هي طريقة المتكلمين من المعتزلة، الأشاعرة، الماتريدية، الكلَّابيَّة، وفئات كثيرة، ويدخل فيهم الرافضة، والزيدية، والإباضية، والخوارج، كلهم ينحون منحى التأويل هذا؛ لأنهم يقولون العقل دلنا على أن هذه لا نحملها على ظاهرها، تحملونها على أي شيء؟ نحملها على معنى ثان، يؤولونها

بما يتفق مع العقل، هذا تأويل باطل، التأويل في اللغة التفسير، التأويل في القرآن جاء بمعنى التفسير فسر الآية بظاهرها، فإذا كنت لا تحسن تفسير ظاهرها أَمِرَّهَا كما جاءت، فإن ذلك تفسيرها؛ لأنك لا تدخل فيما لا علم لك به.

القاعدة الرابعة في هذا الأمر المهم: أن أهل السنة والجماعة تميزوا بأنهم في الإيمان يقولون: إن الإيمان قول، وعمل، واعتقاد، قول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان -يعني: بآلات الإنسان، ببدن الإنسان- واعتقاد بالجنان، وليس الإيمان اعتقادًا بدون عمل، أو قولًا، واعتقادًا بدون عمل، فلابد من الثلاثة، هذه حقيقة الإيمان، وهي أركان الإيمان، وليس قولهم في الإيمان كقول من خالفهم؛ لأنهم أخذوا مسألة الإيمان مما دل عليه القرآن، والسنة، قال النبي ﷺ لوفد عبد القيس عندما أمرهم بالإيمان بالله وحده: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ**»(١)، هنا سألهم: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟**»، ثم ذكر أشياء، هذا السؤال عن بيان الحقيقة، يريد أن يبين لهم حقيقة الإيمان ما هي، فذكر الشهادتين، ذكر الأعمال، الصلاة عمل بدني، الزكاة عمل مالي، وذكر أداء الخمس من المغنم الذي هو نتيجة الجهاد في سبيل الله، كذلك في الحديث الآخر: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا الله**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣، ١٣٩٨)، ومسلم(١٧).

وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ»(١).

لماذا ذكر النبي ﷺ هذه الثلاثة؟ يبين الأعلى، والأدنى، والْحَظ أن الأعلى قول، و الْحَظ أن الأدنى عمل، والحياء هذا أيش؟شيء في القلب، الحياء أمر قلبي ينتج عنه أشياء؛ ليدل ﷺ أمته على أن الإيمان فيه أقوال، وأعمال، وأشياء قلبية.

إذًا: فهذا حقيقة قول أهل السنة الذي تميزوا به، أما الخوارج، والمعتزلة، ومن خالف، فإنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إما أن يأتي كله، وإما أن يزول كله؛ وأما أهل السنة، فقالوا: يختلف عمل فلان عن فلان، هم درجات عند الله، هذا رجل متعبد، وآخر خلط عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، فهل يستوون؟ لا، الإيمان يتبعض، الإيمان مراتب، فبعض الناس أعلى من بعض في الإيمان؛ أما غيرهم قالوا: لا، هو حقيقة واحدة؛ إما أن يأتي كله، وإما أن يذهب كله.

الأمر الثاني قالوا: إن الذي يرتكب الكبيرة ليس بمؤمن؛ لأنه فقد شرط صحة الإيمان، وهو العمل. وأهل السنة والجماعة يقولون: لا، هو مؤمن بإيمانه، لكنه فاسق بكبيرته. واحد عنده عمل صالح، وهو نفسه عنده عمل آخر سيئ، الله ﷻ يقول: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]، وقال في وصفهم: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]. فالذي يأتي إلى الناس، ويقول: هذا الإيمان إما أن يأتي كله، وإما أن يذهب كله. هذا ليس على طريقة أهل السنة

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والجماعة، سواء أكان المحكوم عليه فردًا، أم كان حاكمًا، يقول: إما أن يأتي كله، أو أن يذهب كله. فإن هذا ليس من أقوال أهل السنة، بل طريقة أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة، في باب الإيمان أنهم يقولون: الإيمان يتبعض، وأن المؤمن يمكن أن يكون يعمل خيرًا، ويمكن أن يكون يعمل شرًا، فهو ربما جمع بين هذا وهذا، فهو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، لا نسلبه اسم الإيمان لأجل معصية وقع فيها.

القسم الثالث من خصائص أهل السنة والجماعة: ما يتعلق بالمنهج الذي سلكوه تجاه الصحابة ﵃، أو في الجهاد، أو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أو نحو ولاة الأمر، وما شابه هذه المسائل؛ لأن هذه المسائل افترقت فيها الأمة، فأول ما حدث الخروج على عثمان ﵁ ثم تكفير بعض الصحابة ﵃، تتولى بعضًا، وتتبرأ من بعض، كما عند الخوارج، والناصبة، والرافضة، ثم جاء الضلال في باب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما عند المعتزلة في وقت متأخر، وهكذا.

فاتسم أهل السنة والجماعة لإكرام الله ﷻ لهم بالنجاة، والنصر؛ لأنهم يسلكون في ذلك فيما دلت عليه النصوص، ولا يفرقون في ذلك بين نص ونص، أو يخرجون النصوص عن ظاهرها، ففي مسألة الصحابة فإن أهل السنة والجماعة، الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية، يتولون جميع الصحابة بلا استثناء، كل صحابي، فإننا نحبه، «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، فَلَمُقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً، خَيْرٌ من عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ**»[1]، كما جاء في الأثر عن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٥٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٨٤)، والبيهقي في الاعتقاد (ص٣٢٣)، =

بعض الصحابة ﵃، وقال ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَاتَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»(١)، يعني: ولا نصف المد.

والله ﷻ يقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ إلى أن قال - في آخر الآية في آخر سورة الفتح -: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] أي: بعد الصحابة ﵃، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]. فمن خصائص أهل السنة: محبتهم لجميع الصحابة ﵃، وأنهم يتولون الجميع، ولا ينتقصون صحابيًا من الصحابة ﵃، مهما كان لا ينتقصونه، وأفعال الصحابة ﵃ مما اجتهدوا فيه؛ منهم من كان مصيبًا فله أجران، ومنهم من كان مخطئًا، واجتهد رغبة في الأجر، وتحريًا للحق فله أجر واحد. وهكذا كان الأمر في الخلاف ما بين علي ﵁، ومعاوية ﵁، فإن أهل السنة والجماعة يرون هنا أن عليًا ﵁ هو المصيب، وهو الأولى بالحق، وهو الذي يجب على الناس إذ ذاك الالتزام به، ومعاوية ﵁ كان مجتهدًا فله أجر واحد على اجتهاده. ويرتبون الصحابة؛ أن الخلفاء الأربعة ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة: أبوبكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم

= واللالكائي في الاعتقاد (٧/ ١٢٤٩) كلهم موقوفًا على ابن عمر ﵄.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

علي، ولا يتنقصون أحدًا من الصحابة رضي الله عنهم ألبتة، كذلك منهجهم مع أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - وأخصهن خديجة رضي الله عنها، وعائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق، فإن أهل السنة والجماعة يتولون جميع أمهات المؤمنين، ولا يذمون امرأة من زوجات النبي ﷺ، بل يشهدون أنهن زوجاته في الآخرة كما كن زوجاته في الدنيا ﷺ؛ كما قال ﷻ - في وصف النساء -: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب:٦]، فهن أمهات المؤمنين، والأم لها حق، صحيح أنها ليست أُمًّا في المحرمية، فليس الصحابي مَحْرَمًا لها، فهذه أُمّ في الحق، وفي تحريم النكاح، كما هو معلوم. أما أهل البدع، فتجد أن الخوارج يكفرون بعض الصحابة، من الذي قتل عثمان؟ الخوارج. من الذي قتل عليًا رضي الله عنه؟ الخوارج. أفضل رجلين في زمانهما عثمان، وعلي يقتلان تقربًا إلى الله ﷻ، هل بعد هذا الضلال من ضلال؟ يأتي عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل عليًّا، وكان متعبدًا من الخوارج، الذين وصفهم النبي ﷺ بقوله: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[1].

ما أعجبته تصرفات علي رضي الله عنه، فسعى، واتفقوا على أن يقتل ثلاثة منهم علي رضي الله عنه، فقُتِل علي رضي الله عنه، فأتوا إلى ابن ملجم ليقطعوا رأسه، فقال: إني سائلكم أن لا تقطعوا رأسي مرة واحدة، بل قطعوا أطرافي شيئًا فشيئًا؛ حتى ألتذ بتعذيب بدني في سبيل الله ﷻ. يعني أعظم من هذه رغبة في رضا الله ﷻ، لكن هل هم أتقى من الصحابة رضي الله عنهم؟ لا، بل هم كلاب أهل النار؛

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

كما قال ﷺ: «فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، لَئِنْ لَقِيتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[(١)].

مع أن عبادتهم عظيمة، اسمع كلامه، حتى أتى الخارجي الثاني يمدح هذا الذي قتل عليًّا رضي الله عنه، يقول[(٢)]:

يَا ضَرْبَةً مِنْ تَقِيٍّ مَا أَرادَ بِهَا ... إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا

إِنِّي لأَذْكُرُهُ حِينًا فَأَحْسِبُهُ ... أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا

يقول إن أوفى البرية عند الله ميزانًا هو الذي قتل عليًّا. هذا ضلال مبين مع كثرة العبادة، ومع كثرة الصلاح الظاهر، لكنهم كلاب أهل النار، لمَ؟ لأنهم لم يلتزموا نهج الصحابة رضي الله عنهم، فالطريقة الأولى، والجماعة هي الفرقة الناجية، ومن عداهم لا شك أنه متوعد بالنار، ومن أهل الضلال.

أما في مسائل العلماء لصلتها بالصحابة رضي الله عنهم، فإن طريقة أهل السنة والجماعة أنهم لا يذمون أهل العلم إذا أخطئوا في مسألة ما داموا متمسكين بما دل عليه الدليل في الجملة، فإذا غلط أحدهم في مسألة، أو مسألتين، أو اجتهد فأخطأ، فإنهم لا يتبعونه فيما أخطأ فيه، ولكنهم لا يذمونه؛ لأنهم

(١) أخرجه البخاري (٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي رضي الله عنه، وفيه: «**فإنّ في قتْلِهِمْ أجرًا لِمنْ قتلهُمْ يوْم الْقِيامةِ**».
وأخرجه البخاري (٣٣٤٤، ٤٣٥١، ٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه: «**يقْتُلُون أهْل الإسْلامِ ويدعُون أهْل الأوْثانِ، لئِنْ أدْركْتُهُمْ لأقْتُلنّهُمْ قتْل عادٍ**».

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣).

يعلمون أنه مجتهد، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، فمن منهجهم: سلامة ألسنتهم من الوقيعة في أهل العلم؛ لأن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ**»[(١)]، وهم الذين يدلون الناس على الشريعة، فإذا قذف العلماء، أو طعن في أهل العلم لأجل أن فلانًا لم يصوب فعلهم، فإنه يقع الضرب في ماذا؟ في الشريعة، فأفرح ما يفرح الشيطان، وأولياء الشيطان في أن يطعن في الذين يرشدون الناس إلى الشريعة، وهم العلماء؛ لأنه يختل الناس فلا يبقى لهم من يرشدهم، أو لا يبقى لهم من يثقون به، فيسيرون وفق أهوائهم، فيضلون ويضلون؛ لهذا سلامة اللسان من الوقيعة في أهل العلم هذه سمة، وخصيصة من خصائص الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية.

من صفاتهم - أيضًا -، وخصائصهم في هذا المقام المتعلق بالمنهج: أنهم يتولون ولي الأمر الذي ولاه الله ﷻ أمرهم، ويدعون لهم بالصلاح، والمعافاة، ويعينونهم على الخير، ولا يعينونهم على الشر؛ لأن النبي ﷺ، بل لأن الله ﷻ أمر بذلك في كتابه، وأمر به نبيه ﷺ فقال: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ**﴾ [النساء: ٥٩]، وقال ﷻ: ﴿**وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا**﴾ [النساء: ٨٣]، ويؤمنون بقول النبي ﷺ: «**مَنْ يُطِعْ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي**»[(٢)]،

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (٥/ ١٩٦)، والدارمي (٣٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٦٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).

وأهل السنة يطيعون ولاة الأمر في غير المعصية، أما في المعصية فكما قال النبي ﷺ: «**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»[(١)]، وقولهم (في غير معصية) يشمل مسألتين:

المسألة الأولى: أنهم يطيعونهم في ما فيه طاعة لله ﷻ، يعني: أمروا بالصلاة، فإننا نطيعهم، طاعة لله ﷻ ثم طاعة لولي الأمر، أمروا بأداء الزكاة لا يفر المسلم منها، بل يطيع الله ﷻ، ثم يطيع ولي الأمر، أمروا بالجهاد، فإن الجهاد مع كل بر وفاجر من ولاة الأمور، وهكذا.

أما المسألة الثانية: فإنهم يطاعون فيما هو من موارد الاجتهاد، إذا كانت المسألة اجتهادية، اختلف فيها أهل العلم، أو اجتهد الوالي في أمر في اجتهاده مصلحة للدين، ومصلحة للمسلمين، فإنه يطاع ولو لم يكن اتفاق على أن هذا فيه مصلحة، بل يطاع في المسائل الاجتهادية، وهذا ما يتعلق بالمصالح المرسلة، أما ما فيه نص فخالفه، فإن هذه معصية، و«**لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**»، وهذه هي التي بينها ﷺ في قوله «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[(٢)] يعني: فيما عرفت الطاعة فيه في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهنا خالف في طاعة ولاة الأمور الخوارج، فخرجوا على عثمان، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - لما رد على الشيعة في كتابه: «منها ج أهل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٥)، وأحمد (١/ ١٣١)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٥٥)، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٦٥)، والأوسط (٤/ ١٨٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٢٦)، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رضي الله عنه.

السنة» -[١]: (**وَكَثِيرٌ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ، أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِنَّمَا خَرَجَ لِيُنَازِعَهُمْ مَعَ اسْتِئْثَارِهِمْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَى الِاسْتِئْثَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ يَكُونُ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ ذُنُوبٌ أُخْرَى، فَيَبْقَى بُغْضُهُ لِاسْتِئْثَارِهِ يُعَظِّمُ تِلْكَ السَّيِّئَاتِ، وَيَبْقَى الْمُقَاتِلُ لَهُ ظَانًّا أَنَّهُ يُقَاتِلُهُ لِئَلَّاتكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا حَرَّكَهُ عَلَيْهِ طَلَبُ غَرَضِهِ: إِمَّا وِلَايَةٌ، وَإِمَّا مَالٌ**)؛ لأنه ما يمكن أن يكون ولي الأمر كاملًا، ثم يخرج عليه، لا يكون، هذا شيء آخر، لكن يكون ولي الأمر كاملًا لا نقص فيه، ويخرج عليه، هذا إنما يخرج الذين يخرجون لأجل مخالفة، أو مخالفات رأوها، يقول: وهكذا كان الذين خرجوا على عثمان ﷺ الخليفة الراشد، فإنهم تشبثوا بمسائل أخذوها عليه في تصرفه في بعض الأموال، وفي تعيينه لبعض قرابته، وأرادوا الحق ظاهرًا، والمال أرادوه باطنًا. يعني: أن المسألة اختلطت في الرغبة في الدنيا، والرغبة في الآخرة، فنقدوا، وخرجوا، ولم يطيعوا لأجل دخول هذه في هذه، والله ﷻ حسيب كل عبد على نفسه.

الأخيرة أو قبل الأخيرة: منهجهم في التعامل مع الخلق، في الدعوة، في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في الجهاد في سبيل الله ﷻ، فإن الطائفة المنصورة وصفت بأنها منصورة، وبأنها ظاهرة على الحق، والظهور هنا كما قال العلماء: هو ظهور باللسان، والبيان في كل زمان وأوان؛ لأن معهم القرآن، والله ﷻ جعل القرآن مهيمنًا على ماعداه، فظهورهم على كل أحد لابد؛ لأن حجتهم أقوى، ولأن برهانهم أقوى، فهم يقولون بالقرآن والسنة فما دلوا عليه هو الحق والهدى، فهذا ظهور لسان وبيان.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية (٤/ ٥٤٠).

والقسم الثاني - يكون أحيانًا -: وهو ظهور السيف، والسنان، يعني: أن يتغلبوا على غيرهم، وأن يظهروا على غيرهم ظهور سيف، وسنان بالقتال، والجهاد، فهذا يكون بعض الأحيان، ليس دائمًا يشرع الجهاد، وليس دائما يكون الجهاد في سبيل الله ﷻ بالسيف موجودًا، بل قد تمر في الأمة فترات لا يكون فيها جهاد؛ كما قال ﷺ: «... **ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ**»[١] ... إلى آخره.

أما ظهورهم بالبيان، واللسان، فهذا في كل زمان، وأوان في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، يأمرون المسلم بالمعروف، وينهون المسلم عن المنكر، لا رغبة في الاستعلاء عليه، ولكن رحمة له، ودلالة للخلق على الخالق ﷻ، وامتثالًا لقوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ما معنى الآية؟ أي كنتم للناس يا أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت يعني على الإطلاق الأمة ليست تخرج للناس، بعض الناس يتصور معنى الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أن الأمة أخرجت للناس، الأمة لا تخرج للناس، الذي بعث للناس من؟ الرسول، لكن معنى الآية كنتم للناس خير أمة أخرجت، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، فالدعوة؛ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، النهي عن الشرك، النهي عن البدع، النهي عن المحرمات، هذا من معالم خيرية هذه الأمة للناس، صحيح إن المأمور، وإن المنهي يغضب، أو يحزن، أو لا يرغب أن يكون مأمورًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٦).

منهيًا، لكن أنت تدله على ما فيه مصلحة، مثل عندك رجل يحتاج إلى إسعاف، وهو مايدري أنه مريض، أو جاءه دوران، وسقط ولا يدري أنه مريض لابد أن يسعف.

فإذًا: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر مصدره الرحمة، وليس مصدره الاستعلاء على الخلق، فإذا رحمت العباد، فأمرتهم، ونهيتهم، ودعوتهم إلى الله ﷻ، فإنك في الحقيقة تكون صاحب حق عليهم، وصاحب فضل عليهم لو كانوا يشعرون.

كذلك الجهة الأخرى، وهي أنهم في دعوتهم، وفي أمرهم بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي تعاملهم مع الخلق يتصفون بصفة في كل أحوالهم، وأحكامهم، وهي أنهم يتقون الله ﷻ في ألسنتهم، فلا يقولون إلا بالحق؛ كما قال ﷻ - في أمره لعباده -: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

فالمتحقق بصفة أهل السنة والجماعة، وبصفة الطائفة المنصورة، وبسماتهم، فإنه لو أغضبه من عنده، فإنه يكتم ويصبر، ولا يقول إلا التي هي أحسن، لماذا؟ لأن المضادة تحدث تفرقًا، والله ﷻ أمر بالاجتماع، ونهى عن التفرق، فالإصلاح يكون بالطريقة السوية، سواء بين الأفراد، أو بين فلان وفلان، أو بين فئة وفئة، أو بما هو أكبر، يكون بالطريقة الشرعية الصحيحة، فإذًا: من سماتهم سلامة ألسنتهم.

قيل للإمام أحمد: لا نراك تتكلم في فلان. قال: يا عبد الله، - يعني ابنه - وهل رأيت أباك يومًا يسب أحدًا؟. لماذا ما تسب فلانًا وفلانًا؟

قال: وهل رأيت أباك يسب أحدا؟ وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: وددت أن جسمي قُرِّض بالمقاريض وأن الخلق أطاعوا الله عَزَّوَجَلَّ[(١)].

وقال آخر من السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: نحن أنفع لهؤلاء من أنفسهم، يريدون أن يقتحموا، ونحن ندعو لهم، أو أن نأمرهم، وننهاهم.

لهذا مسألة أن يكون المرء صاحب عقيدة، وتوحيد، وفي كل زمان، ومكان تجده صاحب غيبة، ويقدح في فلان ويسب فلانًا، هذا يظلم القلب، ويصير في القلب قسوة، والقلب محتاج إلى النور، والمخالفة بالاعتداء في الكلام - أيضًا - بحسب مقام المعتدى عليه قد تعتدي على صاحب مقام رفيع، فيكون أعظم في حقك، فرق ما بين النصيحة، ومابين التشهير في بيان الحق حتى يعلم الناس أن غيره باطل، وما بين السب، والشتم، والألفاظ التي ليست من سمات المتحققين بمنهج السلف؛ إذًا: فمن سمات أهل السنة، والفرقة الناجية كما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم كانوا لا يمارون؛ لأن الله نهاهم عن المراء، ونهاهم عن المجادلة إلا بالتي هي أحسن، عن أهل الكتاب ماذا قال فيهم؟

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦] إلا بالتي هي أحسن يعني: أحسن ما تجد، فكيف بالمسلم؟ بالمسلم كيف تجادله؟ كيف ترد عليه؟ وكيف تخاطبه؟ هذا لابد أن يكون

---

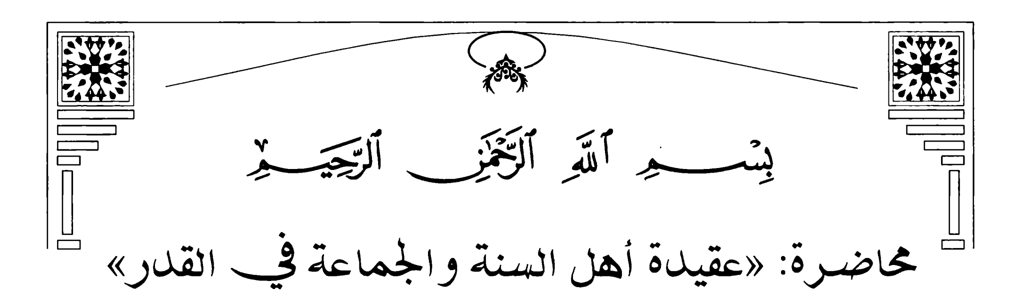
(١) هو زهير بن نعيم البابي انظر: تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٧٨)، والمجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر الدينوري المالكي (٢/ ٣١٢)، وتهذيب الكمال (٩/ ٤٢٧)، وصفة الصفوة (٤/ ٨، ٩)، وتهذيب التهذيب (٣/ ٣٠٤).

بأسلوب شرعي مرضي؛ حتى يتحقق سلامة القلب، وسلامة اللسان من المخالفة.

في الختام، هذه كلمات في هذا الموضوع الطويل، لكنها تعطي الحاضرين بعض صفات، وسمات لما ينبغي أن يكون عليه أهل السنة والجماعة، والمتبعون للسلف الصالح، الذين يرجون النجاة، فلا شك أن كل خير في اتباع من سلف، وأن كل شر في ابتداع من خلف، وإن التزام طريقة أئمة الحق، والسنة خير في المحال، والمآل، وأن الصبر واجب، وأن التعلم، وأخذ الحيطة للمرء في لسانه، وأعماله سبب للنجاة، فلا يخاطرن أحد بدينه في مخالفة طريقتهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

هذا وفي الختام أسال الله لي ولكم التوفيق، والسداد، وأن يجعلنا هداة مهتدين غير ضالين، ولا مضلين، كما اسأله سبحانه وتعالى أن يوفق ولاة أمورنا للعمل بالحق، والدلالة عليه، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وأن يجعل ولايتنا في من خافه، واتقاه، واتبع رضاه، إنه سبحانه وتعالى جواد كريم، وصلِّ الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.





محاضرة: «عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر»

الحمد لله، والصلاة، والسلام على رسول الله، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدين، لازلنا في هذه الحلقة التعليمية، والتي بعنوان: (عقيدة أهل السنة والجماعة)، وفي موضوع مهم وخطير، وهو أحد أركان الإيمان، في موضوع ضلت فيه أقوام، وزلت فيه أقدام، في موضوع بعنوان (عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر)، ومع فضيلة الشيخ/ صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ، فجزاه الله خيرًا على إجابته للدعوة، وشكر الله سعيه، نترككم وإياه، ثم يتولى فضيلته بعد ذلك الإجابة عما يتعلق في مثل هذا الموضوع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، أحمد ربي الذي هو المحمود على السراء، والضراء، ما أصابنا من خير، فهو المحمود عليه، وما أصابنا من ضراء، فهو المحمود عليه ﷻ، هو ولي النعمة، وإليه الأمر، إليه الأمر يرجع، ومنه الأمر بدأ، فسبحان ربنا وتعالى، أحمد ربي، وأثني عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على عبدك، ورسولك

محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أتى جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، وهو جالس في صحابته في غير صورته، أتاه في صورة رجل يسأله عن أشياء؛ ليعلم الناس، ليعلم من كان حاضرًا، ويعلم من كان غائبًا، ويعلم الناس الذين آمنوا إلى يوم الدين: «**يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**الْإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». **قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ**: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». **قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ**: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...**» إلى آخر الحديث، في آخره قال ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[١]، هذه هي أركان الإيمان، هذه هي الأركان التي من آمن بها، فهو الموعود بجنة الخلد، هذه الأركان التي من آمن بها، وحقق ما اقتضته، فهو الموعود بكل خير من الرحمن.

الركن السادس من هذه الأركان: هو الإيمان بالقدر خيره وشره، والقدر سرُّ الله في خلقه؛ لأن الله ﷻ آمرٌ ناهٍ، الله ﷻ يخلق الأشياء، الله ﷻ خالق كل شيء، فله سبحانه وتعالى في خلقه السر، الذي لا يعلمه الناس ولا تعلمه الخليقة؛ إذ لو علم الخليقة ما يخلقه الله ﷻ لما، ولما فعل الله كذا، ولما لم يفعل كذا، لشاركوه إذًا في الربوبية، فالقدر إذًا: سرُّ الله في خلقه، لا يعلمه

---

(١) أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أحد، ولا يمكن أن يطلع على سره أحد؛ ولهذا الإمام علي رضي الله عنه لما سئل عن القدر قال: (**الْقَدَرُ سِرُّ اللَّهِ فَلَا تُفْشِه**)[١].

ولهذا كان الإيمان بأن الله عز وجل قدَّرَ ما قدَّرَ، وأن كل شيء يحصل إنما هو بقدر من الله عز وجل، كان الإيمان بذلك فرضًا؛ لأن الإيمان بذلك إيمان بأن الله عز وجل هو المتقدس، وهو العظيم، وهو الجبار، وأن هذا المُلك كله بيده يصرفه كيف يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فالإيمان بالقدر ضروري للقلوب لصلاحها، وضروري للمجتمعات لصلاحها؛ ولهذا كان فرضًا على الناس أن يؤمنوا بأن الله عز وجل قدّر كل شيء، وأن يؤمنوا بأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، وما أبردها من عقيدة! وما أحسنها، وما أبردها على القلب! ماءًا باردًا عذبًا زلالًا، من آمن بذلك، وصدق رضي بكل ما جاءه من عند الله عز وجل، يشكر في السراء، ويصبر على الضراء، ويعلم أن الجميع من عند الله عز وجل، والله عز وجل ذكر، وبين لعباده أن كل شيء بقدر، وأن كل شيء عنده بقدر، فقال عز وجل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩] كل شيء خلقه الله عز وجل بقدر، يعني: على وفق قدر سابق منه عز وجل، ولم يأتِ هكذا إنما على قدر مقدور من الله عز وجل، وكما قال - في الآية الأخرى -: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] أي: لم يكن إتيانك هكذا إنما كان بقدر سابق؛ لأن

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٤٢/ ٥١٣)، وفيض القدير (١/ ٣٤٨)، وتحفة الأحوذي (٦/ ٢٧٩).

الله ﷻ له الحكمة في مجيئك، وله الحكمة من مواعدتك، ولهذا فإن الخير كان عظيمًا في مواعدة موسى، وفي مجيئه، وفيما حصل له من القصة المعلومة المفصلة في صورة القصص، وغيرها، ويقول الله - تبارك وتعالى - مثنيًا على نفسه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ١ - ٢].

إذًا: ما دام أن الله ﷻ أخبرنا بذلك في كتابه، فواجب أن نصدق، وأن نؤمن بما أخبر الله ﷻ به، فهو العالم بذلك كله، وهو الذي فرض علينا أن نؤمن بهذا؛ ولأن الإيمان بالقدر راجع إلى الإيمان بالله - تعالى -، ومما هو معلوم أن إيجاب الإيمان بالقدر لم يأت تصريحًا في كتاب الله ﷻ، وإنما أتى في السنة، ولكنه مضمّن في كتاب الله؛ لأن أركان الإيمان التي جاءت في كتاب الله من جنس المذكورة في قوله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فالإيمان بالقدر راجع إلى الإيمان بالله؛ لأن من آمن بأن الله هو المتصرف بكل شيء، وأن مقاليد كل شيء بيده، وأن الخليقة هو خالقها ﷻ، وأن ما شاء في هذا الكون واقع، وأن ما لم يشأه ﷻ لم يكن، كل هذا راجع إلى الإيمان بالله، وهو حقيقة الإيمان بالقدر؛ ولهذا فإن ما جاء في سنة النبي ﷺ من إضافة ركن الإيمان بالقدر، إنما هو تبيين، وتفصيل لما جاء في كتاب الله، وهو إيمان بما بين الله ﷻ في كتابه من أن كل شيء خلقه بقدر ﷻ، فالإيمان بالقدر ماذا نعني به؟ ماذا نعني نحن أهل السنة والجماعة حينما نقول: نؤمن بقدر الله ﷻ؟ نعني بذلك: أن الله ﷻ علم هذه الأشياء، وعلم الأشياء

جميعًا قبل وقوعها، وقبل حصولها، وقبل خلقها، علمه بها أزلي، علمه بها أول ﷻ، يعلم ﷻ ما كان، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] يعلم ما لم يكن لو كان، لو حصل أنه أسمعهم كيف يكون إذًا الحال؟ ﴿لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

فإذًا معنى الإيمان بالقدر: أن تؤمن بأن الله ﷻ عالم بكل شيء قبل خلق السماوات والأرض، وعلمه بهذه، وعلمه بكل شيء وعلمه بهذه الأشياء التي تراها حادثة أمامك علمه بذلك أول، علمه بذلك أزلي ليس له بداية؛ لأن الله ﷻ من صفاته الذاتية أنه عالم ﷻ بكل شيء؛ ولهذا أثنى على نفسه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وبقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، فقوله بكل شيء، أي: بكل معلوم، المعلومات التي كانت، أو المعلومات التي تكون الآن، أو المعلومات التي ستكون، أو المعلومات التي علم الله ﷻ أنها لا تكون لو كانت تلك المعلومات واقعة كيف تكون؛ وذلك لأجل تمام علم الله - تبارك، وتعالى - وتمام علوه في أسمائه وصفاته، وجماله في أسمائه وصفاته، فالله ﷻ إذًا: عالم بكل شيء، كما مدح نفسه، وأثنى على نفسه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾. هذا عموم - كما سبق - لايخرج منه شيء، عالم بالكليّات ﷻ، وعالم بالجزئيات لا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، والله ﷻ بكل شيء عليم، هذا العلم سابق، هذا العلم أول، فالله ﷻ لما أراد أن يخلق السماوات والأرض،

وأن يخلق الخليقة أمر القلم أن يكتب بما كان في علمه السابق، فأمر القلم أن يكتب فجرى القلم بمقادير الخليقة قبل أن يخلق السماوات والأرض؛ كما جاء ذلك في حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه الذي رواه أبو داود، والترمذي، والإمام أحمد، وجماعة بألفاظ متقاربة، وفيه أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ الله الْقَلَمَ فقال له اكْتُبْ قال رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ قال اكْتُبْ مَقَادِيرَ كل شَيْءٍ حتى تَقُومَ السَّاعَةُ»**(١)، وجاء - أيضًا - بلفظ: **«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَام السَّاعَةِ»**(٢).

ثم هو عز وجل لما كتب هذا أراد أن ينفذها، فخلق، وشاء، فأنفذ ما أنفذ، وأول ذلك خلق السماوات والأرض في الأمر الذي نشاهده، ونعلمه، وإلا فإن فعل الله عز وجل ليس له أول، وفعل الله عز وجل ليس بمحدود، فهو عز وجل علم ما الخلق عاملون، ثم كتب ذلك في كتاب كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] أي: اللوح المحفوظ؛ ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: اللوح المحفوظ؛ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحج: ٧٠]. أي: ما علمه عز وجل مما سيكون في السماوات والأرض، وما في السماوات والأرض ذلك في كتاب، لاشك أنه في كتاب؛ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ وهذا كتابته، وعلمه على الله يسير؛ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨)، والضياء في المختارة (١٠/ ٣٣٣)، وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رجاله ثقات.

إذًا: الكتاب قد كتب، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، كتب الله ﷻ ما الخلق عاملون، وما عليه الخلق، وتفاصيل خلقهم، جميع الأشياء كتبها الله ﷻ، وهذا العلم السابق، وهذه الكتابة السابقة على الخلق، هذه مرتبة أولى للإيمان بالقدر، فأنت إذا علمت، وأيقنت أن الله ﷻ متصف بالعلم الكلي، بالعلم الشمولي، العلم بكل شيء، العلم بالكليات، والجزئيات، وأن الله ﷻ كتب ما علمه ﷻ مما هو متعلق بالسماوات والأرض، وبخلق السماوات والأرض، وما في السماوات والأرض اطمأن قلبك إلى ذلك.

وقال النبي ﷺ مبينًا المدة التي سبقت خلق السماوات والأرض، المدة التي تلت الكتابة، وسبقت خلق السماوات والأرض، قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«كَتَبَ الله مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قبل أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قال: وَعَرْشُهُ على الْمَاءِ»**(١) قبل أن يخلق السماوات والأرض كتب مقادير كل شيء يكون منذ أن خلق السماوات والأرض إلى أن يرث الله ﷻ الأرض، ومن عليها، وإلى ما بعد ذلك، كتب الله ﷻ جميع ذلك، فهو عنده في كتاب؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. كل ذلك مكتوب مسطر، وهو ﷻ الذي أجرى القلم، وأمره بكتابة هذا، فأنت إذا آمنت بأن الله ﷻ عالم، وأنه ﷻ كتب ذلك، يبقى هنا إيمانك بأن الله ﷻ لا حدود لمشيئته، هو ﷻ مالك الملك، هو ﷻ الرب المتصرف، هو ﷻ الذي لا يحد أمره،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

ولا ينقض، أمره ناقض، بل له الأمر النافذ، وله المشيئة النافذة، فتعلم أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فينقطع قلبك إذًا من التعلق بغير الله، ومن رجاء غير الله؛ لأنه إذا شاء الله الشيء سيكون، فيكون قلبك متعلقًا بالله ﷻ، وما لم يشأه الله ﷻ لا يكون أبدًا، هل هناك مغالب له في حكمه، مغالب له في ملكوته ﷻ؟ ليس ذلك أبدًا، ليس له مغالب، فما شاء الله كان، وما لم يشأه لم يكن، فتؤمن بما قاله الله ﷻ، بما وصف الله ﷻ به نفسه، وبما أخبر به عن نفسه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]. فمشيئة الله ﷻ غالبة ومشيئة الله ﷻ نافذة؛ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] فمشيئة الله ﷻ واجب أن يكون قلبك ممتلئًا بأن ما شاءه الله نافذ، وأنك مهما احتلت، ومهما عملت، ومهما فعلت إذا لم يشأه الله ﷻ، فإنه لا ينفع، لكن هذا مع الإقدام على الأسباب؛ لأنك لا تعلم ما هي مشيئة الله في المستقبل، تعلم ذلك أو لا تعلم؟ لا تعلم؛ فإذًا: عليك العمل، وعليك أن تطلب من الله التوفيق، ثم ما شاءه الله ﷻ، فإنه سيكون، لا مغالب له في حكمه، ثم هو ﷻ خالق كل شيء، كل ما تراه من المخلوقات، فليس لها خالق إلا الله ﷻ، هل من خالق غير الله؟ لا، الخالق لكل شيء هو الله ﷻ؛ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢] ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: كل شيء مخلوق، فهو ﷻ خالقٌ كل الأشياء التي تراها من المخلوقات، لا خالق غيره، سواء في ذلك العباد، وأعمال العباد، والمصنوعات، والمحسوسات، وغير ذلك، كلها خلق لله ﷻ، الله ﷻ خالق كل شيء سبحانه وتعالى، فإذا علم أن الله ﷻ خالق كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى كل شيء

بأمره، وأن الخلق، والأمر له ﷻ ليس لغيره، قام قلبك في الإيمان قيامًا صحيحًا، وقيامًا قويًا، فعند ذلك تنقطع العلائق بغير الله ﷻ، ويبقى التعلق بالله ﷻ وحده.

فإذًا: خلاصة عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالقضاء والقدر، أو الإيمان بالقدر: هو أن تعلم أن الله ﷻ عالم بكل شيء، وأنه كتب مقادير كل شيء سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن مشيئته نافذة، ما شاء الله كان، وأنه ﷻ خالق كل شيء، حتى فعلك أنت هو ﷻ خالقه، حتى حركاتك، وحتى أفعال الناس، وحتى جميع مصنوعات الناس هذه هو ﷻ خالقها؛ لأنها داخلة في العموم في قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

إذا تبين ذلك، فما الفرق إذًا: بين القضاء، والقدر؟.

نقول: هذا قضاء من الله ﷻ، ونقول هذا شيء قدره الله ﷻ، فما الفرق بينهما؟.

مهم أن نتعرف على الفرق بينهما؛ لأن من لم يفرق بينهما ربما حصل له بعض التداخل في فهم الآيات، أو فهم الأحاديث التي فيها ذكر القضاء والقدر، لأهل العلم في ذلك أقوال، لكن الصحيح منها أن القدر سابق، وأن القدر أساس، وأن القضاء هو إنفاذ ذلك القدر، فقدر الله ﷻ سابق، وما سيقع هذا قضاه الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، قضى هذا الشيء، انتهى، حصل، وُجِدَ، فهذا هو القضاء، فقبل أن يقع هو في القدر، في قدر الله ﷻ، ثم إذا وقع أصبح قضاء قضاه الله ﷻ[1]، والقضاء أتى في

(١) انظر: مادة: (ق ض ى) في معجم مقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، ولسان العرب (١٥/ ١٨٦) =

كتاب الله ﷻ على أنحاء، فمنها القضاء بمعنى الإخبار، بمعنى الوحي؛ كما قال ﷻ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أوحينا إليه، وأخبرناه، وهذا يتعدى في القرآن بـ «إلى» «في» بمعنى الوحي، تتعدى «قضاء» بـ «إلى» فيكون معناها الإخبار، والإيحاء، ومثله: قوله ﷻ - في سورة الإسراء -: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] فقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ﴾ لمَّا عَدَّاه بـ «إلى» هذا القضاء بمعنى الإخبار بما سيكون، فهو مرتبط بمعنى القضاء الذي سبق أن بينته؛ لأنه إخبار بالمقضي، إخبار بما سيكون؛ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، الفساد سيقع، وهو قضاء واقع؛ ولذلك أخبر الله ﷻ به، فيفيد إذًا الإخبار بلفظ «القضاء» زيادة عن مجرد الإخبار؛ لأنه إخبار بالشيء الذي سيقع، لا معقب لحكمه ﷻ، فهذا نوع، وليس هو بمعنى القضاء الذي يقترن بلفظ القدر، فإذا تبين لك أن القدر والقضاء بينهما فرق من حيث إن القدر سابق، والقضاء إنفاذ ذلك القدر، فمثلًا: أنت لا تعلم ماذا قدره الله ﷻ عليك، وما ستفعله أنت غدًا، فإذًا: ما ستفعله غدًا هذا الذي لا تعلمه هو من قدر الله ﷻ لا تعلمه، ثم أنت إذا حصل ذلك قمت غدًا، وذهبت إلى عملك، أو إلى كليتك، أو إلى مدرستك، ذهابك هذا قضاء، قضي عليك بهذا الفعل، فإذًا: قبل أن يحصل الشيء هذا يسمى في قدر الله، وبعد أن يحصل يسمى قضاء، وربما سميَّ قدرًا؛ ولهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما

= والقاموس المحيط (ص١٧٠٨)، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص٤٤١ - ٤٤٢).

أتى إلى عمواس - الطاعون المعروف -، وأراد أن يرجع، فقال له: أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: «**أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟**» - يعني: إذا كان الله ﷻ مقدرًا أنك تمرض، وتموت بسبب هذا الطاعون، أتفر من قدر الله - قال عمر ﷺ المُحدث الملهم الفقيه البصير: «**لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ**»[1]. فعلنا هذا الفرار، هو فرار من القدر، وفرارنا هذا قدر في نفسه، فالجميع بقدر الله ﷻ، والمرء مأمور أن لا يقارف، وأن لا يأتي الأسباب التي تضره، فعُلِمَ من هذا أن الإيمان بالقضاء والقدر في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩). ولفظه: «أنّ عُمر بْن الخطّابِ ﷺ، خرج إلى الشّأْمِ، حتّى إذا كان بِسرْغ لقِيهُ أُمراءُ الأجْنادِ، أبُوعُبيْدة بْنُ الجرّاحِ وأصْحابُهُ، فأخْبرُوهُ أنّ الوباء قدْ وقع بِأرْضِ الشّأْمِ. قال ابْنُ عبّاسٍ: فقال عُمرُ: ادْعُ لِي المُهاجِرين الأوّلِين، فدعاهُمْ فاسْتشارهُمْ، وأخْبرهُمْ أنّ الوباء قدْ وقع بِالشّأْمِ، فاخْتلفُوا، فقال بعْضُهُمْ: قدْ خرجْت لِأمْرٍ، ولا نرى أنْ ترْجِع عنْهُ، وقال بعْضُهُمْ: معك بقِيّةُ النّاسِ وأصْحابُ رسُولِ اللّهِ ﷺ، ولا نرى أنْ تُقْدِمهُمْ على هذا الوباءِ، فقال: ارْتفِعُوا عنِّي، ثُمّ قال: أُدْعُ لِي الأنْصار، فدعوْتُهُمْ فاسْتشارهُمْ، فسلكُوا سبِيل المُهاجِرِين، واخْتلفُوا كاخْتِلافِهِمْ، فقال: ارْتفِعُوا عنِّي، ثُمّ قال: ادْعُ لِي منْ كان ها هُنا مِنْ مشْيخةِ قُريْشٍ مِنْ مُهاجِرةِ الفتْحِ، فدعوْتُهُمْ، فلمْ يخْتلِفْ مِنْهُمْ عليْهِ رجُلانِ، فقالُوا: نرى أنْ ترْجِع بِالنّاسِ ولا تُقْدِمهُمْ على هذا الوباءِ، فنادى عُمرُ فِي النّاسِ: إِنِّي مُصبِّحٌ على ظهْرٍ فأصْبِحُوا عليْهِ. قال أبُوعُبيْدة بْنُ الجرّاحِ: أفِرارًا مِنْ قدرِ اللّهِ؟ فقال عُمرُ: لوْ غيْرُك قالها يا أبا عُبيْدة؟ نعمْ نفِرُّ مِنْ قدرِ اللّهِ إلى قدرِ اللّهِ، أرأيْت لوْ كان لك إِبِلٌ هبطتْ وادِيًا لهُ عُدْوتانِ، إِحْداهُما خصِبةٌ، والأُخْرى جدْبةٌ، أليْس إِنْ رعيْت الخصْبة رعيْتها بِقدرِ اللّهِ، وإِنْ رعيْت الجدْبة رعيْتها بِقدرِ اللّهِ؟ قال: فجاء عبد الرّحْمنِ بْنُ عوْفٍ - وكان مُتغيِّبًا فِي بعْضِ حاجتِهِ - فقال: إِنّ عِنْدِي فِي هذا عِلْمًا، سمِعْتُ رسُول اللّهِ ﷺ يقُولُ: إِذا سمِعْتُمْ بِهِ بِأرْضٍ فلا تقْدمُوا عليْهِ، وإِذا وقع بِأرْضٍ وأنْتُمْ بِها فلا تخْرُجُوا فِرارًا مِنْهُ. قال: فحمِد اللّه عُمرُ ثُمّ انْصرف».

عقيدة أهل السنة والجماعة أن معناه الانتباه للأسباب، ما نأتي، ونقول: والله السبب ما له تأثير. لا، والله أنا أدخل في النار، إذا كان الله مقدرًا أنها تحرقني أحرقتني، ما قدر أنها ما تحرقني لن تحرقني، لا، هذا جهل، بل هذا قدح في العقل؛ لأن الله ﷻ أجرى سنته في أن النار تحرق، وهذا قدره في هذا المخلوق الذي هو النار، ﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الواقعة: ٧٣]، فتأتي تدخل وتقول: إن قدر الله عليَّ أني سأحترق، فسأحترق. أنت لست إبراهيم عليه السلام الذي قيل له: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] لا. فإذًا: إذا قارفت هذا السبب الذي سيضر، فإنك تعلم إنه سيضرك، وهذا من قدر الله.

فإذًا: الإيمان بالأسباب ركن مهم من أركان الإيمان بالقدر في عقيدة أهل السنة والجماعة، السبب موجود، والمسبب مرتبط بالسبب، ونحس هذا، ونشاهده، أليس كذلك؟ بلى نحس ذلك، ونشاهده، تفعل الشيء، تكتب تمتلئ الورقة، ما تكتب الورقة ما فيها شيء فارغة، كذلك تمشي إلى المسجد يحصل لك الأجر والثواب، تجلس في بيتك، وتترك صلاة الجماعة ما يحصل لك شيء، وهذا قدر من قدر الله، وهذا من قدر الله؛ فإذًا: السبب لابد من الإتيان به، وهذا سيد المؤمنين، وسيد ولد آدم ﷺ ماذا حصل منه في هجرته إلى المدينة؟ أليس هو سيد المتوكلين ﷺ؟ بلى، أليس هو سيد المؤمنين بالقدر؟ بلى، ترك فراشه، ومن جعل في فراشه أولًا؟ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، إذا كان الله ﷻ مقدرًا أنه سيذهب ولن يؤثر فيه هذا الفعل، فإذًا لماذا يفعل؟ لا، هو فعل؛ لأن هذا سبب، وهو مأمور بفعل السبب؛ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩]، فهو مأمور بفعل السبب، فأول سبب

فعله للنجاة أنه ترك علي بن أبي طالب في مكانه، إذا نظروا من فتحة الباب قالوا: لا، هو راقد. و«**الْحَرْبُ خُدْعَةٌ**»[١] كما قال ﷺ، مشى بينهم ﷺ، وذرَّ في أعينهم حبات الرمل، والله ﷻ قادر أن يعميهم بدون هذا الفعل، لكن هذا سبب؛ ليعلمنا أن فعل السبب هو من القدر، فعلك السبب من التوكل على الله ﷻ، تتوكل ولا تفعل السبب، لا، هذا ليس بإيمان، وليس بتوكل صحيح؛ ولهذا لما أتى وفد من اليمن إلى النبي ﷺ في الحج، ما معهم غذاء، ولا معهم زاد، ساروا هذه القفار، وقطعوا تلك الجبال، وليس معهم شيء، «**قال؟ لماذا ما أتيتم معكم بشيء؟ قالوا: نحن المتوكلون. قال: لا أنتم المتواكلون**»[٢]. هذا تواكل، ائت بالزاد معك، وافعل الأسباب، والباقي على الله ﷻ، تفوض الأمر؛ لأنه إذا لم يشأ الله ﷻ أن تنتفع بهذا السبب لا تنتفع به، لكنك مأمور بأن تفعل، ذهب النبي ﷺ هو وصاحبه أبو بكر الصديق ﷺ، واستأجروا رجلًا هاديًا خريتًا؛ ليدلهم على الطريق[٣]، هذا سبب لابد من أن يفعل، كذلك آثار أقدامهم، ومسيرهم ظاهرة بينة، سيستدل المشركون بها على مكانهم أليس كذلك؟ بلى، جعلوا راعيًا يرعى بمعزه، وبغنمه، فيعفي على آثارهم، ذهبوا واختاروا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٠)، ومسلم (١٠٦٦).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٤١)، وفي شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٨١) بلفظ (المتكلون)، وفي عون المعبود (٥/ ١٠٧)، ومرقاة المفاتيح (٥/ ٤٤٣) بلفظ (المتآكلون)، وفي المجالسة وجواهر العلم (١/ ٥١٠) بلفظ (المتواكلون).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٢٦٣) عنْ عائِشة ﵂: «**واسْتأْجر النَّبِيُّ ﷺ، وأبُو بكْرٍ رجُلًا مِنْ بنِي الدِّيلِ، ثُمّ مِنْ بنِي عبْدِ بْنِ عدِيٍّ هادِيًا خِرِّيتًا - الخِرِّيتُ: الماهِرُ بِالهِدايةِ**».

جبلًا بعيدًا بين مكة والمدينة، جبلًا بعيدًا، وغارًا مرتفعًا، فجلسوا فيه بعيدًا، كل الأسباب فعلوها؛ لكي لا يصل إليهم المشركون هذه أسباب بها أمر الله ﷻ، وهي من قدر الله؛ فإذًا: مقارفة السبب، والإتيان بالسبب، وفعل السبب هذا من قدر الله ﷻ، وهذا سيد المتوكلين، وسيد المؤمنين بالأقدار هذا فعله ﷺ، ما الذي حصل؟ ما نفعت كل هذه الأشياء، أتى المشركون، ووقفوا على رأس الغار، تحتهم ورسول الله ﷺ، وأبو بكر يرون أقدام المشركين، يقول أبو بكر ﵁: «**كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ المُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قَالَ: مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**». كل هذه الأسباب التي فعلها النبي ﷺ نفعت، أو لم تنفع؟ لم تنفع، وقف المشركون على رأس الغار، ماذا أجاب النبي ﷺ لأبي بكر؟ قال: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»؛ ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][(١)].

إذًا: هو فعل السبب، فعل المأمور به، والباقي على الله ﷻ، فهذا يعلمنا أن الإتيان بالأسباب هذا لابد منه، والمؤمن بالقدر خيره وشره، المؤمن بأن الله ﷻ مقدر، وأنه كاتب هذا الفعل، لابد له من أن يسعى بالأسباب، وأن يفعل الأشياء التي بها يحصل مراده، فهذا كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في آخر البيان، هذا من أعظم ما يُطلق المؤمنين، ويجعلهم يعملون بجد ونشاط، هذه ثمرة من ثمرات الإيمان بالأقدار، من الإيمان بالقدر عند أهل السنة والجماعة: أن تؤمن بأنك ضعيف، وأنك محتاج إلى الله ﷻ؛ وأنك ما اهتديت إلا لما وفقك الله ﷻ؛ إذ لو تَرْكك لنفسك ما اهتديت؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦٣).

الشياطين كثيرون، ولأن الصَّادِّين عن سبيل الله كثيرون، لو تُركك ونفسك لضللت مع من ضل، لكن لله ﷻ عليك منَّة خاصة، واجب عليك أن تشكر الله عليها، جعلك من المصلين، جعلك تحضر هذا المجلس من مجالس الذكر، وأهل مجالس الذكر تغشاهم الرحمة، وتحفهم السكينة، والملائكة، ويذكرهم الله فيمن عنده، هذا بفضل من؟ بفضل الله ﷻ. إذًا: نؤمن بأن الله ﷻ يحبب الإيمان إلى النفوس، وأنه ﷻ يهدي، وأن له على عباده المؤمنين منَّة خاصة، بها اهتدوا، ومنَّة خاصة بها استقاموا، وثبتوا، فيشكرون الله ﷻ على هذه النعمة، ويسألونه المزيد من فضله، وإحسانه، ويسألونه الثبات؛ ولهذا كان النبي ﷺ وهو أعظم الخلق إيمانًا بالقدر، يقول: «**يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ**»[1]، وكان يقول: «**اللهم مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِف قُلُوبَنَا إلى طَاعَتِكَ**»[2]؛ لأنه يعلم أن الأمر بيد الله، وأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن أنت أتيت بما أنت به تستحق أن يهديك الله، الله ﷻ رحمته وسعت كل شيء، هذا يسمى التوفيق، هذا الذي هو المنة الخاصة عليك، أن جعلك الله ﷻ من المهتدين، هذا توفيق من الله ﷻ وتحبيب؛ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات: ٧]، وكره إليهم الكفر، والفسوق، والعصيان، هذا ﷻ حبب إليكم الإيمان، وكرَّه إليكم الفسق، والعصيان، فهو ﷻ ولي التوفيق؛ ولهذا قال شعيب عليه السلام مثنيًا على

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وحسنه، وابن ماجه (١٩٩)، وأحمد (٣/ ١١٢)، وابن حبان (٩٤٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٥)، وأخرج البخاري (٧٣٩١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**أكْثرُ ما كان النبي ﷺ يحْلِفُ لا ومُقلِّبِ الْقُلُوبِ**».

(٢) أخرجه مسلم (٦٥٦٩).

ربه : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]؛ فإذًا : التوفيق بيد الله ، كل عمل تعمله اسأل الله ﷻ التوفيق ، يعني ما معنى التوفيق من الله ﷻ؟ .

أن يخلي الطريق الذي أمامك من أضداده؛ لأن مجرد فعلك لا يكون به المخلوق، لا يكون به الحدث، لا يكون به الفعل، إنما لابد أن يخلي الطريق من المعارض، مثلًا : لو أنت استعددت بسيارتك، مثلًا : جهزتها ، ووضعت أسباب السلامة، الإطارات - مثلًا - ، وإلى آخره من أسباب السلامة، وسرت في الطريق، وأنت فعلت جميع ما بإمكانك أن تسلم، وتقول: أنا قائد ماهر، ولن أسرع، وسأنتبه، هذا جميع ما في وسعك، أليس كذلك؟ بلى . هل تستطيع أكثر من ذلك؟ ما تستطيع ، لكن الذي أمامك قلبه بيد من؟ الذي أمامك يقابلك أحد، يأتيك حجر في الطريق يقلب السيارة، ما هو بيدك، هذا بيد من؟ هو بيد الله؛ فإذًا : أنت مع تمام الفعل تسأل الله ﷻ التوفيق، والتسديد، وأن يعينك على تمامه؛ لأن فيه أشياء ما تقدرها ، فأنت تفعل الذي تقدر عليه ، ولكن هناك أشياء لا تقدر عليها مضادة لأسباب السلامة التي فعلتها ، يأتيك واحد نائم ، ويقابلك في الطريق ليس لك حيلة؛ إما أن تصدمه، وإما أن تنحرف، وتنقلب، هل لك حيلة به؟ ما لك حيلة، هو بيد من ينبهه الله ﷻ انصرف عن فلان، ينبهه عن لقائه بك؛ فإذًا : المتيقظ يحميه الله ﷻ .

فإذًا ، التوفيق بيد من؟ بيد الله ﷻ ، فله عليك منَّة في كل خير أتاك تستوجب الشكر لله ﷻ ، وإلا فلو تُركت ونفسك، لو تُركت ونفسك ، ماذا؟ ما حصل لك ما تريد؛ لأن المضادات كثيرة، كذلك أعظم شيء وهو الإيمان

بالله ﷻ، هو الهداية، الإحسان، ما أصابك من الخير، وما منَّ الله ﷻ به عليك من الاستقامة على الصراط المستقيم، لأن يأتيك واحد، ويقابلك، ويأتيك بمغريات، يقول: يا فلان تعال عندنا ويعطيك - مثلًا - مخدرات، أو شيئًا تضل به، من الذي يصرف عنك ذلك؟ الله ﷻ، يأتي واحد، ويضلك ويقول: تعال، وتسمر معه ليلة، وليلتين، وثلاثًا، ثم بعد ذلك تصبح من أهل السهر من أهل المجالس الفارغة، أو من أهل رؤية ما لا يحل، رؤية المحرمات، أو مقارفة المحرمات، هذا وكلت إلى نفسك، لكن أنت وفقك الله ﷻ، وحماك مما يضرك، فلله ﷻ عليك منَّة، هذا الذي نسميه التوفيق، والخذلان هو أن توكل إلى نفسك، خذلك الله ﷻ يعني: يتركك ونفسك، اذهب اعمل ما تشاء، هل تنجي نفسك؟ لا، خذلان، أنت تعتز بنفسك، هؤلاء الذين اعتزوا بأنفسهم ماذا حصل لهم؟ تفجرت مراكبهم في السماء؛ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]؛ إذًا: لو خذلت وتركت ونفسك لما أصابك خير؛ فإذًا: أنت محتاج أتم الاحتياج إلى الله ﷻ.

أيضًا مما يتعلق باعتقاد أهل السنة والجماعة في القدر: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، أنت عبد من عبيد الله في ملكوت الله ليس لك تصرف، أنت مربوب، مقهور، فقير، مسكين، والله ﷻ هو الذي يدبرك، وهو الذي ﷻ يوفقك إلى هذا الفعل فتفعله، أو يخذلك، فتفعل شيئًا آخر، يكلك إلى نفسك، هو ﷻ الذي يرسل عليك الخيرات، وهو الذي ﷻ يصيبك بالمصائب، توفي أخوك ماذا تفعل؟ روحه بيد من؟ بيد الله ﷻ، صعدت إلى من؟ إلى بارئها، إن كان أخوك من أهل السعادة، هل بيدك أن تمنع عنه الموت؟ ليس بيدك.

إذًا: إيمانك بأن الله ﷻ هو المتصرف، وأن له الملكوت، وأنه لا معقب

لحكمه، وأن له الخلق، والأمر، يجعل قلبك مطمئنًا أن ما أصابك لم يكن ليخطئك؛ لأن الله ﷻ عالم بكل شيء، ومقدر عليك ذلك، وهو ﷻ ليس في ملكه خطأ ﷻ، ملكه قائم على الحكمة، وقائم على العدل - تبارك، وتعالى-. إذًا، إيمانك بالقدر، إيمان بعظم ربوبية الله ﷻ، وإيمان بأسماء الله ﷻ الحسنى، وصفاته العلى، ولهذا لم يأت ذكر القدر في القرآن، يعني: في وجوب الإيمان به تصريحًا؛ لأنه داخل في الإيمان بالله، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلى؛ إذًا: ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، أوصى النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما؛ كما في الحديث عن أبي العبّاس عبد الله بنِ عبّاس رضي الله عنهما قال: «**كنتُ خَلفَ النّبيِّ ﷺ يومًا**، فقال: «**يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإذَا استَعَنْتَ فاسْتَعِن بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجُفَتِ الصُحُفْ**»، رواه الترمذي، وقال: (حديث صحيح)[1].

وفي روايةِ غير الترمذي: «**احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمامَكَ، تَعَرَّفْ إِلى الله فِي الرخَاء يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَّةِ، واعْلَم أَنّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧).

فإذًا: هذا يجعل القلب مطمئنًا لله ﷻ، هذه العقيدة المباركة، عقيدة أهل السنة والجماعة، خالف فيها من خالف، وصد عنها من صد، وتنكبوا عن صراط الله، واعوجوا في فهم آيات الكتاب الحكيم، وفهم سنة النبي ﷺ، فاختلفت بهم المشارب، واختلفت بهم الأهواء، وجماع المختلفين والمخالفين في القدر يعود إلى فرقتين، سأعرض هذا باختصار؛ لأن المقام ما يناسب التفصيل، والتطويل فيه، لكن هما فرقتان:

١- فرقة تسمى القدرية.

٢- وفرقة تسمى الجبرية.

أما القدرية، فهما -أيضًا- فرقتان: فرقة غلاة، وفرقة وسط ليسوا بغلاة، أما الغلاة، فهم الذين ينكرون علم الله السابق، يقولون: أن الله ﷻ ما يعلم أن الأشياء إلا بعد أن تحصل.

أول من بدأ هذه العقيدة، أو هذا الشر في المسلمين رجل من المجوس يقال له: (سيسويه) كان في البصرة، هو بث هذه الفكرة لرجل يقال له (معبد الجهني)[١] في البصرة، فشاع عند الناس، وأشاع عند الناس أن الأمر أنف أي مستأنف، وأن الله ﷻ ما يعلم الأشياء إلا بعد أن تكون، غاية التنقص لله ﷻ، فهو ﷻ الكامل ﷻ في أسمائه وصفاته، وهو بكل شيء عليم،

(١) معبد الجهني اختلف في اسم والده، فقيل: عبد الله، وقيل: خالد. أول من تكلم في القدر، قال الحسن البصري: إياكم ومعبدًا؛ فإنه ضال مضل. قال خليفة بن خياط: مات قبل التسعين. وقيل: في خلافة عبد الملك بن مروان. انظر ترجمته في تاريخ دمشق (٥٩/ ٣١٢)، والعبر (١/ ٩٢)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٤)، والنجوم الزاهرة (١/ ٢٠٦)، وشذرات الذهب (١/ ٨٨).

فابتدع هذه البدعة، وابتدع هذه الضلالة، فسَرَت في بعض الناس حتى اعتنقوها، هذا ويقال لهم: القدرية الغلاة، نفوا علم الله السابق؛ ولهذا قال أهل العلم فيهم: (**ناظروا القدرية بالعلم، فإن أنكروه كفروا، وإن أقروا به خصموا**)(١) - يعني: علم الله -، (فإن أقروا به خصموا)، إن أقروا بصفة العلم لله ﷻ خصموا، (وإن أنكروه كفروا)، إذا قالوا: والله ما يعلم كفروا، وإن أقروا قالوا: إن الله عالم بكل شيء، إذًا: خصموا، انتهت المناظرة.

الفرقة الثانية من القدرية: هم المعتزلة(٢)، ومعنى القدرية يعني: الذين ينفون القدر، ينفون القدر، أو بعض مراتب القدر، المعتزلة ماذا

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ٣٤٩)، وشرح قصيدة ابن القيم (٢/ ٤٠٨)، وتيسير العزيز الحميد (ص٦٣٠)، والرد على الجهمية للدارمي (ص٢٤٤)، والسنة لعبد الله ابن أحمد (ص٩٤٨)، والشريعة للآجري (ص٢٢٨).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة، واصل ابن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن، ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وإنكارهم القدر فيها.
وقد افترقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة.
انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨). وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٧٩١-٧٩٢).

يقولون؟ يقول: الله عالم صحيح، وخالق كل شيء، وكاتب، لكن يقولون: الله ﷻ لم يخلق فعل العبد - هذا قول أهل الاعتزال -، وأفعالي أنا الذي أخلقها، والله ﷻ يقول: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣] ما فيه الله ﷻ هو الخالق؛ ولذلك هؤلاء شابهوا المجوس، وأصلها من المجوس - كما ذكرت لك -؛ لأن المجوس يقولون بالتعدد بوجود خالقين، لكن هؤلاء زادوا، قالوا: كل واحد من الناس يخلق فعل نفسه، يعني كم فيه من خالق؟ على عدد الناس - والعياذ بالله -، هؤلاء يسموا القدرية غير الغلاة؛ لأنهم يقرون بالعلم، ولكنهم ينفون أن الله ﷻ خالق أفعال العباد، ويقول: العبد يخلق فعله بنفسه.

الفرقة الأخرى يقال لهم الجبرية[(١)]، والجبرية - أيضًا - نوعان:

١- جبرية غلاة.

٢- وجبرية متوسطة، يعني: ليسوا غلاة.

أما الجبرية الغلاة، فهم أتباع الجهم[(٢)]، . . . .

---

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب -تعالى-، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلًا، ولا قدرة على الفعل أصلًا، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلًا. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

(٢) الجهم بن صفوان أبو محرز الراسبي، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شرًا عظيمًا، رأس في التعطيل، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء، وزعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلى القول بأن العبد لا قدرة له أصلًا، بل فعله كحركة المرتعش، أو كالريشة في مهب =

ومن قبله الجعد[١]، وأشباههم، هؤلاء جبرية غلاة، يقولون: الإنسان في تصرفاته مثل الريشة في مهب الريح، ما له دبرة، ولا له اختيار، فنقول لمن قال ذلك، أنا سألطمك، تحتج عليَّ أم لا تحتج؟ تعترض على الله؟ إذا كان الله ﷻ هو الذي سيرني وجبرني على ذلك جبرًا، فلم تعترض إذًا؟ لا تعترض، لو أتى واحد وسرق منه شيئًا ذهب يطالب به، ويعترض لِماذا تسرق حاجتي؟ أنا مجبور، إذًا: هو يقر بهذا من ناحية الفعل من ناحية التطبيق، واقعه مع الناس، لكن إذا أتى في المجادلة، والمناظرة، والعقائد أنكر قال: لا، هو كالريشة في مهب الريح، هذا لا شك أنها سفسطة، وأن هذا ضلال، وأنه مخالف للعقل الصحيح؛ لأن كل واحد يعلم من نفسه أن عنده إرادة أو لا ؟ أنت الآن مختار، تدخل بيت فلان، أو بيت فلان، مختار أو لا ؟ لا شك هذا أمر باطل، ولهذا ما راج هذا على أهل العقول الصحيحة.

= الريح، أو بمنزلة حركة أغصان الشجر، فالعبد عندهم مجبور على فعله، وأن الجنة، والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتى لا يبقى موجود سوى الله - تعالى -، قتله سلْم بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/ ١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص١٠٨)، وفتح الباري (١٣/ ٣٤٥)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص٥٩٠).

(١) الجعد بن درهم: هو مؤسس مذهب التعطيل وأول من قال: إن الله لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، ويقال له مروان الجعدي؛ لأنه كان مؤدبًا لمروان الحمار آخر خلفاء بني أمية. قتله خالد القسري يوم الأضحى سنة أربع وعشرين ومائة، وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، ونزل فقتله، وكان من أبرز تلاميذه الجهم بن صفوان، وبه عُرف مذهب التعطيل.
انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٣)، والبداية والنهاية (٩/ ٣٥٠)، والكامل في التاريخ (٤/ ٤٦٦)، والنونية بشرح ابن عيسى (١/ ٥٠، ٥١).

الطائفة الأخرى الذين هم من أهل الجبر المتوسط، هم المشهورون بالأشاعرة، والماتريدية، هؤلاء قالوا: إن العبد لا يخلق فعل نفسه، الله ﷻ خالق فعل العبد. لكن هم ينكرون الأسباب، ينكرون أثر الأسباب، يقولون مثلًا: النار هذه إذا وضعت فيها ورقة، النار ما أحرقت الورقة، لكن الله ﷻ أحرق الورقة عندما التقت مع النار، انظر المكابرة! السكين تقطع بها - مثلًا - الخبز، واللحم يقول: ما قطعت السكين اللحم، وإنما لما أمررت السكين على اللحم، وعلى الخبز مثلًا قطع الله ﷻ ماذا؟ الخبز، أو اللحم عند إمرارك السكين، وإلا السكين ما تفعل، أنكروا الأسباب أن تكون أسبابًا قالوا: لا. إذًا: فعل العبد هو يفعل يروح للمسجد - مثلًا -، يفعل معصية، العباد يفعلون أشياء، فما مقامهم في هذا الفعل؟ قالوا: مقامهم في هذا الفعل أنهم يكسبون الفعل كسبًا، وليس بفعل لهم حقيقة، إنما يكسبونه كسبًا، ما معنى يكسبونه كسبًا؟ قالوا: إن الله ﷻ يخلق هذا الشيء عند ملاقاة العبد للعمل فقط، والعبد ما عمل حقيقة؛ فإذًا: العبد محل، إذا تأملت في مذهبهم، وقولهم من مذهب الأشاعرة، وهو الآن شائع في أكثر الأرض - إلا من رحم الله - يقولون: إن العبد حصل له ما خلقه الله، يعني: القدر، وهو مجرد محل لحصول القدر، مثل ما أنت الآن في داخل هذا المسجد يقول: هذا خلق الله ﷻ صادف، أو وافق أنك أنت في محله، وهذا سموه كسبًا، يقول: العبد ليس له فعل لعمله حقيقة، ما يفعل حقيقة، وإنما هو كسب، نقول: هذا الكسب الذي تقولونه ما تعريفه؟ ماذا تريدون به؟ هم علماؤهم في هذه المسألة اختلفوا إلى أكثر من اثني عشر قولًا، كل واحد يعرفه في تعريف، حتى إمامهم أبو الحسن الأشعري ما عرفه بتعريفاتهم، كل واحد أتى بتعريف، ولما اختلفوا هذا الاختلاف الواسع

دلَّ على أنهم هم أنفسهم لم يفهموا عقيدتهم[(١)]؛ ولهذا قال الشاعر - وحقٌ ما قال -[(٢)]:

مما يقالُ ولا حقيقةَ تحتهُ ... معقولةٌ تدنوا لذي الأفهامِ
الكَسْبُ عند الأشعري والحالُ ... عند البهشمي[(٣)] وطفرةُ النَّظّامِ[(٤)]

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله كما في مجموع الفتاوى (٨/ ١٢٨) عن الأشاعرة: «ثم أثبتوا كسبًا لا حقيقة له، فإنه لا يُعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثة أشياء لا حقيقة لها: طفرة النظّام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، واضطرّوهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرّد الاقتران العادي، والاقتران العادي يقع بين كل ملزوم، ولازمه، ويقع بين المقدور، والقدرة، فليس جعل هذا مؤثرًا في هذا بأولى من العكس، ويقع بين المعلول، وعلّته المنفصلة عنه، مع أن قدرة العباد عنده لا تتجاوز محلّها. ولهذا فرّ القاضي أبو بكر إلى قول، وأبو إسحاق الإسفرائيني إلى قول، وأبو المعالي الجويني إلى قول؛ لمّا رأوا ما في هذا القول من التناقض».

(٢) ذكر هذه الأبيات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله في منهاج السنة النبوية (١/ ٤٥٩)، وفي النبوات (ص١٤٤).

(٣) يعني: أبا هاشم الجبائي، عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي المعتزلي، تنسب إليه فرقة البهشمية توفي سنة ٣٢١هـ. انظر: في تعريف الأحوال عنده: الفرق بين الفرق (ص١٧٢ - ١٨٦)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٦٣)، والملل والنحل (١/ ٧٨).

(٤) هو إبراهيم بن سيار الضبعي البصري شيخ المعتزلة توفي سنة بضع وعشرين ومائتين. انظر: ترجمته في: تاريخ بغداد (٦/ ٩٧)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٥٤١)، ولسان الميزان (١/ ٦٧). وفي تعريف طفرته قال عبد القاهر البغدادي: «من فضائحه: قوله بالطفرة، وهى دعواه أن الجسم قد يكون في مكان، ثم يصير منه إلى المكان الثالث، أو العاشر منه، من غير مرور بالأمكنة المتوسطة بينه، وبين العاشر، ومن غير أن يصير معدومًا في الأول، ومعادًا في العاشر». انظر: الفرق بين الفرق (ص١٢٤).

ما هو الكسب عند الأشعري؟ هذا ما له معنى، العبد محل للفعل، وهو لم يفعل؛ إذًا: هو مجبور إذا كان محل الفعل، وهو لم يفعل هو مجبور؛ ولذلك صرح حُذَّاقهم بأنهم جبرية، هم يفرون من أنهم جبرية، لكن حذاقهم في شروحهم لمتونهم في العقائد صرحوا بأنهم جبرية، ولكن قالوا: نحن نقول بالجبر، ولكن جبر في الباطن، لا جبر في الظاهر، فالظاهر أنه مختار، وفي الباطن هو مجبور؛ لأنه محل لحصول خلق الله، وقدر الله، وهو ليس له فعل أبدًا، وإنما هو يكسب ذلك كسبًا.

لاحظ هنا مسألة: وهو أن لفظ الكسب ورد في بعض كتب عقائد أهل السنة، مثل مثلًا: لمعة الاعتقاد، ومثل: شرح العقيدة الطحاوية، ذكر فيها أن أفعال العباد كسب لهم، هم لا يعنون بذلك ما عنى به الأشاعرة، لا، هم يعنون بذلك ما جاء في كتاب الله؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فهم يعنون ما جاء في الكتاب، وفي السنة، لا يعنون ذلك المصطلح الباطل، ولهذا تنتبه لهذا، والواجب، أو الأحرى بأن تخلص كتب الاعتقاد - لما حصل هذا الاشتباه - من إطلاق الألفاظ التي يشتبه بها مذهب أهل السنة مع مذهب غيرهم من أهل الابتداع، وأهل الضلال، فنستعمل الكسب حين نستعمله بالمراد الشرعي مع الإيضاح، نوضح المراد، ما نطلق لفظ الكسب ونسكت، لا، لابد أن نوضح أن الكسب هو الفعل الذي يجر على صاحبه؛ إما خيرًا، وإما شرًا؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي، من الخير؛ ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ أي: من الشر، فالكسب في القرآن معناه: الفعل الذي يعود على صاحبه بالنفع، أو بالضر، لكن الأشاعرة، والماتريدية ما يقولون بذلك، لا شك أن الأشاعرة إذًا يعودون إلى الجبر،

الماتريدية يعودون إلى المعتزلة، الماتريدية يعودون إلى أهل الاعتزال، يعني: يعودون إلى القدر؛ لأنه مثلًا كلمة وجيزة في هذا، وإلا فالمقام لا يقتضي التفصيل، هنا نفس الكسب، هذا يقولون لابد أن يكون فيه إرادة من العبد، إرادة حاصلة، هذه الإرادة هل هي من الرب إحداثها، أو هي من العبد؟ هل هي من الرب، أم من العبد؟ قال الماتريدية: هي من العبد، فرجعوا إلى قول أهل الاعتزال، قال الأشاعرة: لا هي من الرب. فقالوا بقول الجبرية يعني: الإرادة، والقدرة، وما حصل، والفعل كله من الله ﷻ، وهو محل أولئك لا رجعوا إلى - يعني الماتريدية - قول أهل الإعتزال بالقدر؛ فإذًا: هذه المذاهب الضالة تبين لك أن مذهب أهل السنة وسط، أهل السنة يثبتون للعبد اختيارًا، ويقولون: هو يفعل فعله حقيقة، يفعل ما فعل، وهو يحس أنه فعل ذلك، لكن من الذي خلق الفعل؟ الله ﷻ؛ لأنك ما يمكن أن تفعل فعلًا أبدًا إلا بقدرة، وإرادة، إذا كان عندك قدرة، وما عندك إرادة ما يمكن أن يحصل الفعل، عندك قدرة تذهب إلى المسجد، لكن ما أردت تذهب إليه، يحصل الذهاب إلى المسجد؟ ما يحصل، عندك إرادة، أنا أحب والله أذهب إلى المسجد، لكن ما عندي قدرة ما أستطيع أتحرك، مشلول في بيتي، هل يستطيع أن يحصل الفعل؟ ما يحصل الفعل؛ إذًا: لا يحصل الفعل إلا بوجود القدرة، ووجود الإرادة، من الذي خلق القدرة فيك؟ الله ﷻ، من الذي خلق الإرادة لك، وجعلك مُريدًا؟ هو الله ﷻ.

إذًا: الفعل الذي تفعله حقيقة الذي يحصل بالقدرة، والإرادة التي خلقها الله ﷻ، هو مخلوق لله ﷻ؛ ولذلك فعلك مخلوق لله ﷻ، تحس أنت بالإختيار، تحس بأنك تريد هذا، وتريد هذا ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]

طريق الخير، وطريق الشر، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، تحس من نفسك ضرورة أنك إما أن تفعل هذا، وإما أن تفعل هذا. فإذًا: العبد كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهو اعتقاد الحق أنه هو مخير في عمله، إما يختار هذا الطريق، ويختار هذا الطريق ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فهو ﷻ بعث الرسل، وأنزل الكتب تهديك، وأنت تستجيب فتكون من أهل السعادة، أو لا تستجيب فتكون من أهل الشقاوة. قد يقول قائل الآن: هذه الأشياء التي تذكرونها هل لها وجود الآن بين الناس؟ هل لهذا الكلام نفع، أم لا؟ نقول: ربما يكون له نفع؛ لأننا نجد كثيرًا من الناس يحتجون بماذا؟ يحتجون بالقدر، تجيء تقول له: لماذا ما تصلي؟ إذا هداني الله، كيف يقول: إذا هداني الله أنا أصلي، الله ﷻ أمرك بأن تهتدي، أمرك بالهداية، لكن أنت فرطت؛ فإذًا: كيف تحتج على هذا العيب الذي فيك، وهذه الوصمة التي فيك بأن الله ﷻ ما شاء أنك تهتدي؟ لا، الله ﷻ أمرك، وشاء أن تهتدي، يعني: أراد أن تهتدي شرعًا، لكنك أنت أبيت ذلك ولم تهتدِ. فإذًا: لا تحتج بذلك.

فإذًا: من جادل بهذا لابد أن تناقشه، وتقنعه بأنك أنت مخير، وأنت قد أقيمت عليك الحجة، وأقيم عليك البيان، مثلًا الآن: مذاهب أهل الجبر، مثل المذهب الآن الشائع المعروف عند الحداثيين، أو الذين يقولون بمذهب بعض الغربيين، مثل: سارتر، وغيره في الوجود الذين يقولون بالوجودية، ونحوها، هذا يقول: الإنسان يفعل كل شيء، الإنسان يفعل كل شيء، هذا هو حقيقة القول بنفي القدر، الإنسان يفعل كل شيء، الذي تريده أنت سيحصل، والذي ما تريده ما يحصل، هذا موجود الآن في الناس،

والحداثيون الذين تعرفون شرهم، وشنآنهم، وعقائدهم، هم جملتهم منهم من الوجوديين، منهم يقولون بهذا فتنتبه لهذا - أيضًا -، أيضًا الآن أنت إذا قسمت الأرض، ورأيت مشارقها ومغاربها وجدت أنه - مثلًا - عندك الرافضة - مثلًا - هنا عندنا في شرق الجزيرة، أو في إيران، أو في باكستان مثلًا، في المكان الفلاني، أو الفلاني هؤلاء معتزلة في باب القدر، إذا ما صار طالب العلم فقيهًا بمذاهب الناس، كيف يرد عليهم، ما يستطيع، لابد - إذًا - أن يكون فقيهًا متنبهًا لمذاهب الناس؛ لأجل أن يكون طالب العلم مستطيعًا للرد على هؤلاء، كذلك الأشاعرة يأتون مدرسين، يأتي مدرسون، ويدرسون ربما غمزوا، ربما ذكروا أشياء، لابد أن تكون منتبهًا، بعض الكتب تقرأ فيها، يدس لك بعض المذاهب الباطلة مثلًا، يأتيك (التوفيق) مثلًا، يأتي يعرف لك (التوفيق)، إذا جاء -مثلًا- في لفظ في حديث -مثلًا- فيه التوفيق من الله ﷻ، أو في تفسير: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ٨٨]، هم يفسرون التوفيق بماذا؟ بالقدرة؛ لأن أصلًا ما عندهم إعانة مستقلة، ما عندهم تحبيب للإيمان، ما عندهم هداية مستقلة خاصة بهذا، لا، هم يفسرون التوفيق بالقدرة، وفقه الله يعني: أقدره، جعله قادرًا، وهو أصلًا محل لقدرة الله، فصار تحصيل حاصل، هذا قول الأشاعرة أهل الاعتزال مثلًا: يقولون التوفيق إيسن؟ كما - مثلًا - لو قرأت في بعض تفاسير المعتزلة يقول: الإعانة، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ٨٨] يعني: وما إعانتي إلا بالله، لماذا يقول الإعانة؟ لأن أصل القدرة خلق الفعل هو الذي يخلق فعله، والقدرة هي من عنده، يقول: إذًا: الإعانة فقط على الفعل هي من الله؛ إذًا: تنتبه في ما تقرأ يا طالب العلم، فمعرفة عقائد أهل السنة والجماعة تعصمك من أن يدخل إلى عقلك من يلوثه بغير المعتقد الحق،

المقام في هذا يطول في الكلام مع أهل البدع.

أثر الإيمان بالقضاء والقدر:

نخلص من هذه الكلمة إلى أثر الإيمان بالقضاء والقدر؛ لأن هذا مهم نحن نؤمن بالقضاء والقدر، لكن ما أثره على قلوبنا، هل للإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالقدر خيره وشره من الله ﷻ له أثر ظاهر في حياة الناس؟ أو هل يمكن أن يتميز المؤمن بالقدر من الذي لا يؤمن؟ نعم، هناك أثر، ليس إيماننا، وذكرنا لأركان الإيمان، وذكرنا لعقائد أهل السنة هذا مجرد كلام عقلي، مباحث كلامية، لا، هو مباحث متعلقة أتم التعلق بحياة الناس، بإنابتهم إلى الله، متعلقة بمعرفتهم، ومحبتهم، وعلمهم بالله ﷻ فما هذه الفوائد؟ وما هذه الثمار؟ وما هذه الآثار؟

أولًا: الإيمان بالقدر إيمان بالله، إيمان بأسماء الله، إيمان بصفات الله، فإذا أنت آمنت بالقدر، فمعناه تؤمن بأن الله ﷻ قادر على كل شيء، والله على كل شيء قدير؛ إذًا: ما تستصعب شيئًا؛ لأنك آمنت بهذا الاسم الحسن، بالاسم الحسن لله ﷻ.

الإيمان بالقدر إيمان بربوبية الله ﷻ، وأنه ﷻ هو الذي يدبر الأمر، وهو الذي يصرف، فإذا قام في قلبك الإيمان بالقضاء والقدر إيمانًا قويًا، علمت يقينًا أن الله ﷻ هو الرب، وأنت مربوب، هو ﷻ الذي له الأمر كله، وأنت ضعيف مسكين؛ إذًا: الضعيف المسكين يتجه إلى من؟

يتجه إلى القوي العزيز، الضعيف المسكين يتجه بقلبه، وقالبه، وبكله إلى من؟ إلى الرب العظيم الجليل.

فإذًا: الإيمان بالقدر يبين لك أنك ضعيف مسكين، وأنك محتاج إلى الله ﷻ في كل عمل تعمله، وأن الله ﷻ هو الذي أحاط بكل شيء علمًا؛ ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

هذه ثمرة من ثمرات الإيمان بالقدر، فكلما زاد إيمانك بالقدر زاد إيمانك بالله ﷻ، إذا أصابتك مصيبة علمت أنها من عند الله، أنت رضيت بالقدر، سلمت، آمنت، لكن في هذا الإيمان زيادة إيمان بمن؟بالله ﷻ. ولذلك تجد عند المؤمنين بالأقدارخيرها وشرها من الله ﷻ، الذين ارتفع إيمانهم بذلك، تجد عندهم من الأنس بالله، ومن الالتجاء إلى الله، ومن معرفة الله، والعلم بالله ما ليس عند غيرهم من آحاد الناس.

الفائدة الثانية:

الإيمان بالقدر في معتقد أهل السنة والجماعة متعلق بفعل الأسباب، مثل ما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ**»(١).

إذًا: أنت إذا آمنت بالقدر وفي إيمانك إيمان بأنك لا بد أن تفعل السبب، وأن هذا السبب هو من قدر الله، وأنك مع فعلك للسبب تتوكل على الحي الذي لا يموت، هذا يجعلك منطلقًا في الحياة، يجعلك تعمل، يجعلك تنتج، يجعل هذه الأمة أمة منتجة قوية؛ ولهذا الصحابة رضي الله عنهم ما تواكلوا، ما جلسوا قالوا: القدر، إذا قدر الله ﷻ يمطر علينا من السماء ذهبًا ويأتينا، لا بد من العمل، لا بد من الإنتاج، لابد من فعل السبب. فإذًا: الإيمان بالقدر في عقيدة أهل السنة والجماعة الذين يرتبون المسببات على الأسباب

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٠٦).

هذا يجعل الأمة حية، يجعل الأمة قوية، يجعل الفرد المؤمن، والأمة جميعًا تعمل عملًا جادًا؛ ولهذا إذا رأيت في زمن التخلف، سني التخلف التي مرت على المسلمين، من يحتج وهو جالس لايعمل يقول: لا، يرزقني الله إن شاء الله، كيف يأتيك؟ الله ﷻ أمر بالسبب، أمر أن تعمل، ويوفقك الله ﷻ، ويأتيك بالرزق، لكن تأتي وتقول: ستمطر عليَّ السماء ذهبًا، وفضة. أنَّى ذلك؛ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، ما يمكن. فإذًا: الإيمان بالقدر فيه إيمان بأن كل مسبب حاصل عن سبب، ولا بد لك أن تفعل السبب، وأن السبب هو من القدر؛ فإذًا: تسعى في ذلك، وتعلم أن الجميع من قدر الله ﷻ، كذلك الإيمان بالقدر - على ما بينه أهل السنة والجماعة - يجعل القلب مطمئنًا لله، إن أصابه سوء رضي، وسلم، وإن أصابه خير لم يجعله ذلك الخير بطرًا فرِحًا فرحًا مذمومًا، لا، يعلم أن الكل من عند الله، هذا الخير ابتلاء، وذاك الشر ابتلاء؛ ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فإذًا: يعلم أن الجميع من عند الله؛ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

إذًا: في قول الله ﷻ - في سورة النساء -: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾، هذه عقيدة إذا كانت في القلب كان القلب مطمئنًا، لا يفرح إذا اغتنى، ولا يقنط، ويكون كئيبًا حزينًا إذا افتقر، وإنما يعلم أن عليه العمل، وأن الباقي عند الله ﷻ.

من آثار الإيمان بالقدر: أن هذا الإيمان يجعل المؤمنين متحابين متوادين؛ ولذلك الصحابة رضي الله عنهم لما كانوا يؤمنون بالقدر إيمانًا حقيقيًا، كانوا متآخين متحابين. الحسد ما منشأه؟ الحسد، فلان يحسد واحدًا، هذا والله بنى بيتًا، وعنده وأتى وعمل واغتنى، لا أعرف من أين جاء المال، هذا الذي فيه ماله فيه، ويحسده، يتمني أن يسلب الله عز وجل ما آتاه لأخيه، هذا ما يؤمن بالقدر الحقيقة؛ لأن من الذي أعطى ذاك تلك الأشياء؟ الله عز وجل، فإذا هو حسد، وتمنى زوال ذلك معناه في ضمن ذلك معترضًا على قدر الله، وعلى عطاء الله.

فإذًا: من آمن بقدر الله عز وجل حق الإيمان علم أن ذاك ما آتاه إلا من الله عز وجل فتنة له، وابتلاء، وإنك ما حرمت حين حرمت إلا من الله عز وجل ابتلاء، وقد يكون الخير في القلة، وقد يكون الشر مع الكثرة؛ فإذًا: الإيمان بالقدر ينفي الحسد من النفوس؛ لأنه إذا علم أنه إذا حسد أنه معترض على قضاء الله معترض على قدر الله، فإنه لن يحسدأحدًا ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، لا، الحسد مذموم، ويأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب؛ وذلك لأنه فيه قدح أصلًا في الإيمان بالقدر الله عز وجل هو الذي أعطى هذا وهو الذي حرم هذا؛ فإذًا: لم الحسد؟ فإذا قام الإيمان بالقدر في القلب إيمانًا قويًا، نفى الحسد، نفى الغل، وأصبح أهل الإيمان إخوانًا على سرر متقابلين في الدنيا، وسيكونون إخوانًا على سرر متقابلين في الآخرة - نسأل الله الكريم من فضله -.

هذه بعض ثمرات الإيمان بالقدر، وله ثمرات أخر، لكن يضيق المقام عن ذكرها، وتقصيها، هذه تبين لك عظم هذه العقيدة المباركة، عقيدة أهل السنة

والجماعة، وأنها نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء، وأنها نور في الصدور، ونور في الأعمال، وأن من أخذ بها أخذ بحظ وافر، وواجب على طلاب العلم خاصة أن يكون اهتمامهم بالتوحيد، وبمباحث التوحيد فوق اهتمامهم بأي شئ آخر؛ لأن هذا علم بالله، وإنما يشرف العلم بما يتعلق به، وهذا العلم متعلق بالله ﷻ؛ فإذًا: هو أشرف العلوم.

أشرف العلوم علم التوحيد؛ ولهذا الذين يهتمون بأشياء أخر ما يهتمون بالتوحيد، هذا فيه نقص، فالواجب هو أن نهتم بالتوحيد، وأن ننشره في بيوتنا، وأن ندرس أصوله، ومختصراته في جميع فنونه، وأنواع التوحيد، حتى يكون الناس، وتكون القلوب محبة لله مجلة لله، عبدت الله ﷻ عن محبة، ورغبة، ورهبة، وحتى يكون هناك استقامة على الهدى، والصلاح، فبهذا يحصل الخير.

فإذًا: أعود، وألخص ما قلته في هذه الكلمة الموجزة عن هذا الموضوع الطويل، الذي صنفت فيه مصنفات، فأقول: إن عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر هو أن الإيمان بالقدر يعني: أن تؤمن بأن الله ﷻ علم ما الخلق عاملون في الأزل، وأن علمه هذا أول ليس له بداية ليس قبله شيء، وأن الله ﷻ كتب ما الخلق عاملون إلى يوم القيامة، وأن مشيئة الله ﷻ نافذة وشاملة، فما شاءه الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن تؤمن بأن الله ﷻ خالق كل شيء، ومن ذلك فعلك من الخير، والشر الله ﷻ هو الذي خلقها، وأنت تفعلها ليس فعلًا إضافيًا، لا تفعلها حقيقة، وأنك مختار لأي الطريقين شئت؛ طريق الهدى، أو طريق الضلال، وأنك سوف تحاسب على اختيارك، والله ﷻ علم ما ستختاره، وما سيكون عليه أمرك، وكتب ذلك في

اللوح المحفوظ، وتبين لك بذلك أن من ضل في هذا الباب كثير، وأصل ضلالهم هو أنهم خاضوا في هذا السر، خاضوا في سر القدر، وراحوا يبحثون بالأسئلة التي تؤول بصاحبها، وتقود صاحبها إلى الضلال.

لِمَ وكيف؟ هذا سر من الأسرار، سرٌ يقال فيه لِمَ، هل سيوصل فيه إلى نتيجة؟ لا، سرٌ يقال فيه كيف؟ هل سيوصل فيه إلى نتيجة؟ لا. الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، روحك التي بين جنبيك ما تعرف كيف هي، ولا كيف تخرج منك، ولا كيف تدخل، ولا إذا نمت كيف تسير، وكيف تحلم أنت، وكيف ترى الرؤيا.. إلى آخره؟ هذا شيء في نفسك ما تعلمه، بل أقرب الأشياء إليك في نفسك ما تعلمه، الشعر ينبت في وجهك، ما تعلم كيف ينبت؟ ولا كيف يزيد، ولا كيف يكون، ولا كيف يغذى؛ إذًا: كيف تبحث عن سر الله الذي هو القدر؟ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته القدرية العظيمة، منظومة تائية ردّ بها على أحد الذميين اليهود الذين أرادوا إيقاع الشبهة في المسلمين، بيّن أصل الضلال في هذا الباب، الذي أحذركم عنه، وأحذر نفسي عنه، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تائيته(١):

وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

---

(١) انظر: الأبيات بتمامها في مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤٥ - ٢٥٥)، وشرح القصيدة النونية لابن عيسى ٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣)، ومطلع القصيدة يقول فيها شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

سُـؤالُـك يـا هـذا سُـؤالُ مُـعـانِـدٍ ... مُـخاصِـمِ ربِّ الْعرْشِ بـارِي الْبـرِيّةِ

فـهـذا سُـؤالٌ خـاصـم المَلأَ الْـعُـلا ... قـدِيمًا بِـهِ إِبْـلِـيـسُ أصْـلُ الْـبـلِـيّـةِ

ومنْ يكُ خصْمًا لِلْمُهيْمِنِ يرْجِعنْ ... عـلـى أُمِّ رأْسٍ هـاوِيًـا فِي الْحفِـيـرةِ

ويُدْعى خُصُومُ اللّهِ يوْم مَعادِهِمْ ... إلـى الـنّـارِ طـرًّا مـعْـشـر الْـقـدرِيّةِ

فإنهمو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ

لماذا فعل الله ﷻ كذا؟ لماذا ما فعل؟ كيف فعل؟ هذا هو أصل الضلال، هذا سر من الأسرار، تريد أن تعارض الله في حكمه، أو أن تدخل مع الله ﷻ وتعلم كعلمه، لا، أنت مخلوق مربوب.

فإنهمو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ فَصَارُوا عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ

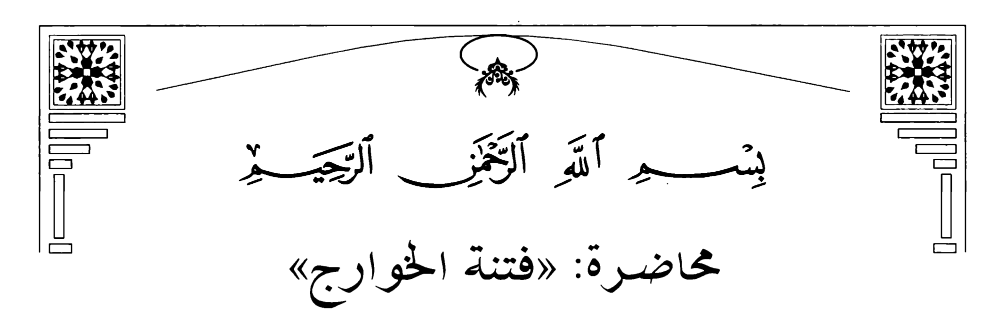
ما فيه شك، ما فهموا حكمة الله ﷻ، وأصلًا لو فهم الخلق حكمة الله ﷻ صاروا مثله كيف؟ الآن انظر - مثلًا - موسى عليه السلام مع الخضر.

الخضر فاق موسى بماذا؟ بالعلم، علم شيئًا ما علمه، جاء السفينة خرقها موسى عليه السلام ماله إلا الظاهر: ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، كيف تخرقها لتغرق أهلها، هذه فيها مصلحة لهم، لكن موسى عليه السلام لا يعلم، وهو النبي لا يعلم، وذاك يعلم بعلم الله؛ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ أتى الغلام، غلام يلعب جاءه، وقتله - سبحان الله -؛ ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]، ولد تأتي وتقتله، موسى ما له إلا الظاهر، فكيف إذًا: هل يمكن أن يطلع على الباطن؟ لا.

فحصل بعد ذلك الحالة الثالثة، والأخيرة: أنه جاء القرية أرادا أن يضيفاهما أهل هذه القرية أبوا، بخلاء - والعياذ بالله -، قالوا: اذهب ما نضيفك. جاء إلى هذا الجدار الذي في القرية فأقامه ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] جدار يسقط جاء وأقامه، موسى تعجب قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، يعني: هؤلاء الذين لم يضيفونا، هؤلاء الذين فيهم وما فيهم، اتخذ عليهم أجرًا؛ لأنهم ما أكرمونا، تفعل لهم خيرًا،

فموسى عليه السلام نظر الظاهر، والخضر عليه السلام يعلم بعلم الله، وله في هذه الأفعال التي ظاهرها ما هو؟ ظاهرها ليس بحسن له، لله عز وجل في ذلك الحكمة البالغة، وأرسل الخضر؛ ليبين قصر علم موسى، لما قال: أنا أعلم أهل الأرض، وليبين أن الله عز وجل يطلع من شاء من خلقه على علمه. فإذا كان هذا هو الفرق بين موسى والخضر، وكلاهما مخلوق، فكيف إذًا الفرق بينك، وبين الله عز وجل هذا لا يمكن، لا يمكن أصلًا أن تقارن علمك بعلم الله عز وجل، ولا أن تقارن قدرتك بقدرة الله عز وجل؛ إذًا: كيف تدخل في فهم السر، وفي فهم الكيفيات؛ فإذًا: إياكم وإيا (لِمَ) و(كيف)، هذا مدخل من مداخل الشيطان، فاحذروه، وتذكروا هذه القصة التي ربما يقرؤها أكثركم كل جمعة، وما فيها من العبر، وما فيها من الدلائل، إذا كان بشر ما فهم أفعال البشر، ما استطاع أن يفهمها، واعترض عليها، وكان فيها الخير، وكان فيها الحكمة؛ فإذًا: أنت تنظر إلى أفعال الله تريد أن تحددها، وتفسرها بفهمك القاصر، وعقلك المحدود، لا، هذا باطل هذا باطل أشد البطلان، فالله عز وجل تميز عن خلقه بأن له الحكمة البالغة؛ ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩] ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، لا شك أن الله عز وجل أعلم، وأقدر.

أسال الله عز وجل أن ينور بصائرنا، وإياكم لما فيه هداه، وأن يجعلنا من المتقين، وأن يوفقنا وزرارينا إلى ما يحب ويرضى، وأن يصلح من كان منا ضالًا، وأن يهدي من كان منا غافلًا، وأن يجعلنا، ومن نحب وزرارينا، وأهلينا في خير، وعافية، وإيمان، وإسلام، واستجابة لله والرسول، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.



محاضرة: «فتنة الخوارج»

وقد قام فضيلته بإلقائها في فاتحة ندوة جائزة الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود رحمه الله في السنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإني مسرور غاية السرور أن تكون هذه الندوة فاتحة أنشطة كثيرة، ومتتالية، ومتتابعة لجائزة الأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود في السنة النبوية، والدراسات الإسلامية المعاصرة، فأجدني متذكرًا جهد سموه الكبير على مدى سنتين مضت؛ لترسو قواعد هذه الجائزة، ولتتضح معالم أنشطتها، والأطر لبحوثها.

فأبدأ بعد حمد الله، والثناء عليه بالشكر لسموه باسمي، وباسم جميع طلبة العلم والباحثين، والدارسين، وخطباء المساجد، والدعاة، الذين هم جميعًا يحرصون على السنة النبوية، وعلومها، ثم أشكر لسمو أمير منطقة

المدينة المنورة حضوره لهذا الافتتاح، وهذه الندوة، شاكرًا له جهوده الكبيرة في دعم النشاط العلمي، والبحثي في منطقة المدينة المنورة، ولسمو المشرف العام على الجائزة الشكر منا والتقدير على حرصه على هذه الأنشطة، والندوات، وما قدمه في كلمته من إيضاح للجائزة، ولأنشطتها، وما ذكره من جائزة جديدة لحفظ السنة النبوية، والحديث النبوي الشريف.

ولأمانة الجائزة، ولسعادة الدكتور المقدم مني الشكر، والتقدير.

الوقت يضيق عن تكرار بعض ما تفضل به سماحة الشيخ/ محمد سيد طنطاوي (جزاه الله خيرًا)، وأجدني مضطرًا إلى أن أدخل في صلب الموضوع، وأقسم ما سأتكلم عنه إلى أربعة أقسام:

أما الأول: فهو ذكر أسباب الفتن؛ لأن معرفة السبب يورث معرفة المسبب، ومعرفة المقدمات تورث يقينًا معرفة المآلات.

والثاني: بعض نتائج، وصور من الفتن، والافتتان الذي وقع في هذه الأمة.

والثالث: رؤية موجزة للعلاج.

والرابع: ما موقف المسلم أيًا كان من الفتن في ضوء الكتاب والسنة، وقواعد الشريعة المطهرة.

الفتن جمع فتنة، والفتنة - كغيرها من الألفاظ - لها استعمالان: استعمال لغوي، وقد فصَّل فيه فضيلة الشيخ قبل ذلك، وذكر الشواهد عليه من الكتاب والسنة، وهناك استعمال اصطلاحي عرفي، مشى في الناس، وهو أن الفتنة ضرر يقع في الناس باختلاف فيما بينهم، أو قتل، أو انعدام

للأمن، أو يمكن تعريف الفتنة التي يتداول معها الناس هذه الكلمة بأنها: أقوال، وأعمال تخرج عن الشريعة، وتؤدي إلى انعدام الأمن، واختلاف الجماعة، وحدوث الفرقة.

وهذا هو المقصود بالتحذير من الفتن ما ظهر منها، وما بطن، وهو التحذير من الأقوال، والأعمال التي تخرج عن إطار الشريعة، وتؤدي إلى انعدام الأمن، وتفرق الجماعة، وحصول الفرقة.

هذا المعنى للفتن وجد في تاريخ الإسلام، بل قد قال بعض الباحثين: إن تاريخ الإسلام مملوء بالفتن، بل غلا بعضهم، وقال: هل تاريخ المسلمين إلا الفتن؟ وهل نقرأ في كتب التاريخ إلا الاقتتال؟ وهل نقرأ في كتب التاريخ إلا سفك الدماء؟ وهذا صحيح من وجه وغلط من وجه.

أما صحته، فموجود في كتب التاريخ ما ذُكر من كثرة الاقتتال، والخروج، والدماء، واستباحة الدم، والمال، والعرض، ولكن هناك شأن عند المؤرخين - لا ينبغي أن يسود في أذهاننا في تاريخ الإسلام، والمسلمين -، وهو أن المؤرخين درجوا على أنهم لا يذكرون إلا السيئ الغريب، ولا يذكرون الحسنات الكثيرة التي عملها الخلفاء، وعملتها دول الإسلام المتعاقبة، إلا فيما ندر، فتجد أنهم عند حوادث كل سنة يذكرون ما حصل فيها من القتال، ما حصل فيها من الفتن، ما حصل فيها من الوفيات، والقليل من يذكر ما فيها من أمور محمودة. فلا يغلبن على الأذهان تلك الصورة التاريخية مما هو موجود في التاريخ، لكن الفتن موجودة، وسنعرض لبعض الأمثلة بحسب ما يتسع له الوقت.

الفتن لها أسباب:

الفتن بالمعنى الذي ذكرنا، الفتن التي تُحدث الفرقة، تُحدث انعدام الجماعة، تُحدث الخروج عن إطار الشريعة، وانعدام الأمن، وحصول القلاقل، والاعتداء على الناس في أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم لها نشأة. نشأتها دائمًا تكون من مجموعة، أو جماعة، أرادت زعزعة الأمن، وتفريق الجماعة، وغالبًا من الصور تكون تلك الفئة أداها إلى الفتنة، وإلى الخروج، وإلى القتل، وإلى السفك، الغلو في الدين، وزيادة التدين؛ لذلك نذكر بعض الأسباب بحسب ما يناسب المقام.

أما السبب الأول لظهور الفتن، فهو الجهل: الجهل بالدين، أو الجهل بقواعد الشرع، أو الجهل بالحقوق، هذا يؤدي إلى حدوث الفتن؛ لأن من كان عنده جرأة، وغيرة باطلة غير منضبطة، فإنه سيتجرأ بجهله على أن يخوض الفتنة، وقد بدأت منذ ذلك الرجل الذي قال للنبي ﷺ لما فرق بعض المال، قال: **يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، فَقَالَ: «وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللهِ، ألا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ فَقَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» قَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، رَطْبًا لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ» قَالَ: أَظُنُّهُ قَالَ: «لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ»**[١]، فعلًا خرج أولئك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤).

الجهل بحق النبي ﷺ، الجهل بالعلم، الجهل بالدين قاتل؛ ولذلك ما خرج أحد إلى الفتن، إلا وأداه خروجه إلى أن يكون جاهلًا، بل كان سبب ذلك هو جهله، ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله في قوله[1]:

وَالجَهلُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَشِفَاؤُهُ أمرَانِ فِي التَّركِيبِ مُتَّفِقَانِ

نَصٌّ مِنَ القُرآنِ أو مِن سُنَّةٍ وَطَبِيبُ ذَاكَ العَالِمُ الرَّبَّانِي

فإذا كان الكتاب والسنة دواء، فإن صرفه وفهمه يكون من العالم الرباني، لا من فهم آحاد الناس.

السبب الثاني لظهور الفتن، وظهور الفاتنين، والمارقين: اتباع المتشابه، وترك المحكم. الله سبحانه وتعالى ابتلى الناس بأن جعل في كتابه محكمًا، ومتشابهًا.

المحكم هو: ما هو بين واضح يُدرك معناه.

والمتشابه هو: ما يشتبه معناه، فيدركه أهل العلم، وأهل الرسوخ في ذلك، ولا يدرك معناه كل أحد. قال الله عز وجل في فاتحة سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: ٧]. فيه آيات محكمات واضحة بينة، وفيه آيات متشابهات، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧].

---

(١) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٣٨٣).

وأقف هنا وقفتين:

أما الأولى: فهي انقسام القرآن إلى محكم، ومتشابه، فالمتشابه موجود، فمعنى ذلك أن يكون المسلم على حذر من أن يستدل بالقرآن استدلالًا خاطئًا، وكما قال بعض أئمة الإسلام: ليس الشأن في أن تستدل - ليس الشأن أن تقول: قال الله، وقال الرسول -، وإنما الشأن أن يكون استدلالك صحيحًا، موافقًا لفهم السلف.

الشأن ليس في الدليل، الدليل منه محكم، ومنه متشابه، لكن الشأن في أن يكون استدلالك صحيحًا. كل أحد اليوم يقول: الكتاب والسنة، كل أحد يستدل، حتى أهل المروق، وحتى أهل الضلال الذين أوبقوا، وعملوا ما عملوا من تفجيرات، وفتن، وقتل للمسلم، وللمعاهد، والمستأمن، وعملوا، هل الشأن في وجود الدليل؟ ليس الشأن كذلك، الشأن في أن يكون أولًا الدليل محكمًا، ثانيًا: أن يكون الاستدلال صحيحًا موافقًا لفهم سلف الأمة من هذا الدليل.

كذلك السنة، إذا كان القرآن فيه محكم، ومتشابه، فكلام النبي ﷺ فيه محكم، وفيه متشابه، كيف نعرف المتشابه؟ كيف يفهم أهل العلم المتشابه؟ يردون المتشابه إلى المحكم، فيفهمونه.

الوقفة الثانية في الآية: وألحظها في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾، فأثبت وجود الزيغ أولًا، قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ﴾، أي: أن وجود المتشابه ليس هو سبب الزيغ، لكن هم قد وُجد الزيغ في أنفسهم، فاتبعوا المتشابه، وهذا كثير في أن المرء الذي عنده هوى، وعنده

ضلال يبحث عن ما يستدل به لمقررات سابقة عنده.

وقد ذكر ابن حزم في أول كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) أن من أسباب الانحراف أن يكون عند الإنسان مقررات سابقة، فهوم، أحكام، اتجاه، فيبحث عن الدليل؛ ليؤيد اتجاهه.

وهذا سبب رئيس لحدوث الفتن، والاختلاف، والضلالات، فاحذر أن يكون عندك هوى في شيء، ثم بعد ذلك تبحث في الأدلة، تبحث في الكتب عن ما يساند ما قررته سلفًا، وما اتجهت إليه سابقًا، أو اتجهت مجموعتك، أو اتجهت إليه جماعتك، أو نحو ذلك. هنا نحذر.

في السنة - أيضًا - محكم، ومتشابه، كذلك أقوال العلماء، هل أقوال العلماء من الصحابة، أو أعمال العلماء، وأفعال العلماء كلها محكمة؟ ليست كذلك، منها ما هو محكم، ومنها ما هو متشابه. فإذا أتى أحد، وقال - في بعض كلامه -: الإمام الشافعي قال: كذا وكذا، الإمام ابن تيمية قال: كذا وكذا، الإمام مالك قال: كذا وكذا. هل المسألة انتهت في أن يكون قوله صوابًا؟ ليس الأمر كذلك، لابد أن يكون أقوال أهل العلم أولًا: محكمة، ثانيًا: إذا كانت متشابهة، فترد على المحكم، إذا لم يستبن الأمر فيها، فالرجوع في فهم أهل العلم إلى كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

السبب الثالث: التأويل، وهل أفسد الدنيا إلا التأويل، يتأول الأمور، فيحرف الأمور عن وجهها؛ حتى يصل إلى ما يريده، والتأويل مما أضر بالناس، سواء أكان التأويل في العقائد، أم كان التأويل في مسائل العمليات التي اتجهت إليها بعض الفرق، كالخوارج، والمعتزلة، وغير ذلك.

الرابع: حب الدنيا والرياسة، ابن تيمية رحمه الله لما ذكر الخوارج قال: إن سبب ظهورهم - هم ظهروا في أي زمن؟ ظهروا في زمن عثمان رضي الله عنه، هل هناك أنقى في زمن عثمان رضي الله عنه من عثمان؟ هل هناك أنقى من دولة عثمان؟ لكنهم نقموا عليه، وخرجوا عليه، حتى قتلوه في بيته، وهو ناشر المصحف يقرأ فيه، وكان صائمًا رضي الله عنه - قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن من خرج من الخوارج، وغيرهم على ولي الأمر، فإنما أخرجه لذلك شهوة باطنة في حب الدنيا، والرياسة جعل لها سبيلًا من بعض مسائل الدين، أو الغيرة على الشريعة. فجعل ذلك سلمًا لشهوة باطنة عنده، وهذا كلام ظاهر، وصحيح لمن تأمل.

السبب الخامس: الغلو، الغلو هو: مجاوزة الحد، الله عز وجل نهى هذه الأمة عن الغلو، كما نهى أهل الكتاب، قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١]. والنبي ﷺ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»(١). الغلو: مجاوزة الحد عن المأذون به، فمن جاوز الحد عن السنة المرضية، فقد غلا، النبي ﷺ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما(٢).

كان عف الكلام، عف اللسان، رحيمًا، برًا، قويًا في موضع القوة، لينًا

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، عنْ عائِشة رضي الله عنها أنّها قالتْ: «**ما خُيِّر رسُولُ اللّهِ ﷺ بيْن أمْريْنِ إِلّا أخذ أيْسرهُما، ما لمْ يكُنْ إِثْمًا، فإِنْ كان إِثْمًا كان أبْعد النّاسِ مِنْهُ، وما انْتقم رسُولُ اللّهِ ﷺ لِنفْسِهِ إِلّا أنْ تُنْتهك حُرْمةُ اللّهِ، فينْتقِم لِلّهِ بِها**».

في موضع اللين، بعض الناس يظن أن الشدة دائمًا هي الحق، هذا غلط، غلط على الشريعة، قد يكون في مواضع كثيرة، وكثيرة اللين، واليسر، والأناة والرفق هو المطلوب؛ لهذا ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ**»[١]، الله ﷻ رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فمن كان رفيقًا في أمره كله، فقد ابتعد عن الفتن، وسلم من الغلو، وكان محبوبًا لله ﷻ.

السبب السادس: مخالفة العلماء، وعدم الرجوع إليهم، الخوارج ما رجعوا إلى الصحابة رضي الله عنهم، استقلوا بفهومهم، الذين خرجوا اليوم من هذه الجماعات الضالة - جماعات الفتن -، الذين لا يفرقون بين مؤمن، وغير مؤمن، بل يقتلون كما يشاؤون، ولا يرعون لذي عهد عهده، هؤلاء لم يرجعوا إلى فهم العلماء، فكان من أسباب ظهور الفتن، والوقوع في الفتنة أن المرء يستقل بنفسه في الفهم، ولا يرجع إلى أهل العلم الراسخين فيه، العلم درجات، ليس كل من قرأ صار عالمًا، وليس كل من بحث صار باحثًا وعالمًا، العلم له أهله الذين يُرجع إليهم، فلابد حينئذٍ أن يعرف أن من أسباب الفتن مخالفة العلماء، أو عدم الرجوع إلى أهل العلم الراسخين فيه.

إذا تبين ذلك، فإن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى خروج فئات في تاريخ الإسلام بسبب هذه الأسباب جميعًا، أو بعض هذه الأسباب، فكانت صورتها أبشع صورة، من ذلك - وهو أشهرها، وأولها -: الخوارج، الخوارج خرجوا على الإمام الحق، خرجوا على عثمان رضي الله عنه، وقتلوه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٧).

ضَحَّوا بِأَشمَطَ عُنوانُ السُجودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَيلَ تَسبيحًا وَقُرآنا[١]

ثم قتلوا من؟ قتلوا علي بن أبي طالب خير الناس في زمانه، وهؤلاء مبشرون بالجنة، والنبي ﷺ يقول في حق عثمان رضي الله عنه: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»[٢]، لكنهم أداهم القول بالخروج، وأداهم الهوى إلى أن يقتلوا عثمان، ويقتلوا عليًّا.

هل كانت حينذاك لهم معتقدات خاصة؟ لا، خرجوا، وقتلوا؛ لأنهم رأوا أن هؤلاء تجاوزوا الشريعة، قبل أن يحكموا على عثمان بالتكفير، عثمان ما حكموا عليه بالكفر، وإنما حكموا عليه بالضلال في باب المال، وفي باب الولايات، قالوا: أنت تقسم المال كما تشاء، وتعطي الإقطاعات كما تشاء.

وأجمع أهل العلم على ضلال هؤلاء، وعلى أنهم من كلاب أهل النار[٣].

كذلك قتلوا عليًّا رضي الله عنه، الذي قتل عليًّا من؟ هل قتل عليًّا رضي الله عنه رجل فاسق يزني، ويسرق، ويرتشي، ويشرب الخمر، ويعمل؟ لا، ربما كان هذا

---

(١) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه يرثي عثمان رضي الله عنه، انظر: العقد الفريد (٤/ ١٤٥)، وأدب الكتاب للصولي (٢/ ١٤٨)، وتهذيب اللغة (١/ ٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٠١).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (١٧٦) عنْ أبي غالِبٍ، عنْ أبي أُمامة، يقُولُ: «**شرُّ قتْلى قُتِلُوا تحْت أدِيمِ السّماءِ، وخيْرُ قتِيلٍ منْ قتلُوا، كِلابُ أهْلِ النّارِ، قدْ كان هؤُلاءِ مُسْلِمِين فصارُوا كُفّارًا» قُلْتُ: يا أبا أُمامة، هذا شيْءٌ تقُولُهُ؟ قال: بلْ سمِعْتُهُ مِنْ رسُولِ اللّهِ ﷺ.**

الرجل الذي يعمل مثل هذه الأعمال لعليٍّ في قلبه من المكانة ما ليس لدى قاتل علي، قاتل علي من؟ قاتل علي عبد الرحمن بن مُلجَم - مُلْجَم بفتح الجيم، لا بكسرها - عبد الرحمن بن ملجم هذا رجل صالح في أول أمره، أرسله عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مصر، طلبه عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: يا أمير المؤمنين أرسل لي رجلًا قارئًا للقرآن، يُقرئ أهل مصر القرآن، فأرسل عمر رضي الله عنه لعمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: أرسلت إليك رجلًا هو عبد الرحمن ابن مُلجم من أهل القرآن، آثرتك به على نفسي - يعني: أنا أريده عندي في المدينة، لكن آثرتك به على نفسي - فإذا أتاك، فاجعل له دارًا يُقرئ الناس فيها القرآن، وأكرمه[(١)].

لكن عبد الرحمن بن ملجم لم يكن عنده علم، دخلته الأسباب التي ذكرنا، فجره الخوارج معهم، قتل عبد الرحمن بن ملجم عليًّا رضي الله عنه، ولما قتله، وقيد للقصاص قال للسياف: لا تقتلني مرة واحدة - يعني قطع أطرافي شيئًا فشيئًا -؛ حتى أرى أطرافي تُعذب في سبيل الله.

انظر هذا الحب لله عز وجل، حب لله عز وجل عظيم، وبذل للنفس عظيم، يريد أن تُقطع لماذا؟ لأن عنده أن قتله لعليٍّ حق.

لهذا تنتبه أن أئمة السنة والجماعة قالوا كلمة عظيمة، قالوا: (ليس الشأن أن تحب الله - لأن هذه دعوى -، ولكن الشأن أن يحبك الله)[(٢)].

ليس الشأن أن تقول: أنا أحب الله عز وجل، وأعمل كل شيء، الشأن أن تبحث

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات (١٨/ ١٧١).

(٢) انظر: روضة المحبين (١/ ٢٦٦).

عن ما يحبه الله، فتعمله. تقول: أنا أحب الله، غيرة لله ﷻ، أنا أريد أن أضحي في سبيل الله، أريد أن أبذل نفسي في سبيل الله، ثم تمشي في طريق خطأ. هذا عرضة للضلال، لابد أن تبحث عن ما يحبه الله، وقد يحب الله ﷻ الأناة، والحلم في موضعها، وقد يحب الإقدام في موضعه.

هذا قاتل علي أتى رجل يمدحه، هو عمران بن حطان، عمران بن حطان من الخوارج. تتابع، هل انقضى الخوارج؟ لم ينقضوا، وهم أساس الفتن وكما جاء في حديث النبي ﷺ: **«لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ حَتَّى يَخْرُجَ آخِرُهُمْ مَعَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»**[1]، ولاحظ قوله ﷺ: **«لَا يَزَالُونَ يَخْرُجُونَ»** يعني: يخرجون، ثم يخمدون، ثم يخرجون، ثم يخمدون، وقد قال في حقهم: **«فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[2].

عمران بن حطان مدح قاتل عليٍّ رضي الله عنه بقوله[3]:

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

يمدح من؟ يمدح الذي قتل عليًّا يقول:

يا ضَربَةً مِن تَقِيٍّ ما أَرادَ بِها ... إِلّا لِيَبلُغَ مِن ذي العَرشِ رضوانا

إِنّي لَأَذكُرُهُ حينًا فَأَحسَبُهُ ... أَوفى البَرِيَّةِ عِندَ اللَهِ ميزانا

---

(١) أخرجه النسائي (٤١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٠).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٥)، وتاريخ الإسلام (٣/ ٦٥٤، ٦/ ١٥٦)، وكلاهما للذهبي، والبداية والنهاية (٧/ ٣٢٩، ٩/ ٥٣)، والاستيعاب (٣/ ١١٢٨، ١١٢٩)، والإصابة (٥/ ٣٠٣)، وتاريخ دمشق (٤٣/ ٤٩٤).

قبح الله ذاك المجرم الخبيث.

إذًا: سبب الفتن، أو من أسباب الفتن، ومن مظاهرها في التاريخ: الزيادة في التدين، فاحذر أن يكون التدين على طريق غلط؛ لأنه إذا تدينت على طريق خطأ، فليس شأنك أنك تسلم، فقد تتدين على طريق خاطئة، فتصبح مثل أولئك الأقوام الذين انحرفوا.

فالشأن أن تكون ناصحًا لنفسك، متدينًا، صالحًا، متبعًا للكتاب والسنة، متبعًا للصحابة، على نهج سلف الأمة، حذرًا من الأهواء، واحذر سبب الفتنة، وهو أن تسمع لأهل الفتن، والأهواء.

بعض الناس يتساهل في نفسه، يعرض نفسه للخطر، يسمع لهذا، ويسمع لهذا، ويجلس مع أصحاب الفتن، لا، من أسباب وقاية نفسك - والوقاية خير من العلاج - أن تبتعد عن أصحاب الفتن.

قال بعض أئمة السلف: (لا تصغين سمعك لذي هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه)[١].

تجلس تتساهل: والله، هؤلاء عندهم غيرة، هؤلاء فعلوا، هؤلاء مجاهدون، هؤلاء...، تجلس تسمع، تسمع، ثم تأتيك الفتنة، ويأتيك الانحراف. لابد أن يكون لك موقف واضح في هذا الأمر، موقف واضح

---

(١) يقول ميمون بن مهران: (ثلاثة لا تبلون نفسك بهن: لا تدخلن على سلطان، وإن قلت: آمره بطاعة، ولا تدخلن على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله، ولا تصغين سمعك لذى هوى؛ فإنك لا تدري ما يعلق قلبك منه). انظر: سيرة الإمام ابن حنبل (١/ ٥١)، وذم الهوى (١/ ١٤٨)، والآداب الشرعية (٢/ ٢٤).

وقائي، لا تتساهل في السماع؛ لأن المرء يتأثر بأي شيء؟ يتأثر بالسماع.

من مظاهر الفتن التي حصلت: أن يتقرب أناس بالنيل من الكعبة، وهم ينتسبون للإسلام. ربما يكون فاسقًا إذا أتى عند الكعبة ورآها، بكى، ولان قلبه، ولم تحدثه نفسه بمعصية، لكن أتى أُناس - من قوة تَدَيُّنِهم - لم يرعوا حتى للكعبة حرمة، مثل ما حصل من طائفة من العبيديين، بل اقتلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم من مكة إلى الأحساء - كانت تُسمى البحرين في ذلك الوقت -، جلس معهم فوق عشرين سنة، تقريبًا من سنة ثلاث مائة وسبعة عشر هجرية، إلى سنة ثلاث مائة وتسعة وثلاثين هجرية. الخرقي صاحب المختصر للحنابلة، الذي شرحه ابن قدامة في المغني لما أتى في الحج - ألفه متى؟ في وقت عدم وجود الحجر الأسود، قتلوا مئات الآلاف من الحجاج، وأخذوا الحجر الأسود، وذهبوا به باسم الدين -، لما أتى لهذا الموضع قال: (ثم أتى الحجر الأسود - إن كان -)[1]؛ لأنه ما كان موجودًا. شيء يدمى له القلب أن يأخذ أناس الحجر الأسود، ويذهبون به، لكن سببه التدين، التدين الباطل، والتأويل، والجهل من الطائفة الباطنية العبيدية.

---

(١) قال الزركشي: (وقوله: ثم أتى الحجر الأسود إن كان. أي إن كان الحجر في مكانه -والعياذ بالله - كما وقع ذلك في زمن الخرقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لما أخذته القرامطة).
انظر: شرح الزركشي (١/ ٥١٣).
كما قال مجير الدين العليمي في كتابه (الأنس الجليل): (ثم أتى الحجر الأسود إن كان، وإنما قال ذلك لأن تصنيفه الكتاب كان حال كون الحجر الأسود بأيدي القرامطة حين أخذوه من مكانه).
انظر: الأنس الجليل (١/ ٢٨٠).

كذلك منهم منتسب للسنة، حوادث الحرم الأخيرة التي حصلت سنة ألف وأربعمائة، هذه الحوادث الفظيعة سببها ماذا؟ هل كان أولئك في سلوكهم، أو في ظاهرهم يُشك فيهم؟ لا، كانوا ظاهرهم ظاهر الدين والخير، ويطلبون العلم، وفي حِلق المشايخ، لكن أتاهم الضلال، والفتنة من جهة الغلو، ومن جهة الجهل، ومن جهة اتباع المتشابه، ومن جهة الرؤى، ومن جهة أسباب كثيرة، فأداهم إلى أن يجعلوا الحرم مكان خوف، والله ﷻ قد أمَّن في الحرم ماذا؟ أمَّن الطير، أمَّن الحمام، أمَّن العصافير، أمَّن الطيور، حتى بعض الحشرات غير الضارة مؤمنة فيه، فكيف هؤلاء يرتكبون ما يرتكبون باسم الدين؟!

ما حصل من تفجيرات أخيرة هذه من الفتن، التفجيرات التي حصلت الأخيرة في الرياض، وما حصل قبلها في الرياض، وفي الخُبَر، وفي غيرها من بلاد المسلمين: في مصر قبل ذلك، وفي إندونيسيا . . . إلى آخره، يأتون إلى أناس آمنين من مسلمين، وغير مسلمين، فيقتلون الجميع، هذا من أعظم الفتن في هذا الوقت، السبب أن فيها عدة مخالفات: فتنة عن الدين عظيمة، وخروج عن الصراط، واتباع لسبيل الخوارج من عدة أوجه:

أولًا: أن فيها قتلًا للنفس، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

الأمر الثاني: أن فيها قتلًا للمسلمين، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

بعض الذين قُتلوا في الرياض شاب مسلم كان ماشيًا، فلما دخلوا

بالرشاش، لما دخلوا، هرب، أراد أن يهرب، ضربوه في رأسه، وهو معروف أنه مسلم هارب، ليس معه سلاح، وليس معه شيء، هرب، ضربوه في رأسه هو، وغيره ممن قُتل. قتلوا معاهدين، أين هم من قول النبي ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**»؟[١] العهد من يعطيه؟ يعطيه إمام المسلمين، الأمان من يعطيه؟ يعطيه الإمام، يعطيه ولي الأمر، حتى لو أعطاه أحد المسلمين بكفالة، ودخل بأمان، لا يجوز الاعتداء عليه؛ لأن المسلمين تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم[٢]. هناك اعتداء على الأموال، قال ﷺ: «... **كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ**»[٣].

الأموال والمجتمعات... إلى آخره هذه ملك لمن؟ أليست ملكًا للمسلمين؟ بأي حق تُفني أموال المسلمين، وتعتدي على أموالهم؟ أين أنت من هذا الحديث؟ لكن هو الغلو سبب الفتن.

هناك عدة اعتبارات أخرى لمثل هذا، هذه صور لما حدث في التاريخ القديم والجديد، تبين لك أن الفتن يجب أن نحذرها ممن جاء بها، سواء كانت فتن شبهات - كما ذكرنا -، أو فتن شهوات.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٢٧٥١) عنْ عمْرِو بْنِ شُعيْبٍ، عنْ أبِيهِ، عنْ جدِّهِ، قال: قال رسُولُ اللّهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُون تتكافأُ دِماؤُهُمْ. يسْعى بِذِمّتِهِمْ أدْناهُمْ، ويُجِيرُ عليْهِمْ أقْصاهُمْ، وهُمْ يدٌ على منْ سِواهُمْ...**».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

العلاج

أعطي نقاطًا سريعة بدون شرح:

أولًا: يجب علينا أن نعتصم بالكتاب، والسنة، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢].

ثانيًا: ويجب علينا أن نتبع المحكم من كلام الله، وكلام رسوله ﷺ، ومن كلام أهل العلم، وأن ندع المتشابه.

الثالث: أن نلتزم فهم الراسخين في العلم، وألا نأخذ بثنيات الطريق.

الرابع: أن نحرص على لزوم الجماعة، والحذر من الفرقة، الله ﷻ يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. النبي ﷺ يقول لكم: «**الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»(١)، فمن سعى في أي سبيل للفرقة، فقد دخل في الفتن من أوسع أبوابها، وفي الحديث: «**الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ أَيْقَظَهَا**»(٢)، رواه ابن النجار في تاريخه، وغيره بإسناد فيه مقال.

الخامس: الاهتمام بجمع الكلمة، الفتن لا تظهر إلا في أرض التفرق، ما تظهر في أرض الاجتماع، فلذلك موقفك أيها المسلم إذا أردت أن تأمن على نفسك، وأن تأمن على دمك، وأن تأمن على عرضك، بل أن تأمن دينك، وأن تكون حاميًا لدين الله ﷻ، فاحذر الفتن بأن تهتم بجمع الكلمة.

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠/ ٣٩٠)، والبزار (٨/ ٢٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤٣٥).

(٢) انظر: الفتح الكبير للسيوطي (٢/ ٢٦٥).

قد يكون هناك مفاسد، قد يكون هناك معاصٍ، قد يكون هناك منكرات، قد يكون، قد يكون، لكن المصلحة العظمى في ماذا؟ المصلحة العظمى في اجتماع الكلمة؛ لأن الشهوات تطرأ، وتزول، مشكلة الشهوة أنها معصية، لكنها تطرأ وتزول، يعمل الشهوة المحرمة، ثم بعد ذلك يقول: أستغفر الله، وأتوب إليه. ويحس في نفسه بالألم، والندم. الصلاة إلى الصلاة مكفرات، رمضان إلى رمضان مكفرات[1]، العمرة مكفرة إلى العمرة، الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة[2]، لكن المشكلة الشبهة، الشبهة هذه ما دواؤها؟ الشبهة يتدين بها صاحبها، وتبقى في نفسه بخلاف الشهوة، الشهوة تأتيه، يقول: أستغفر الله، وأتوب إليه، أنا عصيت ربي، وأعود إليه، وفي نفسه الندم، وإذا صلى، يرجو مغفرة ذنوبه، ويقول: أستغفر الله تعالى. لكن صاحب الشبهة إذا قال: أستغفر الله - تعالى -. ما يستغفر الله - تعالى - من قتل مسلم، ما يستغفر الله - تعالى - من التفجير، ما يستغفر الله - تعالى - مما يعمل؛ لأنه يرى هذه قربة إلى الله ﷻ، ويرى نفسه شهيدًا، ويرى نفسه مجاهدًا.

فهنا الاهتمام بجمع الكلمة، ووحدة الصف هذا يلغي كل سبيل إلى ذلك، والله ﷻ أمرنا بأن نحقق المقاصد، والوسائل.

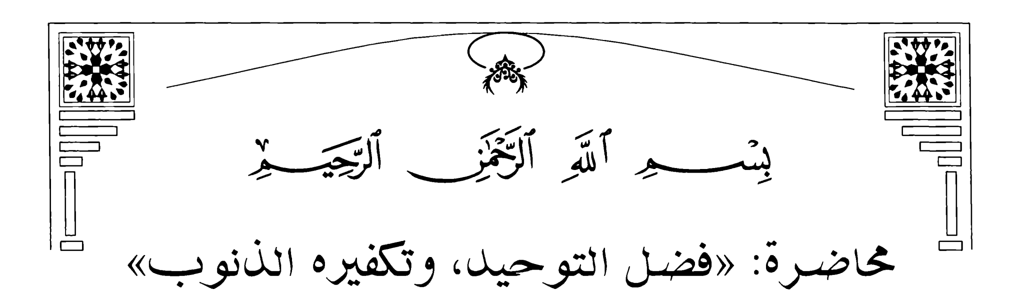
---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٠) عنْ أبي هُريْرة، أنّ رسُول اللهِ ﷺ كان يقُولُ: «**الصّلواتُ الْخمْسُ، والْجُمْعةُ إِلى الْجُمْعةِ، ورمضانُ إِلى رمضان، مُكفِّراتٌ ما بيْنهُنّ إِذا اجْتنب الْكبائِر**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩) عنْ أبي هُريْرة رضي الله عنه: «**أنّ رسُول اللّهِ ﷺ قال: العُمْرةُ إِلى العُمْرةِ كفّارةٌ لِما بيْنهُما، والحجُّ المبْرُورُ ليْس لهُ جزاءٌ إِلّا الجنّةُ**».

هذه بعض الكلمات في العلاج، والوقائع، والأسباب، موقفك أن تهتم بأن تكون - أيها المسلم - بعيدًا عن الفتن، ليس فقط بعيدًا، واقيًا لنفسك ثانيًا، الثالث: أن تكون مسلمًا حقًا مجاهدًا في درء الفتن، الجهاد أنواع، من الجهاد أن تكون مجاهدًا لهذه الفرق الضالة، من الجهاد أن تكون مجاهدًا في جمع الكلمة، من الجهاد أن تكون محققًا لمراد الله، ومراد رسوله ﷺ في الكتاب والسنة، في رد الفتن عن الدين ما ظهر منها، وما بطن، من الجهاد الحق أن تكون عنصرًا عالمًا تقيًا صالحًا في أن لا تجعل للشيطان مدخلًا في هذه البلاد. الله ﷻ أصلح هذه البلاد، وأصلح بلاد المسلمين، فكيف نسعى في الإفساد؟! يقول الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. لا تفسدوا فيها بالفتن بعد إصلاحها بجمع الكلمة، لا تفسدوا بالشرك بعد إصلاحها بالتوحيد.

لعل فيما ذكرت كفاية، الموضوع مهم وطويل، أكرر شكري لجميع الإخوة الحاضرين، وللمنظمين لهذا النشاط، ولمن سبقني سماحة الشيخ، ولمقدم هذه الندوة، شاكرًا للجميع حسن استماعه، سائلًا المولى ﷻ أن يوفقنا جميعًا لما فيه رضاه. اللهم وفق ولاة أمورنا لما فيه رضاك، اللهم اجمع كلمتنا على الحق والهدى، اللهم من أراد بنا سوءًا، فرد كيده إلى نحره، اللهم من أراد بنا فتنة، فاجعل فتنته على نفسه، واجعله عبرة للمعتبرين، اللهم اجز ولاة أمورنا خيرًا عن ما يبذلونه للإسلام والمسلمين، اللهم اجز صاحب الجائزة خيرًا، واجعلنا ممن يعلم الحق، ويسعى في سبيله، ويجاهد في سبيل درء الفتن وإحقاق الحق؛ إنك جواد كريم. وصلى، الله وسلم على نبينا محمد.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

محاضرة: «فضل التوحيد، وتكفيره الذنوب»

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، حتى تركنا على بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك، صلِّ الله، وسلم على عبدك، ورسولك محمد، كلما صلى عليه المصلون، وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين، أما بعد؛

فأسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم ممن إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بتحقيق التوحيد، وبالعمل به، وتكميله، وتخليصه مما ينقص كماله، أو يقدح في أصله، إنه سبحانه وتعالى ولي الصالحين.

ولا شك أن هذه الدورة، والدروس، والمحاضرات العلمية، التي كان موضوعها: التوحيد، من أهم ما عمل من سلاسل المحاضرات، بل هي أهمها لما اشتملت عليه من بيان، وتوضيح أصل الأصول، الذي هو حق الله ﷻ، الذي هو حق الله على العبيد، وهو توحيده ﷻ، والإخلاص له، وإسلام الوجه، والعمل له سبحانه وتعالى بلا شريك، ولا ند، ولا ظهير.

والله ﷻ إنما عمر السماوات وخلقها، وعمر الأرض وخلقها؛ ليُوَحَّد ﷻ، خلق السماوات وجعل لها عمارًا، وخلق الأرض وجعل فيها الجن والإنس مكلفين، وذلك كله لتوحيده ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] وهو ﷻ مستحق للعبادة، أن يذكر فلا ينسى، وأن يُوَحَّد فلايعبد أحد سواه، وأن يخلص له في الدين والعبادة؛ امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، وهذا هو حقه ﷻ على عباده، الذي بعث به الرسل، ومن أجله أنزل الكتب؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال - أيضًا -: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد هو الذي اجتمعت عليه الرسل، وهو الإسلام الذي لا يقبل الله ﷻ من أحد غيره، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] أي: التوحيد الخالص المبرأ من كل شائبة شرك تقدح في خلوصه، وإخلاصه، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

والإسلام هذا ليس خاصًا بأمة محمد ﷺ، بل كل الأمم التي بعثت لها الرسل، كلها مطالبة بهذا الإسلام الواحد، وهو الإسلام العام الذي أمر به جميع الخلق.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، فآدم عليه السلام كان على الإسلام،

ونوح عليه السلام كان على الإسلام، وإبراهيم عليه السلام كان على الإسلام، وأبناؤه الأنبياء والرسل كانوا على الإسلام، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام كانا على الإسلام وأمرا به ودعوا إليه، وكذلك نبينا محمد ﷺ كان على الإسلام الخالص، وكانت شريعته - أيضًا - هي شريعة الإسلام.

وهذا الإسلام الذي اجتمعت عليه الرسل، وأمرت به جميع الأمم، هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك، وأهله، هذا هو الاستسلام الذي ينفع العبد، وهذا هو الاستسلام، والإسلام الذي أمر به جميع الخلق المكلفين من الجن والإنس.

وموضوع هذه المحاضرة: هو: «فضل التوحيد، وتكفيره للذنوب».

وهذا التوحيد بين لكم كثير من مسائله فيما مر عليكم من المحاضرات السابقة في بيان معنى لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وفي بيان الشرك الذي هو مضاد للتوحيد، الشرك الأكبر، أو مضاد لكماله، وهو الشرك الأصغر، وبين لكم معنى توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا كله بيان لتوحيد الله عز وجل.

هذا التوحيد كله من أخذ به فإن له فضلًا عظيمًا على أهله، التوحيد له الفضل الكبير الأكبر على أهله ممن أخذ به، والتزمه، وحققه في الدنيا والآخرة، والنفوس مشتاقة دائمًا أن تسمع، وأن تتعرف على فضل الشيء؛ لأنها ربما ظنت أن هذا الشيء فضله واحد غير متعدد، وإذا تعددت الفضائل تعددت أوجه الاشتياق لهذا الأمر، والعناية به، والحرص عليه، وبيان ما للعباد من الفضل والأثر إذا التزموا بهذا التوحيد.

لهذا في كتاب التوحيد، الذي هو كتاب الشيخ: محمد بن عبد الوهاب المجدد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أول باب من أبوابه: «باب فضل التوحيد، وما يكفر من الذنوب»[١].

هذا أول باب، لماذا؟ لأن هذا الباب إذا تبين للعبد فضل التوحيد، وبيان أثر التوحيد، وبيان حسنات التوحيد، وآثار التوحيد على العباد، على العبد في نفسه، وعلى العباد، وعلى الناس، في الدنيا والآخرة، اشتاقت النفوس، وعظمت عندها الرغبة في أن يتعرفوا على هذا التوحيد، وأن يطلبوا علمه، وأن يهربوا مما يضاد ذلك، الذي يذهب بهذه الفضائل، وهذه الآثار، والحسنات.

موضوع المحاضرة كما سمعتم في العنوان: **(فضل التوحيد، وتكفيره للذنوب)**.

تكفير الذنوب أحد آثار التوحيد، وأحد فضائل التوحيد، لهذا لايقتصر بفضله على أنه يكفر الذنوب، فالله عَزَّوَجَلَّ مَنَّ على عباده بأن أوضح لهم هذا التوحيد، وبين لهم أن أهل هذا التوحيد تكفر لهم الذنوب، والسيئات.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ما دون الشرك يغفره سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لمن شاء من عباده، وهؤلاء الذين تخلصوا من الشرك هم أهل التوحيد.

والتوحيد عنوانه البارز تحقيق الشهادتين؛ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن

---

(١) انظر: كتاب التوحيد مع شرحه فتح المجيد (ص ٣١).

محمدًا رسول الله، وثبت في صحيح مسلم أن نبينا ﷺ قال: «**فَإِنَّ الْإِسْلَامَ** . . . » أي: التوحيد، «**فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا**»(١)، الإسلام لمن حققه، وأسلم ابتغاء وجه الله ﷻ، لا نفاقًا ولا رياءً، وتبرأ من الشرك، وكفر بالطاغوت، وعلم معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن هذا الإسلام يَجُبُّ ما قبله، فأول ما يواجه العبد إذا أسلم أن إسلامه يَجُبُّ له ما سلف له من الآثام، وما سلف له من الذنوب، حتى ولو كان أعظم الذنوب، وهو الشرك الأكبر بالله ﷻ.

فالإسلام هو أعظم وسائل التوبة، الإسلام هو أنجح، وأبلغ وسائل مغفرة الذنوب لمن كان عليها حتى الشرك الأكبر، فكيف بما دونه من الشرك الأصغر، أو عموم الذنوب، والكبائر، والآثام.

لهذا يدرك التوحيد أهل التوحيد بالفضل أول ما يعلنون الإسلام، بأنه بتوحيده لله ﷻ، وبراءته من الشرك، فإن هذا التوحيد والإسلام يَجُبُّ ما قبله مهما كان ما قبله، ولو كان أشرك الشرك الأكبر، أو سفك الدم، أو أخذ المال، أو انتهك العرض، أو وقع في الموبقات، والكبائر، فكل ما قبل الإسلام مغفور بالإسلام، الإسلام يجب ما قبله.

وأما أهل الإسلام في تكفير الذنوب، فإن كل مسلم يتفضل الله ﷻ عليه بأنه تكفر له الذنوب؛ إذ كان مسلمًا موحدًا في الآخرة بمشيئة الله ﷻ، وفي الدنيا إذا تاب توبة صالحة، فمن تاب نفعه توحيده من كل ذنب، وكفر له الذنوب، ومن عمل بما دون الكبائر في الدنيا، فإن توحيده، وعمله الصالح

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢٩/ ٢٦٠).

يكفر عنه تلك الصغائر.

أما حقيقة هذا التوحيد الذي يحصل به تكفير الذنوب، فإنه أن لا يعبد إلا الله ﷻ، وأن يعلم العبد معنى الشهادة لله بالوحدانية، ولنبيه بالرسالة، التوحيد الذي من فضائله، وآثاره أنه يكفر الذنوب، هو أن تعلم معنى هذه الشهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن تشهد بها معلنًا غير مستخفٍ بهذه الشهادة العظيمة.

لهذا ثبت في الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عبد اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ على مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»[1]، وفي رواية: «**أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**»[2]، وفي رواية قال: «**. . . مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إلا حَرَّمَهُ اللَّهُ على النَّارِ**»[3].

فمن شهد أن لا إِلهَ إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأول هذه الفضائل بأن حقق التوحيد، أو يعني شهد شهادة التوحيد بأقل درجاتها - كما سيأتي بيانه -، فإن فضل التوحيد عليه أن الله ﷻ يدخله الجنة وعدًا منه ﷻ، ووعده الحق والصدق، وأن الله يحرم عليه النار وعدًا منه ﷻ، ووعده الحق والصدق.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

وجاء في الصحيحين - أيضًا - من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال - في بيان فضل الشهادتين -: «**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»[١]، وفي لفظ - أيضًا -: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ على مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ**»، من جنس ما جاء في حديث عبادة رضي الله عنه، وهذا كله من الأثر العظيم، والفضل الكبير للتوحيد.

وهنا وقفة في هاتين المسألتين:

أما الأولى: فما معنى كون هذا التوحيد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والبراءة من الشرك وأهله، والكفر بالطاغوت، وترك الشرك كبيره وصغيره، ما معنى أنه يدخل الجنة على ما كان من العمل، وما معنى أن الله حرم عليه النار، هاتان مسألتان:

أما الأولى: وهي أنه يدخل الجنة على ما كان عليه من العمل، فإن أهل التوحيد مآلهم إلى الجنة، والتوحيد أهله فيه أصناف:

منهم من حقق التوحيد، ومنهم من خلط مع التوحيد عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، ومنهم من جاء بالتوحيد، ومعه ذنوب كثيرة جدًا.

أما القسم الأول: فمن حقق التوحيد، دخل الجنة من غير حساب، ولا عذاب، وتحقيق التوحيد معناه: تكميله من أن يكون إخلاصه لربه، وخوفه منه، ورجاؤه فيه، أن يكون فيه نقص لوجه من الوجوه.

ومعنى تحقيق التوحيد: أن يكون متخلصًا، وخالصًا من الشرك

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣).

الأكبر، والأصغر، ووسائل الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع صغيرها، وكبيرها، ومن المعاصي والذنوب؛ الكبائر والصغائر إلا من تاب، والعمل بالصالحات كما أمر الله ﷻ، هذا التوحيد فضله عليه أنه يدخل الجنة بلا حساب، ولا عذاب.

وهؤلاء الذين يدخلون الجنة بلا حساب، ولا عذاب، عدتهم سبعون ألفًا بنص الحديث أنه في هذه الأمة سبعون ألفًا، إذا أتى يوم القيامة في هذه الأمة سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب، ولاعذاب(١)، ومنة من الله ﷻ، وكرم أنه مع كل ألف سبعون ألفًا كما في الرواية: «**فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي ﷻ، فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا**»(٢).

وهذا ميدان يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم به أمنًا وأمانة، وأعظم به أثرًا وفضلًا في الدنيا والآخرة.

أما القسم الثاني من الناس: فهم الذين عملوا بالتوحيد، شهدوا شهادة التوحيد، وآمنوا واعتقدوا الاعتقاد الحق في الله ﷻ بتوحيده في إلهيته، وربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، عبدوه وحده لا شريك له، وتخلصوا من الشرك؛ امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

---

(١) أخرجه البخاري [(٥، ٥٧، ٥٧٥٢ مطولًا)، و(٣٤١٠، ٦٤٧٢، ٦٥٤١ مختصرًا]، ومسلم (٢٢٠)، والترمذي (٢٤٤٨)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨)، وفيه: «... **فإذا سوادٌ عظِيمٌ فقِيل لي: هذِهِ أُمّتُك ومعهُمْ سبْعُون ألْفًا يدْخُلُون الْجنّة بِغيْرِ حِسابٍ ولا عذابٍ..**».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٣، ١٤/ ٣٢٧).

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ولكنهم خلطوا عملًا صالحًا، وآخر سيئًا، فهؤلاء التوحيد فضله عليهم أنهم إن تابوا تاب الله عليهم، وإن لقوا الله ﷻ بكبائر بغير توبة، فإنه يغفر ﷻ ذلك لمن يشاء، يعني بدون محاسبة لهم يغفر لمن يشاء، ومنهم من يكون عمله السيئ في الموازنة، ويرجح التوحيد بأعماله السيئة، فضلًا من الله ﷻ، وتكرمًا.

وأما الصنف الثالث: فهؤلاء الذين أتوا بالتوحيد، وقوي إخلاصهم، وقوي توحيدهم، وقويت حميتهم لتوحيد الله، وبراءتهم من الشرك، وبغضهم للشرك والكفر، ولأهل الشرك والكفران، وكفرهم بالطاغوت، وهو كراهتهم لعبادة غير الله وبغضهم للشرك بالله ﷻ، وللكفر بأنواعه، عظم ذلك عندهم، ولكن كثرت سيئاتهم، وذنوبهم.

فهؤلاء مثلهم مثل الرجل الذي يؤتى به يوم القيامة، كما ثبت بذلك الحديث: «**إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا من أُمَّتِي على رؤوس الْخَلَائِقِ يوم الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عليه تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يقول: أَتُنْكِرُ من هذا شيئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فيقول: لا يا رَبِّ، فيقول: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقول: لا يا رَبِّ، فيقول: بَلى إِنَّ لك عِنْدَنَا حَسَنَةً فإنه لا ظلم عليكَ اليوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فيها أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فيقول: أحضر وَزْنَكَ فيقول يا رَبِّ ما هذه الْبِطَاقَةُ مع هذه السِّجِلَاتِ؟ فقال: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ قال: فَتُوضَعُ السِّجِلَاتُ في كفة، وَالْبِطَاقَةُ في كفة، فَطَاشَتْ السِّجِلَاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ فلا يَثْقُلُ مع اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ**».

رواه الترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وقال:

صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح[(١)].

يعني: من قوة رجحانها هذا لكفة الميزان رجح بقوة فاندفعت الكفة الأخرى، فطاشت السجلات، وتناثرت من قوة ثقل هذه البطاقة، هذه البطاقة مكتوب فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله، لكن هل هذا الفضل لكل من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟

لو كان الأمر كذلك لما دخل النار أحد من أهل التوحيد، والله ﷻ قد توعد أهل التوحيد من أهل الكبائر، والذنوب بأنهم يدخلون النار، وينقون فيها ثم مصيرهم إلى الجنة، لكن هذه حالة خاصة، لمن كان التوحيد في قلبه عظيمًا، وحبه لله ﷻ، ولرسوله ﷺ وإخلاصه لله، بأنه مؤمن بتوحيد الله، بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، وأن هذا التوحيد بأنه لا يعبد إلا الله ولا يشرك بالله ﷻ شيئًا، وأنه يحب التوحيد، ويحب أهله، ويبغض الشرك، ويبغض أهله، فتكون هذه البطاقة ميزته عن سائر الأمة، فطاشت سجلات السيئات مقابلة بعظم التوحيد، وعظم شأنه.

وإذا عظم التوحيد في القلب، فإنه لا يكاد يكون معه إقدام على سيئة، أو إصرار على كبيرة من كبائر الذنوب، فتكون حالة خاصة لعبد يخرج من بين الخلائق، أو لمن هو مثله ممن كثرت سيئاته، لكن عظم توحيده، وإخلاصه لله ﷻ، وهذا يُرَغَّب فيه كل أحد، ويَرْغَب فيه كل أحد منا، ممن لا يأمن

---

(١) حديث البطاقة أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (١/ ٤٦)، والبيهقي في الشعب (١/ ٢٦٤)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

على نفسه المعصية والذنب، وممن يغشى الذنوب، أو تقل عنده الحسنات.

وكلما زاد علم العبد بربه، كلما علم أنه محتاج لما يخلصه من الذنوب، والآثام، ومن قلة الامتثال للواجبات، وأعظم ذلك هو الإخلاص، وتوحيد الله ﷻ علمًا، وعملًا، وانقيادًا.

لهذا قال موسى ﵇ لربه ﷻ: **«يَا رَبِّ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، قَالَ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولا إِلَهَ إلا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَت بِهِنَّ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ»**(١).

يعني: أراد شيئًا يختص به؛ لأنه ظن أنه كما أنه من أولي العزم من الرسل، وأنه كليم الله، وأن الله أعطاه التوراة، فإن هناك شيئًا خاصًا يدعو الله، ويذكر الله به.

فقال الله ﷻ له: **«يَا مُوسَى، لَوْ أَنَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولا إِلَهَ إلا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَت بِهِنَّ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ»**.
وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه بيان فضل كلمة التوحيد، وأن الله ﷻ من منته، وكرمه، وتفضله جعل الكلمة العظيمة ذات الفضل العظيم التي ترجح بالسماوات، ومن يعمرها، وترجح بالأرض ومن فيها، جعلها كلمة

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٠٨)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢٨)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٠٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧١٠)، والطبراني في الدعاء (١/ ٤٣٥).

سهلة متاحة للجميع، لمن علمها، وشهد بها شهادة الحق.

وهذا من رحمة الله ﷻ المتصلة بربوبيته، والمتصلة بإلوهيته، والمتصلة بأسمائه وصفاته، كيف ذاك؟

إن رحمة الله ﷻ بعباده في آثار كونه ﷻ ربًا لهم أن جعل الرزق، الذي به قوام حياتهم، ليس مختصًا بفئة منهم، الرزق الذي به قوام الحياة شائع، يناله الغني، ويناله الفقير، الماء والحَب، البر والتمر، ونحو ذلك بحسب البلد، يكون شائعًا ليس نادرًا في بلد، أو في أرض؛ حتى يدرك هذا الشيء، إلا الأغنياء أو إلا الشرفاء أو إلا قلة الناس.

ربوبية الله ﷻ على خلقه العامة جعلت ما يحتاجونه فيما به قوام حياتهم، جعلته شائعًا بينهم يمكن تحصيله، وكذلك في توحيد إلهيته، جعل من رحمته أن ما به يحقق العباد، توحيد الإلهية يشترك فيه الجميع بأبسط شيء، وهو كلمة لا إله إلا الله، ونبه الله موسى عليه السلام على ذلك؛ ليبين له أن ما يحتاجه العباد من فضل التوحيد لا يختص به الأنبياء، ولا يختص به الرسل، ولا يختص به أولو العزم، ولا يختص به كليم الله ﷻ، وإنما هذا شائع.

قال موسى عليه السلام: «**كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا**». فدل هذا على أن رحمة الله بعباده أدركتهم في ربوبيته لهم، وفي أسمائه وصفاته لهم في أن ما به حياتهم، قيام حياتهم البدنية، وما به قيام دينهم، وقيام نجاتهم في الدنيا والآخرة، أن هذا شيء مشاع سهل.

وحديث موسى عليه السلام، رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم ورواه النسائي - أيضًا - من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن، وصحح الإسناد

الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وله روايات أخر يصير بمجموعها حسنًا، أو صحيحًا.

إذا تبين هذا تبين لك عظم هذا الشأن، وهو شأن التوحيد، وسهولته، وفضله، وأن العلم به أعظم المهمات، ولهذا يعلم الصغير التوحيد؛ لأن هذا أعظم الإحسان لهذا الصغير، وترك الصغير، أو حتى ترك الكبير من تعلم، وتعليم التوحيد، هذا نقص، وسعي فيما هو دونه.

بهذا تنتبه إلى أصل من الأصول وهو أن - في حديث موسى عليه السلام التذكير بفضل التوحيد يحتاجه، حتى أولو المقامات العالية في الدين؛ لهذا لا يستغني أحد، يقول أحد: أنا تعلمت، درست التوحيد وتعرفت فضله، ما يحتاج أكرر هذا، ما يحتاج، أعطيه الناس، ليس الأمر كذلك؛ لأن هذا إذا عَلَّمته، فأول من سيدرك هذا الفضل أنت، ومن ذلك الفضل أنه يكفر الذنوب؛ لأنه يزيد عندك العلم، والاعتقاد بتكريره، كما أنه يُنسى بعدم تعليمه، وتدريسه.

إذًا: تحصل لنا مما ذكر أن من فضل التوحيد، ومن أثره: أنه يكفر الله به الذنوب، وأن به ترجح كفة الحسنات على كفة السيئات.

أما الأمر الثالث: فهو أنه يمنع الخلود في النار، وهو الذي ذكرته لك في الأحاديث السابقة: «**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»(١)، والتحريم في النصوص؛ تحريم الجنة، أو تحريم النار

---

(١) سبق تخريجه (ص ٤٥٧).

على نوعين في النصوص:

تحريم أبدي، وتحريم أمدي، حرم الله عليه النار، من شهد شهادة التوحيد حرم الله عليه النار، يعني: أن يكون خالدًا مخلدًا فيها، قد يدخلها، وقد لا يدخلها، بحسب ذنوبه، وبحسب ما عنده، لكنه متعرض للوعيد.

لكن أن يخلد فيها صاحب التوحيد؟ لا، بوعد الله ﷻ له الجنة، حرم الله الجنة على الكفار، هذا تحريم - أيضًا - أبدي، الكافر لا يمكن أن يدخل الجنة، حتى يدخل الجمل في سم الخياط.

المؤمن هل تحرم عليه الجنة؟

جاء في بعض النصوص: أن بعض المسلمين بسبب من الذنوب أنه حرم الله عليه الجنة، مثل: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنّةَ قَاطِعُ رَحِم**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**»[(٢)]، وكما في قوله ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنّةَ قَتَّاتٌ**»[(٣)].

هذا التحريم ليس تحريمًا أبديًا على أهل التوحيد، وإنما هو تحريم مؤقت؛ لأنهم ينقون من ذنوبهم قبل ذلك، ثم بعد ذلك يتأخر دخولهم الجنة، حتى يصيبهم ما شاء الله ﷻ من العذاب بعدله، وحكمته. فإذًا: من فضل التوحيد أن أهله تحرم عليهم النار أن يخلدوا فيها.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان في صحيحه (١٣/ ٥٠٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه.

الرابع: أن من فضل التوحيد على أهله أن التوحيد أعظم الأسباب لنيل شفاعة محمد بن عبد الله النبي الأكرم ﷺ. فقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ، قال: «**مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِك يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»، فقال ﷺ: «**لقد ظَنَنْتُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيث أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رأيت مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إلا الله خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**»[١]، وفي رواية: «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»[٢]، فهذا شرط الإخلاص، وهو لأهل التوحيد[٣].

ومعنى: «**أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»: يعني: السعيد من الناس بشفاعتي، «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إلا الله خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**»، من قال لا إله إلا الله مخلصًا فيها من قلبه، ونفسه، شاهدًا شهادة الحق عالمًا بمعناها، فإنه أحق الناس بشفاعة محمد ﷺ.

وشفاعة النبي ﷺ تنال بوسائل كثيرة، عد العلماء منها أمورًا كثيرة تزيد على العشرة مما جاء في الأحاديث الصحيحة.

ولكن أسعد الناس بها الموحد الذي أخلص في توحيده، وهو أول الناس نيلًا لهذه الشفاعة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

(٣) قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَلَهُ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا وَهُوَ الَّذِي ... فِي ذَاكَ يَأْذَنُ لِلشَّفِيعِ الدَّانِي

لِمَنِ ارْتَضَى مِمَّنْ يُوَحِّدُهُ وَلَمْ ... يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ

انظر: النونية مع شرحها لابن عيسى (٢/ ٤٥٣).

أما الخامس: فهو أن التوحيد هو السبب الأعظم لتفريج الكربات في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

هؤلاء الذين سبقت لهم من الله الحسنى، من هم؟ هم أهل التوحيد، أهل الإيمان بالله الحق بتوحيد الله ﷻ، والإيمان به أنه هو المستحق للربوبية وحده، وهو المستحق للإلهية، وهو المستحق للأسماء والصفات، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر، وعمل صالحًا، هؤلاء هم الذين لهم من الله الحسنى، حالتهم في الآخرة؛ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾، وأما في الدنيا ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧]، فلهم الحياة الطيبة، وتفريج الكربات في الدنيا، وفي الآخرة.

قد قال نبينا ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما كما في الحديث عن أبي العبّاس عبد الله ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «**كنتُ خَلفَ النَّبيِّ ﷺ يومًا، فقال:** «**يا غُلامُ؛ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِن بالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجُفَّتِ الصُحُفْ**»، رواه الترمذي، وقال: (حديث صحيح)[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

وفي روايةِ غير الترمذي: «احْفَظِ الله تَجِدْهُ أمامَكَ، تَعَرَّفْ إِلى الله فِي الرخَاء يَعْرِفْكَ فِي الشَّدَّةِ، واعْلَم أَنّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»(١).

«إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله» هذا توحيد، «وَإِذَا استَعَنْتَ فاسْتَعِن بالله» توحيد، وهذا كله لأهل التوحيد الذين أخلصوا.

الفضل السادس: أن صاحب التوحيد الذي وحد الله، وتخلص من الشرك قولًا، وعملًا، واعتقادًا، له الأمن، والهدى في الدنيا والآخرة.

قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، **لَمَّا نَزَلَتِ** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ **قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ** ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ **بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ** ﴿يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»(٢).

لكل أحد لابد أن يظلم نفسه في أي شيء؛ إما أن يفرط في واجب، أو يرتكب منهيًا عنه، فإذا تذكر تاب من التفريط، وإذا ذكر - أيضًا - انتبه

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨)، ومسلم (١٢٤).

لتفريطه في أداء الواجب، أو في عمله بعض المحرمات.

«قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّنَا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قَوْلِ لُقْمَانَ لابْنِهِ ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]».

وذلك أن الظلم ثلاثة أنواع:

ظلم العبد في حق نفسه بالذنوب، وظلم العبد لغيره بالاعتداء على حقوق الناس بأموالهم، وأعراضهم، وظلم العبد في حق ربه ﷻ بالشرك بالله ﷻ.

فنبههم النبي ﷺ على أن العموم في هذه الآية عموم يراد به الخصوص، وهو أحد الأنواع الثلاثة، وهو ظلم العبد في حق ربه بالشرك بالله ﷻ، الذي هو أعظم أنواع الظلم، إن الشرك لظلم عظيم. وهذا هو معنى الإتيان بالتوحيد، والبراءة، والخلوص من الشرك، فإن هذا يحصل للعبد به الأمن، والاهتداء.

لكن الناس في التوحيد درجات، كذلك في الأمن، والاهتداء هم -أيضًا- درجات، فكلما كمل العبد توحيده، وكمل العبد خلوصه، وبراءته من الشرك علمًا وعملًا في التوحيد، وعلمًا وعملًا في براءته، وخلوصه من الشرك، كلما كمل الله له الأمن في الدنيا، والأمن في الآخرة، وأمن الله له الاهتداء في الدنيا، والاهتداء في الآخرة.

يأتي قائل ويقول: الأمن في الدنيا فهمناه، الأمن النفسي، والأمن ألا يعتدي عليه أحد، والأمن في المجتمع، وأمن الدولة، وأمن البلد،

كذلك الهداية في الدنيا بالتوفيق للصالحات، ورؤية الحق حقًا، والمنة من الله على عبده باتباعه، ورؤية الباطل باطلًا، والمنة من الله على عبده باجتنابه، هذا - أيضًا - مفهوم.

الأمن في الآخرة بعدم الفزع، وعدم الحزن، وعدم دخول النار، أيضًا مفهوم، لكن كيف تكون الهداية في الآخرة؟ ألم ينقطع التكليف؟ انقطع التكليف، فهل في الآخرة هداية؟ لأننا نقول أمن وهداية في الدنيا والآخرة، كيف تكون الهداية في الآخرة؟

قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾ [محمد: ٤ - ٦].

فجعل هناك ثلاث مراتب: أولًا القتل، ثم يهديهم الله ﷻ، ثم يدخلهم الجنة. هذه الهداية هي الهداية في الآخرة، فسرها أهل العلم بالتفسير، وأهل العلم بالتوحيد بأنها الهداية لسلوك الصراط حين ورود الظلمة؛ لأنه قبل الصراط هناك الظلمة، التي يلتبس فيها الطريق، فربما مر الإنسان، أو ذهب يريد هذا الطريق، يريد طريق الصراط، لكنه يسقط في النار - والعياذ بالله -، أو يمشي في الصراط قليلًا، ثم يضل لا يعرف كيف يتجه؛ لأنه في ظلمة وليس عنده نور تام، ينقطع، مثل النور الذي هو بسبب توحيده، ثم بعد ذلك يسقط.

فإذًا: هناك هداية لطريق الجنة في الآخرة، هذه تحصل بحسب قوة التوحيد، فكلما قوي التوحيد كلما قويت الهداية، وقوي النور في الدنيا، وفي الآخرة.

أما السابع: فمن فضل التوحيد أن التوحيد إذا قوي، وإذا أحب العبد توحيد ربه، وعلمه، وتعلمه، فإنه يوفق لكل قول، وعمل صالح، سواء أكان هذا القول والعمل ظاهرًا، أو باطنًا، في نفسه، أو في غيره، وهذه من أعظم المهمات؛ لأن العبد لا يخلو؛ إما أن يتعامل مع نفسه، أو أن يتعامل مع غيره، أو أن يتعامل مع ربه ﷻ، وتعامله مع الله ﷻ عبادة، يعني: بالعبادات وتعامله مع نفسه في شأن هوى نفسه، وما يرغب فيه، وما لا يرغب، وكيف يمتثل الشرع في نفسه، ومع غيره في تأديته لحقوق الناس، والعباد، ابتداءً بحق والديه، وحق زوجه، وحق أولاده، وحق جيرانه، وحق زملائه، ومن يخالطه، وحق العلماء، وحق ولاة الأمر، وحق الصحابة ﵃، وحق أهل الإيمان بعامة، وهكذا في هذا الشأن.

التوحيد سبب من أسباب التوفيق لحسن تعامل العبد مع نفسه، ومع الخلق، ومع ربه ﷻ.

أما مع الله ﷻ، فأهل التوحيد يحبون عبادة الله ﷻ، يحبون الإخلاص، أيضًا يحبون أنواع العبادات، تجد الموحد الحق يصلي، تجد الموحد يعطي الزكاة، تجد الموحد يصوم رغبة واختيارًا، تجده يحج رغبة، كلما قوي التوحيد قوي تعلق العبد بالصلاة، تعلقه بصلاة الفرض، وبالنوافل، تعلقه بصيام الفرض، وبالنوافل، وهكذا ففي تعامله، وعبادته لربه بحسب توحيده، وقوته، يقبل على ذلك، ويوفق بهذا الأمر.

بهذا تنظر إلى نفسك في أي مجال من المجالات، إذا أحسست في نفسك تقصيرًا في الفرائض، أو حتى في النوافل، ففتش فستجد أن بعض الدنيا،

والخلق زاحموا محبة الله ﷻ في القلب.

ولا بد يجتمع في القلب واردان؛ وارد محبة الله ﷻ، وتوحيده، ووارد محبة الدنيا، والخلق، والرغبة فيهم، فيتزاحمان، فإذا قوي التوحيد أضعف الشيء الآخر، وإذا قوي الآخر أضعف التوحيد بحسبه، ولهذا العلم بالتوحيد، وتعليم التوحيد، وإرشاد الناس إليه، هو أعظم البر والإحسان إلى الخلق؛ لأنه به ينفتح ذلك إذا أحسن تقريره، وشرحه للناس، وترغيب الناس فيه.

أما تعامل العبد مع نفسه، فإن العبد له هوى، وله رغبة، له هوى في بعض المحرمات، لا أحد يسلم من ذلك، له هوى ورغبة في ترك بعض الفرائض، تثاقل عليه ذلك، تعامله مع نفسه فيما يأتي، وفيما يذر، كلما قوي توحيد الله في القلب، وعلم العبد بربه، بربوبيته، وأنه سبحانه وتعالى هذه الأرض جميعًا، والقلوب جميعًا بين إصبعين من أصابعه، والأرض قبضته يوم القيامة، وأن هذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يدبر هذا الملكوت، وأنه هو الذي يعطي ويمنع، وينفع ويضر سبحانه وتعالى، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويخلق سبحانه وتعالى، ويحيي ويميت، ويصح ويمرض، ويغني ويفقر، وأنه سبحانه وتعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فحينئذ يقوى في قلبه العلم بالله ﷻ، يقوى في قلبه التوكل على الله، يقوى في قلبه محبة الله ﷻ.

كذلك العلم بأنه هو المستحق للعبادة وحده، هو المستحق للطاعة سبحانه وتعالى طاعة العبادة وحده، هو المستحق لكذا وكذا من أنواع العبادات، فإنه حينئذ يعظم في قلبه محبة الله وتوحيده، وتضعف نوازع الشر في نفسه.

أما تعامله مع الخلق: فإن الموحد لا يغيب عن قلبه إذا قوي توحيده، أن أنسه بالله فوق كل أنس، وأن رضا الله ﷻ عنه فوق كل رضا، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، من التمس رضا الناس مهما كانوا كبارًا أو صغارًا، رعاة أو رعية، ملوكًا أو مملوكين، ومن كانوا، كما في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**»[1].

فمن التمس رضا الله، ولم ينظر إلى الناس هل يسخطون أم يرضون، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس. وهذه مجربة فيمن سار على شرع الله بالحكمة، والموعظة الحسنة في هذا الأمر.

فالتعامل مع الناس إذا تعلق القلب بالله، فإنه سيعاملهم والله ﷻ بين عينيه، يرجوه، ويخافه، ويتقيه، ويحبه، يخشى لأن يتغير قلبه عليه بظلم عبد من العباد؛ ولهذا يصلح عمله في نفسه ومع الخلق.

فإذًا: أهل التوحيد يوفقون للأعمال الظاهرة، والباطنة المتنوعة، وللأقوال الظاهرة، والباطنة في تعامل العبد مع نفسه، ومع الخلق، وفي عبادة الله الواحد الأحد.

الثامن من آثار التوحيد، وفضائله، وحسناته: أن التوحيد يحرر العبد من الرق للخلق، والمبالغة في مراعاتهم إلى عزة الرق، والعبودية لله

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٥١٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٠٠).

الواحد الأحد السميع البصير - جل جلاله، وتقدست أسمائه -.

العباد عند الله ﷻ سواء فيها، ابتلى الله العباد، وجعل بعضهم لبعض فتنة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] ما معنى أتصبرون؟

جعل الله الفقير فتنة للغني، والغني فتنة للفقير، الفقير فتنة للغني، هل يتعاظم، ويعظم، وينظر أنه إذا حصل ألفًا، أو ألفين، أو مائة ألف، أو مليونًا أو عشرات الملايين أو مئات، أنه عظم وعظم، حتى سار عند نفسه أنه فوق الخلق، ابتلي بالفقير ماذا يعمل معه، وهل يترفع عليه، أم لا؟

ولهذا نبينا ﷺ ماذا قال الله له؟ قال الله ﷻ له: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]

حتى لما رغب ﷺ في إسلام بعض الأغنياء، والأثرياء، وترك الفقير؛ لأنه في تقديره ﷺ أنه إذا أسلم الغني، فإنه سينفع الإسلام أكثر وأكثر، وترك الفقير، عاتبه الله ﷻ وقال له: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾ [عبس: ١ - ١١]، له ﷺ، وللناس جميعًا.

جعل الله - أيضًا - الغني فتنة للفقير، هل يحسد الفقير الغني؟ أو يسأل الله ﷻ السلامة؟ هل ينظر إليه بحنق وحقد وكذا؟ أو يعظم رغبته في الله؟

أيضًا : المريض والصحيح جعل الله بعضهم فتنة لبعض، أيضًا : الملك والرعية جعل الله بعضهم فتنة لبعض، وهذا كله كما قال ﷻ : ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ ، ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ ، لاحظ كلمة (فتنة) افتتان، ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ من يصبر ممن لا يصبر.

من حقق التوحيد، من أخذ بالتوحيد، من عمل بالتوحيد نظر إلى الخلق نظرًا صحيحًا، وتخلص من الرق للخلق، ومن كثرة مراعاة الخلق، وعظم في قلبه ربه ﷻ وتقدست أسماؤه، وكان عزيزًا بالله الواحد الأحد، وكان مرتفعًا بالله الواحد الأحد، وكان عظيمًا بالله الواحد الأحد؛ كما قال ﷻ : ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ ماهو تقدير الآية؟

بعض الناس يظن تفسير الآية : ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ : إن لم تكونوا مؤمنين فلستم الأعلون، ليس هذا هو التفسير، تفسير الآية : ولا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين، وأنتم الأعلون؛ لأنكم أو بحال إيمانكم، ما دام أنكم مؤمنون، فلا تهنوا، ولاتحزنوا، فأنتم الأعلون، (وأنتم الأعلون) هذه جملة من مبتدأ، وخبر حالية، يعني ما دام أنك مؤمن لا تهن، ولا تحزن، فإنك أنت العالي.

إذًا : من فوائد التوحيد في القلب : أنه يخلصه من الرق للمخلوق، ومن الذل له، وإنما يعامل الموحد المخلوق بما أمر الله ﷻ، لا يتكبر عليه، ولا يهينه، وإنما يعامله بأنه مؤمن، أو يعامله بحسب شأنه.

وبعد، هذه فضائل التوحيد، وآثاره، كما أنها متعلقة بأفراد المؤمنين،

فهي - أيضًا - متعلقة بالبلد، والمسلم الموحد، والمجتمع، والدولة، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، والإفساد في الأرض بعد إصلاحها، هو أن يسلك فيها بما يناقض التوحيد، أو بما ينقص كماله بالشرك الأكبر، أو بالشرك الأصغر، هذا هو الإفساد، أعظم الإفساد في الأرض، كذلك سائر ما يحدث من التعديات على الخلق، هذا إفساد في الأرض[(١)].

وأيضًا قال ﷻ - في بيان ذلك في سورة النور -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، هنا وعد، وموعود، وحالة يكون عليها الوعد.

أما الموعود أولًا: فهم أهل الإيمان؛ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، هؤلاء هم الموعودون.

أما ما وعدوا به، فجاء بثلاثة أشياء:

أولًا: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إن لم يكون لهم غلبة، ومنعة، واستخلاف، فالله يعدهم، طال الزمان، أو قصر أن يستخلفهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم.

ثم قال الوعد الثاني: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أعظم شيء يختاره المؤمن، ويريده أن يكون يعبد الله ﷻ بتمكين، لا يستخفي بدين

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١٥٠١، ٥/ ١٥٢٠). وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٤٧٦، ٤٧٧) لأبي الشيخ في التفسير.

الله، ولا يكون مهانًا، وهو يدين بدين الله، بل يكون مرفوع الرأس، يكون بما وعد الله ﷻ له.

أما الوعد الثالث: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ﴾ أي: بعد أن كانوا قلة يخافون استخلفهم، ومكن لهم دينهم، فصاروا بعد الخوف آمنين على أنفسهم، على دينهم، وعلى أنفسهم، وعلى أولادهم، وعلى أعراضهم، وعلى أموالهم، هذه كلها منن، ووعود من الله ﷻ.

ما حالتهم؟ بين الحالة في الجملة الفعلية بقوله: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: إذا استخلفهم، ومكن لهم دينهم، وبدلهم من بعد خوفهم أمنًا، ما حالتهم بعد هذا كله، وقبله؟ أنهم يعبدونني لايشركون بي شيئًا.

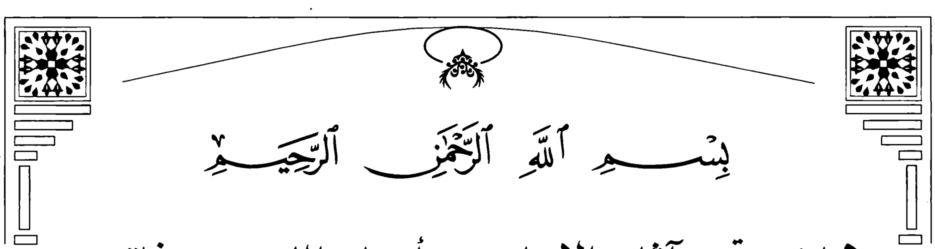
وهذا أعظم أثر للتوحيد على الناس في دولتهم، وفي مجتمعهم، أنهم إذا عبدوه، ولم يشركوا به شيئًا، وأقروا التوحيد، ونبذوا الشرك، فإنهم موعودون بفتح الله ﷻ لهم بهذه الثلاث.

وكذلك بأنهم تفتح لهم بركة من السماء، ومن الأرض، فيوسع الله عليهم في الأرزاق، ويكونون في حياة طيبة مطمئنة.

وبعد هذا كله يظهر لك فضائل التوحيد، وآثاره، وحسناته على أهل الإيمان، وعلى غيرهم، وعلى الأفراد، وعلى الدولة، والمجتمع كبير جدًا جدًا؛ ولهذا يعظم حينئذ الواجب، وتشتد حينئذ التبعة في أن نهتم بالتوحيد في أنفسنا، وفيمن حولنا، إن رغبنا في هذا الخير العظيم، وإلا فليس هو من باب الفضائل من لم يأخذ بالتوحيد، ويجتنب الشرك، فقد قال الله ﷻ، في شأنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ

مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أسأل الله ﷻ أن يجعلني وإياكم من أهل توحيده الذين علموه، واعتقدوه، وشهدوا به، وعملوا به، ودعوا إليه، وأعلنوه، إنه سبحانه وتعالى ولي الصالحين، وهو ذو الفضل والإحسان، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا جميعًا ممن حاز هذه الفضائل، اللهم لا تحرمنا فضلك بذنوبنا، ولا بتقصيرنا، وبإسرافنا في أمرنا، اللهم اجعل عاقبة أمرنا إلى خير، واجعل لنا فواتح الأمر من الخير وخواتمه، إنك على كل شئ قدير رحمن رحيم، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يوفق ولاة أمورنا لما فيه رضاه، وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين على البر والتقوى، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.



محاضرة: «آثار الإيمان بأسماء الله، وصفاته» في الجامع الكبير بالرياض في يوم الخميس الموافق ١٤٢٣/٣/٢٥هـ. وقد علق عليها سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء «حفظه الله»

الحمد لله رب العالمين، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف عنها الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فصلِّ الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، كلما صلى عليه المصلون، وكلما غفل عن الصلاة عليه الغافلون، وعلى آله، وصحبه، أجمعين، أما بعد؛

فموضوع هذه المحاضرة موضوع مهم؛ لأنه أساس الإيمان بالله ﷻ، فالإيمان بالله ﷻ هو لذة الحياة، وهو سعادة المؤمن، بل هو الحياة على

الحقيقة، فبالله ﷻ الأنس، وبالله ﷻ المستعان، وعلى الله ﷻ التكلان، وإليه يُرجع الأمر كله، هو الذي يخفض ويرفع، وهو الذي يقبض ويبسط، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، هو الملك لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، وهو القدوس المطهر عن كل عيب ونقص، وهو الجميل - جل جلاله -، وكل جمال في هذه الأكوان، فإنه من آثار جمال الرب ﷻ، هو الله الواحد الأحد، هو القوي المقتدر العزيز الجبار المتكبر، هو الله الذي أنست له قلوب الأنبياء، والصالحين، فالتذت لمناجاته، ورغبت في القرب منه، ولأجله جاهد المجاهدون، فأهريقت الدماء في سبيله، ولأجله شمر المشمرون طلبًا للقرب منه في دار كرامته، وخوفًا منه شمر المشمرون بعدًا عن دار هوانه، وعذابه، ووجلًا منه ابتعد الصالحون عن كل ما يخدش الإخلاص، ويقدح في التوحيد، أو في كماله، وفَرَقًا منه ﷻ هرب المؤمنون منه ﷻ إليه، فهو سبحانه وتعالى من إله عظيم، سبحانه وتعالى من رب قادر، سبحان من وجلت له القلوب، وسبحت له الملائكة في علياء سمائه، سبحانه وتعالى كثيرًا، وتنزيهًا له وتعظيمًا، وحمدًا له، وثناء كما يليق بجلاله، وعظمته.

قال ﷻ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ أو من كان ميتًا بالكفر، والضلال، فأحييناه بالإيمان الصحيح، أحييناه بالتوحيد، أحييناه بالإخلاص، أحييناه بطاعة ربه، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟ هذا مثل الضال عن الله ﷻ، وعن العلم به، والإيمان بالله هو الحياة، والإعراض عن الله ﷻ، وعدم الإيمان به، وترك الإيمان به ﷻ هو الموت، قال ﷻ هنا: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، ولهذا فإن المؤمن على الحقيقة

يرى الإيمان بالله ﷻ هو الحياة الحقيقية، فإذا سُلبه، أو سُلب بعضًا منه، فإنه يرى أن حياته نقصت، فكمال الحياة بكمال الإيمان، وكمال السعادة بكمال الإيمان بالله ﷻ.

قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللهُ من سادات التابعين: **(خَرَجَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا، قَالُوا: وَمَا هُوَ يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى)**، وَفِي رِوَايَةٍ: **(خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا)**(١). يعني: أطيب ما في الدنيا هو العلم بالله ﷻ، ومن هذا القبس قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: **(إِنَّ فِي الدُّنْيَا جنَّة، مَنْ لَمْ يدخلهَا لم يدْخل جنَّة الْآخِرَة)**(٢). وجنة الدنيا هي جنة الإيمان بالله، جنة معرفة الله على الحقيقة، جنة الإخلاص لله ﷻ، جنة الاستجابة لرسوله ﷺ؛ لهذا كان مدار الأمر على الحقيقة الإيمان بالله ﷻ؛ ولهذا أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المرسلين جميعًا بأن يأمروا الناس بالإيمان به، أن يأمروا الناس أن يؤمنوا به ﷻ. والإيمان به فرضه الله ﷻ، وهو أول فرض، وأعظم فرض، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الإيمان بالله هو ركن الإيمان الأعظم، هو الركن الأول من أركان الإيمان، وهذا الإيمان بالله ﷻ يشمل كل ما يستحقه ﷻ من أنواع التوحيد، نؤمن به ﷻ ربًّا واحدًا متصرفًا مدبرًا لهذا الملكوت، وحده لا شريك له،

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٥٦/ ٤٢١، ٤٢٧)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٣)، وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢/ ١٦٧).

(٢) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٥١٩)، ومدارج السالكين (١/ ٤٥٢)، والرد الوافر (ص ٦٩)، و الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية(ص ٣٤).

ونؤمن به سبحانه وتعالى المعبود بحق عز وجل، لا معبود بحق سواه، ونؤمن به عز وجل بأن له الأسماء الحسنى، وله عز وجل الصفات العلى، وهو سبحانه وتعالى الذي له المثل الأعلى، له النعت الأعلى، وله أحسن الأسماء، وأجل الصفات عز وجل.

وهذا الإيمان سماه أهل العلم توحيد الأسماء والصفات، أو الإيمان بأسماء الله وصفاته، وهو من الإيمان بالله عز وجل، وكان هذا الإيمان بأسماء الله وصفاته فرضًا؛ لأن الله عز وجل أمر بالإيمان به: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وأمر به نبيه صلى الله عليه وسلم، بل كانت الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الله عز وجل حض عباده على أن يكونوا عالمين به عز وجل، وأن يكونوا متقربين منه سبحانه وتعالى بالعلم بأسمائه وصفاته، والعلم بما يستحقه عز وجل، وما يُعلم من ذاته، وصفاته، وأفعاله عز وجل وتقدست أسماؤه.

لهذا بين الله عز وجل في كتابه أن له الأسماء الحسنى، وبين عز وجل في كتابه أن له الصفات العلى، وأن له المثل الأعلى، قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال - أيضًا - عز وجل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقال - أيضًا -: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال - أيضًا -: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وأيضًا قال عز وجل في وصف نفسه عز وجل: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، أي: هل تعلم من يشاركه في كمال اسمه، وكمال صفاته؟ وقال - أيضًا -: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]،

وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، والمثل يعني: النعت، والوصف الأعلى.

ولهذا يقول أهل العلم اقتباسًا مما جاء في هذه الآيات، يقولون: إن لله ﷻ الأسماء الحسنى، والصفات العلى.

فالله ﷻ يُتعرف إليه بمعرفة أسمائه وصفاته، ولما أرسل النبي ﷺ معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن، قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ**»(١)، وفي رواية للبخاري في صحيحه في كتاب التوحيد «**إِنَّكَ تَقْدَمُ على قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالى**»(٢)، ولمسلم في الإيمان من صحيحه: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ﷻ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ**»(٣)، وهذه المعرفة معناها العلم، المعرفة المحمودة؛ لأن المعرفة نوعان:

معرفة محمودة: وهي التي تكون عن إيقان، وعلم، وبصيرة، وبينة.

ومعرفة مذمومة: وهي التي يعلم فيها المرء ما يعلم، ثم يُنكر، كما كان أهل الكتاب، وأهل الشرك يعرفون نعمة الله، ثم يُنكرونها، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم أنكروا. قال في هذا اللفظ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ ﷻ فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ**»، يعني: أن يعلموا الله ﷻ؛ ولهذا قال أهل العلم: أشرف معلوم، وأعظم معلوم هو الله ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥، ١٤٩٦، ٤٣٤٧، ٧٣٧١)، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧، ١٣٩٥، ١٤٥٨، ١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧)، ومسلم (١٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩).

فإذا تقاسم الناس المعلومات، وتنافسوا فيها، فإن أعظم الناس من كان علمه بالله ﷻ أعظم؛ لأن شرف العلم يكون بشرف المعلوم، والمعلوم هنا هي أسماء الله ﷻ وصفاته، والإيمان به، وما يستحقه ﷻ؛ لهذا كان من أشرف المطالب أن يسعى فيه العبد أن يتعلم الأسماء والصفات، وأن يكون عالمًا بمعانيها؛ ليحصل له بعد ذلك الثمرات المرجوة من ذلك.

إذا تبين ذلك، فإن الكتاب والسنة فيها الكثير من أسماء الله ﷻ وصفاته، فالله سبحانه وتعالى علمنا، وأخبرنا بما له ﷻ من النعوت، والأسماء، فيجب علينا أن نؤمن بما قص الله ﷻ علينا، وأخبر، وأنزل في كتابه، أو قصه نبينا ﷺ، أو أخبر به.

قال أهل العلم من أئمة السلف الصالح، وأهل الحديث - رحمهم الله تعالى -: أسماء الله وصفاته توقيفية، يعني: أنه يجب فيها الوقوف مع النص من الكتاب، أو السنة، أو الإجماع لايدخلها لا قياس نقلي، ولايدخلها قياس عقلي، ولا يدخلها قياس مما يستعمله الناس من الأقيسة.

فالأسماء والصفات توقيفية يعني: أن ما جاء في القرآن، أو في السنة من الأسماء، فإننا نثبته، وما لم يأت في القرآن، والسنة من الأسماء والصفات، فإننا لا نثبته، فالإثبات، والنفي مداره على ما جاء في الدليل. وهنا نقول: إن هناك الإيمان بالأسماء والصفات، فما الفرق بين اسم الله ﷻ، وبين صفته؟ الأسماء والصفات، ما الفرق بين الاسم، والصفة؟ الاسم والصفة يجتمعان في أن كلًا منهما فيه وصف لله ﷻ؛ أما الاسم، فيزيد أنه يدل على ذاته ﷻ.

مثلًا نقول: من أسماء الله العليم، والعليم من أسمائه سبحانه وتعالى يدل على

ذاته، تقول هو العليم، ويدل - أيضًا - على صفة العلم، التي اشتمل عليها الاسم؛ أما إذا قلت العلم من حيث هي صفة، فإنها تدل على ثبوت الصفة دون دلالة على الذات؛ ولهذا كان الاسم فيه زيادة على الصفات، فالأسماء أسماء الله ﷻ تدل على ذات الله ﷻ، وعلى الصفات بالمطابقة - كما يقول أهل العلم - وتدل على الاسم، أو الصفة بالتضمن؛ أما الصفة، فهي تدل على الصفة فحسب، وتدل على الاسم من جهة اللزوم[1].

فتبين من هذا أنه يجب علينا أن نجعل الأسماء والصفات تدور مع الدليل، فمن جاء باسم زائد، فنقول: هذا لم يأت في الكتاب، ولا في السنة.

مثلًا يأتي، ويقول: من أسماء الله الصانع. نقول: ما جاء الصانع في الكتاب، ولا في السنة.

يقول: من أسماء الله المريد. نقول: ما جاء. يقول: من أسماء الله المتكلم. نقول: ما جاء لا في الكتاب، ولا في السنة.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء التعارض (١٠/ ١٢): (فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على جميع المعنى الذي عناه المتكلم، ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على ما هو داخل في ذلك المعنى، ودلالة الالتزام: دلالة اللفظ على ما هو لازم لذلك المعنى خارج عن مفهوم اللفظ، فدلالة المطابقة هي دلالة اللفظ على جميع هذه الماهية التي عناها المتكلم بلفظه، وهو دلالة على تمام الماهية، وذلك المدلول عليه بالمطابقة هو مقول في جواب ما هو، إذا قيل ما هو بحسب الاسم، وإذا سُئل عما هو المراد بهذا اللفظ، ذُكر مجموع ما دل عليه بالمطابقة، فالمدلول عليه بالتضمن هو جزء هذا المدلول، وهو جزء ماهيته، وهو داخل في ذاته، وأما اللازم لهذا المدلول فهو خارج عن حقيقته، عرض لازم له، فهذا تقسيم معقول ولكنه يعود إلى قصد المتكلم ومراده باللفظ). وانظر هذا البحث في: آداب البحث والمناظرة (١/ ١٢). ا.هـ.

يقول: من أسماء الله ﷻ المستهزئ. نقول: هذا لم يأت، لا في الكتاب، ولا في السنة، لكن جاءت هذه الأشياء على جهة الوصف، إما المطلق، وإما على جهة الكمال.

المطلق مثل أن نقول: الله ﷻ متصف بصفة الكلام على وجه الكمال كما يليق بجلاله، وعظمته، لكن ما نقول هو متكلم، يعني بمعنى: أنه من أسمائه الحسنى أنه متكلم. ما نقول: إن من أسمائه الحسنى أنه مريد، لكن الله ﷻ موصوف بأن له الإرادة وأنه ﷻ يريد؛ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ما نشتق من الفعل، أو من الصفة اسمًا، وإنما ندور حيث جاء في الدليل من الكتاب، والسنة، لماذا؟ لأنه لا أحد أعلم بالله ﷻ من الله ﷻ، ولا أحد أعلم من الخلق بالله ﷻ من رسوله ﷺ؛ فلذلك لا نتجاوز القرآن والحديث في أسماء الله وصفاته، فما جاء في الصفات، وفي الأسماء في الكتاب، والسنة أثبتناه، وما لم يأت لم نثبته في ذلك.

الله ﷻ قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فما معنى الحسنى؟ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى: قال أهل التفسير كالبغوي في تفسيره عند آية (الأعراف)، وقاله غيره: الحسنى تأنيث الأحسن، كالكبرى تأنيث الأكبر، والصغرى تأنيث الأصغر[1]، فقوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: أن أحسن الأسماء له ﷻ، والحسنى التي هي بالغة في الحسن، والجمال، نهاية الحسن والجمال، هي لمن؟ لله ﷻ وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ اللام هنا لام استحقاق، يعني: هو ﷻ مستحق للأسماء الحسنى التي هي أحسن

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٥٣)، وزاد المسير (٢/ ١٧٢)، والقرطبي (٧/ ٣٢٧).

الأسماء، والتي هي بالغة في الحسن، والجمال نهاية الحسن، والجمال.

ما وجه ذلك؟ هناك أمور، كانت أحسن الأسماء، وبلغت في الحسن نهاية الحسن والجمال؛ لأنها تدل على صفات له ﷻ، وصفاته ﷻ التي تضمنتها تلك الأسماء بالغة في الحسن والجمال نهايته.

الأول: أن الأسماء لله ﷻ يدعى الله ﷻ بها، يدعى بها يعني - كما سيأتي تفصيلًا إن شاء الله تعالى - يدعى بها أي: يعبد بها ﷻ، هل أسماء الناس، أسماء الخلق، أسماء الأنبياء يُعبدون بها؟ حاشا، العبادة لمن؟ لله وحده ﷻ.

الثاني: أنه يُثنى عليه بها ﷻ.

الثالث: أنه ﷻ يُسأل بأسمائه الحسنى، هل الخلق يُسالون بأسمائهم؟ لا؛ لأنه لابد أن يكون عندهم نقص في القدرة على إنفاذ ما تضمنته أسماؤهم.

مثلًا: عزيز مصر، أليس هو العزيز؟ ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، لكن هل عنده من صفات العزة؟ ليس كذلك. فإذًا: النقص يلازم الإنسان مهما بلغ من أسماء، والله ﷻ أسماؤه بالغة في الكمال، والحسن نهايته لا وجه فيها لنقص لوجه من الوجوه؛ لذلك يُسأل الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

من أوجه كون أسماء الله ﷻ حسنى، وهي أحسن الأسماء: أن كل اسم من أسماء الله ﷻ له آثاره في الخلق، في السماوات، في الجنة، في النار، في العرش، في الكرسي، في من في السماوات، ومن في الأرض، في

الملكوت، في الصغير والكبير، في الهواء، فأسماء الله ﷻ لها آثارها في ملكوته، وخلقه، كذلك لها آثارها في شرعه، ودينه، كذلك لها آثارها في جزائه حين يجازي الناس في الدنيا، وحين يجازي الناس في الآخرة، وأيضًا لها آثارها في وعده ﷻ، وإنفاذ وعده، وفي وعيده ﷻ، وإنفاذ وعيده.

لهذا كانت أسماء الله ﷻ حسنى؛ لاجتماع هذه المعاني فيها ﷻ؛ لهذا ثبت في صحيح البخاري، وفي مسلم، وفي غيرهما، من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ**»(١)، وهنا نظر العلماء ما معنى:

أولًا: الحصر في قوله: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**» هل هذا للحصر؟

والسؤال الثاني: ما معنى من أحصاها؟

والجواب على الأول: أن قوله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا**». قال العلماء: ليس المراد بذلك الحصر، ولكن هذا يراد به ترتب الثواب على هذه الأسماء.

قال أهل العلم: فلله ﷻ أسماء كثيرة أكثر من التسعة والتسعين، لكن التسعة والتسعون اسمًا ترتب عليها ثواب أن من أحصاها دخل الجنة، ويدل على هذا الفهم - وهو فهم صحيح - قول النبي ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه المشهور، أن النبي ﷺ قال: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وابْنُ عَبْدِكَ، وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ**

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»[1]، فدل هذا الحديث على أن أسماء الله ﷻ كثيرة، لكن الحديث حديث أبي هريرة رضي الله عنه حصر تسعًا وتسعين في أن من أحصاها دخل الجنة.

والسؤال الثاني: ما معنى الإحصاء؟ وهذا تكلم فيه العلماء كثيرًا، وخلاصة كلامهم: أن الإحصاء يدور على ثلاثة معانٍ، وله ثلاث مراتب[2]:

أما المعنى الأول: فالمعنى: أحصاها عدها.

والثاني: أحصاها: حفظها.

والثالث: أحصاها: تعبد الله بها، وعمل بمقتضاها.

هذه ثلاثة معانٍ: أحصاها عدها، لماذا قالوا ذلك؟ لأن الله ﷻ قال في القرآن: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ [مريم: ٩٤]، هذا إحصاء بمعنى العد.

الثاني: قال أحصاها حفظها، من أحصاها يعني: من حفظها، لماذا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٩١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢٥٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٤٠)، وأبو يعلى في مسنده (٩/ ١٩٨)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢).

(٢) قال البخاري بعد روايته لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: (من أحصاها دخل الجنة ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ حفظناه) ا. هـ. وانظر: مراتب الإحصاء في بدائع الفوائد (١/ ١٧١).

قالوا ذلك؟ لأن الله ﷻ يقول: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦] أي: حفظه الله سبحانه وتعالى، ونسوه.

الثالث: من أحصاها بمعنى من تعبد الله بها دخل الجنة، لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومعنى الإحصاء يشمل هذه الثلاثة؛ من عدها، وحفظها، وتعبد الله بها دخل الجنة. نسأل الله الكريم أن يجعلنا جميعًا من أهل الجنة بمنه، وكرمه، وعفوه، ورحمته.

مراتب الإحصاء؛ «من أحصاها دخل الجنة»:

أولًا: أن تتعلمها، تتعلم الأسماء، تعرف الله ﷻ بأسمائه، مثلًا: تسمع اسمًا من أسماء الله، ولا تبحث عن معناه؟! هذا قصور، يسمع معنى القدوس، ما معنى القدوس؟ أو يسمع العزيز، ما معنى العزيز؟ الجبار، ما معنى الجبار؟ المؤمن، ما معنى المؤمن؟ يسمع أسماء الله الحسنى، ولا يتعلمها، هذا قصور. فإذًا: أول مراتب الإحصاء أن تتعلم هذه الأسماء، وتتعلم معانيها.

المرتبة الثانية: أن تعرف ارتباط هذه الأسماء بآثار ما يجريه الله في الملكوت، مثلًا: اسم الله الحليم، نعم ترى كفر الكفار تعلم أن الله حليم، يعني: تتأمل وتتدبر في أن أسماء الله ﷻ لها آثار في الخلق نراها، نرى الظالم يظلم، والقاتل يقتل، والمسلمون يستضعفون، والله ﷻ حليم ﷻ. هو العزيز، والحكيم - أيضًا - له الحكمة البالغة، الحي في قوته، وصحته، المريض يمرض، الله ﷻ يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ترى هذا الذي يجري في ملكوت الله في سمواته، أو في أرضه.

إذا علمت المرتبة الأولى، فإنه سيأتيك في المرتبة الثانية: الربط ما بين هذه الأشياء وما بين أسماء الله ﷻ، وصفاته، فحينئذ ينتفي من قلب المؤمن حقيقة الأسماء والصفات، ينتفي في حقه خطرات المادية، خطرات الإلحاد، الظن بأن الأمور تجري هكذا، بل يربط الأشياء بأفعال الله ﷻ، وبأسمائه وصفاته، فيكون عنده من النور في كل ما يرى ما لا يكون عند من لا يعلم.

المرتبة الثالثة: أن يكون متعبدًا لله ﷻ بها، متعبدًا لله ﷻ داعيًا لله سبحانه وتعالى بها؛ لأن من ثمرات الإيمان العبادة - كما سيأتي إن شاء الله تعالى - هنا يعلم أسماء الله ﷻ، ويعلم صفات الله سبحانه وتعالى ولا يعبده ﷻ وحده لا شريك له؟ لا يذل له؟ لا يخضع؟ لا ينكسر بين يديه؟ لا يخلص له؟ لا يحسن الظن به؟ لا يكون، بل من آمن بأسمائه ﷻ وصفاته على الحقيقة، فإنه يكون عنده عِظم في العبادة.

هنا ننتقل إلى قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].
جعل الله ﷻ الأسماء الحسنى مستحقة له سبحانه وتعالى، ثم أمر عباده بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ ادعوه بها: هذا أمر، والأمر هنا للوجوب، والفرضية، فما معنى ادعوه بها؟ (ادعوه بها) هنا لها - أيضًا - ثلاثة معانٍ:

أما المعنى الأول: فادعوه بها يعني: اعبدوه بها، فإنك إذا علمت الأسماء الحسنى، وعلمت معانيها، فإنك ستعبد الله ﷻ بها؛ لأن الآلهة المختلفة، والأوثان، والأصنام، ومن عبدوا غير الله ﷻ من البشر، ومن الملائكة، أو الأنبياء، أو من الجن، من الصالحين، والطالحين، هل يستحقون ذلك؟ لا؛ لأن أسماءهم مهما بلغت لن تبلغ الكمال، ولن تبلغ

النهاية، لا يستحقون العبادة، من الذي يستحق العبادة؟ هو من له الأسماء الحسنى البالغ في الكمال نهايته في جميع أنواعها.

بهذا المعنى الأول، فادعوه بها، يعني: اعبدوه بها، تعلموها، واعلموا معانيها، واعبدوا الله إيمانًا بما له ﷻ من الأسماء الحسنى.

الثاني من معنى الدعاء: الثناء، فادعوه بها، يعني أثنوا على الله ﷻ بها، العبادة يعبد الله يوحد الله بالأسماء، يعني: بأثر هذه الأسماء، يصلي بالأسماء، يعلم بها ربه ﷻ، فيذل له، ويخضع، ويقرب منه، هنا نأتي في الثناء (يدعو الله) يعني: يثني على الله بها، إذا علمت الأسماء، مثلًا: حفظت التسع والتسعين اسمًا، فإنك ستجد عندك فيما بينك، وبين ربك في أدعيتك، وفي سجودك، وفي ركوعك، وفي دعائك، ستجد أبوابًا من الثناء على الله ﷻ تُفتح عليك.

وتذكر هنا قول النبي ﷺ في يوم الحشر الأعظم، لما ذكر ما أصاب الناس، ثم طلب الناس منه الشفاعة، قال: «**فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَرْجِعُ**»[1] فتح من الله ﷻ؛ لهذا يقول عمر رضي الله عنه، عمر بن الخطاب أمير المؤمنين المحدث الملهم، يقول: (**أنا لا أحمل هم الإجابة**) ما أحمل هم الإجابة أن الله - تعالى - يستجيب لي، (**ولكن أحمل هم الدعاء، فإذا وفقت للدعاء جاءت**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٠)، ومسلم (١٩٣).

الإجابة). واحد الآن يحتاج إلى أنه إذا خاطب البشر في حاجة من حاجته، ما يكتب في الأول إذا خاطب؟ يعطي بعض الثناء، وبعض الشيء؛ لكي يكون مقدمة لحديثه يبين - مثلًا - قربه، يبين إخلاصه، يبين كذا، الله ﷻ أحق بالثناء، الله ﷻ أحق بالحمد، الله ﷻ يحب من عبده أن يحمده، أن يثني عليه، أن يوقره، أن يجله، أن يظهر أثر ذلك في دعاء العبد.

فإذا تعلمت الأسماء والصفات زادت عندك أبواب الثناء على الله ﷻ، إذًا: فادعوه بها: يعني: أثنوا على الله بها.

الثالث من معاني «فادعوه بها»: يعني: اسألوه بها، اسألوا الله بها، يعني: توسلوا إلى الله ﷻ بأسمائه وصفاته، أسماء الله متنوعة، وصفاته متنوعة، ومطالب الناس - أيضًا - متنوعة كثيرة، وأسماء الله وصفاته لها آثارها، وارتباطها بما يجري في الملكوت، سواء في حياتك، أو في حياة غيرك، أو في السماوات، أو في الأرض، فتسأل الله ﷻ بالاسم المناسب، أو بالصفة المناسبة لمطلوبك أحرى أن تجاب بعد أن تحمده، وأن تثني عليه ﷻ.

مثلًا: شخص منكسر في أي أمر من أموره، لأمر ديني، أو أمر دنيوي، فهنا يُسأل الله ﷻ بالأسماء المناسبة له، اسم الجبار، اجبر ضعفي، اجبر كسري، يسأل باسم الرحيم، يسأله باسم الجواد، يسأله باسم الرافع، يسأله باسم المعز العزيز، وهكذا. فتأتي حاجتك، وتنطلق إذا علمت الأسماء، تنطلق فيها مع أنواع كثيرة من التوسلات التي يحبها الله ﷻ.

كذلك إذا أردت في النكاية بعدوك، إذا أردت السلامة من الأعداء، إذا

أردت دفع الشر: الحسد، والعين، وكذلك أشياء كثيرة، إذا أحسست بكيد كائد لك، وأعظمت التوكل عليه سألته بأسمائه المناسبة لذلك.

إذًا: فمعنى «فادعوه بها»، أي: فاعبدوه بها، أثنوا عليه بها، اسألوه بها، لكن كيف يعبده، ويثني عليه، ويسأله، وهو لم يتعلم الأسماء والصفات؟ ولذلك من السهل أن تحفظ التسع والتسعين اسمًا.

زرنا بعض البلاد يعلمونهم في الابتدائي الأسماء التسع والتسعين في شبه نشيد، أو شبه متوالية: هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار الخالق المصور. . . ، إلى أن تنتهي التسع والتسعين، يحفظها، هذا يفتح عليك أبوابًا من الإيمان إذا حفظتها، وتعلمت معناها، ولذة؛ كما قال ابن تيمية: (**إِنَّ فِي الدُّنْيَا جنَّة، مَنْ لَمْ يدخلهَا لم يدْخل جنَّة الْآخِرَة**)[1]، يعني: جنة الإيمان، لذة، حياة طيبة.

إذا تبين ذلك، فأهل العلم نظروا في ما ذكرنا، وتبين لهم أن أسماء الله ﷻ، وصفات الرب ﷻ لها آثارها في الخلق، والأمر، يعني في ملكوت الله، ومخلوقاته، وفي أمره الكوني، وأمره الشرعي، وفي الجزاء، وفي الوعد، والوعيد، وفي أنواع الحكمة، وما يحصل من أقدار الله ﷻ، وقضائه، فتأملوا في الأسماء والصفات، فقسموها؛ ليقرب إلى الذهن معرفة الآثار، والعمل بمقتضيات الإيمان.

---

(١) سبق عزوه (ص ٤٨٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أسماء الله وصفاته نوعان: أسماء جلال، وأسماء جمال[(١)].

وهذه أخذها من قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الجلال، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الإكرام، الإكرام فيه معاني الجمال؛ الإكرام في الحياة، الإكرام بالدين، الإكرام في الدنيا، الإكرام في الآخرة، الرحمة، كل ما يحصل عندك من النعيم، أو يندفع من الأذى هو بإكرام الله عَزَّ وَجَلَّ، فهذه أنواع جمال.

أيضًا: من صفاته من أنواع أسمائه وصفاته ما يتعلق بالإحاطة؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيط بكل شيء، مثل: المهيمن، الشهيد، الرقيب، المقيت، العليم، المحيط، وهكذا، هذه فيها الإحاطة، وأنه لا تخفى عليه خافية.

هناك صفات العزة والقدرة، مثل: الرب، والملك، القدير، القهار، الجبار، العزيز، الخافض الرافع، القابض الباسط، المعز المذل، هذه كلها فيها عزة، وفيها قدرة تدل على أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان على كل شيء مقتدرًا عَزَّ وَجَلَّ.

من أسمائه وصفاته ما يتعلق بالرحمة، الرحمن، الرحيم، الودود، القريب، الجواد، وهكذا، الغفور، الغفار، هذه تتعلق برحمته بعباده.

هنا كل مجموعة من هذه المجموعات متعلقة بجميع ما ذكرنا من الخلق، والملكوت، وشرع الله عَزَّ وَجَلَّ بقدر الله عَزَّ وَجَلَّ، وبجزائه، ووعده، ووعيده، وكل الأصناف، وهنا ينظر العبد المؤمن، وهو يتأمل ذلك، فيرى أن أسماء الجلال من عزة الله، وقدرته، وجبروته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وملكه، وأنه يجير ولا يجار

(١) انظر: الفوائد (١٨٢ -١٨٥)، ومدارج السالكين (٣٣ - ٣٥).

عليه، وأنه أمره نافذ، وأنه الذي يخفض ويرفع يراها في ملكوت الله في السماء، ويراها في ملكوت الله في الأرض، بل يراها في الناس، بل يراها في نفسه.

وهكذا صفات الرحمة هو ﷻ الذي وسعت رحمته؛ ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، كل شيء وسعته الرحمة، العرش، والملائكة، وما دونهم.

بهذا ينبغي لك أن تتأمل بعد أن تتعلم الأسماء والصفات على النحو الذي ذكرنا، تتأمل تقسيمات لها، وكل قسم تعلقه بملكوت الله، وبشرع الله، وبأمره، خذ مثلًا: الحكمة، حكمة الله ﷻ متعلقة هل هي بالملكوت فقط؟ لا. ترى حكمة الله ﷻ في خلقه، وتراها - أيضًا - في دينه، وشرعه، وتراها - أيضًا - في جزائه، وتراها - أيضًا - في جنته، وناره، وفي وعده ووعيده؛ لهذا وجب على الإنسان المؤمن أن تظهر، أو أن يحظى بثمرات الإيمان بالأسماء والصفات على نفسه، وفي نفسه بعد تعلمه، ومعرفته بأسماء الله وصفاته.

من هذه الثمرات:

أولًا: أعظم ثمرة للإيمان بالأسماء والصفات، ولتوحيد الأسماء والصفات: تحقيق ما أوجب الله ﷻ من الإيمان به. الله ﷻ أمرنا بالإيمان به، فمن آمن بالأسماء والصفات جميعًا كما أخبر الله ﷻ بها، وأخبر بها نبيه ﷺ، فقد حقق هذا الإيمان، ومن حرَّف في ذلك، ولم يؤمن بها جميعًا، فلن تظهر ثمرات الإيمان على الحقيقة فيه من جهة أداء الواجب، وامتثال الواجب.

نصيب المؤولة والمعطلة للأسماء والصفات، يعني: الذين ينفون بعض الأسماء لله ﷻ، ينفون بعض الصفات، أو يتأولونها على غير ما وردت عليه، ليس نصيبهم من هذا الإيمان كاملًا، بل بحسب ما فرطوا، وتركوا في ذلك، منهم من بدعته في ذلك شديدة، ومنهم من بدعته أقل، ومنهم من بدعته كفرية في إنكاره للأسماء والصفات، وتعطيله لذلك.

الثمرة الثانية: عبادة الله وحده لا شريك له، كما ذكرنا عند قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

حقيقة الإيمان بالأسماء والصفات أنه يقود حتمًا إلى توحيد الله ﷻ حق توحيده، وأن يُعبد وحده لا شريك له؛ لأن معنى الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات: أنه ﷻ هو الواحد الذي لا مثيل له في أسمائه، وفي صفاته.

فإذًا: من عُبِد من الأصنام، والأوثان، من الملائكة والأنبياء، من الجن، من الصالحين، والطالحين، من الموتى، والأحياء، من عُبد هل له كمال الصفات؟ لا. ففيه النقص الكبير في ذاته، وفي صفاته، لكن من الذي يستحق العبادة؟ الذي يستحق العبادة الله ﷻ وحده الذي له الصفات الكاملة.

ولهذا قال أهل العلم: في القرآن ذكر الأسماء والصفات، أو ذكر توحيد المعرفة، والإثبات، وهو توحيد الربوبية، والأسماء والصفات؛ ليقود إلى الإيقان بتوحيد الإلهية أن يُعبد الله وحده لا شريك له، فمن حقق توحيد الأسماء والصفات، يعني: آمن حقًا بأنه ﷻ هو الذي له هذه الأسماء الحسنى، وله هذه الصفات العلى، فإنه حينئذ ليس أمامه إلا أن يعبده وحده لا شريك له؛ ولذلك الشرك فشا في المعطلة، فشا في الذين ألحدوا في أسمائه؛ ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ما معنى يلحدون

في أسمائه؟ أي: يعدلون، الناس في أسماء الله ﷻ كما قال ابن عباس ﵄ في تفسيرها: «**سَمَّوا اللَّاتَ مِنَ الإله، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ**»[(١)].

وهكذا - أيضًا - البشر جعلوا لبعض الناس من الصفات مثل ما لله ﷻ، فهنا ألحدوا في الأسماء، فلما ألحدوا وقعوا في الشرك؛ ولذلك الموحد في الأسماء والصفات يقوده ذلك إلى توحيد الله ﷻ في العبادة، وأن يعبده وحده لا شريك له.

وهنا تأمل قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٣]؛ لأن إثبات الأسماء تنزيه لله ﷻ عن الشرك، فمن أثبت الأسماء والصفات، وعلمها، وآمن بها على الحقيقة، فإن ذلك تنزيه لله ﷻ عن الشرك؛ لهذا المشركون كانوا يلحدون في أسماء الله ﷻ.

في هذه الأمة لما عطَّلت الباطنية، وعدد من الفرق، لما عطلوا في أسماء الله ﷻ ألحدوا فيها، أو عطلوا، أو أولوا، سهل عليهم أن يكون لبعض البشر بعض خصائص الله، فأشركوا، ووقعوا في ذلك - والعياذ بالله -.

الثمرة الثالثة: المؤمن بالأسماء والصفات يلين لسانه بحسن الثناء على الله، ومن أكثر الثناء على الله ﷻ قرب منه، وأحس في قلبه اللذة، والحلاوة لمناجاته، وهذه فتوح لا يعلمها إلا من ذكرها من أهل العلم، أو من عُلمها، لماذا؟ لأنه يأتي للنفس من اللذة، والحضور، والسرور بالثناء

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

على الله ﷻ، الذي لا يعلم الأسماء والصفات لا يؤمن بها على الحقيقة، ما يُفتح له في الثناء على الله ﷻ بأسمائه وصفاته.

من ثمراتها: أنه يُفتح لك باب السؤال، والدعاء الحسن لله ﷻ في مطالبك؛ لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فإذا سألت الله بما يناسب مطلوبك من أسمائه وصفاته، فإنه قد توسلت بأعظم وسيلة؛ لأن أعظم ما يتوسل إلى الله ﷻ به أن يتوسل إلى الله ﷻ بالله ﷻ.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[١] اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك: هذا سؤال لله ﷻ في مطلوب بصفة من صفات الله ﷻ.

من ثمراتها: العلم بالكتاب والسنة، أعظم العلوم هي علم الكتاب والسنة، كما قال ابن القيم رحمه الله[٢]:

الْعِلْـمُ قَـالَ الـلَّـهُ قَـالَ رَسُـولُـهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُوا الْعِرْفَانِ

الكتاب والسنة أكثر ما فيه وصف الله ﷻ بيان ما يستحقه سبحانه وتعالى، بيان ما له ﷻ، أكثر الآيات تجد أنها مختومة بماذا؟ بأسماء الله وصفاته، فإذا كان ما عندك علم بالأسماء والصفات التي ينتج عنها الإيمان، فسيكون هناك نقص في معرفة الآيات، وبالتالي سيكون هناك نقص في معرفة القرآن العلم

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: النونية مع شرحها لابن عيسي (١/ ٢٢٦).

بالقرآن العلم بالسنة، وهكذا.

الأثر الخامس: التدبر في ملكوت الله ﷻ، الله ﷻ قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. إذا عظم العلم بالأسماء والصفات نظرت إلى الملكوت بنظرة أخرى، نظرت إلى مخلوقات الله من الجبل، والنجم والشمس، والقمر، والحجر، والزواحف، نظرت إليها بنظرة كلها يدل على الله ﷻ.

لهذا قال الحسن البصري رحمه الله - قال بكلام حسن جميل -: (**مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ، فَإِذَا لَهَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ فَنَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ وَأُورِثَتْ الْعِلْمَ**)(١).

أنفع العلوم، وأنفع الكلام كلام السلف، كما قال ابن رجب رحمه الله في رسالة (فضل علم السلف على علم الخلف) قال: كلام السلف قليل كثير الفائدة وكلام الخلف كثير قليل الفائدة(٢)، ما معنى كلام الحسن البصري؟ يقول: (**مَا زَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ عَلَى التَّفَكُّرِ وَبِالتَّفَكُّرِ عَلَى التَّذَكُّرِ**) يعني: تفكرنا في ملكوت الله، تفكرنا في أسماء الله وصفاته، فما كانت النتيجة؟ قال: (**فَإِذَا لَهَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ فَنَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ وَأُورِثَتْ الْعِلْمَ**) يعني: أورث التفكر القلوب (**يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ**) الذكرى استيقظت صار عندها تذكر رجع،

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٤)، والفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٧)، والاستقامة (١/ ٢١٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ومدارج السالكين (١/ ٤٤١)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣) لابن القيم رحمه الله.

(٢) انظر: بيان فضل علم السلف على الخلف للحافظ ابن رجب رحمه الله (ص٦٠ - ٦١).

هل اكتفى بذلك؟ لا . قال: (**يَعُودُونَ بِالتَّذَكُّرِ**) مرة أخرى (**عَلَى التَّفَكُّرِ**) يعني: ابتدأ من جديد يتذكر بعدما بدأت في القلب الحياة، (فحركنا القلوب بهما)، ينتقل من التفكر إلى التذكر، ثم يرجع من التذكر إلى التفكر ويزيد، قال - حتى انفتحت له ما انفتح -: (**وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ حَتَّى نَطَقَتْ، فَإِذَا لَهَا أَسْمَاعٌ وَأَبْصَارٌ فَنَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ وَأُورِثَتْ الْعِلْمَ**) يعني: يسمع كلام الله ﷻ، وإذا به يرى فيه من الآيات، والعبر ما لم يكن في حسبانه سابقًا، وفي علمه، ويبصر في ملكوت الله ما لم يكن يبصره سابقًا، والإلف يحجز العبرة، نحن نألف الشمس، نألف القمر، نألف أنفسنا، نألف حياتنا، نألف طعامنا، نألف الشراب، لكن هذا الإلف يبعد النظر في العبرة؛ ولذلك استيقاظ القلب من أعمدته العلم بالأسماء والصفات.

فرؤية آثار الأسماء والصفات في ملكوت الله ﷻ، جميع أنواع الملكوت هذه من الثمرات، في شرع الله ﷻ في القرآن، في السنة، في بعثة الأنبياء والمرسلين فيما كانوا عليه، فيما جرى بينهم وبين أعدائهم، هذا تظهر لك فيه آثار الأسماء والصفات، وما يجري الله ﷻ في ملكوته.

السادس: من الآثار: عظم التوكل على الله ﷻ، فإذا تأملت في أسماء الله ﷻ، التي توقن معها بأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء، هو الذي بيده الأمر، هو الذي بيده قلوب العباد، هو الذي يخفض ويرفع، هو الذي يُمرض، ويُسقم، ويشفي، ويعافي، هو الذي يقبض ويبسط، هو الذي يجيب، هو الذي ينصر، هو الذي يخذل، هو الذي يعز، من الذي يفعل ذلك كله؟ هو الله ﷻ، من الذي يملك الملك على الحقيقة؟ هو الله ﷻ، من الذي يملك خزائن السماوات والأرض؟ هو الله ﷻ، من القوي؟ من الجبار؟ من

العزيز؟ من المقتدر؟ هو الله ﷻ.

إذًا: يعظم عند العبد التوكل على الله ﷻ لا ينظر إلى غيره إلا نظرة أسباب، أما حقيقة ركون القلب، فهو إلى الله ﷻ، وركونه إلى الله منه سبحانه وتعالى إليه، ففروا إلى الله، ففروا منه سبحانه وتعالى إليه، وهو بعظم التوكل عليه ﷻ.

إذا عظم التوكل على الله ﷻ خفت عندك الدنيا، وتعاملت معها تعاملًا بما شرع الله ظاهريًا، تأخذ منها ما أباح الله، وتستلذ منها بما أباح الله، وتأخذ، وتأخذ، ولكن ما آتاك، فتحمد الله عليه، وما حُرمته، فإنك تحمد الله ﷻ فيه على كل حال؛ لأن الخير فيما اختاره الله ﷻ.

الثمرة السابعة: أن العلم بأسماء الله ﷻ وبصفاته تحصل معه الاستقامة، والخشية، والله ﷻ أمرنا بالاستقامة؛ ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢]، أمر بالاستقامة؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢]، أمر بالاستقامة؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ**»(١) الاستقامة مأمور بها لها وسيلة لها وسائل، من وسائلها العلم بالله ﷻ، فإذا تعبدت الله ﷻ بعد العلم به، فإنه يعظم عندك شأن الاستقامة، وينتج عندك حينئذ الخشية، نسأل الله ﷻ أن يجعلنا ممن يخشاه، وأن يغفر لنا سوء أعمالنا.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. العلماء بماذا؟ العلماء به ﷻ، العلماء بحقه، بربوبيته، بألوهيته، بأسمائه وصفاته؛ لذلك

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

كان أكمل الناس خشية من؟ الأنبياء لكونهم أعظم الناس علمًا بالله ﷻ.

الثامن، والأخير ونقتصر عليه هنا: أن العلم بأسماء الله وصفاته يعظم معه شأن الذنب عند العبد، ويعظم بالعلم شأن الاستغفار، يعظم معه شأن الذنب، فلا يستحقر الذنب، وإذا أذنب عظم عنده شأن الاستغفار؛ لأنه يعلم ربه ﷻ بأسمائه وصفاته.

الأثر الثامن من آثار الإيمان بأسماء الله ﷻ وبصفاته: تعظيم شأن الذنب، وتعظيم شأن طلب المغفرة، والاستغفار، فالذي يعلم الله ﷻ بأسمائه وصفاته، يعلم عظم شأن الذنب الذي يقع فيه هو، أو يقع فيه العباد، فتجد أنه فيما يقع فيه هو يسارع إلى طلب المغفرة، والرضوان منه ﷻ؛ لعلمه بما له سبحانه وتعالى من أسماء وصفات، ولعلمه بربه ﷻ، وبما يقع من الخلق من الذنب والإعراض، لعلمه بالله ﷻ يسارع فيهم بالدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والسعي فيما فيه نفعهم، وبذل النفس في ذلك؛ لهذا خص النبي ﷺ الصديق أبا بكر رضي الله عنه بدعاء، وهو أنه قال له لما سأل أبو بكر النبي ﷺ قال علمني دعاءً أدعو به في صلاتي، لاحظ هذا الدعاء الذي خوطب به الصديق، قال: «**عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(١)، أبو بكر الصديق يعلمه النبي ﷺ أن يقول اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، لماذا؟ لأنه يناسب مقام الصديقية العظيم الرفيع، أن يكون أكثر اعترافًا بظلم العبد

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٤)، ومسلم (٢٧٠٥).

لنفسه، وأن يكون أكثر ذلًا بين يدي الله ﷻ بأنه ظلم نفسه ظلمًا كثيرًا، وأنه لا غناء له عن الله ﷻ طرفة عين.

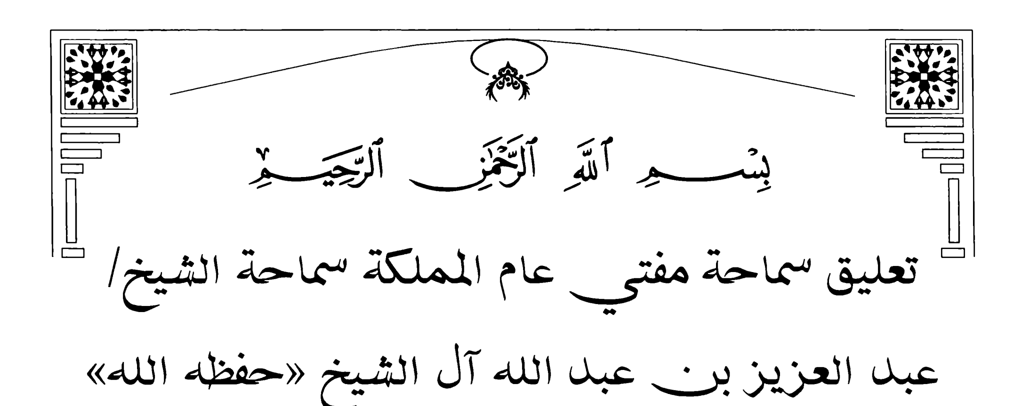
لهذا النبي ﷺ حينما دعا في ليلة - كما رواه النسائي بسند لا بأس به - قرأ في ليلة، وبلغ آخر آية المائدة في قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، قال: فلم يزل يرددها ﷺ حتى أصبح(١)؛ لأن هذه الآية مناسبة لمقام النبوة، ومقام الرسالة، وفيها عظم العلم بالله ﷻ، وما يجريه في ملكوته، وفي خلقه بأمره ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، والْحَظْ هنا أنه في آيات كثيرة جاء ختام ذكر المغفرة بالعزيز والحكيم، كما في هذه الآية قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؟ لا. قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وهكذا جاءت في سورة غافر، وفي غيرها.

هذه كلمات وجيزة في هذا الشأن، أسأل الله ﷻ أن يكون بها فتح الباب للعناية بأعظم علم وأفضل علم، ألا وهو العلم بالله ﷻ، وما له سبحانه وتعالى من حق أن يُعبد وحده لا شريك له، وأن يدان له بأنه الرب الواحد الأحد الفرد

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٥٠)، والنسائي في الصغرى (١٠١٠)، وفي الكبرى (١٠٨٤، ١١٠٩٦)، وأحمد (٣٥/ ٢٥٦)، والحاكم (١/ ٣٦٧)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٢١، ٣/ ٤٠٥)، وفي السنن الكبرى (٣/ ٢٠) عنْ أبي ذرٍّ، قال: «**صلّى رسُولُ اللهِ ﷺ ليْلةً فقرأ بِآيةٍ حتّى أصْبح، يرْكعُ بِها ويسْجُدُ بِها**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، **فلمّا أصْبح، قُلْتُ: يا رسُول اللهِ، ما زِلْت تقْرأُ هذِهِ الْآية حتّى أصْبحْت، ترْكعُ بِها وتسْجُدُ بِها قال: «إِنِّي سألْتُ ربِّي الشّفاعة لِأُمّتِي فأعْطانِيها، وهِي نائِلةٌ إِنْ شاء اللهُ لِمنْ لا يُشْرِكُ بِاللهِ شيْئًا»**.

الصمد، وأنه هو الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، ليس له سمي، وليس له كفو، وليس له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثيل؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا إله إلا هو جلت قدرته، لا إله إلا هو عظيم، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، نفعني الله وإياكم بما سمعنا، وغفر لنا ذنوبنا، وغفر لوالدينا، ولولاة أمورنا، ولمن له حق علينا، إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جواد كريم، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.



تعليق سماحة مفتي عام المملكة سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ «حفظه الله»

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ، وسلم، وبارك على سيد الأولين، والآخرين، وإمام المتقين محمد بن عبد الله، فصلوات الله، وسلامه عليه أبدًا دائمًا إلى يوم الدين، وعلى آله، وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

في هذه الليلة المباركة أصغينا جميعًا إلى تلكم المحاضرة القيمة النافعة المؤثرة، والتي موضوعها: «آثار الإيمان بأسماء الله وصفاته».

في الواقع إن هذه المحاضرة، وما شابهها من المحاضرات القيمة، التي يحتاج الناس دائمًا إليها ليذكروا بها، فإن أشرف العلم وأفضله، كما أشار الشيخ العلم بأسماء الله وصفاته، فهو العلم الذي يهدي إلى الطريق المستقيم ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويوصلهم فيما يعود عليهم بالخير في عاجل أمرهم، وآجله، ولكن هذه المحاضرة، وأمثالها إنما يدخل فيها من رُزق فهمًا، وعلمًا، وإدراكًا، وتصورًا لحقيقة ما يقال، فإنها مزلة أقدام ومضلة أفهام، فإذا وفق العبد في فهم هذه الأشياء فهمًا جيدًا، فتلك نعمة من الله عليه، ولقد سمعنا في هذه المحاضرة من حقائق الإيمان

بأسماء الله وصفاته، والآثار المترتبة على هذا الإيمان من الآثار العظيمة في وعد الله، ووعيده كما في عزه، وملكوته، وفيما يتعلق بهذا كله، وهي آثار عظيمة استنبطها الشيخ من حقيقة الإيمان بالله، وأسمائه وصفاته.

والله ﷻ قال في كتابه العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. عندما يتأمل مثل هذه الآية، ويذكر ما قبلها يعرف حقيقتها، فالله قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ثم أتبعها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. الغافلون المطبوع على قلوبهم الذين حياتهم كالأنعام، بل الأنعام أهدى سبيلًا منهم، عقول لا يفقهون بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال، أعين لا يتبصرون بها ما ينفعهم، آذان لا يسمعون بها إلى ما يفيدهم، بل الحواس عطلوها عن حقيقة ما خلقها الله لأجله؛ فلهذا كانوا سكان النار، أولئك هم الغافلون عن الله وعن دينه؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، فإذا عرفتم أسماء الله، تلك الأسماء الحسنى، ودعوتم الله بها خرجتم من غفلة الغافلين، وضلال الضالين، وكنتم من أوليائه، وعباده المخلصين. ولقد أشار الشيخ إلى أن الشرك بالله إنما نتج عن من عطلوا أسماء الله وصفاته، فالذين عطلوا أسماء الله وصفاته، إما كلها، أو معظمها، هم الذي وقعوا فيما وقعوا فيه من الشرك بالله؛ لجهلهم بالله، وعدم علمهم بالله، وأنه لم يقم بقلوبهم حقائق الأسماء والصفات، بل إذا عبدوا، وعدلوا غير الله بالله،

وأشركوا بالله وصدوا عن سبيله.

فالمعطلون لأسماء الله وصفاته هم من أشباه فرعون وأمثاله الذين أنكروا ذات الرب ﷻ، بلغ بهم التعطيل إلى أن أنكروا الذات العلية.

والمعطلون لأسماء الله وصفاته من المنتسبين إلى هذه الأمة، عندما يتأمل المسلم طرقهم، وضلالتهم يرى أنهم في شك من ربهم ﷻ؛ لأنهم لم يؤمنوا بأسمائه وصفاته، أنكروا أسماءه، وأنكروا صفاته، وجحدوها زاعمين أنهم ينزهون الله بزعمهم الباطل، فعطلوا الله عن كل اسم، وكل صفة، وجعلوا الله شبيهًا بالمعدومات - تعالى الله عن ما يقولون علوًا كبيرًا -.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، فآمنوا بأسماء الله وصفاته الإيمان الحقيقي، معتقدين حقيقتها على ما يليق بالله ﷻ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج: ٢٤].

إن المتأمل في أسماء الله وصفاته التأمل الصحيح - كما أشار الشيخ إليه -يهديه إلى كل خير، ويقربه إلى كل خير، فإذا ذكر علم الله، واطلاعه عليه، أداه ذلك إلى الخوف من الله، إذا ذكر رحمة الله، وسعة فضله، دعاه إلى التعلق بالله وقوة الرجاء بالله إلى كل صفة، وكل اسم، وما اشتق منه من صفة عندما يلقي المؤمن التأمل الصحيح فيها، يقوي إيمانه ويقينه ويزيده إيمانًا، وهدى، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، فآيات القرآن المشتملة على الأسماء والصفات تزيد على الإيمان إيمانًا، ويقينًا، فتقر أعينهم بالله، ويرضون بالله، وتزداد القلوب محبة، وتعلقًا بالله، واطمئنانًا

إلى ذكره، وانقيادًا لأداء ما افترضه عليه من عمل، وقوة الرجاء، واليقين في لقاء الله؛ ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥].

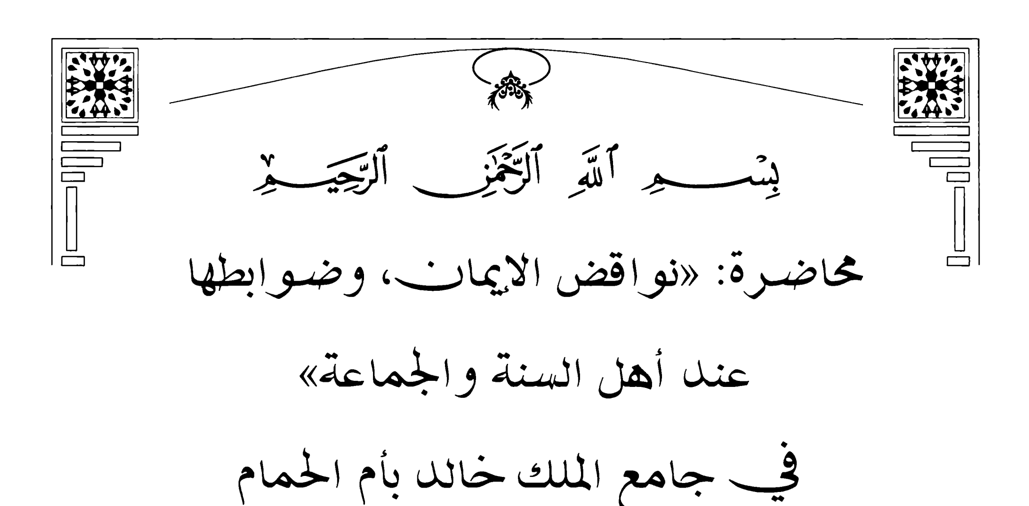
والذين أنكروا الأسماء والصفات عاشوا في دنياهم في حيرة، واضطراب، وصدوا عن السبيل؛ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فكذبوا بآيات الله، وغفلوا عنها، وأعرضوا عنها، فامتلأت قلوبهم ظلمة، وحيرة، وشكًا، واضطرابًا؛ أما أهل الإيمان الذين آمنوا بأسماء الله وصفاته، وتدبروها حق التدبر، فامتلأت قلوبهم يقينًا، وإيمانًا، فعرفوا الله على الحقيقة وعاملوه ﷻ كما يليق به من الجلال، والتعظيم، والخوف منه والطمع فيما عنده من الفضل العظيم؛ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

فالحقيقة أن جنس هذه المحاضرة مما ينبغي أن يُذكر الناس بها، ومما ينبغي أن تعاد إلى الأسماع، ولعل الشيخ - وفقه الله - يتحفنا ما بين آونة، وأخرى بمثل هذا الحديث الشيق، الذي يصل القلوب بالله، ويجعل بين العباد وبين ربهم صلة قوية بمعرفتهم بحقيقة هذه الأسماء والصفات.

فإن هذه المحاضرة التي سمعناها من المحاضرات القيمة النافعة، التي كل مسلم بحاجة إلى أن يستمعها، ويعيد النظر فيها، ويكررها مرارًا؛ ليعلم حقيقة هذا الإيمان، حقيقة هذا العلم، الذي طالما غفل الناس عنه،

واشتغلوا بأمور لا تمت لهذا العلم بصلة، كالقيل والقال، وكثرة الأحاديث، والمقالات التي لا تكون مرتبطة بهذا العلم، مما أضعف الإيمان في القلوب.

فاشتغال الناس بهذا العلم، وتكراره على الأسماع مما يرجى منه قوة الإيمان، واليقين. فجزى الله الشيخ عن ما تحدث، وقال خيرًا، وجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول، فيتبعون أحسنه، وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا مزيدًا.



محاضرة: «نواقض الإيمان، وضوابطها عند أهل السنة والجماعة»

في جامع الملك خالد بأم الحمام

الحمد لله رب العالمين، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأثني على الله الخير كله على ما أنعم علينا بالإسلام، وعلى ما أنعم بالإيمان، ونسأله أن يثبتنا على الإيمان، وأن يتوفانا وهو راض عنا، اللهم نعوذ بك من خزي الدنيا، وعذاب الآخرة، اللهم اجعل محبتنا فيك، وعملنا لك، وفكرنا فيك، وتوسلنا إلى مرضاتك لا إلى مرضاة خلقك، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله، ورسوله، وصفيه، وخليله، صلى الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، أما بعد؛ فموضوع هذه المحاضرة «**نواقض الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وضوابط ذلك**»، وهذا الموضوع مهم؛ لأن الإيمان هو أغلى وأنفس ما يوصف به الإنسان، فإنما يشرف الإنسان بوصفه بالإيمان، وإنما يكون مهينًا إذا سلب عنه وصف الإيمان، مهينًا عند الله ﷻ، وعند خلقه، فاسم الإيمان اسم شرعي عظيم الوصف به لأحدٍ من الخلق، إنما هو إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ ليس إلينا أن نصف أحدًا بالإيمان إلا إذا كان قد وصفه الله ﷻ به، ووصفه به رسوله ﷺ؛ إما من جهة

التعيين، وإما من جهة الصفات، وتحقق الشروط، وكذلك نقض الإيمان ليس إلينا، الذي هو التكفير، والحكم بأن إيمان فلان انتقض، إنما هو حكم الله، وحكم رسوله ﷺ، كما أجمع على ذلك أهل العلم، ونص عليه شيخ الإسلام، وابن القيم في نونيته، وكثيرون من أهل العلم حكوا الإجماع على أن الحكم بالإيمان، أو سلب اسم الإيمان، إنما هو إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ؛ لأنه مبلغ عن الله، فهذه هي القاعدة العظيمة في هذا البحث المهم، وهي أن اسم الإيمان، واسم الكفر إنما هما بالسمع بالنص بالنقل من الكتاب والسنة، فيمن يوصف باسم الإيمان، أو من يسلب عنه اسم الإيمان، وليس إلى اجتهادٍ، أو رأي، أو عقل؛ ولهذا لا يجوز لأحدٍ أن يقدم على سلب الإيمان ممن صح دخوله فيه إلا بنص شرعي، أو إجماع، ونعني بالإجماع: ما أجمع عليه أهل الحق المنتسبون للسنة، الذين هم أهل السنة والجماعة؛ أما من خالف بأنواع المخالفات، فهؤلاء لايعتبر قولهم في الإجماع في نواقض الإيمان؛ كأصحاب الفرق الضالة من الخوارج، والمعتزلة، والمرجئة، وكعباد القبور، وعلماء المشركين، وأشباه هؤلاء.

إذا تقرر ذلك، فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة هو قول اللسان، واعتقاد الجنان، والعمل بالجوارح والأركان، يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بطاعة الشيطان[(١)]. هذا في الاصطلاح، ونقول في الاصطلاح؛ لأنهم

(١) انظر: العقيدة للإمام أحمد (ص١١٧)، والإيمان لابن منده (١/ ٣٤١)، واعتقاد أهل السنة للالكائي (٤/ ٨٤٩)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٨٤)، ومؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (ص١١).

خالفوا إذ وضعوا هذا التعريف للإيمان، خالفوا أهل الفرق الذين لكل طائفة منهم مخالفة في بعض ذلك، فمنهم من اكتفى بالقول، ومنهم من اكتفى بالاعتقاد، ومنهم. . . ومنهم. . إلى آخر ذلك.

أما في اللغة: فالإيمان هو التصديق الجازم الذي لا ريب فيه(١).

فالإيمان ليس هو التصديق كما يقوله كثيرون ممن لم يفهموا اللغة، وإنما الإيمان تصديق جازم لا ريب فيه. إذا كان التصديق جازمًا لا تردد فيه صار إيمانًا، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، فجمع أولئك في قولهم بين نفي الإيمان لهم، وأنهم صادقون، يعني: أنهم لن يصلوا من أبيهم بأن لا يكون في قلبه ريب، ولا تردد في تصديقهم، فلن يصل إلى الإيمان، ولو صدقهم ظاهر، فهو في ريب، وشك من أمرهم باطنًا؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٨٣]. والتصديق - أيضًا - في اللغة؛ إما أن يكون تصديقًا لخبر، وإما أن يكون تصديقًا لإنشاء، والإنشاء هو الأمر، والنهي، فتصديق الأخبار باعتقادها، وتصديق الأوامر، والنواهي بامتثال الأمر، وبالابتعاد عن النهي، قال ﷻ - في سورة الصافات -، لما ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وأنه رأى الرؤيا في ذبح ولده، وقال لولده: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢] ورؤيا الأنبياء حق، والذبح هنا أمر صار امتثال الأمر بالفعل هو التصديق، حتى في اللغة وفي الشرع - أيضًا -؛ ولهذا قال ﷻ بعدها: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٥]، فلم

---

(١) انظر: لسان العرب (١٣/ ٢١)، ومقاييس اللغة (١/ ١٣٣)، ومختار الصحاح (ص١١).

يُسَمِّه مصدقًا بالرؤيا إلا لما أسلما جميعًا، وتل إبراهيم عليه السلام ابنه للجبين، فلما ابتدأ في الفعل صار مصدقًا للرؤيا؛ لأن الرؤيا فيها امتثال لأمرٍ، وذلك هو ذبح الولد.

فالإيمان في اللغة: هو التصديق الجازم الذي لا ريب فيه، وفي القرآن يأتي الإيمان تارة معديًا بالباء، وتارة معديًا باللام، يعدى بالباء كقول الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، (آمن ب)، هذه متعدية بالباء؛ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا﴾ [البقرة: ٤١]، والآيات في هذا كثيرة، وتارة يعدى الإيمان باللام، كقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكقوله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، قال العلماء: الفرق بين هذا، وهذا أن الغالب فيما عدي باللام أن يكون هو المعنى اللغوي، وهو التصديق الذي لا ريب فيه، ولا تردد؛ وأما إذا عدي بالباء، فيراد به المعنى الشرعي، وهو ما يكون قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

إذا تبين ذلك، فالإيمان قول، وعمل، قول القلب وهو: اعتقاده، وقول اللسان وهو: شهادته بأن لا إله إلا الله، وما يجب عليه أن يشهد به بلسانه، والعمل عمل الجوارح، وعمل القلب من أنواع أعمال القلوب؛ ولهذا قال كثير من أهل العلم: الإيمان قول، وعمل.

وقالت طائفة: الإيمان قول، وعمل، واعتقاد. وهذا وهذا سواء؛ لأنه بالتفصيل يكون الإيمان قولًا، وعملًا، واعتقادًا، وبالإجمال يكون قولًا وعملًا، والقول والعمل يرجع كل واحد منهما إلى القلب، وإلى غيره؛ إما اللسان في القول أو العمل، أو الجوارح في العمل.

الإيمان عند أهل السنة والجماعة له شعب -أيضًا-، وهذه الشعب كثيرة هي بضع وستون شعبة، أو بضع وسبعون شعبة؛ كما جاء في الحديث المعروف، والراجح أنها بضع وستون شعبة؛ لأن الحديث بذلك محفوظ، المقصود أنه شعب، وهذه الشعب منها ما هو ركن، ومنها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب؛ كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عن الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ من الْإِيمَانِ**»[1].

قال العلماء: جمع ﷺ في هذا الحديث الأنواع الثلاثة للإيمان، فذكر القول، وأعلى القول هو: لا إله إلا الله، وذكر العمل، وأدنى العمل إماطة الأذى عن الطريق، وذكر عمل القلب ألا وهو الحياء. فذكر جنسًا للأقوال، وذكر جنسًا للأعمال القلبية، وذكر جنسًا لأعمال الجوارح، وهذا منه الركن وهو الشهادة، ومنه الواجب، وهو الحياء، ومنه المستحب وهو إماطة الأذى عن الطريق، فنبه ﷺ بذلك إلى أنواع شعب الإيمان، فالإيمان له شعب، وإذا كان كذلك فما يقابله وهو الكفر له شعب - أيضًا -، فليس كل آت بشعبة من شعب الإيمان مؤمنًا، كما أنه ليس كل من فعل شعبة من شعب الكفر كافرًا، فمثلًا: من وصل الرحم لا يكون مؤمنًا بصلته للرحم، حتى يأتي بأركان الإيمان، كذلك من طعن في النسب، فهذا من شعب الكفر، النياحة على الميت من شعب الكفر، وليس كل من قامت به خصلة، أو شعبة من شعب الكفر يكون كافرًا، أنا أذكر هنا قواعد عامة في ذلك، حتى تكون ممهدة للدخول في هذا البحث المهم جدًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أيضًا من قواعد أهل السنة في هذا الباب: أن الإيمان يتبعض، ليس الإيمان وحدة واحدة؛ إما أن يأتي جميعًا، وإما أن يزول جميعًا، هذا إنما هو عند الخوارج، والمعتزلة؛ أما أهل السنة والجماعة، فعندهم الإيمان يتبعض، وبالتالي يكون في المرء خصال إيمان، ويكون فيه خصال نفاق، وخصال كفر، فيجتمع في حق المعين الفاسق خصال إيمان، وخصال كفر، أو خصال نفاق، ولا يمتنع ذلك عند أهل السنة والجماعة؛ ولهذا يدخل المرء في الإسلام في الإيمان بكلمة عظيمة، وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وإذا دخل في الإيمان بهذه الكلمة العظيمة، فقد ثبت له عند أهل السنة والجماعة عقد الإيمان، وهذا العقد الذي حصل له لا ينحل إلا بأمر واضح قوي بَيِّن في مثل وضوح، وبيان ما أدخله في الإيمان، يعني: أنه دخل في الإيمان بهذه الكلمة العظيمة، فلا يخرج من الإيمان بالشك، ولا يخرج من الإيمان بالاحتمال، بل لا بد من شيء واضح بين حتى ينتقض عقد الإيمان في حقه، ويصبح خارجًا عن الإيمان كافرًا بالله، ورسوله ﷺ. موضوع المحاضرة: (نواقض الإيمان عند أهل السنة والجماعة) نعني بأهل السنة والجماعة: أهل الحديث وأهل الأثر.

وأهل السنة يعني: الذين تابعوا سنة النبي ﷺ، ولم يفرقوا بين متواترها، وبين آحادها، بل جعلوا المتواتر، والآحاد حجة في العقيدة، وكذلك حجة في العمليات، فصاروا أهل السنة لمتابعتهم لطريقة المصطفى ﷺ، وسنته، ولمتابعتهم لهدي الصحابة الذين هم أولى الناس بسنة المصطفى ﷺ؛ أما وصفهم بأنهم الجماعة فهذا لأجل أنه ورد في الحديث المعروف أن النبي ﷺ - حديث معاوية رضي الله عنه وغيره - قال ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى**

وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: الْجَمَاعَةُ»[١]، وهذا الوصف الجماعة جعل مقابلًا لافتراق الفرق كلها عن السنة؛ فإذًا: يكون على هذا وصف الجماعة مقابلًا بفرق افترقت عن السنة، فيكون إذًا مجموعة للالتزام بالسنة، والابتعاد عن البدع.

ولهذا قال العلماء: الجماعة ما وافق الحق، وإن كنت وحدك. وقالوا: الجماعة ما كان عليه الأمر الأول. وقالت طائفة: الجماعة ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، ومن تبعهم. وهذا راجع إلى معنى الاجتماع في الدين، والاجتماع والجماعة تقابل بالفُرقة، يقابل الجماعة الفُرقة، يقال: اجتماع وافتراق، وجماعة وفرقة. والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال: «**الْجَمَاعَةُ رَحمةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»[٢]، فقابل بين الجماعة والفرقة، والافتراق يكون في

---

(١) هذا حديث الافتراق المشهور، وهو حديث حسن، وله طرق، وورد عن عدد من الصحابة بنحو هذا اللفظ، منهم: معاوية رضي الله عنه عند أبي داود في السنن (٤٥٩٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٣٧٧). وعوف بن مالك رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٢)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠). وأنس رضي الله عنه عند ابن ماجه (٣٩٩٣)، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٥)، وأبي يعلى في مسنده (٧/ ١٥٥). وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (ح ٢٠٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند (٤/ ٢٧٨)، والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٤)، وابن أبي الدنيا في كتابه الشكر (ص٢٥) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه. وقال المنذري: (إسناده لا بأس به). انظر: صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٧٣).

الدين ويكون - أيضًا - في الأبدان؛ لهذا جاء في آيات ذكر الافتراق في الدين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، والآيات في هذا كثيرة، فذكر الافتراق عن أصل الدين؛ كما قال - في سورة الشورى -: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] أي: لا ينزع كل واحد إلى شيء من الدين، ويذهب إليه ويترك البقية، ويكون مبتدعًا يأتي بأشياء جديدة، فهذا افتراق وتفرع عن أصل الدين. هذا نوع فيكون ما يقابل هذا الافتراق من اسم الجماعة هو أن يكون مجتمعًا على ما كان عليه الأمر الأول، لا يأخذ بقول فرقة من الفرق. وهنا قاعدة عظيمة في معرفة ما به يكون الافتراق، وتستدل به على الافتراق: أن الافتراق في تاريخ المسلمين إنما يحصل بالفتن، إذا حصلت فتنة، إذا حصل هناك اضطراب في حياة المسلمين، يحصل افتراق.
بدأ من مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم مقتل علي رضي الله عنه... إلى آخره، فتزداد الفرقة ويزداد الاختلاف بحدوث أمر عظيم في الأمة، فمن أسباب حدوث الفرقة في الدين، حدوث أمر عظيم في الأمة، فمن أراد أن يكون على الجماعة، ولا يأخذ بالفرقة، فالقاعدة التي قررها أهل السنة في حقه: (أن ينظر إلى ما كان عليه الأمر قبل حدوث الفتنة). ففي أي زمن تحدث فتنة، فتنظر فيما كان عليه الأمر قبل حدوث الفتنة؛ لأن الفتنة بسببها يحدث افتراق، فمن استقام على الأمر الأول قبل حدوث فتنة الخوارج، كان على الأمر العتيق، وعلى الجماعة، من استقام على الأمر الأول قبل مقتل علي، فإنه على الأمر العتيق، من استقام على الأمر الأول قبل وقعة الحرة فكذلك، قبل ذات الجماجم فكذلك، وهكذا في أمور شتى، قبل فتنة القول بخلق القرآن، وهكذا.

فإذًا : إذا اشتبه على أهل الإيمان على من يتابع أهل السنة والجماعة، إذا اشتبه عليهم أمر من الأمور، فعليهم بما كانت عليه الجماعة قبل حدوث الفتنة. وهذا أمر عظيم، وقاعدة مهمة تعصم من الضلال في الرأي، والضلال في المذهب؛ لأن الفتنة تتنوع فيها الآراء، فتنظر ما كان عليه الناس قبل حدوث الفتنة؛ لأنه هو الأمر الأصيل، هو المجمع عليه، هو المتفق عليه، وتلغي ما عداه؛ لتكون على الجماعة لا على الافتراق.

الافتراق - أيضًا - يكون بالأبدان، فإن النبي ﷺ نهى عن مفارقة الأئمة، والأمراء بالبدن، فقال: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»(١)، نهى عن ترك طاعة الإمام، وعن مفارقته، وصار ذلك من أنواع ترك الجماعة، فصار إذًا الاجتماع معناه: أن يكون مجتمعًا مع جماعة المسلمين بالأبدان؛ ولهذا قال العلماء، علماء أهل السنة والجماعة: الفرقة تكون في الأديان، وفي الأبدان، ويقابلها الجماعة تكون في الأديان، يعني: أنواع الدين، دين الإسلام، وفي الأبدان أيضًا، فأهل السنة والجماعة هم الذين لازموا طريقة المصطفى ﷺ وطريقة أصحابه في الدين، وفي الولاية.

والجماعة هم الذين اجتمعوا على الدين، ولم يتفرقوا فيه، وأيضًا اجتمعوا بأبدانهم، ولم يتفرقوا. هذه سبب تسمية أهل السنة والجماعة بذلك، وهذا الوصف يختصون به إذا ما من فرقة من الفرق ظهرت إلا وعندها خلاف في شيء من ذلك، فتحقق أن أولى الناس بهذا الوصف أهل السنة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

والجماعة، هم الذين امتثلوا ما ذكرت سابقا الصفات من الاجتماع في الدين، والاجتماع في الأبدان، ولم يفرقوا دينهم، ويكونوا شيعًا[(١)].
هذه الكلمة الثانية في عنوان المحاضرة.

والكلمة الثالثة النواقض، نواقض الإيمان، عند أهل السنة والجماعة، وضوابط ذلك، النواقض ما معناها؟ النواقض جمع ناقض، والناقض هو ما يؤول بالعقدة إلى الحل؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]. فالنقض هو ما يعود على العقد بالإبطال، وبالنكث[(٢)].

فإذًا: الإيمان - كما ذكرنا - عقدة عظيمة في القلب؛ ولهذا جاء لفظ الاعتقاد من هذه العقدة، ونقضه هو حل تلك العقدة.

فإذًا: نواقض الإيمان معناها المكفرات، معناها ما يعود على ذلك الإيمان بالإبطال. هذه النواقض كيف نفهمها؟ الآن تسلسلت معك، أخرت النواقض؛ لأن الحديث فيها، فالنواقض، نواقض الإيمان كيف تفهمها؟ لا يمكن أن تفهم نواقض الإيمان إلا بفهمك للإيمان؛ لأن الناقض حل، وحل الشيء لا يمكن أن يكون إلا بتصور ذلك الشيء، فمن لم يفهم الإيمان تمامًا عند أهل السنة والجماعة، فإن حديثه في النواقض، أو إن حكمه بالنقض يكون باطلًا؛ لأن النقض يكون بعد عقد الإيمان، فإذا لم يحكم فهم الكلام على الإيمان، فإن كلامه على النقض يكون أولى بالبعد عن

---

(١) انظر: كتاب العزلة للإمام الخطابي رحمه الله (ص٥، ٦).
(٢) انظر: العين (٥/ ٥٠)، وتهذيب اللغة (٨/ ٢٦٩)، ومقاييس اللغة (٥/ ٤٧١).

الصواب؛ لأن الأصل الذي يتكلم فيه بالنقض لم يستوعبه ذلك الحاكم، ذلك المتحدث، ذلك الكاتب.

فلهذا يحصل الخلل عند كثيرين، ممن تكلموا، أو كتبوا، سواء في الجرائد، أو المجلات، أو ممن تكلم في الناس، أو بين الشباب على اختلافهم، يحصل خلط كثير في هذه المسألة، وهذا الخلط، والغلط راجع إلى عدم فهم الإيمان، هذا السبب الأول عند أهل السنة والجماعة بتفصيله.

السبب الثاني: أن يظن أن الحكم بالنقض إنما هو راجع إلى السلب دون فقه، ونقض الإيمان هذا مبحث فقهي، يبحثه الفقهاء في باب مختص بذلك، هو باب حكم المرتد، ويقولون في أوله: باب حكم المرتد، وهو من كفر بعد إسلامه بقول، أو اعتقاد، أو شك، أو فعل[1]. هذه عبارتهم في أول الباب.

السبب الثالث في الخلط في مسألة النواقض: أن يقرأ كلام العلماء دون معرفة بمعاني الكلام، العلم له لغة، وانتبه لهذه القاعدة العلم له لغة، ولغة العلم محكمة، يعني: إذا قرأت في الفقه، فإنما تقرأ الفقه بلغة الفقهاء، إذا قرأت الفقه بلغة الصحفيين ما فهمت الفقه، وربما خلطت فيه، كذلك العقيدة إذا قرأت العقيدة بلغة الفقه، ربما حصل عندك خلل في الفهم، كذلك التكفير، ونقض الإيمان إذا قرأته، إذا قرأه القارئ، وأخذ عن الكتب دون معرفة بالاصطلاحات معاني الكلمات التي تستعمل في هذا الباب، فإنه يضل، من أمثلة ذلك مثلًا: لفظ الاستحلال، لفظ الإباء، الاستكبار، الامتناع، الالتزام، الإعراض، هذه ألفاظ يستعملونها، ما

---

(١) انظر: الإنصاف (١٠/ ٢٢٦)، والإقناع (٤/ ٢٩٧)، والروض المربع (ص ٦٨١).

ضابط كل واحدة من هذا الألفاظ؟ هو قد يأتي إلى لفظ الإعراض، ويفسره بفهمه، التولي ومظاهرة المشركين، ما معاني هذه الكلمات؟ العلماء حين كتبوا في ذلك، وبينوه لطالب العلم؛ لأن هذا حكم، والحكم غير التعليم، الحكم إنما هو لأهل العلم.

وهذا نخلص منه إلى السبب الرابع: للغلط في الخوض في هذه المسائل: هو أن من خاض فيها رام فهمًا لأساس المسألة، وظن أن من أحكم الأساس، فإنه يحكم الحكم، يعني: من فهم الإيمان يكون مؤهلًا لأن يحكم بنقض الإيمان، والكفر، وهذا غير صحيح؛ لأن الحكم غير الاعتقاد، حكم على معين بأنه كافر، بأنه غير مؤمن، بأنه فاسق، بأنه مبتدع، هذا له ضوابط، له شروط، له موانع، وهذه يعلمها أهل العلم. يأتي من يأتي، ويطبق بعض تلك الألفاظ على واقع معين، أو على أشخاص أو على. . . إلى آخره، فيكون خطؤه لا من جهة قصده السيئ، ولكن من جهة أنه جهل وسار في هذا الأمر في جهالة، ولم يضبط المسألة علميًا. هذا الكلام الذي نقوله له تفصيلات علمية أعمق مما أذكره لكم، لكن نذكر بالمستوى المتوسط الذي يناسب متوسط الحاضرين.

إذا تبين ذلك فنعود إلى موضوعنا، وهذه القواعد - التي ذكرت لك - ليست كلها مقدمة، وإنما هي تأصيل لفهم هذا الموضوع بما يعصم - إن شاء الله - من الضلال فيه، أو الخطأ فيه، لمن أراد سلامة نفسه. نواقض الإيمان ذكرنا أن الإيمان قول، وعمل، واعتقاد، وإذا كان كذلك عند أهل السنة والجماعة، فإن نواقضه تكون بالقول، والعمل، والاعتقاد؛ ولهذا قال الفقهاء - في الحكم يعني في باب حكم المرتد -: (المرتد هو من يكفر بعد

إسلامه بقولٍ)؛ لأنه يناقض عقد الإيمان القولي، (أو اعتقاد)؛ لأنه يناقض عقيدة الإيمان، (أو شك)؛ لأن الشك ينافي التصديق الجازم الذي لا ريب فيه، رجعوا إلى معناه في اللغة، أو عمل؛ لأن العمل يناقض العمل، فتحصل أن أهل السنة والجماعة عندهم نقض الإيمان يكون بالأقوال، وبالأعمال، وبالاعتقادات، ويكون - أيضًا - بالشك؛ لأن الشك نقض لمعنى الإيمان، الذي هو التصديق الذي لا ريب فيه، فإذًا: عندنا نواقض الإيمان من حيث التقسيم العام أربعة:

الأول: ناقض يرجع إلى تعريف الإيمان في اللغة، وهو الشك؛ لأن الإيمان في اللغة التصديق الذي لا ريب فيه، ولا تردد، فإذا شك راب، صار ذا ريب، أو ذا تردد فليس بمؤمن، والشك له ضابط، شك في أي شيء؟ هذه لها ضوابط ربما تأتي.

الثاني: أو دخل في الإيمان بقول واضح بين وهو الشهادة، فكذلك يخرج من الإيمان بقول بين واضح في نقضه لعقد الإيمان، يأتينا - إن شاء الله تعالى - أمثلة لذلك.

الثالث: أو عمل العمل الذي ينقض به الإيمان ما يعود على أصل الإيمان بالإبطال، من جهة أن العمل قد يكون طاعنًا في أصل تصديقه، أو أن يكون العمل الظاهر مخالفًا، لم يجب عليه من العمل الظاهر الذي فيه تعظيم الرب ﷻ، وإفراده بألوهيته، وأشباه ذلك. وسيأتي المثال.

الرابع: الاعتقاد، والاعتقاد يعني: الاعتقاد القلبي، ويكون هناك كفر باعتقادات قلبية، مثل: الإباء، والإعراض، والاستحلال، وأشباه ذلك،

مما سيأتي تفصيله.

إذا تقرر هذا، فإذًا: نواقض الإيمان ترجع إلى نواقض قولية، أو نواقض عملية، أو نواقض اعتقادية، أو شك.

الإيمان: إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله ﷻ، الإيمان بالله ثلاثة أقسام:

القسم الأول: إيمان بتوحد الله في ربوبيته، وهو توحيد الربوبية.

القسم الثاني: إيمان بتوحد الله في ألوهيته، وهو توحيد الألوهية.

القسم الثالث: إيمان بتوحد الله في أسمائه وصفاته، وهو توحيد الأسماء والصفات.

إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله ﷻ.

نأتي الآن إلى تقسيم ما يكون به نقض الإيمان على هذه الأركان.

الناقض الأول من النواقض: نواقض قولية، النواقض القولية أن ينقض بقوله توحيد ربوبية الله، توحيده لله في ربوبيته هو حين قال: لا إله إلا الله، هذا برهان أنه وحد الله في إلهيته، ويقول العلماء: ومن وحد الله في إلهيته، فذلك متضمن لتوحيده لربه في ربوبيته، يعني: من اعتقد، وشهد، وأخبر، وأعلم أن الله هو المستحق للعبادة وحده دونما سواه، فمعناه أنه مقر بأنه هو الرب وحده، يعني: المتصرف في هذا الملكوت، وهو خالقه والمدبر له وحده دونما سواه. فإذًا: الناقض القولي لتوحيد الربوبية ما مثاله؟ مثاله: أن

ينكر وجود الله ﷻ يقول: لا، هذه الأشياء لا رب لها، لا خالق لها، مثل: قول الشيوعيين، والملاحدة، سابقًا كان إنكار الربوبية بنفي وجود إله، لا ينسب إلى طائفة، كما قال الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل): وأما نفاة وجود الله، فهولاء شرذمة لا يصح أن تنسب إليهم مقالة، ولا أن يعزى إليهم مذهب. ولما جاء الإلحاد الآن - يعني في هذا القرن المتأخر - صار القول بنفي وجود الله ﷻ قولًا كثيرًا في طائفة، ومذهب كبير.

فإذًا: الناقض القولي: إذا قال: إنه لا وجود لله ﷻ. هذا انتهى من الإيمان، خرج بهذا القول؛ لأنه نفى إيمانه بربوبية الله، ومعنى ذلك: أنه نفى إيمانه بالإلهية، وبالأسماء والصفات، وكل ما أخبر الله ﷻ به، فهذا بلاشك، وهذا واضح جدًا.

كذلك من أنواع نقض الإيمان بالقول في الربوبية: قول الفلاسفة اليونان، أو الفلاسفة الإسلاميين، يعني: المنسوبين إلى أهل الإسلام: بأن هذا العالم قديم، الله ﷻ موجود، ولكنه إنما يختص بالكليات، وهذا العالم الذي تراه، هذا الملكوت بعينه قديم أزلي، لا بداية له، يعني: أنه موجود بعلة سابقة لا بخلق من الله ﷻ واختيار. وهذا -أيضًا- ناقض قولي؛ ولهذا حكم العلماء على الفلاسفة بكفرهم من ثلاث جهات، أحد هذه الجهات قولهم: إن هذا العالم بعينه قديم.

والجهة الثانية قولهم: بأن النبوة ملكة.

والجهة الثالثة: إنكارهم لمعاد الأبدان، وحصرهم المعاد في النفس،

في تفصيلات معروفة، هذا نوع مثال من نقض الإيمان بالأقوال.

كذلك من نقض الإيمان بالأقوال: الاستهزاء؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦] الاستهزاء بالقول، فهذا القول غير مختص بالربوبية، لكن من حيث جنس الأقوال هذا الاستهزاء نوع من الأقوال، التي يكون قائلها كافرًا، الاستهزاء بأحد أشياء فقط، استهزاء بالله، وبرسوله، وبكتابه في القرآن؛ ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ فيها بالله، بالقرآن، بالرسول؛ أما الاستهزاء بأهل الدين، فهذا له تفصيل آخر. نرجع إلى كلامنا الأول، النواقض القولية في الربوبية، ذكرنا أمثلة منها.

النوع الثاني: نواقض قولية في الإلهية، يعني: في استحقاق الله ﷻ العبادة وحده دونما سواه، مثل: دعاء غير الله ﷻ، الاستغاثة بغير الله ﷻ وهذا أمر واضح لديكم؛ لأن من دعا غير الله ﷻ من الأموات في طلب تفريج ضر، أو طلب جلب خير، يدعوه، ويرجوه، ويخافه، فإن هذا كفر مناقض لأصل الإيمان، ومنه الاستغاثة بغير الله ﷻ، فهذا ناقض قولي رجع على إيمانه بتوحيد الإلهية بالإبطال؛ لأنه حين قال: لا إله إلا الله. وأن الله واحد في إلهيته لا يستحق العبادة إلا هو، حين دعا غيره نقض قوله ذاك، بقول آخر، فهو دعا غير الله.

فإذًا: حين قلت: إن الله متوحد في الإلهية، فأنت دعوت غيره، فإذًا: بهذا القول نقض ذلك القول في الأسماء، والصفات كالذين ينكرون أسماء

الله ﷻ، وينكرون صفاته، ويقولون: إن الله ﷻ معطل عن الأسماء والصفات؛ كقول الجهمية، وأشباههم ممن ليس لهم تأويل أصلًا، ينكرون جميع الصفات، وكبعض غلاة الصوفية الذين يقولون بوحدة الوجود، وأشباه ذلك، المقصود التمثيل لا التفصيل.

إذا أتينا للملائكة: آمن بأن الله ﷻ له خلق جعلهم مسخرين لبعض ما يشاؤه الله ﷻ من أعمال، فكذب بالملائكة، قال: الملائكة غير موجودين، فهنا صار بقوله مكذبًا لوجود الملائكة، فرجع ذلك إلى إيمانه بالإبطال.

كذلك الرسول ﷺ، بأن يجحد رسالته، يعني يقول، يعني يتكلم بلسانه، ليس الجحد القلبي، يعني تكلم بلسانه: بأنه ليس رسولًا ﷺ، أو بأن النبوة كذا وكذا، أو نحو ذلك من الأقوال التي تعود على النبوة بالأبطال. فنقول: هذا ناقض قولي رجع للنبوة.

كذلك ناقض قولي يرجع إلى القرآن بالاستهزاء، وكذلك ناقض قولي يرجع للرسالة بالاستهزاء، وأشباه ذلك.

هناك من الناس، ومن أهل العلم من قال: لا بد في الكفر من شرح الصدر، لا ينتقض الإيمان إلا بأن ينشرح صدر ذلك للكفر، وهذا معناه أنه لا يكفر عندهم إلا المعاند، يعني: الذي يعلم الكفر، ويقول: أنا اختار الكفر، ولكن المستهزئ قال: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فهذا الاستهزاء يرجع على قول من قال: لا بد من شرح الصدر بالإبطال، والآية التي فيها شرح الصدر إنما هي في حال المكره؛ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]، فهي في حال المكره الذي يكره،

وينشرح صدره للكفر، فهي بعض أحوال الكفر ليست هي قاعدة الكفر؛ ولهذا هناك من يكفر، وينتقض إيمانه بالقول، أو بالعمل، أو بالاعتقاد، دون شرح من نفسه لصدره في اختيار الكفر على الإيمان، مثل: المعرض الذي يعرض عن دين الله، لا يتعلمه، ولا يعمل به، هناك دين، هناك رسالة، هناك كتاب، ابحث اسمع اسأل، يقول: هذا لكم، أنا ليس لي علاقة بهذه الأشياء، أنا أسير في حياتي أمضي زماني. وحسب هذا معرض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، يأتينا الكلام عليه، وهذا راجع إلى أصل إيمانه بالأبطال؛ لقوله ﷻ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]، وهو ليس ممن شرح بالكفر صدرًا. فإذًا: القوليات في نواقض الإيمان - كما ذكرنا لك - كثيرة، فعقد الإيمان إذا استقام، فلا ينقض إلا بقول في القوة بمثله، على قاعدة أن الناقض لا يكون إلا بنص، بعض العلماء يقول: هذا يكفر، وهذا يرتد بالاجتهاد، وعندنا عند علمائنا، وخاصة أئمة الدعوة - رحمهم الله تعالى - لا نقض في الإيمان إلا بنص من الكتاب، أو من السنة، أو بإجماع أهل العلم المعتبر؛ أما نقل الخلاف من أناس متأخرين، وأشباه ذلك، هذا ليس بذي بال عند من يعلم الإجماع، والخلاف، وكيف ينعقد الإجماع؟ وكيف يكون الخلاف معتبرًا، وغير معتبر؟

أيضًا: الناقض القولي في القدر، الناقض القولي في الإيمان باليوم الآخر، وأشباه ذلك.

هناك نواقض عملية - أيضًا -، ناقض عملي لتوحيد الإلهية، ناقض عملي لتوحيد الأسماء والصفات، الناقض العملي لا بد أن يكون مجمعًا عليه، وهذا المجمع عليه، يعني: عند أهل السنة قبل حدوث الخلاف فيه،

وإلا حتى دعوة غير الله يعني: من دعا وثنًا، من دعا ميتًا، هذه المتأخرون بعضهم خالف فيها، وبعضهم منتسب لأهل العلم، هؤلاء لا يراعى خلافهم؛ لأن الإجماع منعقد قبل وجود هذا الخلاف أصلًا، هنا النواقض العملية أصعب في التطبيق من النواقض القولية، ولكل منها ضوابط، لكن من أمثلتها مثلًا: ناقض عملي في توحيد الإلهية، مثل: الذبح لغير الله، والنذر لغير الله، وأشباه ذلك. ومن أمثلة الناقض العملي الذي يعود على الشهادة - شهادة بأن محمدًا رسول الله - بالإبطال، الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأن الحاكم بغير ما أنزل الله كافر؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا إذا استحل الحكم بغير ما أنزل الله، يعني: الحاكم القاضي الذي حكم، أو قال: إن الحكم بغير ما أنزل الله جائز، أو قال: إنه مسافر للحكم القانوني، أو أشباه ذلك، فإذا اعتقد ذلك، فإن تحكيمه بغير ما أنزل الله هذا ناقض من نواقض الإيمان، هل هو ناقض راجع للاعتقاد، أم هو ناقض راجع للعمل؟ لا، هو ناقض عملي؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وإنما الاعتقاد شرط في الناقض، وليس الاعتقاد هو الناقض، فنقول: الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر إذا استحل، يعني: بشرط الاستحلال؛ فإذًا: هنا الاعتقادات الاستحلال والمساواة. . . . إلى آخره، هذه شروط في كون العمل ناقضًا، ومعلوم أن شرط الشيء غير الشيء نفسه، الصلاة هذه عمل، وشروطها منها أشياء قلبية التي هي النية، هل نقول: إن الصلاة عبادة قلبية؟ لا يكون كذلك؛ ولهذا بعضهم يقول: الحكم بغير ما أنزل الله هذا راجع إلى الكفر الاعتقادي. ليس بصحيح، إنما هو كفر راجع إلى العمل، قد يكون

كفرًا أكبر؟ إذا كان مستحلًا، أو ما ذكرت من الشروط، هذا من حيث الحاكم.

أما من حيث المتحاكم، أما من حيث المغير لشريعة الله، المبدل لدين الله، فهذه لها تفاصيل يضيق المقام الآن عن بسطها؛ لأن مسألة الحكم بغير ما أنزل الله، هذه مسألة دخلها مع الأسف الشباب، وهي مسألة تردد العلماء، واختلفت فيها أقوالهم، يعني: من حيث ضابط كل ناقض كل مسألة، فعندنا مثلًا: في الحكم بغير ما أنزل الله، هناك حاكم بغير ما أنزل الله، هذه فيها آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وهذا فيمن؟ في الحاكم؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ أي: القاضي الذي يباشر الحكم، الحاكم نفسه، لكن المتحاكم هل يدخل في هذه؟ لا، المتحاكم شرط آخر جاء في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠]، لاحظ هذه المتحاكم يريد أن يتحاكم، فاشترط الإرادة، وهو القصد، وما فيها من الرضا، والرغبة . . . إلى آخره.

تأتي المسألة الثانية: المبدل للشريعة، العالم، أو الحاكم الذي يبدل شرع الله ﷻ، مثل ما قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد (باب من أطاع العلماء، والأمراء في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذهم أربابًا) هناك المشرع - هذه حالة - السان للقوانين، وهناك المطيع، المطيع لهذا المشرع، المشرع له حكم، المشرع كافر سواء استحل، أو ما استحل، المشرع الذي جعل نفسه مضاهيًا لله ﷻ في حق التشريع، ومن قوانين وضعية سنها، قوانين وضعية مناقضة لشرع الله ﷻ، فهذا كافر، لكن المطيع هذا له شرط آخر.

فإذًا: عندنا هناك حاكم، ومتحاكم، ومشرع، وعندنا مطيع للمشرع، هذه كل واحدة لها أحكامها، ولها ضوابطها، وأكثر من رأيت خاضوا في هذه المسألة، وهي كما يقال مسألة العصر، أكثر من خاضوا في هذه المسألة خاضوها بغير تفصيل، ولو درسوا كلام أئمة الدعوة في كتاب التوحيد، وشروحه، لو درسوا كان كافيًا بتقسيم هذه الحالة إلى خمسة، أو ستة أقسام، كل واحدة لها شرطها، ولها حكمها، ولها ضوابطها، وهذه تحتاج منا الحقيقة إلى محاضرة؛ لأن الكلام فيها كثر، ومؤلفات أتت وذهبت بدون تفصيل، يفصل في كل حالة من الحالات، ولولا ضيق المقام لدخلنا في هذا.

النواقض الاعتقادية، إن البحث في هذا الموضوع يتطلب - بدون مبالغة - يتطلب شهرًا يعني: دورة كاملة لمدة شهر في نواقض الإيمان، وضوابطها، يعني: هي سهلة واضحة، لكن كما قال علي رضي الله عنه قيل له: العلم كثر. وهذا يقول كذا وهذا يرد عليه بكذا، في وقت علي رضي الله عنه لما ظهرت الفرق وكذا وأصبح يناظر الخوارج، قالوا له: كثر العلم. فقال: العلم نقطة كثرها الجاهلون[١]. العلم في الأصل قليل وسهل، من الذي كثر العلم، وجعلنا نفصل ونرد ونقول كذا ونقول كذا؟ الجاهلون. ليس العلم في أصل الشريعة بهذه التفصيلات الواسعة، لكن كل من خالف نحتاج إلى أن نرد عليه، وهذا الرد قد يقتنع به أناس ولا يقتنع به أناس، فتتوسع المسألة فهذا يؤيد هذا، وهذا يفصل، وهذا . . . ، وهكذا كثر؛ أما أصل الشريعة، فهو سهل سهل للغاية؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. الشريعة أصلها سهل، يأتي أعرابي يسمع كلمتين ثم يعود إلى قومه منذرًا،

(١) انظر: تاج العروس (٢٠/ ١٥٣)، وسبل السلام (٤/ ١٧٨).

فهم الدين في عشرين يومًا، أسبوع مع النبي ﷺ. . إلى آخره، لكن كثرت الأقوال، وأصبح هناك ترجيحات وخلافات؛ إذًا: لا تنظر إلى كثرة الأقوال، الكلام في المسائل على أن المسألة مشكلة، لا، ولكن انظر إلى ما دل عليه النص، وما عليه أئمة أهل السنة والجماعة تنج بإذن الله ﷻ؛ لأن المخالفين كثير، الناس عندهم أفهام، وآراء. . . إلى آخره.

نواقض الإيمان الاعتقادية يعنى بها: ما يقوم بالقلب من الأعمال القلبية، أو من الاعتقادات القلبية التي تنقض الإيمان، مثل: التوكل على غير الله، هل التوكل على غير الله ظاهر؟ هو اعتقاد مثل: الاستعاذة القلبية بغير الله ﷻ يعني: اللجوء، والاعتصام. نعود للموضوع في نواقض الإيمان الاعتقادية، نواقض الإيمان الاعتقادية معناها، اعتقادات تطرأ على قلب المؤمن، بها ينتقض عقد الإيمان، ويعود، أو يصير مسلوبًا عنه اسم الإيمان كافرًا، كما ذكرت لك هناك أعمال للقلوب، وهناك اعتقادات محضة، يعني: الاعتقادات التي هي من النواقض، مثل: الإعراض، الإعراض في الظاهر عمل، وهو في الواقع ترك عمل، يعني: الواجب عليه أن يسعى في تعلم الدين والإيمان بالرسول ﷺ وامتثال أوامر الشريعة، ويبحث عن ذلك، ويطلبه، لكن هو ترك هذا العمل الواجب، فأعرض، هذا الإعراض في الظاهر عمل، ولكن هو في الحقيقة اعتقاد؛ يعتقد أن لا أحقية للقرآن بالاتباع، يعتقد كذا وكذا، فبالتالي ترك البحث، وترك طلب الحق، وترك موالاة الرسول ﷺ في الإيمان، والدين ونحو ذلك، وأعرض عنه، ذكر ابن القيم ضابطًا للإعراض، فقال ما حاصله: إن الإعراض هو أن لا يبالي أن يكون من أنصار الرسول، أو أن لا يكون من أنصار الرسول، أو أن يكون

باحثًا عن الحق، أو أن لا يكون باحثًا عن الحق، وأن يكون متبعًا للدين، أو أن لايكون متبعًا للدين، فرجع إذًا الإعراض إلى ما نسميه بلغتنا: عنده الأمور مثل بعض، يعني: أبحث عن الدين، أو ما أبحث، هذا - يعني - شيء ما له داع، معرض لا يهتم بأمر دينه ألبتة، فتجد لا عنده علم بالإسلام، ولا عنده علم بالرسالة، وليس من أهل الديانة أصلًا، لماذا؟ لأنه معرض عنه، وهذا هو الناقض الأخير الذي ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإمام رحمه الله في نواقض الإسلام العشرة، قال: (العاشر: الإعراض عن دين الله، لا يتعلمه، ولا يعمل به)[١]، ومعنى الإعراض عن دين الله: أن لا يبالي بالدين أصلًا، فلا يتعلم شيئًا من الدين، ولا يوالي فيه، ولا يعادي فيه، عنده هذا معرض، وهؤلاء لا يعلمون الحق؛ كما قال ﷻ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]. فجعل سبب عدم علمهم بالحق لا لخفاء الحق في نفسه، ولكن لأنهم معرضون عن الديانة، وكذلك قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، هذا الإعراض. من - أيضًا - النواقض الاعتقادية: الكِبْر، كحال إبليس أن يتكبر عن أصل الدين، مثل ما روي: **(أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه صَلَّى يَوْمًا، ثُمَّ ضَحِكَ فَسُئِلَ عَنْ ضَحِكِهِ فَقَالَ تَذَكَّرْتُ أَبَا طَالِبٍ حِينَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ وَرَآنِي أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِنَخْلَةَ فَقَالَ: مَا هَذَا الْفِعْلُ الَّذِي أَرَى؟ فَلَمَّا أَخْبَرْنَاهُ قَالَ: ذَا حَسَنٌ وَلَكِنْ لَا أَفْعَلُهُ أَبَدًا، لَا أُحِبُّ أَنْ تَعْلُوَنِي اسْتِي، فَتَذَكَّرْتُ الْآنَ قَوْلَهُ فَضَحِكْتُ)**[٢] هذا كبر قام في قلبه عن

---

(١) انظر: نواقض الإسلام لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله (ص٢).
(٢) انظر: الروض الأنف (٣/ ١٢)، والسيرة الحلبية (١/ ٣٨٥).

الاتباع، اتباع الرسول.

ولهذا صار الاعتقاد من أنواع التكفير به، أو نقض الإيمان به ما منه راجع إلى الكبر، أويسمى الإباء، والاستكبار، ومنه ما هو راجع إلى الإعراض. أيضًا، من أنواع نقض الإيمان الاعتقادي: الاستحلال، استحلال المحرم نقول: من استحل المحرمات كفر، هل هذا الاستحلال لأي محرم؟

الجواب: لا، بل هذا الاستحلال مضبوط بضابط وهو أن يكون أولًا، هذا المحرم مجمعًا على تحريمه، لم يخالف فيه أحد من الأمة؛ أما إذا كانت المسألة مما فيها خلاف بين الأمة، فمن ذهب إلى أحد القولين - ولو كان قولًا شاذًا - مستحلًا للعمل به، فإنه لا يكون كافرًا بذلك؛ لأنه لم يستحل مجمعًا عليه.

فإذًا: من استحل مجمعًا عليه، وهو ما يعبر عنه بعض العلماء بقولهم: من استحل معلومًا من الدين بالضرورة، معنى قولهم: معلومًا من الدين بالضرورة يعني: مما لا يحتاج الناس في إثباته إلى برهان، مثل: الصلاة، هل أحد يحتاج بيننا أن يقال: هات لي دليل على وجوب الصلاة، هات لي دليل على حرمة الخمر، هات لي دليل على حرمة الزنا؟ هذه من المعلومة من الدين بالضرورة، يعني: مما لا يحتاج فيه إلى استدلال، فهذا من استحل مجمعًا عليه - يعني: معلومًا من الدين بالضرورة - صار كافرًا، استحله بأي شيء بالعمل، أو استحله بالقلب؟ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والاستحلال إنما يكون بالقلب. استحلال المحرم إنما يكون بالقلب؛ أما من عمل عملًا ظاهره الاستحلال، فلا يكفر به إذا كان مجمعًا، يعني

مثل: من يشرب الخمر، ولا يعبأ بها، فهذا بالإجماع أنه ليس بكافر، لا يعبأ أبدًا بمن ينصحه في شرب الخمر، أو من ينصحه في الزنا، أو نحو ذلك، فهذا العمل لانستدل به على أنه كافر؛ لأنه لابد في استحلاله للمحرم أن يعتقد حله، استحلال يعني: اعتقد حله، وهذا راجع إلى معارضة كلام الله ﷻ، وتكذيبه لحكم الله بأن هذا محرم.

أيضًا: من ضوابط الاستحلال: أن يكون هذا الفعل مما قامت عليه الأدلة من الكتاب والسنة، وشاعت ليست خفية ما يعلمها إلا بعض الناس، فلا تكفير باستحلال عمل إنما يعلم حكمه طائفة من أهل العلم، هذا راجع إلى كون الاستحلال مقيدًا بما أجمع عليه بما هو معلوم من الدين بالضرورة، فمثلًا: العلماء لم يكفروا طائفة من الفقهاء ممن يبيحون النبيذ الذي يسكر كثيره، فيه أدلة كثيرة، وهذا النبيذ الذي يبيحه طائفة من أهل الرأي يستحلونه ويشربونه، ويعتقدونه حلالًا، لم يحكم أحد من أهل السنة علي تلك الطائفة من الفقهاء بأنهم كفار؛ لأنهم استحلوا محرمًا الذي هو النبيذ الذي يسكر كثيره، تجد في التراجم: فلان أتيناه فوجدنا عقله مختلفًا، يعني: من شرب النبيذ أكثر منها وسكر، يرى أن ذلك حلال، يرى أن ذلك حلال، وجائز، ويستحل، هذا من المسائل المختلف فيها، النبيذ ليس مجمعًا عليه، فلهذا لا تكفير به؛ لأنه قول لطائفة من الفقهاء، ولو كان قولًا ضعيفًا، لكن لا تكفير إلا بمجمع عليه، مثلًا: ابن عباس رضي الله عنهما يرى - ويقال أنه رجع في آخر عمره - أنه لا ربا إلا في النسيئة، فمن رابا ربا الفضل، فهذا جائز عند ابن عباس رضي الله عنهما، فمن ذهب إلى هذا الرأي، وأجاز ربا الفضل، وقال: أنا اعتقد أن ربا الفضل حلال، فلا تكفير له؛ لأنه ليس هذا هو الربا المجمع

على تحريمه، فهناك معاصٍ يكون منها ما هو مجمع على تحريمها، وبعض صورها غير مجمع على تحريمها، مثل: الربا ليس كل صور الربا قد أجمع العلماء على تحريمها، الخمر ليس كل أحوال الخمر قد أجمع العلماء على تحريمها، الزنا كل أحواله قد أجمع العلماء على تحريمها، وهكذا.
فإذًا: ننتبه إلى أن الاستحلال الذي هو ناقض من النواقض الاعتقادية له ضوابطه، وله شروطه، والاستحلال إنما يكون في القلب. هناك شيء يتصل بالاستحلال الظاهري، قول النبي ﷺ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ**»(١)، «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ**»، بعض العلماء نظر، وهنا قال: وصفهم النبي ﷺ بأنهم استحلوه، ومع ذلك وصفهم بأنهم من أمته.

والمقصود بأنهم من أمته، يعني: أمة الإجابة؛ لأنه هو ميدان الكلام «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي** - يعني أمة الإجابة - **أَقْوَامٌ، يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ، وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ**»، وهذا الاستحلال قال العلماء: هذا الاستحلال على جهتين؛ إما أن يكون اعتقادًا بأنها حلال، فيكونون قد خرجوا من الأمة أصلًا، وصاروا كفارًا، وإما أن يكون استحلالًا بالفعل، يعني: أنهم لما فعلوه كانوا قد استحلوا فعله، ولم يستحلوا حكمه، فصار إذًا هنا عندنا في لفظ الاستحلال، عند بعض أهل العلم على هذا الحديث: أن الاستحلال منه ما يرجع إلى استحلال الفعل، ومنه ما يرجع إلى استحلال الحكم، فإذا كان الاستحلال للحكم، يعني: استحلال للمحرم بأن يعتقد أن هذا المحرم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٩٠).

حلال، صار كفرًا؛ وأما إذا كان الاستحلال للفعل، يعني: جعل فعله حلالًا له ليس من جهة أنه ليس حرامًا عليه، لكن من جهة إقدامه عليه وفعله له استحله من جهة الفعل، لا من جهة الحكم، قالوا: هذا هو حال أولئك، وهذا الذي يناسب الوعيد؛ لأن الوعيد الذي جاء في آخره يناسب العصاة لا الكفار، فمن هنا يظهر لنا أن لفظ الاستحلال خاض فيه أقوام كثيرون في هذا الزمن، ومنهم من تكلم في الاستحلال الظاهر، وأن المعاصي الظاهرة قد تكون استحلالًا، يعني: يستدل بظهور الذنوب والكبائر على أن الحال استحلال لها بقيوده عنده، واستدلوا عليه بأشياء، وهذا عند أهل العلم غير مسلم؛ لأن هناك ألفاظًا تتصل بهذا البحث، ومن أهمها لفظا الالتزام والامتناع؛ لأن الالتزام والامتناع معناه: رد الحكم، وليس الامتناع راجع إلى الاعتقاد، الالتزام معناه: قبول الحكم، والامتناع راجع إلى الاعتقاد، الالتزام معناه: قبول الحكم، والامتناع معناه: رد الحكم، وليس الامتناع هنا الطائفة الممتنعة، امتنع من أداء كذا، بمعنى منع، فالامتناع يقابل في نصوص أهل العلم بالالتزام، والالتزام معناه: القبول، وهو غير الجحد، يعني: القبول هو أن يكون ملتزمًا بهذا، يعني: أن يكون مخاطبًا به، فمثلًا نقول: فلان من الناس ملتزم بأحكام الشريعة، فلان من الناس ملتزم بتحريم الزنا، لكن يزني، ما الفرق بينهما؟ الفرق بينهما أنه إذا التزم حرمة الزنا فمعناه يقول: نعم، أنا مخاطب بأن الزنا محرم، وأنا داخل في هذا الخطاب صحيح، لكن فعله يكون له حكم أهل الكبائر؛ وأما إذا قال: أنا غير مخاطب أصلًا كحال الذي نكح أمه، نكح امرأة أبيه في زمن النبي ﷺ حديث البراء بن عازب رضي الله عنه المعروف، فالنبي ﷺ أرسل إليه رجلًا؛ ليضرب عنقه، ويخمس

ماله[١]، لـمَ؟ هل لأنه استحل بالفعل؟ لا، قال العلماء: لأنه لم يلتزم بالحكم، وكان ذلك في الجاهلية، فلما نزل قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]، وخوطب بذلك، لم يلتزم، وسار على ما كان عليه في الجاهلية، فدل فعله على أنه لم يلتزم، ولا يقال: دل فعله على استباحته، دل الفعل على عدم التزامه بحكم الشريعة الجديد الذي يلغي حكم الجاهلية؛ ولهذا يتكلم العلماء عن الطائفة الممتنعة، ويقابلون بين الامتناع، وعدم الالتزام، وهذه مسألة مهمة كثير ممن كتب في نواقض الإيمان، أو كتب في التكفير لم يرعَ لهذه المسألة فهم كلام العلماء فيها، فدخل في مسألة الاستحلال، ومعنى الامتناع بفهم الامتناع على غير مراد الفقهاء، وهذا الذي جعلني أقول لكم في البداية مع غيره: أن الاهتمام بلغة العلم ضروري في فهم كلام أهل العلم، فمعنى الامتناع والالتزام، هل هو معناه الجحد؟ هل هو معنى الالتزام والامتناع معناه الجحد؟ لا؛ لهذا شيخ الإسلام في موضع مَثَّل في الفرق بين الجحد وعدم الالتزام، قال: مثل من لك عليه دين، فأتيت تطلبه دينك، لك على واحد ألف ريال، قلت: يا فلان، عندك لي ألف، فهنا إذا قال: ما عندي لك أصلًا ألف فهذا يسمى جاحدًا - هذا المثال أورده شيخ الإسلام في الفتاوى - إذا قال: نعم، عندي لك ألف، لكن أنا ملتزم بالألف، لكن لم أعطك إياها حياتي كلها. هذا ماذا يسمى؟ ملتزم بها رافض لأدائها، فإذا قال: أصلًا أنا ما عندي لك هذا المبلغ، فهذا يكون جاحدًا. إذا قال: أصلًا هذه الصلاة غير واجبة. فهذا يكون جاحدًا، إذا قال الصلاة واجبة، لكن على غيري، أما

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٥٦)، وأحمد (٣٠/ ٥٧١).

أنا فغير ملتزم بها، هي واجبة وأنا مقتنع بأن الله فرض الصلاة ولا شك والنصوص فيها كذا، لكن على غيري. مثل ما يقوله غلاة الصوفية يقولون: سقطت عنا التكاليف. هنا يكون كفرهم هل هو بالجحد؟ هم يجحدون حكم الصلاة، يجحدون أن الصلاة واجبة، ويجحدون أن الزنا محرم، لا، يقولون: نعم هذا الزنا محرم، ونقربه، لكن لا يلتزم بذلك، يعني: لا يقول: إنه داخل في الخطاب. وهذا معنى عدم الالتزام، يمتنع من الامتثال بمعنى: لا يجعل نفسه داخلًا في الخطاب، فيقول: أنا ممتنع من قبول دخولي في الخطاب أصلًا. مثل ما يكون من غلاة الصوفية، الذي يقول: سقطت عنا التكاليف. فكفرهم جاء ليس من جهة أنهم جحدوا وجوب الصلاة، يقول: لا، الصلاة واجبة ولازم تصلون، ويأمرون الناس بالصلاة، ولكن من جهة أنهم لم يدخلوا أنفسهم في الحكم.

فإذًا: صار هنا من المباحث المهمة في النواقض الاعتقادية مسألة الاستحلال، وعلاقة الظاهر، والباطن، وأن الاستحلال إنما يكون باعتقاد حله بالقلب، كما نص عليه شيخ الإسلام، والانتباه للفظ الالتزام، والامتناع، وتقابل ذلك مع لفظ القبول، والجحد، وأن هذه الألفاظ الأربعة ليس معناها واحدًا، القبول له معنى، والجحد يقابله، والالتزام له معنى، والامتناع يقابله، فإذا سمعت في كلام العلماء: تقاتل الطائفة الممتنعة. لا تفهم معناها الجاحدة، أو الممتنعة يعني المانعة، لا، الممتنعة ليس معناها المانعة، الممتنعة يعني التي تقول: أنا غير داخلة في هذا الخطاب. مثل حال مانع الزكاة، مانعو الزكاة في عهد الصديق قالوا: نعم الناس يؤدون لكم نعم، لكن نحن لا نؤدي. ليس من جهة إنكار الحكم، أو جحد الحكم،

لكن من جهة عدم الالتزام به، فيقولون: الناس عليهم أن يؤدوا، لكن نحن لا يلزمنا ذلك؛ ولهذا يعبر العلماء بقولهم: تقاتل الطائفة الممتنعة غير الملتزمة. فيأتون بلفظي الامتناع، والالتزام، وهذا تفصيل لكن مهم؛ لأن كثيرين يحصل عندهم غلط في ذلك.

أسأل الله ﷻ أن يجزيكم خيرًا على هذا الحضور، وأن ينفعني وإياكم بالعلم، وأن يجعلنا ممن يقول الحق، ويدعو إليه لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن ييسر لنا فعل الخيرات، وأن يبارك في ما نعمل، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، اللهم نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى أن تجعلنا من عبادك المتقين، وأن تسلك بنا طريق أهل السنة والجماعة، وأن توفقنا للعلم النافع، وللعمل الصالح، وأعوذ بك اللهم من فتنة القول، كما أعوذ بك من فتنة العمل، اللهم أسألك أن تميتنا وأنت راض عنا، نعوذ بك من الخزي في الدنيا ومن العذاب في الآخرة. ثم أوصيكم - في الختام - الحرص على التؤدة في الأمور، والرفق، خاصة في مسائل نواقض الإيمان، والتكفير، لا يتأثر المرء بمن حوله، أو بما ينشر، فيكون عندنا ردود أفعال، أو اقتناعات هذه المسائل مرجعها أهل العلم، ليس مرجعها الصحف، وليس مرجعها المجلات، وليس مرجعها محاضرات، أو كلمات في صفوف الجامعة من غير متخصص مأمون على هذه العلوم؛ إنما مرجعها أهل العلم، فمن أراد سلامته، فلا يخض بنيات الطريق في هذه المسألة العظيمة، فلها ضوابطها ولها قواعدها، وكلما أخذتها ممن سلف من العلماء السالفين كنت آمِنًا، وأضبط لك من علماء أهل السنة والجماعة؛ أما البحوث المعاصرة في هذا، فمنها ما هو صواب، ومنها ما عليه ملاحظات.

وأسال الله ﷻ أن يعفو عني وعنكم، وأن يجزي كل من بذل خيرًا للإسلام بالدعوة إليه بقوله أو بعمله أن يجزيه خيرًا، وأن يخفف عنا الحساب، وصلى الله، وسلم، وبارك على نبينا محمد.

فهرس الموضوعات